

تاريخ المصريين ٤٥

الحروب الصليبية

تأليف

وليم الصوري

ترجمة

د. حسن حبشي

الجزء الأول





رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:
عبد العظيم الشبلي

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

الحروب الصليبية

(١٠٩٤ - ١١٨٤ م)

الجزء الأول

تأليف

وليم الصوري

ترجمة وتقديم

د. حسن حبشي



١٩٩١

هذه ترجمة لكتاب :

A
*HISTORY OF DEEDS DONE
BEYOND THE SEA*

BY
WILLIAM OF TYRE
TRANSLATED BY
EMILY ATWATER BABCOCK
&
A C. KREY

Columbia University Press

1943

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ هذا العمل العلمي العظيم ، مؤلف عظيم ، ومترجم عظيم . أما العمل فهو تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ، الذي يعرفه طلاب الدراسات التاريخية كأحد أعظم المصادر في تاريخ هذه الحروب الخالدة ، وكأقدمها أيضا ، فقد رأى النور في صورته الأصلية في القرن السادس عشر الميلادي . وهو يعالج الفترة التي امتدت من عام ١٠٩٤ الى عام ١١٨٤ ، أي على مدى تسعين عاما من عمر مصر والشام ، فضلا عن بعض أقاليم أعالي العراق وآسيا الصغرى . وهذه العنرة والتي نلها على مدى قرن ونصف آخر من الزمان ، هي التي أخذت سدق فيها من عرب أوروبا تلك الهجرات الشعبية المسلحة المتسربة بمسوح الدين والمتمسحة بالصلب وهي التي عرفت باسم الحملات الصليبية .

أما مؤلف الكتاب فهو ولیم الصوري ، الذي ولد في ١١٣٠ م ، والذي بعده بعض المؤرخين الأوروبيين واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى قاطبة . وقد توفرت له من أدوات الكتابة التاريخية ما لم يتوفر لغره ، فإلى جانب إتقانه للغة اللاتينية والفرنسية واليونانية ، والمأه بالعبرية ، فقد كان تحت يده من الوثائق ما يجعله مبرزاً في الكتابة التاريخية وحجة في عصره . وقد شغل من المناصب ما جعله جزءاً من الأحداث التي يؤرخ لها ، فقد كان مشرفاً على ديوان الإرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس ،

وسميراً للملك عمورى فى بلاط امايوبل امبراطور بيزنطة ، الى جانب شغله لمراكز دينية تدرج فيها حتى بلغ الذروه فى سلك الكهنوت ، وصار رئيس أساقفة صور . ومعنى ذلك أنه وصل الى أسمى المناصب غير الحربية فى الدولة بعد الملك .

أما المرحم وهو الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى ، الذى حصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن . واخيراً للتدريس فى كلية « ساوث ايلنج » بلندن ، وندرج فى سلك المدرس الجامعى فى جامعة عين شمس ، مدرسا فأسنادا مساعدا ، فأسنادا لكرسى التاريخ بكلية الآداب ، والمعروفه باللعه اللاتينية والفرسيه العديده ، فقد ترجم العديد من الكتب الى اللغه العربيه ، فترجم عن اللاتينية أول وثيقة عن الحروب الصليبيه ، التى سماها بالعربيه « تاريخ الفرنجة وحجاج بيت المقدس » ، ثم أتبعها بترجمة حياه الملك لويس التاسع وحملاته على مصر والشام للمؤرخ الفرنسى جوفانيل ، كما ترجم عن الفرنسة القديمة كتاب « فتح القسطنطينية » على يد الصليبيين لروبرت كلارى . كما نشر مخطوطه « مضمار الحقائق وسر الخلائق » لنقى الدين الحموى ، ابن أحي صلاح الدين الأيوبى ، وفيه جزء يتعلق بمعركته فى سبيل اسرداد بيت المقدس . ثم ترجم مذكرات « حودفرى فلهاردوان » الفرنسى عن الحملة الصليبيه الرابعة

ونعد ترجمة الأستاذ الدكتور حسن حبشى لكتاب « الحروب الصليبيه » لوليم الصورى ، التى سوف نصدرها فى أربعة مجلدات ، من أهم الأعمال العلميه التى ينبت بها الأستاذ الدكتور حسن حبشى مكانته العلميه الرفيعة فى بلدنا وفى العالم العربى ، وهى دليل على عظمة هذا الأستاذ الكبير الذى كرس حياته لخدمة علم التاريخ ، وتفرد الى حد كبير بقدر عظيم من الدقة العلميه التى

ترسم للجيل الجديد من مؤرخينا الشبان الطريق السليم والوحيد
للاصول الى الأستاذية بمعناها الصحيح .

لذلك لا يسعى الا أن أعرب عن شرف هذه السلسلة من
« تاريخ المصريين » بشرف هذا العمل العلمي العظيم ، الذي يهم
المتقف والعالم المخصص ويضعه في أكرم مكان من المكتبة العربية .

والله الموفق ،

رئيس التحرير

١٩٥٠ . عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

يتعلق هذا الكتاب الذى بين يدي القارىء بحفبه من الزمن امتدت من ١٠٩٤ حتى ١١٨٤ أى على طول نسعين عاما من عمر مركزى التفل فى الشرق الاسلامى وهما مصر والشام ، وينسحب ذلك - الى حد ما - على بعض أقاليم أعالي العراق وآسيا الصغرى ، وقد شهدت هذه الفترة والتى نليها - لمدة قرن آخر ونصف قرن من الزمان - جموعا كثيفة وجيوشا حارة هى فى الواقع هجرات شعوبية أخذت تتدفق - على وجه الخصوص - من غرب أوروبا ، متسرلة بمسوح الدين ، ومتخذة لها شعارا زائفا هو « انقاذ بيت المقدس من أبدي المارقين » ، ولو صدقت لقاتل امتلاكه لنفسها واحتلالها منطقة الشرق الأدنى ناكملها بعد نربعها من أصحابها الحققة من أبا كان دينهم ومذهبهم .

والواقع أنه كانت هناك دوافع أعمق من هذه السعارات الخادعة ، ذات الرنين الدينى المحرك للسعور الغربى لا سبعا بين العامة ، وكانت هذه الدوافع بكن وراء الزخوف النى عرفت بالحملات الصليبية .

أما مؤلف هذا الكتاب فيعرفه المؤرخون منذ عصره حتى اليوم باسم « وليم » ، فان رادوا في التعريف به قالوا « الصوري » ، وإذا رحنا سألناه من يكون أبوه فلا نحظى منه ولا ممن ترجموا له وكتبوا عنه - وهم كثيرون - بإجابة ما ، اذ يمسكون عن الرد ولو بسىء يكون مثار حوار وجدل ، وما نعه بالصوري الا نسبه الى المدينة المعروفة باسم صور بالساحل الشامى والتي لها تاريخ - وأى تاريخ - فى العصور المحلفة قدمها وحديثها ، فقد صار مؤرخنا « وليم » رئيس أساقفتها سنة ١١٧٥ أى بعد دخول الصليبيين بلاد الشام بأكثر من ثلاثة أرباع القرن وبعد بضع سنوات فلائل من فتح الصليبين للمدينة .



أصله ونسأته :

إذا كان الناس لم يعرفوا سلسلة نسب « وليم » فابهم لم يعرفوا أيضا سنة مولده بل اختلفوا فيها اخلافا بسا ، فمنهم من عدوها سنة ١١٢٧ وعلى رأس هؤلاء المؤرخ الانجليزى « بيورى » وذلك حين قام بسر كتاب « ادوارد جيبون » عن « تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية » ، وهو الكتاب العظيم المعداد من عمون التراث الكلاسيكى فى الأدب والتاريخ على السواء .

وأخر غيرهم سنة مولده فجعلوها سنة ١١٣٠ دون أن يعجزوا جزما باتا بتلك السنة ، وذلك أنهم حين يشيرون اليها يرددون فى كلامهم عنها ويسبقونها بقولهم « حوالى سنة ١١٣٠ » ، وأيا كان عام مولده فالمتتبع لأحداث عمره التى نعرف جزءا كبيرا منها لا سسما منذ أن قارب سن التسباب يرى أنه عاش فى هذه الدنيا أكثر من نصف قرن من الزمان صرف الشطر الأخير منه طالبا للعلم سواء فى

مملكة بيت المقدس اللاتينية أو في فرنسا وإيطاليا . ومكبا على الدراسات الدينية ومسرفا على ديوان الرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس اللاتينية وسفيرا للملك عموري الى بلاط « اماويل » امبراطور بزنطة ، الى جانب شغله لمراكز دينية ندرج فيها حتى بلغ الذروه في سلك الكهنوت المسيحي اذ صار رئيس أساقفة صور ومات وهو يطلع في حصره لأن يكون بطرك بيت المقدس . ولكن ما كل ما يتمى المرء يدركه . فاذا عرفنا ذلك كله عنه نملكن العجب من جهل التاريخ لأسره جهلا حمل بعض المؤرخين المحدثين على القول بأنه كان من أسرة من عامة الناس في القدس ، ويريد هذا العريق أن يقول أنها لبسب من الفرسان ولا النبلاء ولا الأشراف ، بيد أن ذلك كله لم يمنع أن يكون في القمة من المؤرخين اد كسب ما كسب ، وأن يشغل أسمى المناصب غير الحربية في الدولة اللاتينية بعد الملك . وأن يسبق أقرانه في العلم والذكاء والمعرفة وسعه الاطلاع ودراسة أعماق النفس الانسانية سيفا لم يجاره فيه أحد من أئداده ومعاصريه .

على أية حال فقد أدى جهل المؤرخين بأسره الى التضارب البين في أين كان مسؤه والاختلاف الكبير فيه فقال بعضهم أنه ولد بالقدس بعد أن صارت مملكة صليبية ، ودرج على ثراها فأحبها حبا تمثل في أن جعلها مركز كتاباته التاريخية التي اتسعت مساحتها القلمية ولكنها كانت تصدر عن تلك المدينة المجلدة في التاريخ والموقرة عند جميع الأديان السماوية ، والتي هي عنده واسطة العقد ، لذلك نراه يطيل في دراستها ويجعلها مسنهل كتابته التاريخية منذ أن فنحها المسلمون زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وان كان قد أوحز ايجازا شديدا في عرضه للفترة الممتدة منذ الفتح العربي لها عام ٦١٤ م حتى اغتصبها الصليبيون سنة ١٠٩٩ م .

فإذا أخذنا بالرأى الفائل بمولده في المملكة جاز لنا أن نقول أنه كان من أبناء فلسطين بعد الغزو الصليبي ، وهو فول غير بعيد عن الصخرة ، لكن هذا يدفعنا للسؤال : أكان أبوه هو أيضا من أهلها ؟ ، أم أنه كان وافدا عليها ؟ ٠٠ فان كان وافدا فمتى كان ذلك ؟ وكيف كانت هيئة حضوره ؟ وهل كان مجيؤه اليها صحبة الجماعات الطارئة عليها من بلاد العرب الأوربي ؟ ٠

وفد ثارت هذه السؤالات في أذهان كثيرين ممن برجموا له وذهبوا في ذلك الموضوع مذاهب شتى ، فمنهم من رد أباه الى أصل فرسي ، ومنهم من قال انه ايطالي ، وزعم آخرون أنه انجليزى ، وقال غير هؤلاء وهؤلاء أنه ألماني ، دون أن يبين أى واحد من هؤلاء علام كان اعتماده في تقرير نسبه الى هذا القطر أو ذاك ٠

هذا النصارب الكبير في تحديد مسقط رأس الأب يرجع الى سكوت الابن « وليم » عن هذا الجانب سكوتا مطلقا ، مما حمل مؤرخيه على أن يخلفوا في أصله حيث لم يشر هو اليه من قريب أو بعيد ، هذا على الرغم من أنه هو نفسه كان شديد الحرص على أن يورد أكثر القادة والزعماء ورجال الدين وأصحاب الأمر الذين وردت الإشارة اليهم في كتابه الى مواطنهم الأولى حتى ولو كانوا شرقيين ، مع ذكر أنسابهم في معظم الأحوال ، لكنه لم يفعل ذلك بأصله هو دانه ، مما فتح باب الاجتهاد والكهس واسعا أمام من لبوا عنه فكان اجتهدهم أقرب الى الخدس والتخمين منه لأن يصل الى أمر مقرر ، وصار هؤلاء المجهدون شيعا وإحزابا يذهب كل منها في هذا الموضوع مذهبا يخالف ما يذهب اليه الآخرون ، وردته كل طائفة الى بلد أوربي غير البلد الذى رده اليه الأخرى ، هذا الى جانب من جعلوا القدس مهبط رأسه ٠

فإذا استعرضنا آراء هؤلاء الذين يردونه الى اصل أوربي عجبنا معهم عن تحديد ذلك الأصل تماما ، وأول من نطالعهم هم من قالوا أنه الماني الأصل ، غير أن المطالعة الدفيعه لكاتب « وليم » الباريحي هذا تحملنا على استبعاد هذا الرأي ، لأنه حين يعرض لبعض من اشركوا في التجريدات الصليبية من السونون « الألمان » نراه يندد بهم سديدا بالعا بسبب سوء مسلكهم وهمجبتهم الى يميظ عنها اللثام دون تحرج من جانبه أو رعايه لهم وهم على دينه ومذهبه ، كما أنه يشير الى أن بعضهم كانوا لا يورعون عن الافساد في بلاد « احوانهم » المسيحيين الأوربيين ، مدمرين للأرص وهاتكين للعرص وهم في طريقهم لانقاذ احوانهم « المسيحيين الشرقيين » ٠٠٠ فلو كان وليم جرمانى السبعة لما ساولهم هذا المناول المر ولأعصى عن بعض مخازيهم أو قل من حدته عليهم .

ومما يؤكد عدم سريان الدم الألماني في عروقه أنه حين بعرض لمن ساهموا من الألمان في الحملة البانيه فانه يقدم الدبل - عن عبر قصد - على جهله بأكبر المقدمين من وجوههم .



اذا كما قد استبعدنا أن يكون المأبأ فهل يمكن أن يكون انجليزيا ؟

هناك لفيف من الناس يعتقدون أنه من هذه الجريره ، وهم معذورون في اعتقادهم هذا اذ خلطوا بينه وبين شخص آخر انجليزى كان يحمل نفس الاسم ، كما أنه صار رئيس أساقفه صور ويعب أيضا لذلك « بوليم » الصورى ، ولكنه كان غير صاحب مؤلف هذا الكتاب ، ويحق لنا - بناء على ما سنقدمه حالا- أن نسميه « بوليم » الصورى « الأول » على حين نسمى مؤلف كتابنا هذا بوليم الصورى

« الباني » ، ولقد كان هذا الوليم الصوري الأول انجليزيا فجا وكان يسغل وظيفه حارس القبر المقدس في بيت المقدس والقيم عليه ، وكان مؤلفنا يعرفه ويكتب عنه في تاريخه (١) ويسى على أخلاقه ومهجه في الحياه ثناء عاطرا ، ويقول عنه بصريح العبارة أنه « انجليزى المولد » ، ثم يابح بعد قليل كلامه عنه فيعبه « بسلفنا وسلف جميعا نحن الدين جئنا من بعده » ، أى في رياسة أسقفيه صور السى كان وليم الأول رئيس أساقفها سنه ١١٧٠ ، لذلك يؤرخ له مؤرخا ويعتبه « بسلفنا العظيم صاحب الذكر المجند » ، ثم يشير الى ذهابه الى روما لبسليم عصا الرعويه من البابا بعد أن مسح بطرك القدس بالزيت .

هذا هو بعض الجبر عن وليم الأول الصورى .

ثم ان مؤلفنا وليم الصورى الباني (صاحب الكتاب الذى بين يدى القارئ ترجمته العربية الآن) يتابع كلامه عنه مع ايراده لكامل الوثيقة السى كتبها أدريان بابا روما حينذاك لتأييد وليم الصورى الأول والتي يقول فيها الجالس على كرسى بطرس برومة موجهها الخطاب الى بطاركة المشرق وأساقفنه ومطارسه : « ٠٠٠ ابا نؤمن ايماننا جازما بأن كنيستكم الأم فى صور ستجنى منه (أى من وليم الانجليزى) أحسن الثمار ٠٠٠٠ » .

ويكتب نفس البابا خطابا الى « جورموند » بطرك القدس يقول له فيه شأن هذا الأسقف « ٠٠٠ ايماء الى خطاب محبتكم الأخوية فقد رجبا بأحيا وليم (الأول) الذى اخترتموه رئيسا لأساقفة الكنيسة فى صور » (٢) .

(١) الكتاب ١٣ ، الفصل ٢٣ .

(٢) نفس الكتاب والفصل .

لقد كان هذا الاسم « وليم » ، ونعته « برئيس أساقفة صور »
ثم تاريخ هذا الحدث ووقوعه في السبعينات من القرن الثاني عشر
دافعا الكثيرين على أن يرلوا زلة تاريخية كبرى ، ادخلوا بين الاسين
حلقا يدحضه المنتبج لتاريخ كل منهما ، ولقد رعموا ان وليم الأول
(الانجلبرى) هو نفسه وليم مؤلف تاريخنا هذا ، فقالوا أن الباني
« انجلبرى » الأصل وما هو بانجلبرى .

وبناء على هذا التصحيح الذى سقناه فان هذه النسبة سقطت
عن صاحبنا وليم ، كما أن هذا النصحيح يحملنا على أن نقول مع
القائلين بنفى هذا الأصل الانجلبرى ، كما أنه يؤيدا فى هذا النفى
ما نراه فى كتابه هذا الذى بين يدي القارئ الآن من سديده بالانجلبر
ممثلين فى شخص البابا أدريان الرابع - وهو انجلبرى - حيث
يصفه وليم بالمرشئ ويتهمه بالمحاباة فى الانتخابات الكنسية
مما يلزم كرامنه كرجل دين يفترض فيه أن يكون الحق منهجه (٣)،
وكان هذا الهجوم العنيف من صاحبنا وليم حين أتر هذا البابا
« الانجلبرى » الأصل أحد مواطنيه وهو الكاهن « رالف » بمصوب
ليس من حقه فيقره سنة ١١٥٦ أسقف لببت لحم ، ويرى وليم أن
بجاح رالف هذا فى « تولى شئون هذه الكنيسة العظيمة راجع الى
عطف مواطنه البابا أدريان الرابع (الانجلبرى) » (٤) .

ولا بعسا هنا قول وليم فى رالف « الأسقف » ولكن يهنا
بهجمه على رالف « الانجلبرى » ، وهذا ما نسبته أيضا من ثسايا
كلامه عن هنرى الأول ملك انجلبرا ، ووصفه اياه « بمغصب العرش
المستحوذ عليه بالخديعة » ويشير الى أنه فى سبيل الاحتياط بهذا

(٣) ك ١٨ ، ف ٨ .

(٤) ك ، ف ١٧ .

العرس حسن كل قوى المملكة لدفع أخيه صاحب الحق اسرعى (٥)

بحلص من هذا ومن كثير غيره مما ورد في الكتاب الذي بس
أيدينا الى بهجم مؤلعه على الانجلز أو على الاقل بقده اللاذع لهم
مما يباعد بينه وبين أن يكون له عرق فيهم ، والا كان أخف نقدا
في محومه عليهم .

★★★

ودهب آخرون للقول بأنه « فرسى » الأصل ، معمدين في
ذلك على أنه فلما يرد ذكر فرسا الا ويكون لسان ثناء عليها ومحمد
لها (٦) ، وسرى المطالع لهذه الترجمة العربية ذلك المديح في مواضع
متعددة منها . وفي رأينا أن هذا المديح هو الذي حمل دائره المعارف
الأمريكية (٧) لأن نذكر في نبذة قصيرة أنه من أبوين فرنسيين ،
على أنه يبدو أن هذا الأصل الفرنسي لم يجد استجابة من دائره
المعارف البريطانية (٨) فلم نقل به وآثرت السكوت عنه تماما ،
ولعلنا خافت ان سزلى في هوة لبس لها فرار ، ان هي ذكرت
بالنحديك ما يمكن أن يكون موطنه الأصلي ، ومن قال لا أدرى فقد
أفتى ، كما أن الدائرة لم تعتبر فرنسا الا موطن ثقافته له ، وهو
قول حق .

★★★

(٥) ك ، ٥ ، ف ١٣ ، واطر .

Private Orton - *The Shorter Cambridge Medieval History* vol 1,
pp 591 et Seq.

(٦) وسرى في مقدمات هذه أن هذا كان موقعه أيضا اراء اطالبا .

American *Ency Art* William of Tyre (٧)

Ency Brit. Art William of Tyre (٨)

على أن ذهابه الى فرنسا كان - كما نعرف - لمنابعه دراسه للعابون ، غير أن هذا لا يهص دليلا على أنه ذو عرق فرسي والا صح أن نقول أنه ايطالى ، اذ المعروف أنه ذهب الى ايطاليا هى الأخرى أكثر من مرة ، ولكن كان ذهابه إليها هى الأخرى من أجل دراسه القابون أيضا ، كذلك ذهب الى رومة لحضور مجمع كان منعقدا بها فى أكتوبر ١١٧٨ على رأس وفد كهنوتى يضم طائفة من كبار رجال الدين منهم هرقل رئيس أساقفة قيصرية ، الى جانب أساقفة بيت لحم وسميساط وعكا وطرابلس وغيرهم (٩) .

حقيقة أن مطالعة ما كتبه وليم عن إيطاليا يبين معرفه العميقه بها ويرسم لها صورة طيبة فى ذهن القارئ ، ثم أنه كان لا يدع فرصة تمر الا وينسب إليها حتى لو لم يكن الموضع موضع حديث مباشر عنها ، وتستدل على ذلك مما قاله حين عرض لهجوم المسلمين على أحد موانئ صقلية ، اذ وجد الفرصة مناسبة للإشارة الى ايطاليا وذكر أنها ملجأ الأمان (١٠) لقوات روجر كونت صقلية ، كما أنه كان كثير النساء على الجالبات الايطالية ومساعى المدن التجارية الايطالية الحمدة فى خدمة الصالح المسحى ، فيذكر أن طائفة منهم وهم الأمالغون كانوا قد قدموا النماسا للخليفة العاطمى بسألونه السماح لهم بقطعة من الأرض فى القدس - وقت أن كانت القدس تابعة لمصر - ليعموا لهم كنيسة فيها ، ولما كان هؤلاء الأمالغيون « أصدقاء لمصر ويحملون إليها المواد المفيدة » فقد أجابهم الخليفة لما سألوه وكان عطفه عليهم جملا تمثل فى ضخامة ما منحهم إياه ، فشبهوا ديرا عرف بدير مريم المجدلية مما جعل مؤرخنا وليم بشنى

(٩) ك ٢١ ، ف ٢٦ .

(١٠) ك ١٣ ، ف ٢٢ .

على الأماثلين ثناء مستطابا ، وانسحب هذا البناء بالنالى عنده على
إيطاليا (١١) .

لكن هذا كله لا يمكن أن يحملنا على نسبه عائله الى إيطاليا -

★★★

إذا كنا قد رفضنا أن يكون فرنسيا ، ونعينا عنه أن يكون
ألمانيا ، وانكرنا عليه أصلا انجليزيا ودحضنا الراى القائل بأنه كان
إيطاليا ، فلا يسعنا الا أن نقول - على الترجيح - أنه كان من مواطنى
مملكة بيت المقدس بل ومن مواليد القدس ، بل ونضيف الى ذلك
أن أباه كان واحدا من اثنين اما أنه ولد هو الآخر بفلسطين ونسأ
بها فكانت القدس وطننا له ولولده ولیم ، واما أنه كان من آلاف
الناس من طبقة العامة الذين وفدوا مع الجيوش الصليبية وسباهم
فى حروب الفرنج ثم شاء القدر أن يتخطاه القتل فيمن قتلوا فى
معاركها فصار مواطننا عاديا ثم تزوج فأنجب - فيمن أنجب - مؤرخنا
ولیم فى سنة ١١٣٠ ، وان قال البعض أنه ولد سنة ١١٢٧ .

وسواء أكان مولد ولیم الصورى فى هذه السنة أو تلك - وان
كما نرجح سنة ١١٣٠ - فقد تفتحت عيناه على القدس التى كانت
أول أرض مس حمله ترابها ، حتى انه لينعنها فى كثير من المواضع
« بوطنى » وقل أن يسير إليها الا فى اجلال وحب .

وحبب أوطان الرجال اليهمو مآرب قضائها الشباب هنالكا

وحسبنا أن نقرأ فى تمهيدته لتاريخه فى هذا الجزء الأول لنرى
كيف سيطر عليه حب القدس ، كما يعزو تأليفه كتابه هذا الى ذلك

الحب » وأنه استجابة لارادة هذا الوطن ونداءه شرع فى مهمة يأتى الشرف التنحى عنها « (١٢) ويقصد بها وضع تاريخه .

اذا لم تكن قد وصلنا الى رأى فاطح فى أبيه : هل كان وافدا على القدس أم انه من أهلها فان رأينا حىال الابن أنه كان من مواليد القدس ، لان سنة ١١٣٠ (وحتى ١١٢٧) متأخرة نسبيا فى تاريخ الجريديات الصليبية ، اد كان قد انسلخ من عمر الزمان منذ مقدم أولاهها ثلث قرن ، تضاءلت فيه أعداد الجماعات الأوربية الوافده ، كما أن المسيحى الأوربى الذى عاش فى فلسطين منذ أول الحملات الصليبية عد نفسه فلسطينيا ، وكان يرفض فى سريرته فى بادئ الأمر بقاء الوافدين الأوربيين ولا يعتبرهم الا حجاجا ، فأما من أقاموا واحدوها سكنا لهم بدلا من ديارهم فى أوربا فقد عددهم دخلاء مطلقين ، لسس لهم حق فى الافامه الدائمة بها ، وأن واجبهم — اذا فرعوا من حجهم — العوده من حيب حاءوا ، لأنهم لم يجيئوا الا حجاجا وزوارا ، فاذا انتهوا من أداء سعائرهم ومناسكهم وحب عليهم العوده الى ديارهم .

ان ذلك الحب الذى فى نفس مؤرخنا ولهم لهذا البلد يجعلنا نرحح أن القدس كانت مهبط رأسه فى أحد عامى ١١٢٧ أو ١١٣٠ ، أو فيما بينهما وان نشأته بالقدس جعلته يعرف كل نواحيها الطبوغرافية والتاريخية ، فهو يذكر وقوعها فى منطقة جذباء شحبة بالماء (١٣) كما يعرف أماكنها الأثرية وما ننضح به من

(١٢) نظر التمهيد الذى قدمه وليم بين يدى كتابه هذا .

(١٣) ك ٨ ، ف ١ ، ٤ ، ٧ .

ذكر يات قديمه قد يرجع الى زمن السبي يوح (١٤) ، كما أنه قل ان يسير الى القدس - كما قلنا - الا بكلمة « وطني » ، ثم انه يحصى مواضع كثيره من صفحات كتابه هذا لذكر بطاركنها وما أحاط بكل واحد منهم من ظروف كانت تؤيده أو يعارضه (١٥) .

هذا هو مجمل القول في وليم من حيث نسبه الى القدس .

★ ★ ★

أظهر وليم مد نعوته أظفاره ميلا كبيرا للدرس والحصل ، ولابد أنه الحق ببعض مدارس عصره التي كانت ملحفة بالأديرة والكنايس ، وبعضها بقصر الملك ، وكان تلاميذها بطبيعته الحال وفي الغالب من أبناء الطبقة العليا في المجتمع اللاتيني الغربي في المشرق ، ثم سنى له أن يتم تعليمه في فرنسا .

ويبدو أنه أظهر ولعا متزايدا بدراسة الفقه المسيحي مما جذب اليه أنظار الكيريين من رجال الكنيسة ورجال الدين ، الذين كان أكثرهم اهتماما به بطرس من أهل برشلونة بإسبانيا وسنسمبه ها بطرس الاسباني أو البرسلوني وكان فيما على الآثار المسيحية والعمر كنيسة السامه ، ثم انتهى المطاف أخرا به ليكون رئيس أساقفه صور (١٦) وكان بطرس هذا حفا بوليم راعما له ، محيطا اناه مند وقت مبكر برعايته ، مسبغا عليه عطفه ، كما أنه فربه اليه ادراكا منه يمكن أن يكون لهذا الساب من عد مرموق ان وجد من

(١٤) ك ٨ ، ف ١ .

(١٥) ك ٩ ، ف ، ١٥ ، ك ١١ ، ف ٤ ، ١٥ ، ك ١٢ ، ف ٦ ، ك ١٣ ،

ف ٢٦ ، ك ١٦ ، ف ١٧ .

(١٦) الكتاب ١٦ ، ف ١٧ .

بأخذ بنده . وبدلنا هذه العبارة من جانب بطرس الاسبانى على أنه رأى فيه نوعا - فى جعل الدراسات الدنسه - لم يلحظه بمثل هذه الصور عند عبه ، لذلك اعزم أن يكون هو راعبه والآخذ سده فى طريق الاعداء ، فكان له ما اعزم ، وحفظ ولهم له هذه الد النصاء علله وأشاد بلك المكرمة التى اخضه بها ، ومن هما تعددت اشاراته اله بالاجلال فى صفحات عدله من تاريخه ، ثم ان ولم كان يرى نفسه اله فى ميدان العمل الكنسى شرفا كسرا له ، ورادى قدره - بعد حبى - أنه كان أحد من بولوا قبله أسقفية صور ولذلك كان كسرا ما يسر اله بقوله « سلهنا » ويرى فى ذلك معخرة له .

وهكذا وجد ولیم فى بطرس الرجل العالم الذى يساعده على زيادة حظه من العلم والبروز فى مجال اللاهوت ، هذا الى جانب أنه كان عوناً له فى الاطلاع على أمور كانت من خبايا الساسة فى المملكة .

★★★

كذلك وجد ولیم - منذ فجر شبابه - حدياً من رجل آخر من رجال الدين اعقت نظرتة اليه مع نظرة بطرس الاسبانى ، ذلك هو « فولشرز » بطرك القدس ورئيس أساقفة صور أيضاً الذى يكثر مؤرخنا من الاشارة اليه والاشادة بفضلله عليه (١٧) وقد ساعده فولشرز هذا على أن يكون من بين رجال الكهنوت الذين بعث بهم الى ايطاليا لبنهلوا مزيداً من الثقافة الدينية ، فذهب الى بعض معاهدها الكبرى فى بعثة طالت مدتها حتى بلغت عامين وذلك من عهد فصيح ١١٦١ حتى سنة ١١٦٣ ، حيث انكب مؤرخنا فى هذين العامين على

(١٧) انظر على سبيل المثال الكتاب ، ١٦ الفصول ١٧ و ١٨ و ١٩ ، والكتاب ١٨ ، الفصل الثالث .

دراسه القانون والآداب ، ثم رجع الى المملكة ليعاود سباطه فى
أسقية صور « رئيس شمامسة لها » (١٨) .

ولقد اتسع مجال ثقافته بفضل اتصاله المباشر بأماكن بعد من
مصادر المعرفة ، رادت من اطلاعه الشخصى ، ذلك أنه تسنى له
الذهاب الى بيرطه ١١٦٧ موفدا من الملك عمورى سفيرا له لدى
الامبراطور « مانويل » حتى يضمن انضمام القسطنطينية اليه فى
مسروعه الضخم لمهاجمة مصر ، وعهد اليه بأن يغريه بنويع اتعافيه
بين بيرطه وبين باب المقدس ، وانطلق ولم الى وجهه (١٩) ليجد
امبراطورها مسغولا فى الصرب من نواحي البلقان ، ولكنه أصر
ما عهد به اليه على أحسن صورة ، وعاد فى خريف ١١٦٨ بمعاهده
بين المملكة اللاتسيه والامبراطورية الاغريقية حسب نسمية أهل ذلك
الوقت لها (٢٠) ، وقد وقع وليم من نفس الامبراطور مانويل
موفا كريما بجلى فبما أبداه له من ود وما أعدوه عليه من
البدايا .

لم يكن لرحل مل وليم أن يمضى وقته فى بيرطه دون عمل
لا سيما أن هذه الإقامة طالت حتى بلغ - كما يقال - ستة أشهر
ففضى جزءا منها فى الاتصال برجال الكنيسة اليونانية وان كانوا
على غير مذهبه وزاده هذا الاتصال انقانا للغة البونانية .

ومن هذا نستطيع القول بأنه كان واحدا ممن يمكن أن يقال

(١٨) الكتاب العشرون الفصل الثانى .

(١٩) وليام الكتاب الثانى عشر .

(٢٠) الكتاب ٢٠ ، ف ٤ .

فيهم أنهم من علماء عصره وأعرفهم بالسياسة المحلية والدولية .
كما يمكن أن يقال ان ذهابه الى القسطنطينية كان كسبا علميا الى
جانب نجاحه الدبلوماسي .

ويتجلى لنا ما كان عليه من علم ومعرفة وثقافة من أنه استطاع
ان يبريء ساحته عند البابا مما رماه به فردريك رئيس الأساقفة
من بهم ظالمة ، كما استطاع بعونه حخته ودلافة لسانه ، ووضوح
بيانه أن يعود من عند حليفه بطرس منصورا مرءا من كل مذمة
ونقيصة .



وأذكر من حول وليم كفاءته التي لم نغب عن عموري فعهد اليه
سنة ١١٦٩ بأن يؤلف كتابا عنه يساؤل عنه حكمه ، فقبل ذلك
عن طيب خاطر ، وحين سرع في تدوين هذا التاريخ الذي سماه
Gesta Amalrici regis رأى فجوة لا يعرف عنها سببا الا البافه
البسير والنادر الذي تلقفه سماعا من أفواه الناس دون أن يكون
واثقا منه تمام الثقة ، أما هذه الفجوة فكانت خلال عيبه هو دانه
في بيزنطة ثم انشغال الملك في حملته على مصر التي بادر الى القيام
بها غير منظر عودة سفيره من القسطنطينية (٢١) لذلك رأى وليم
أن الأمانة التاريخية تفرض عليه أن يقف على أخسار هذه الفترة
متلقيا اياها من مصادرها الأولى وفي مقدمها عموري كساهد العيان
لها وهو الذي شارك في رسمها على حين غاب هو عنها ، فلم يخل
عليه مولاها بما أراده لا سيما وقد وثقت بينهما مودة عميقة رفعت

(٢١) لم يخف على مؤرخي الفترة المسلمين الدواعي والصعوبات التي كان يعرض
لها عموري حتى تجعل الرحف على مصر ، مساو لها ابن الأثير في كتابه الكامل
وأمانة الموصل ، وأبو شامة في الروصتين .

سهما كل حجاب وحملت عمورى على أن يصرح له فى ذات مرة عن
مسألة خطيرة جدا كزعيم للنصرانية وحام للصليبية ألا وهى
ما اضطرب فى صدره من حاله السكك فى أمر أجمع عليه
جميع الأديان السماوية ويكون أساسا من أسس الإيمان ، ألا وهو
البعث والسنور بعد الموت .

وكاتب نه الملك فى مؤرخا عظيمه حى أنه عهد اليه - حى
كلفه بوضع كتاب عن حكمه - أن يعوم على تربيته ولده وولى عهده
بولدوين الرابع الذى لم يجاوز حينذاك التاسعة من عمره ، فاقبل
ولم على هذه المهمة بنفس راضية وظل يرعى الغلام فكريا وخلفا
وحمايا أربع سنوا مساليب لم بعصر فيها على بدل ما ينبغي عليه
بذله لتصبح الغلام مؤهلا لحكم المملكة ، بل راد فكان من بين
ما درسه له الآداب الكلاسيكية القديمة ، وعلمه هو وعلمان فى مثل
عمره من أولاد النبلاء والأشراف ما ينبغي أن يتعلمه هؤلاء من
الفروسية وركوب الجمل وألعاب القوى التى تقوى فيهم الصبر على
احمال الآلام ، وأنه ليعول عن هذه الفترة « لقد كرسب نفسى طول
مدة اشرافى على تلميذى الملكى على رعايته وبذلت من أجله عانه
جهدى وحاولت تربيته خلقيا وأديبا » ثم يصف حادثا نجم للصبي
ذات يوم وهو بلعب مع أنزابه تكشف له عن اصابه بمرض خطير
استلزم من أبيه علاجه بسنى الأدوية والمراهم فما أحدثت نفعاً
ثم بعث فى كل ناحية فى طلب أحسن الأطباء لكنهم لم يسعفوه
فى وقف هذا الداء الذى كان قد استشرى ببلدوين الصغير ، « فقد
عرفنا بعدئذ أنه سسكو من ذلك الداء الخطر الذى لا رحاء مه » (٢٢)
على حد قوله ويعنى بذلك الجداز .

هكذا تولى وللم تربية الصبي بلدوين .

على أن الذى يهمنا من فمره قيامه بضعيف الغلام أنها أناحب
له الفرصة لأن يكون أكثر اتصالا بالعديد من رجال البلاط وبلاء
المملكة ، وساعده هذا الاتصال على زيادة الوقوف على ما بطلع اليه
من المعلومات التى تساعده فى تأليفه التى سيعرض لها حالا وكان
الجزء الهام من بعضها يتعلق بأحداث وقته لذلك كان عمله يتطلب
منه الاطلاع على الوثائق والمعاهدات والمراسم التى صدرت ابان تلك
الحصة ، وكذلك المراسلات التى وردت الى المملكة أو صدرت عنها
وكان عند هؤلاء الرجال الذبن أتسح له زياده الاتصال بهم ما يساعده
على أداء مهمته على أكمل وجه .



وشغل وليم وظيفة المستشار الملكى التى كان يشغلها قبله
« رالف » رئيس أساقفة بى لحم الذى كانت وفاته فى ابريل
١١٧٤ (٢٣) ، واد ذاك وقع الاحصار على مؤرخنا لحمل مكانه ، وأنه
لبقول فى ذلك « ولكى يكون هناك من يحل موضعه فى وظيفة
المراسلات الملكية ، فقد استجاب عمورى لمسورة باروناته وعينى
فى هذا المكان وخلع على وظيفه المستشار » (٢٤) .



(٢٣) الكتاب ٢٠ ، ف ٣٠ و ٣١ .

(٣٤) الكتاب ٢١ . ف ٥ .

مؤلفاته

لقد خلدت وليم مؤلفاته التي فقد منها ما فقد وبقي منها ما بقي ، ولولا كتابه الحالي لما عرفناه الا واحدا من كبار رجال الدين لا يذكرهم الا حين نقرأ عنهم في ثنايا الكتب ، أما هو فقد بقي اسمه على ألسنة طلاب الدراسات التاريخية لا سيما في تاريخ الحروب الصليبية بفصل هذا الكتاب الذي نترجمه الآن الى العربية ، والذي رأى النور لأول مرة في صورته الأصلية في القرن السادس عشر أى بعد أكثر من ثلاثة فرون من وفاة مؤلفه .

ولقد نوفرت أدوات التأليف عند وليم من سعة اطلاعه على ما وصل الى يده من كتب نعدّها اليوم المصدر الأول للحروب الصليبية خاصة باللغة اللاتينية وما يوفر لديه من الوثائق مما هبّا له الفرصه لأن يكون بارزا في الكتابة التاريخية وحجة موفوا به فيما ألب ، حتى لقد عدّه العالم رسما « واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى » على الاطلاق (٢٥) . هذا الى جانب ابقائه لكثير من اللغات الغربية والشرقية وفي مقدمتها اللاتينية وفرنسية العصور الوسطى واليونانية كذلك المامه باللغة العربية الماما ساعده على الاطلاع على بعض ما كتب فيها ، كما يذكر هو وكما سنسرّ اليه في موضعه ، ولن نقول مع بعض القائلين بأنه كان عارفا بالعبرية والفارسية فذلك قول لا نستطيع أن نؤكدّه ، وزيادة على ذلك كله فقد كان

كثير النظر فى الآداب والمؤلفات القديمة لا سيما اللاتينية و على
كنايات كبار رجالها أمثال « أوفيد » و « شيشرون » الذى يسميه
أحيانا بصاحبنا مما ساعد على أن يكون له فلم سىال ولغه
مطوعة وقدرة على التعبير فى غير عسر على ما يريد أن يوصله الى
قارئه .

والمعروف أن وليم وضع ثلاثة كتب تاريخية ذات سمه معيه ،
سجل اسان منها عن حرب بالحروب الصليبية ، هذا اثنى جانب
كتاب آخر سجل فيه أعمال المجمع الكنسى المنعقد فى روما فى نهايه
سنة ١١٧٨ ، وحضره مؤرخنا على رأس وفد من كبار الأساقفه
والمطاربه ، الى حاسب ممثل لبطرك بيب المقدس الذى حال مرضه
اد ذاك بيبه وبين حضوره هذا المجمع الذى يعبر أكبر المجمع الى
سهدتها المسيحية الغربيه ، وشارك وليم فيما دار فيه من مناقشات
خطيرة ، وقدم تقريراً عن وضع الكنيسة والدولة فى مملكة بيب
المقدس اللاتسيه ، وقال البعض من مؤرخى هذا المجمع - وهم صادقون
فما قالوا - ان المجمع أعجبوا بوليم وعرفوا فيه رجلاً فقيهاً ، وحججه
فى الملة ، وملما بما ينبغي أن يلم به من يهمن بدراسة أحوال اللاتين
فى الشرق دينا ووضعاً ، كما رأوا فيه محدثاً لبقاً ومجادلاً يحسن
الجدل ويفهم معارضيه ان احتاج الموقف الى الافحام .

وعاد وليم من هذا المؤتمر الدينى وقد سبقته أخباره ، فسأله
رفاقه كما سأله رجال من البلاط البابوى والكنائس اللاتينية أن
يضع كتاباً عن أعمال المجمع ، فنهض بما التمسوه منه ، وجمع فى
ذلك سفراً قبل انه أودع نسخة منه فى أرشيفات صبور لكن
الباحثين فى تاريخه وأعماله أجمعوا على ضياع هذه النسخة للأسف،
كما ضاع اثنان من مؤلفاته الأخرى .

وعلى الرغم من عدم وجود نسخه من هذا التقرير فى الأيدى
الا أن الأمر الذى لا يرمى اليه السك هو أن « بعض » جلسات
المؤتمر نصمت بعض ما فى تقرير وليم ، والعكس صحيح ، خصوصا
وأن وليم كان أحد مقررى المؤتمر (٢٦) .

★★★

إذا كان رفاى وليم قد التمسوا منه وضع هذا التقرير الذى
صار كتابا من كتب تاريخ المجامع الكنسية فإن الفضل فيما ألفه من
كتب أخرى فى ميدان التاريخ يرجع الى الملك عمورى الذى كان
حريصا على أن ينفى اسمه حيا على السنة الملائمة من أهل عصره والأجبال
التي بلهم ، لذلك فإنه سأل صاحبنا وليم أن يضع كتابا عنه هو
ذاته حاكما للملكة بىست المقدس اللاتينية ، وترك بطنم هذا الكتاب
لمؤرخنا واثقا من أنه بفضل كفاءته وألمعنه - سوف يطالع على الناس
بكتاب يرضبه .

واسعجاب ولم لرغبة الملك لما رأى فى تحقيق هذه الرغبة من
حفظ لتاريخ مملكه بىست المقدس فى قبره كان هو نفسه «أهدىها
وعرض لما قد يقوم به عمورى من حروب برفع رايه المسححه اذ كان
الأمل معهودا على أن ينصر الملك على القوة الاسلامة ممدة فى مصر
فتخلص له بسقوطها وحه السرى الاسلامى بأجمعه .

وأقبل وليم يخطط للكتاب الذى كلف بوضعه والذى سماه
« انجازات الملك عمورى » Gesta Amalrici regis ، ثم جاء يوم
بدا للملك أن يمهده لعهدده بعرض شامل لتاريخ ملوك مملكة بىست .

(٢٦) أدبى بالفصل فى معظم هذه المعلومات الى مقدمه الترجمة الانجليزية لهذا
الكتاب الذى اشتمل الى جانب مادته التي كتبها ولم ما أضافه المرحمان من حواش
وتعليقات لو رحمت لكاتب وحدها كتابا كبيرا فى حد ذاته .

المقدس مند « جودفروى دى بويون » الذى رأى عاية معاحره أن يعال له حامى القبر المقدس فكان له وحده ما أراد ولم يساركة فى هذا اللقب غيره ، اد نعت الذين جاءوا من بعده بالملوك حتى يسم لهم بطسق النظام الافطاعى على الصورة المعروف بها فى أوروبا العربيه .

صارج عمورى مؤرخه برأيه فيما سنكون عليه صوره الكتاب الذى يريده .

وفى رأينا أن عمورى كان يعتقد اعنقادا جازما - ويساركة ولیم الى حد ما - بأن مصر لابد واقعة فى يده - بعد العهد أو قرب - وكن يرى أن فحده اباهها واستلاءه عليها سيكونان بقطه اسقال كسرى فى ناريج القوى الصليبيه وأنه يعادل قسح اللادين لبنت المقدس ان لم يرد عنه ، وبذلك تكتمل حلفاء الحصار حول العالم الاسلامى ، ولعله كان يرى أن استلاءه على مصر ييسر له الطريق الى مكة والمدنية ، ولعل هذا كان فى سريره الامر الصليبيى . « رينو دى شاتيون » الذى نعرفه المراجع الاسلاميه باسم « أرناط » ، والذى كانت نهايته وبأديه على يد صلاح الدين بعد قليل .

★★★

ونعرف أن شروع ولم فى وصح ناريج الملك عمورى كان سسه ١١٦٧ ، ونمئلت الخطوة الأولى منه فى اتصال مؤلفه بالقادة وكبار الشخصيات التى ساهمت فى الحملة على مصر ، وأما الخطوة الثانية فكانت جمعه كل ما سسر له أن يجمعه ممن صحبوا الحملة وشاهدوا أحداثها وكان لهم نصيب فيها ، ولم يقصر اهتمامه على الأحداث الساسه والحربية بل حاورها الى وصف الحكومة فى مصر والبلاط الفاطمى ويعرض لأولى الأمر من مخططى الساسه المصريه اد ذاك ، وبلاحظ أيضا أن نساط الاسكندريه الحجارى استلفت انتباهه .

على أنه اذا كان هذا الكتاب أصبح الآن فى عداد الكتب
المفقودة فلا بد أن بعضه لا سيما ما يتعلق بمصر وارد فى الأقسام
الأخيرة من تاريخه الكبير الذى توجد الآن ترجمته العربية بين يدي
فارئى هذه الصفحات .

★★★

ثم افرح عمورى على وليم أن يكتب تاريخا للمملكة منذ قيامها
على أيدي اللاتين ، وصادف هذا الاقتراح قبولا عند المؤرخ ، وصفق
له قلبه اذ ليس أحب الى نفسه من تأليف كتاب عن القدس ، يحلده
اسمه هو ويسرف قدره ويكون تاريخا لأحب بلد الى فؤاده .

وهكذا نلاحظ ما لعمورى من فضل على طلاب الساريح
والناظرين فيه حتى الآن اذ فكر فى أن يكون هناك كتاب عن
المملكة ، وأن يقوم بوصفه الرجل الذى رأى فيه الملك كل ما يجب
اليه سميتا وخلقا ودينا وكفاءة وقدرة تساعده على انجاز هذا العمل
الذى أدرك عمورى انه يجمع بين ثلاثة أمور كبره ، أولها روعه
الموضوع اذ هو عن بيت المقدس ، وثالثها سان عظمة عمورى ذاته ،
وثالثها دقة جامعته وليم .

على أن قبول وليم اقتراح مولاه كان معناه ارجاء ما سُرِع فيه
وما أنجزه منه عن عهد الملك عمورى ، كذلك كان لابد له من أن
ينصرف الى تدوين ما قبل هذا العهد جاعلا نقطة الابتداء هى قيام
بطرس الناسك بالحج الى الأحرام المسيحية فى بيت المقدس ثم رجوعه
الى أوروبا حاثا أمراءها وشعوبها والبابا اربان الثانى لمساعدة مسيحيي
الشرق وارسال الحملات الى أرض فلسطين وبلاد الشام .

كان عمورى هو الدافع لوليم لكتابة كل ما كتب من كتب فى
التاريخ ، فقد اقترح عليه القيام بوضع تاريخ لعهد ثم زاد فطلب
اله أن يكتب له محلدا عن تاريخ ملوك المسرون ، ولكى يسر عليه

المهمة فقد روده بكتاب في هذا الموضوع لأسخف مسرى ، يعرف العربيه هو أوبوسبوس سعيد بن بطريق اسعرص فيه العالم الاسلامى منذ ظهور النبي عليه الصلاه والسلام حتى السنة الحامسه من خلافة الراصى العباسى ، وهى سنة ٣٢٦ هـ (= ٩٣٧ م) (١) واستجاب وليم لطلب مولاه ووصع كتابه الذى سماه كما قال - أو قال من وقفوا عليه اذ ذاك - « بأعمال أمراء المسرى » "Gesta Orientalium Principum" ولنا أن سوف أن جزءا كبيرا منه لم يكن سوى ترجمه لكتاب ابن بطريق ، وان لم نستطع الجزء بما نصمه كتاب وليم هذا لعدم وصول نسخة منه إلينا ٠٠٠ لكن ٠٠ أين يوجد هذا الكتاب الآن ؟ ٠٠٠ ذلك ما لا نعرفه مما يدفعنا لاعتباره فى عداد الكتب المفقودة بناء على خلو فهرس دور الكتب العامة من أية اشارة اليه أو الى صفحات يرجع أبها منه (٢٧) ، هذا على الرغم من أن مقدمة الترجمة الأمريكية لتاريخ وليم نسير الى أن « ماتيو بارى » ذكر فى «مختصره التاريخى» وجود كتابى ولم : التاريخ الكبير وتاريخ أمراء المشرق فى مكتبة سانت البانز التى حاو بها ما حاو بمعظم المكاتب الديره فى القرن السادس عشر ، وتمضى هذه الاشارة فنبين أن نسخة من تاريخه الكبير وحده - التى نترجمها الآن - هى التى قدر لها النجاة فانتقلت الى مكتبة المحف البريطانى ولا تزال محفوظة به حتى اليوم ، أما مخطوطة أمراء المشرق فقد فقدت ولم يوقف لها على أثر حتى . وما هذا .



(٢٧) ولم نشر ولم الى عنوان كتاب سعيد بن بطريق الذى هو التاريخ المجموع على التحقيق والمعروف بسلم الجوهر ، وكان فى مكتبة الملك وهو الكتاب الذى نشره المستشرق الانجليزى « ادوارد بوكوك » فى اكسفورد سنة ١٦٥٩ وأرفقه بترجمة لاتينية ، كما طبع مرتين بعد ذلك بقرنين ونصف قرن من الزمان فى مطبعة الآباء السوعيين بروت الأولى منهما سنة ١٩٠٥ والثامة سنة ١٩٠٩ .

تاريخه الكبير

على أنه بدا للملك في سنه ١١٧٠ - أى قبل وفاته بأربع سنوات - أن يمهّد لحكمه بكتاب يؤرخ للمملكة اللاتينية منذ بدء الدعوة الصليبية حتى مسهّل حكمه سنة ١١٦٢ .

وان اسفراء ما جرى - وما بين أيدينا - ليفصح في حلاء عن أن هذا الافراح قد وقع موقع الرضا من نفس وليم الصورى لأنه رأى أنه حين يرغب من هذا الكتاب فإنه يكون قد أرخ - كرجل دى أولا - لما يعتبره جهادا دينيا مسجيا من وجهة نظره ، فيرى بذلك مهوله ودراساته التى بؤانه مكانة كبيرة فى عالم الكنيسة فى القرن الثانى عشر ، كما أنه يكون قد أرخ لخمسة من حكام وملوك المملكة اللاليبية فىل عمورى(٢٨) ، كما يكون قد أرخ للنشباط الصليبيين بعد استقرار اللاتين فى الشرق ، وما كان بينهم وبين الجماعات المسحنة الأخرى من غير مذهبهم كالأرمن والسريان والبعاقة والأرثوذكس ، ثم ما بين هؤلاء جميعا وبين المسلمين من صلات سلسلة أحيانا وعدوانية أحيانا أخرى .

لذلك فىل وليم ما افترحه عليه عمورى مما أسفر عن نألبفه لماريخه الكبير "Gesta Hierosolymitorum regus" الذى لم يقف به عند سنة ١١٦٢ (وهى بداية حكم عمورى) بل حاوزها

(٢٨) وحى بهم حودمى دى بوبون وان لم تلعب بالملك ، ثم بولدوس الاول فالثانى ، ثم فولك دابجو فولدوين الثالث .

فسمّل كل عهده ، ثم طالّت حتى وقفت عند سنة ١١٨٤ ، أي بعد موت الملك بعسر سنوات تناول فيها حكم ولده بولوين الرابع

والواقع أنه اعتمد في القسم الأول الذي يمد حتى سنة ١١٢٧ على مصادر لابينة عاصر أصحابها أحداث العرة من ١٠٩٥ حتى ذلك التاريخ ، ويمكن أن نقول أنهم كانوا ثلاثة أو أربعة ، في مقدمهم من نسميه بالمؤرخ المجهول الذي كان من غير شك من أهل ايطاليا ، والذي رافق حملة بوهمند بن روبرت حسكراد وكان بوهمند هذا مؤسس أول اماراة صليبية هي انطاكية منتزعا اياها من أيدي المسلمين .

وقد نعثرت أوراق كتاب هذا المؤرخ المجهول ولم يبق منها الا القليل الذي جمعه الباحثون وسموه باسم "Gesta Francorum Hierosolymitanorum" وقد ترجمناه الى العربية بعنوان « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس » (٢٩) .

والى جانب هذا فقد نظر وليم فيما كتبه روبرت داجيل الذي ترجمه الدكتور حسين محمد عطية باسم « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » (٣٠) .

كذلك نرى وليم يعتمد على ما سبقه اليه فولسر دي شاردر ويعرف كتابه باسم
'Fulcheri Carnotensis historia Hierosolymitana
(1095-1127) ، وهو آخر ما لدينا من تاريخ ساهد عمان لغزوة

(٢٩) فيما يتعلق بصاحب هذه المذكرات فانا نحيل القارئ الى ما قلناه عنه والى دراستنا لمذكراته في مقدمتنا للترجمة العربية المشار اليها وقد شرناها دار الفكر العربي ، الطعة الثانية سنة ١٩٦٢ .

(٣٠) نشره دار المعرفة بالاسكندرية سنة ١٩٨٩ .

امندت ما يقرب من ثلاث وثلاثين سنة تقريبا منذ أن حطب البابا
ايربان الثاني خطبه الباريحية المسهورة في كلبز مونت بجنوب
فرنسا فأشعل نيران حروب استمرت عدة قرون .

ويتبين لنا - من سرد هؤلاء المؤلفين - ان المادة التي نضممها
مذكراتهم أو أوراقيهم وقعت عند سنة ١١٢٧ م ، وكانت مائة وفيرة
راح يقارن بعضها ببعض ، فما صح منها في بقية أبعاء ، وما أنكره
بحلي عنه ولم يأخذ به .

★★★

ولعل السمة البارزة في كتابات ولسم عن هذه الفترة بالذات
هي أحدهم بوجهه النظر الغربي في سرده وبعيظه على الأحداث ،
وذلك راجع كما قلنا الى وجهة نظره في الأصول التي خلفها كتاب
مسيحيون وقساوسة ورهبان صحبوا الجيوش الصليبية المبكرة على
اختلاف حنسيات زعمائها وقوادها ، ونرى هذا الطابع واضحا في
نقده المر للامبراطورية البيزنطية ولا سيما امبراطورها الكسوس
كومنين (٣٥) ، وهو نقد أميل للهجو المقذع أكثر فيه من نعتها
« بالحيانة » حتى فضل عليها المسلمين في بعض الأحيان وقد ترسبت
هذه النهمة القطعة في نفوس الأوربيين حلا بعد حبل لمدة قرن
من الزمان حتى انعجب في سنة ١٢٠٢ م فيما عرف بالحملة
الصليبية الرابعة التي توجت الى القسطنطينية وأزالت امبراطوريتها

(٣٥) يشير هنا الى اعترافنا بادن الله شر ترحمتنا العربية لكتاب « الكسياد »
للمؤرخة آنا كوميني Anna Comnena بعد فراغنا من شر كتاب ولسم الصوري
هذا .

لنعود - رعم أنف الصليبيين العربيين - للوجود بعد ما يييف على
نصف قرن (٣٦) .

وقد غيرت هذه الحملة الصليبية الرابعة المفهوم الصليبي
وبدلت معالم الوضع عامة والخريطة الجغرافية لبلاد اليونان وحاولت
بديل الناحية الديموجرافية بصورة ملحوظة .

كانت هذه في الواقع هي صفه المرحلة الأولى من تاريخ ولم
الكبير أما المرحلة السايه فنبداً من تكوين مملكه بيت المقدس
واسنكمال البسه اللاتينية بأسييس الرها وأنطاكيه وطراباس
كامارات لاتينية استبعدت كلها القاعدة الأساسية التي كان يجب أن
ترتكز عليها لتضمن بقاءها لأننا نراها أهملت تماماً أهل البلاد
الأصليين حتى من كان منهم مسيحياً ، اذ عدهم المحلون طبقه
ثانيه في المجتمع الجديد وربما وضعوهم في مرتبه أدنى من هذه
أضاً فلم يسلطوا الهم الا كعملاء أو فعلة أو صناع يبدلون الجهد
لنحقيق مأرب الساده الوافدين الذين لم يسمحوا لأهل هذه الطبقة
الثانية بأن يكون لهم رأى في توجيه السياسة بل صيروها أوروبية
افطعوه ، وظلوا أهم قادرون بذلك على الاحتفاظ بها الى الأبد ،
ناسين أن هناك أجيالا - من بين اللاتين - سنظهر على مر السنين
ويخمد في نفسها الكراهية لأهل البلاد ، كما يملئ عليها الزمن
والطور أن تبعد الرابطة بينها وبين اللاتين ، على حين تزداد هذه
الرابطة بين هذه الأحيال وبين الأهالي الأصليين .

على أن ولیم يشير في أكثر من موضع من تاريخه الكبير الى
اطلاعه على وثائق ومراجع عربية دون أن يذكر موضعها وسكت عن

(٣٦) انظر فتح القسطنطينية لروبرت كلاري ، ترجمة حسن حشوي ونشر مكتبة
الشرق الأوسط ، وانظر أيضاً مذكرات فلهااردوان ترجمة حسن حشوي ، وقد نشرته
حامية الملك عبد العزيز بحدثة سنة ١٤٠٥هـ .

سُميها كما هو شأنه في مراجعته بعير هذه اللغة لا سيما اللاتينية .
وما بحسب هذه الوثائق الا أنها كانت موجودة في أرشيفات القصر
الملكي بالقدس وكذلك ربما اسعان بما في مكتبة الملك عموري التي
لا يد وأنها كانت حافلة - الى حد ما - بكتب عربية وقد أشار أحد
المؤرخين (٣٧) الى أن سفينه كانت تحمل فيما تحمل كتباً لأسماء
ابن منعد جرح قرب صور فاستولى عليها بولدين الثالث وأضافها
الى مكتبة القصر .



أما الفترة الثالثة من كتابه فهي التي تميزت بظهور المنازعات
بين الصليبيين أنفسهم وبكثيرهم تفكيراً بوسعيًا لم يقف عند حدود
بلاد الشام وشمال العراق بل جاوز هذه الحدود الى ما وراءها من
قوى إسلامه صعره ، وبلعت هذه العكرة دروبها عند الملك عموري
في تخطيطه لتوسع رقعة مملكة بيت المقدس الى خارج حدودها
الحديثة حسب مصر الفاطمية فالأيوبيية بل ان بعض هؤلاء الأمراء
اللابس كانوا من المحاربين الذين ذهب أحدهم مذهبا حروبيا بعيدا
مطلع الى مكة والمدينة .

وكان رجال هذه الفترة الثالثة يرون أن فتح القدس والاسلام
عليها سنة ١١٠١ هو الخطوة الأولى على طريق دعم الصليبية في
السوق الاسلامي وأن هذا الفتح قد أدى مهمته وأنجز عايبه بالاسنلاء
على بعض الامارات في الشام ، وأن الخطوة البانية لهذا الدعم
الصليبي هي فتح مصر ، وساروا في هذا الطريق خطوات عملية
ملحوظة في هجوم عموري أكثر من مرة على مصر ، وهو هجوم أطال

(٣٧) راجع A Syrian Gentleman, p 61. Hitti . حيث أشارت اليه
مقدمة الترجمة الاحميرة لكتاب ولم .

ولم فى عرضه وان عاد مه الغزاة مفلما الأظفار ، مهوكى القوى ،
وفدر لولم أن بشاهد أولبات هذا الانهاك مملا فى ظهور
صلاح الدين الأيوبى بعد أن استقر فى مصر وحمل راية الجهاد النبى
ورثها عن نور (٣٨) الدين محمود بن زنكى صاحب حلب والموصل
وتمرب هذه الأحداث بعكس ما كان يرحوه دعاة الغزو اذ أدب الى
نفك الهبكل الصلىسى ، ولعد واكب وليم فى أحرىات أيامه هذه
الفترة بل وكان فى ركب بولدوين الرابع فى محاربته لصلاح ببلاد
النسام ولم بفته الاشارة الى ذلك كله مما يشكل الجزء الأكبر من
الكتب الثلاثة التى ختم بها مؤلفه حى ررحب ما عداها ، مما يخیل
الى قارئه أنه يكب ناربخ مصر - من وجهة نظره - أكثر مما بكتب
ناربخ القدس .

ان مبارعة الكلام عن هذا الناربخ الكبر الذى سرجمه الآن الى
العربية هى فى الوقت ذاته كلام عن سيرة مؤلفه الذى لو كان قد
وقف فبه عند سنة ١١٧٤ التى مات فبها عمورى وهو فى النامنة
واللاثن من عمره لما لاهه أحد ، اذ يكون بما كسه حتى ذلك العام
قد أوفى بعهده للملك الراحل فى ادراج عهده عى هذا الكتاب
الناربخى وألحقه بتاربخ المملكة منذ تأسيسها .

لكن كانت هناك ثلاثة أمور تحمله على متابعة الكتابة عن الملك
الصعر أولها أنه هو ابن مولاة الراحل ، وثانها الوفاء لذكرى أببه ،
وثالثها أنه هو نفسه كان ولا يزال معلم الملك الجديد ومثقفه ، وهكذا
كان وليم يعىش فى جو يعبق بكل ما يذكره بعمورى ، وهل هناك

(٣٨) اطر حسن حشى . نور الدين والصليبيون او حركة الافاقة الاسلامة
فى القرن السادس الهجرى .

أكثر من أن يكون ولده بولدوين الصبي قد حل مكانه يوم ١٥ يوليو
١١٧٤ (٣٩) .

★★★

وعاش وليم بعد موت عموري ليكنب عن بولدوين الرابع ثلاثة
آبواب أو « كنب » كما يسميها (٤٠) ، ولا يحسبن الغاري أنه أطل
فى الكتابه عن عهد تلميذه الملك ، بل لقد خالف كل ظن اد أوجز
حين كان الاسهاب موفعا منه ، وكان ظن الدين لا يدرون شيئا عن
بواطن الأمور ولا يعرفون منها غير ظاهرها أن له دالة على بولدوين
لغربه منه ، وأنها تبيح له فرصة أكبر مما قد ساح لغيره فى الوقوف
على كل أسرار الدولة ، لكن الوضع الجديد فى المملكة كان مهينا
الفرصة لعموم حاولوا جهدهم إبعاده عن الملك أو قرص رقابة عليه
حتى لا يعتمد الى تكوين حزب موال لبولدوين يفسد بطلمات الطامعين
فى الوصاية على الملك .

ورأى وليم سماء المملكة تتلبذ بالغيوم والعواصف السياسيه .
كما هاله استمحال القوة المصرية استفحالا شجع أهل دمشق على أن
يسلموا بلدهم وما حوله الى صلاح الدين مما جعل المملكة بوشك أن
نقع بين سفى الرضى من الشمال والجنوب ، ورأى من الخير أن
يتشعل نفسه بالاهتمام بالأمور الكنسية والانصراف الى معاودة الاهتمام
بكتابة تاريخه الكبير وكان يجد بين هذا وذاك ساعات يعاود فيها
هوايه القدمة ، ونعى بها مطالعه كتب السراب القديم الغربى .

وقد أحس وليم بالحزن الشديده يسيطر عليه وزاد ألمه أن
يضيع أمله فى أن يصبح بطركا لبيت المقدس فى أعقاب وفاه بطركها

(٣٩) الكتاب ٢١ . الفصل الثانى .

(٤٠) فى الكتب ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

أمالريك فقد تمكن منافسه هرول يوم ٦ أكتوبر ١١٨٠ من أن
سلبها منه بفصل الملكة الأم « أحنس » وحربها . ومما يظهر أنه
الشديد لصياح أمله هذا أنه سكت سكونا سبه مطبق عن ابداء رأيه
في هذا الانتخاب لما بصره في نفسه من آلام وأحزان فكل ما قاله
في هذا الصدد « ٠٠٠ ماب أمالريك بطرك بيت المقدس بعد عشرين
سنة من توليه بطركه القدس ، واد ذاك أخير مكانه هرول رئيس
أساقفة قيسرية » (٤١) .



منهجه :

سار ولجم على نهج القدامى في تقسيمه لمؤلفه هذا الى ما سماه
ب « الكتب » التي هي في مصطلحنا اليوم «الفصول» أو «الأبواب» ،
كما قسم كل كتاب الى ما سماه «بالفصول» ، ويعنى بها «الفقرات»
التي تضمنها هذا « الكتاب » .

وقسم ولجم تاريخه الكبير هذا الى ثلاثة وعشرين « كتابا »
تكاد تكون منسوية في الطول الا الآخر منها ، كما يبدو أنه خص كل
ملك من ملوكها « بكتابين » لم يستثن من ذلك سوى « جودفروي »
فقد أفرد له كتابا واحدا ، وطسعى أن يكون ما خصه به قاصرا على
كتاب واحد لأن فترة حكمه لم تتجاوز سنة واحدة ولم يكن معدودا
بين من تولوا حكم مملكة بيت المقدس وسمى كل واحد منهم بالملك ،
اذ انفرد هو عنهم جميعا بلقب حامى القبر المقدس .

كذلك خص بولدوين الرابع بثلاثة كتب ، أما الفصول التي
يشتمل عليها كل كتاب فكانت فقرات بسيطة قد لا تتجاوز الفصل

مها - حسب سميحه - صفحة واحدة فان راد كان صفحتين ، وكان كل كتاب يشمل على ما يقرب من ثلاثين « فصلا » الا الأخير فلم يشمل على أى فصل بل كان ملخصا شاملا ترجم فيه عما يشعر به من احباط .



وفد مهد لذلك كله بمائية كنب قبل أن يبدأ بكتابه عن جودفروى أسار فى أولها الى ما أسماه بصحوة المسيحية لتخليص القدس وبين فيه نساط بطرس الناسك وطلائع الحملة الأولى غير البطاميه ثم ثنى سحجاب الصليبى فى العسبططيه بالاسنيلاء على بيقية والزحف على آسيا الصغرى ، فاذا كان الكتاب الرابع قد تناول احياح الصليبيين لسمال الشام وبدء حصار أنطاكية التى استغرق حصارها عنده والاسنيلاء عليها الكتاب الخامس أما السادس فيتعلق بما لاقاه الصليسون من حصار وانصارهم الذى مهد للاسحاق فى صفوفهم لولا أنهم تابعوا زحفهم الى بيت المقدس وهو ما استغرق تأميمه الفصل السابع . أما الشامن فهو بهانة رحلة الحج والاسنيلاء على القدس ثم يلى ذلك ما كنبه عن جودفروى فالملك بولدوين الأول وبوسع المملكة فى عهده واتساع رقعة أنطاكية ثم بولدوين الثانى والاضطرابات فى سمال الشام وهذه اسغرف منه أربعة كنب هى التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر وهما يسنهى الجزء الأول من هذا التاريخ كما رسمه ولم لبدأ الجزء الثانى والاستيلاء على صور وامداد النفوذ الملكى على الامارات اللابينية أما الكتاب الثانى لذلك وهو الرابع عشر فمن عهد فولك دانجو ويلسه الحامس عشر عن محالوت الامبراطور البزنطى حنا لبطس نفوده على الامارات الصليبية ثم ييجى عهد بولدوين الثالث والمملكة الأم « ملرند » وحبر الحملة الصليبية الثانية ويرتبط بذلك مباشره الاسنيلاء على عسقلان وفسل الحملة المذكورة

حالا لم يطلع الى مصر وكل ذلك بضمه الكتب . السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فاذا كان الكتابان التاسع عشر والعشرون فهما امتداد لترجمة هذا التطلع الصليبي الى صراع مع مصر حول مصر ومحاولة عهد بحالف صليبي بيزنطي لفتحها وذلك في عهد الملك عموري ، ثم يبدأ الكتاب الحادي والعشرون ببولسوين الرابع الأبرص ونازاع المصالح الشخصية بين الجماعات الصليبية ثم ختام ذلك كله في الكتاب الثالث والعشرين وفيه نرى ولم ينسأل : أمن الممكن أن يتم انقاذ القدس على يد ريموند صاحب طرابلس ؟ وبذل هذا الاستفهام من جانبه على أنه كنبه في أثناء الصراع بين الأمراء الصليبيين في محاولة كل منهم السيطرة على بيت المقدس ، وكانت الأحوال لا سيما ظهور القوة المصرية الصلاحية يمثل خطرا على الصليبيين أدركه ولم وصرح به ثم أثبت سير الأحداث صحة توقعاته .

★★★

وبعد فهذا تعريف عاجل بولم الصوري وكتابه الذي كان الحافز لي على برحمة هو صامى بتدريس الحروب الصليبية في كلية الآداب (جامعة عين شمس) بعد عودتي من إنجلترا ، ثم شاعت الظروف أن أؤوم بالمحاضرة في نفس المادة في قسمي الكالوريوس والدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، واعتبرت هذا الكتاب - وهو وثيقة تاريخية معاصرة لبعض الأحداث والتجريدات الحربية على العالم الاسلامي - من متطلبات محاضراتي هناك ، ثم طرأت فكرة تقديمه للنشر بالكلية بجدة ، فرأى زميلي وصديقي الدكتور حمد محمد العرينان أن تكون « مذكرات فلها ردوان » عن الحرب الصليبية الرابعة هي ناكورة ما تنشره لجنة البحث العلمي بها ، وحظي الكتاب بموافقه المجلس العلمي للجامعة هناك .

وان كذاب ولم الصوري هذا لهو واحد من مجمعة الكتب
والوثائق المتعلقة بده الحروب والمكتوبة بفلام معاصر بن لها من غير
العرب والمسلمين ، وحمد الله ان مكسى من نسر خمسة مصادر منها
حتى الآن ، وفي الطريق - ان شاء الله - اثنان ، أحدهما هو
« الاسنيلاء على دمياط » لبادر بورن ، والآخر هو « ألكسياد »
أر نارينخ الامراطور البزنطي ألكسيوس كومين بفلم ابسه
« أنا كومنبن » .

ولقد اعتمد في ترجمتي العربية هذه على النسخة الانجليزية
التي اضطلع بترجمتها والعلق عليها المؤرخان السند اعلى اتوانر
باتوك ، و أ . كراى سنة ١٩٤٣ وهى فى مجلدين ضخمين ، وقد
بفصلت مكتبة جامعة القاهرة فأدنت لى بتصويرها .

ولقد عشت من جانبى بالمحافظة على مفهوم النص وروحه بقدر
الامكان ، مع مراعاة الجانب العربى من حب اللغة والأسلوب ، غير
أننى أبحت لنفسى أن أستعمل لفظ « الصليبين » فى مواضع خاصة
حي رأى سباق الموضوع يتطلب ذلك حتى لا يخلط الأمر على
العارى ، فلا يعرف أى الجماعات المسححة بفصدها المؤلف .

أما ما أضفنه الى الترجمة العربية - وهو قليل - فقد وضعته
بين حاصرين على هذه الصورة [٠٠٠] ، لكن حذف من الترجمة
التربية بضعة أسطر أملها على المؤلف طبيعة العصر والأحداث
ومركزه الدينى ، وهى سطور قد تكون لجمتها العصب وسداها
الحبل بالاسلام وعدم إدراك كنهه ، ولم يؤد هذا الحذف الى فراغ فى
سباق الموضوع أو اخلال به .

وسيصدر هذه الترجمة باذن الله في أربعة أجزاء بدلاً من
اثنى كما في الانجليزية وأرجو من الله التوفيق والهداية .

القاهرة في :

د. حسن حبشي

الناسخ من الحرم سنة ١٤١١ هـ

الحادي والملايين من يوليو ١٩٩٠ م

كلمة شكر

أرى لراما على أن أعدم بالسكر الخالص للصدوق الكريم
الأسناد المذكور بعد العظم رمضان اد بفضل فجعل هذه الترجمة
من سلسله مطبوعات « تاريخ المصريين » التي يشرف على إصدارها .

كما أشكر الصديق العالم الأب جورج قنواي بدير الآباء
الدومنيكان بالعباسيه وقد أعاسى بكثير مما يعرفه هو وأجهله أنا من
إرسادات العهدين القديم والحديد وأدنى لي في الرجوع الى مكتبه
الدرس .

والله في عنى لمكتبه جامعه القاهرة اد أدنى لي بصـ
الرحمه الانجليزية كامله وبذلك يسر لي العكوف على نفسه الى
العربية أنى كس ، وشكرا للقوامين على مكاتب جامعات القاهرة
واسكندريه وعين سمس والملك عبد العزيز بجده ، ولزملائى وتلاميذى
وأصدقائى في مصر والخارج ، وللميذى القديم نركى هزاع
الركانى من السعوديه فقد طالع معى مخطوطه هذه الترجمة
وبفضل نسخها ثم كتابتها على الآلة الكاسه .

حـ حـ

الحروب الصليبية

(١٠٩٤ - ١١٨٤)

التمهيد

من وليم - الذى لولا رحمة الرب ما استحق ان
يكون خادما للكنيسة المقدسة فى صور - الى الاخوة
المسيحيين الموفرين الذين قد يصلهم هذا الكتاب ٠٠٠٠
لكم الخلاص الأبدى من أجل السيد •

لا يشك اسنان عاقل فى أن تدوين أعمال الملوك مهمة محفوفة
بالصعاب والمخاطر ، واذا نحينا جانبا ذكر الجهد الذى لا يسهى
والمعاناة التى لا تنفذى ، وما يتطلبه عمل من هذا النوع من النحلى
بالبغظة الدائمة ، فان هوة سحيقة تفتح فاهها أمام كاتب التاريخ
الذى يلقي المشقة العظمى فى محاولته تجنب هذا الأمر أو ذاك ،
ذلك لأنه فى الوقت الذى يحاول فيه النجاة من « خاربيديس » ،
فالأرجح أنه سوف يقع فى براثن « سكيلا » التى تعرف كيف تدمره
الدمار الشامل وهى محاطة بكلاهما ، ذلك لأن الكاتب اما أن يؤحج
غضب الكثيرين ضده وأثناء جريه وراء حقيقة ما وقع ، واما أن يلتزم
الصمت ازاء مسيرة الأحداث أملا منه فى أن يقلل ما أمكن من

الامعاص منه ، حتى يبدو بلا أخطاء ، وذلك لأن بعدم مجاوزة الصدق وإخفاء الحقائق عن قصد يعبر أمرا مخالفا تمام المخالفة للواجب الملحق على عانى المؤرخ ، ومما لا شك فيه أن فصل الفرد فى أداء الواجب المفروض عليه إنما هو خطأ ، إذا كان مفهوم الواجب فى الواقع هو « مطابقة سلوك كل فرد لما ينفق وعادات بلده ونظمه » .

ومن ناحية أخرى فإن الأخرى وراء سلسلة من الأحداث دون ادخال تعبير عليها أو بحرفها عن محجة الصدق إنما هو مسلك يثير الغضب على الدوام ، إذ يقول المل العديم « ان النفاضى عن الحق يكسب المرء الأصدقاء ، أما التصريح به فبورث الكراهية » وينرتب على ذلك أمران :

أما أن يتراخى المؤرخون فى أداء الواجب الذى تقتضيه مهمتهم فيبالغون فى اظهار التوقير الذى يجاوز كل حد ، وأما أنهم فى بحهم الجاد عن حقيقة مسألة من المسائل يجلبون على أنفسهم الكراهية التى بنجم عن قول الصدق ، ومن ثم فإن السائد هو أن من سمة هذين السبيلين أن يخالف كل منهما الآخر ، وأن يصبح مصدر تعب لما يفرصانه من مسنلمات لا مفاص منها .

لقد قال كاتبنا شيشيرون « لئن كان الحق مضنيا لما ينجم عنه فى الواقع من كراهية مطبقة للصدق فإن الاسنسلام أشد رزية » ، وذلك لأن تعامل المرء بلين مع الصديق يحمله على الاندفاع فى التهور المؤدى للخراب ، وهذا احساس ينعكس على المرء الذى يجور على مقتضيات الواجب فيكتم الحقائق الثابتة رجاء أن يكون أريحا .

ان الكتاب الذين ندفعهم الرغبة فى المداينة الى أن يُضَمَّنوا عن قصد فى ثانيا مؤلفاتهم التاريخية ما ليس بحق إنما يسلكون مسلكا شائنا ، والأحرى أن لا يُدرجوا فى عداد المؤرخين ، وإذا كان

إخفاء الحقائق النابتة المتعلقة بأمر من الأمور يعتبر أمرا شبيها بإفص
مهمة الكاتب سام المافصه ، فالأشد سبأه مه هو أن يحلط الحق
بما ليس بحق ، فيقدم للأجيال القادمة السى نعلمه فسا قول الحق
ما هو كذب صراح على أنه حقيقة ثابتة .

وزياده على هذه المحاطر فان كاتب التاريخ كثيرا ما يفايل
مثل هذه الصعوبة - بل وما هو أشد منها - مما يحتم عليه أن يبدل
قصارى جهده لتجيبها بقدر الامكان ، وأعنى بذلك أن كرامه الأحداث
التاريخية الشامخة قد تنهار بسبب ضعف العرض ونقصان البلاغة ،
لذلك ينبغي أن يكون أسلوب الكاتب فى عرضه للأحداث على نفس
المستوى العالى للأخبار السى يروها ، ولا يسعى أن تكون لعه الكاتب
وطريقة عرضه للموضوع دون المستوى الرائع الذى يجب أن ينوفر
للموضوع ، ومن ثم فان أكبر ما يخساره المرء هو أن يؤدى العرض
السقم الى افساد عظمة الفكرة ، فتبدو الأعمال الجوهرية وكأنها
نافية عديمة القيمة بسبب الضعف الذى بعثور سردها ، وفديما
لاحظ الخطب المصقع (شيسرون) فى القسم الأول من كتابه
« الحوار التوسكاني » أن تدوين المرء لأفكاره - بدون أن تكون عنده
القدرة على حسن ترتيبها أو إبرازها فى جلاء تام ، أو جعلها شسقة
تجذب القارئ اليها انما هو عمل رجل يسئ الى الأدب بجهالة وبسدد
وقته هباء » .



ويبدو أننا فى كتابنا الحالى هذا قد وقعنا فى محاذير متعددة
وسبهاات حمة ، ذلك لأن سرد الأحداث بطلب ما أن ندرج فى هذه
الدراسه السى نقوم بكتابتها الآن كثيرا من التفاصيل عن أخلاق الملوك
الشخصية وحياتهم وطباعهم الذاتية ، غير ملقين بالا عما اذا كانت
هذه الحقائق حييدة فى حد ذاتها ، أم أنها خليفة بالنقد الذى

تستحقه ، ومن المحتمل أن نجد الأجيال التالية لهؤلاء الملوك - حين
مابيعهم هذا الكتاب - صعوبة في قبول ما احبوا بين دفتيه ، أو
قد تنصب هذه الأجيال من المؤلف غصبا لا يستحقه . وحيداً
سوف يعبروه أحد رجلين : اما أنه كذاب أشر ، أو حاسد كفور .

ويعلم الله أننا بذلنا جهدنا كي سجنب التهمين نجنب المرء
للتاعون .

أما ما سوى ذلك فمما لا شك فيه أنه كان اندفاعاً منا أن
نحاول القيام بعمل هو فرق طافساً . كانت فيه لعنا لا برقى بحال
من الأحوال الى روعة الموصوع وحلالة قدره ، ومع ذلك فقد نسنى لنا
أن نجز شيئاً ما ، شأننا في ذلك شأن الذين لا دراية لهم بالرسم
ولم يقعوا على أسرار هذا الفن حين يسمح لهم في العادة برسم
الخطوط الأولى لصوره ما فبضعون الألوان غير المناسبة ، ثم نجىء
بعد ذلك يد الفنان الصاع العارف بالألوان فبضيف لمسات جمالية
أحسن من هذه اللمسات ، ولذلك فنحن - مع شدة تمسكنا بالصدق
الدى لم نجد عه قط - قد قمنا بمحاولات كبيرة لوضع الأسس
التى يمكن للباني الذى يبرزنا بمقدرته الرائعة - أن يقيم عليها
صرحاً متكاملاً .

وربما كان الأحدى أن أنوذ بالصمت بسبب القصور الخطير
والعثرات الجمة التى تنتظر هذا المجهود ، وكان الأخرى بى أن أصمت
وأرغم فلمى على الكف عن الكتابة ، غير أن ما تملكنى من حب دائم
لوطنى قد دفعنى لولوج هذا السبيل ، اذ كانت احباجات الوقت
تطلب رجلاً مطبوعاً على الاخلاص ، مستعداً لبذل حياته فى هذا
السبيل .

وأعود فأكرر أنه من حق الوطن ألا تظل تلك الأعمال التى
أنجزها هذا الوطن مطمورة فى زوايا الجهل وطيات الاهمال على مدى

قرن من الزمان ، وأن يسمح للسسيان أن يسحب عليها ذيلوله من غير حق بل ان هذا الوطن بأمرى بعكس ذلك اد يأمرنى بالحفاظ عليها عن طريق فلمى من أجل نفع الأجيال القادمة •

لذلك فقد استنجبت لارادته ، وشرعت فى مهمه يأبى الشرف التحى عنها ، ونهضت غير عابىء بمقد الأجيال الناليه ، ولا مكثرت بأى حكم بحكم به على أسلوبى الصعيف فى معرض تناول مثل هذا الموضوع الجليل •

وليس من شك فى أننى لبيت بداء الوطن بنفس الحماسة التى بذلها هذا الوطن ، عسى أن يكون العمل جديرا بالثناء الذى يتفق مع الاخلاص •

لقد انجذبنا بروعة تراب وطننا ، ولم نعبأ بضالة امكانياتنا ، ولا الجهد الذى يبذل ، من غير اتكال على مساعدة ما ، ولكننا قمنا بهذا العمل مدفوعين بالود الصادق والحب الخالص •

يضاف الى هذه الخوافز ما أمر به الملك عمورى الأول قدس الله روحه وصاحب السجل الباهر فى الجهاد من أجل السيد •

ولقد حفزنى هذا الأمر - وأسباب هامة أخرى - على أن آخذ على عاتقى القيام بهذا العمل ، أضف الى ذلك أننى فمت بوضع تاريخ آخر غير هذا التاريخ استجابة لأمر الملك الذى أمدنى بالوائى العربية الضرورية ، وكان المصدر الرئيسى الذى اتخذناه لذلك هو استعمالنا كتاب تاريخ بطرك اسكندرية الموقر سعيد بن البطريق الذى يبدأ من زمن [النبى] محمد [صلعم] متضمنا أحداث خمسائة وسبعين سنة ، أى حتى عامنا الحالى هذا الذى هو عام ١١٨٤ من مولد المسيح ، ومع ذلك فلبس بين أيدينا لهذا الكتاب الحالى مصادر مكتوبة سواء فى اليونانية أو العربية للاسترشاد بها .

وانما كان اعتمادنا على الرواية السفهيه وحدها ، الا فى ايراد دليل من الأحداث التى ساهداها بنفسها ، وسبعنا سير الحوادث ، فيبدأ الكتاب بسمر أولئك الرجال والرعماء المعاير الدين أحبههم الله وخرجوا استنجا به لبدء السيد من ممالك الغرب ، واسنولوا - بيد فويه - على أرض الميعاد ومعظم بلاد السام ، ولقد تابعنا باخلاص عظيم التاريخ ابدء من هذه النقطة لفترة تجاوزت أربعة وثمانين عاما ، انتهت بعهد بلدين الرابع - وهو السابع فى ثبت الملوك ، اذا أدرجا معهم لورد جودفروى الذى كان أول حاكم هناك ، ورغبه منا فى أن يرداد ويكمل علم أى راغب فى مزيد من التفاصيل. بأحوال البلاد السرفه وعد وصفا أولا - فى ايجار واحصار - مى كان احلال هذه البلاد وكم كانت المآسى التى نحملتها كثيرة ، كما ألمنا أيضا بوصف حال المؤمنين من أهل تلك الحبة الوسطى الذين كانوا يعيشون بين مارقى هذه الأرض .

ثم ذكرنا كيف نهض أمراء ممالك الغرب لتحمل مسئولية الحج بهدف تحرير احوانهم بعد طول الأسر الذى عانوه .

★★★

فادا قدر الفارئ المهام المعددة النبائية التى تقع على كاهلنا فانه سوف يكون على يقين من أننا قد قاسينا مشقة كبرى ازاء نوع هذه المهام ، التى كان أولها المسئولية الضخمة المتعلقة بأهور نتصل بأسقفية صور الشهيرة الداخلة تحت حماية الرب ، والتى تم اختارنا لنوليها ، لا لميزة خصصنا بها دون سوانا ، ولكن فضلا من الله وحده .

وأما ثانيها فقد وكل الى القيام بأعمال خاصة بجلالة الملك حيث نيظت بى - فى قصره الشريف - وظيفة المستشار ، هذا بالاضافة الى ما كان هناك بين آونة وأخرى من شتى الأمور التى تتطلب

اهتمامنا ، فاذا أخذ القارئ هذه الأمور بعين الاعتبار فانه سوف يكون أكثر تسامحا معنا ان هو وجد في الكتاب الذى هو الآن بين يديه شيئا لا يعقله ، ذلك لأنه حين يكون المرء مسعولا بمساعل مبيانية فانه من المستحيل على الذاكرة أن تنسب على الوجه الأكمل ، كما يشق عليها أن تولى كل موضوع ما هو صميم به من العناية ، كما أنه من المستحيل على الانسان أن يصرف عنايته الكلبة الى شئى المواضع ، وأن يوزع اهتمامه عليها جميعا ، ثم يطلب منه أن يكون له من النشاط الذهني مثل الذى يفرض أن يكون له لو أنه كان قد صرف همه الى أمر واحد فقط .

ومن ثم فان المرء اراء هذه الطروف يكون أهلا لتسامح أكبر .
ان هذا العمل في مجموعه يحتوى على ثلاثة وعشرين كتابا ، ويفسّم كل منها الى عدد معين من الفصول حتى ييسر للقارئ أن يجد ما ييحب عنه في الأجزاء المختلفة من الرواية وانى أعترزم – ان مدت لى الحياة – أن أضيف من وقت لآخر الى ما كتب أحداثا وفنا التى قد تتمخض عنها تطورات المستقبل وأن أزيد عدد الكتب بغير ما يسمح به الموضوع .

واننى أعتقد ولست مخطئا فى هذا الاعتقاد – أن هذا الكتاب يقدم بنة واضحة عن تجربتنا ، كما أننا وقد كتبناه استجابة لتجربتنا – قد أمطنا اللثام عن سلبيات كان لابد لها أن تظل مخفية لو أننا لذنا بالصمت ، غير أننا نؤثر أن لا نجد ما يزدهينا على أن نكون فى حاجة الى ما يهذب النفس (١) .

(١) أشار وليم فى النص ما الى قصة لا يدرك معناها الا من يقرأ لإصحاح الثانى والعشرين من احبل متى (١ - ١٤) من أن ملكا صنع عرسا لابنه وأرسل =

وأدعو الرب القاسد وحده على كل ذلك أن يكلأنا برحمته
فلا يحيق بنا هذا المصير ، كما نعرف معرفة تامة أن للخطأ في العادة
العاظا كثره « وأن يخفى المعص فسفاه كادبان ومسيع المذمة
جاهل وكثرة الكلام لا تخلص من معصية » .

ومن ثم فإننا بروح من المحبة الأخوية ندعو مطالع هذا الكتاب
في الله ، اذا وجد ما يسحق النقد ألا يتردد في نبيه في رحمة
صادقة وأن يعوم ما اعوج منا فيكسب لنفسه نعمة الحياه الأبدية .

كذلك نرجو مطالع هذا الكتاب أن يذكرنا في صلواته فكسب
عطف الرب علينا ، فان وقعنا في ثايا هذا الكتاب في خطأ فنرجوه
ألا يتمنى لنا الموت ، عسى أن ينفضل مخلص العالم - بفضل طيبته
الوفيرة ورحمته التي لا تفشل أبدا فيتغمدنا بغفرانه ، ذلك لاننا
نحن التمساء والخدم الذين لا جدوى منهم في بيته مخطئون كل
الخطأ أمام ضميرنا ، ونحشى يوم الدنونة خسة عظمى .

هنا ينتهي التمهيد

= عيده ليدعو المدعوين الى العرس فلم يريدوا أن يأتوا ، فأرسل عيهم الى آخرين
يدعوهم للوليمة « لكنهم تهاونوا » فقد مضى سهم الى حقله من مضى ، والى بحاره
من كان يتاجر ، أما الذين بقوا فقد « أمسكوا عيده وشتموه وقتلوه » ، فلما
سمع الملك غضب وأرسل حوده وأهلك أولئك القاتلين ، وأحرق مديهم ، ثم
قال لصيده « أما العرس فمستحق ، وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقين » ثم
أرسلهم أمرا اياهم ليدعوا كل من وحدوه الى العرس ، فجمعوا له « كل من
وحدهم » - أشرارا وصالحين ، فامتلا العرس من المتكئين ، فلما دخل الملك ليظهر
راى هناك اسنانا لم يكن لاسا لباس العرس فقال له « يا صاحبي كيف
دخلت الى هنا وليس عليك لباس العرس ؟ » ، ثم يكمل وليم الصورة بالاشارة الى
ما جاء في الاصحاح العاشر من سفر الأمثال (١٩) في « أن من يحيى المعصية فسفاه
كاذبان ، ومشيع المذمة جاهل وكثره الكلام لا تخلص من معصية » . كما جاء في
النص . وقد ساق وليم هذا كله في استشهاد قصير ليبرر موقفه ، وكان قصر
الاستشهاد حاملا ايانا على هذه الحاشية في هذه الترجمة العربية .

الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت المقدس ، وبطرس
الناسك يبدأ فى الزحف مع جماعات أخرى •

فصول الكتاب الأول :

- ١ - ذكر قيام عمر بن الخطاب ثانى خلفاء محمد
(صلعم) بالاسبلاء على بيت المقدس زمن
الامبراطور هرقل •
- ٢ - الظروف التى مكنت عمر بن الخطاب من
الاستيلاء على الشرق ولم تكن فى الحسبان ،
وكيف أنه لما جاء الى بيت المقدس أمر باعادة بناء
هيكل السيد •
- ٣ - كيف نحملت سورية طويلا أسر الرق تحت
حكم الولاة المختلفين ، وكيف أحدث صداقة
الامبراطور شارلمان العظيم مع هرون الرشيد ملك

فارس(*) على المسيحيين الذين كانوا يعيشون في
كنف المسلمين .

٤ - كيف انتعلب المدينة المقدسة الى نفوذ خليفة
مصر ، وكيف أن نير عبودية المؤمنين صار غير
محتمل زمن الخليفة الحاكم [بأمر الله) ، كذلك
ما يتعلق بهدم كنيسة القيامة بالقدس .

٥ - عرض للطروف التي كانت سائده حينذاك بين
الصادقين الذين كانوا يعيشون بين غير المتألهين .

٦ - الخليفة الطاهر يخلف أباه الكريه كحاكم لمملكة
مصر ويعيد تشييد الكنيسة بناء على النماس
رومانوس امبراطور القسطنطينية وبجهود
« جون كاريانين » و « فسسطين مونوماحوس »
ويمدهما بالمواد اللازمة .

٧ - القول في أصل الجبس الركي وباريخه العديم .

٨ - ذكر أنواع الأهوال الكيرة التي خضع لها العالم
يومذاك .

٩ - كيف تمكن الفرس من احتلال كل البلاد .

١٠ - ذكر ذهاب كل جيوش المؤمنين معا الى المدينة
المقدسة ، وما لقيته من المعاملة داخل القدس
وخارجها ، وكيف وقعت المدينة مرة ثانية في
أيدي الترك .

(*) هكذا يسمته مؤرخا ، والمقصود خليفة المسلمين وبعدها .

- ١١ - ذكر مجيء رحل الرب بطرس الناسك واللقاء
بينه وبين سمون الموقر بطرك بيب المقدس .
- ١٢ - الوحي الذي جاء لبطرس الناسك هذا في كبسة
القيامة المباركة .
- ١٣ - السفاف بين الامبراطور هنرى والبابا جريجورى
السابع ، وكيف كان استقبال اربان الثانى
- خليفة جريجورى - لبطرس العائد من القدس
استقبالا كريما .
- ١٤ - مجيء البابا اربان الى مناطق ما وراء الجبال وعقده
المؤتمر فى كلرمونت .
- ١٥ - عظة البابا [ايربان الثانى] للناس بشأن الحج
الى بستان المقدس .
- ١٦ - الزعماء الذين خرجوا للحج وكانوا حاضري
الاجتماع ، وذكر علامة الصليب التى وضعها من
أزمعوا السعر - على ملابسهم - رمزا لايمانهم
وحجهم المقبل .
- ١٧ - أسماء أمراء مملكتى الفرنجة والتبويون الذين
قاموا بالحج .
- ١٨ - وولتر المفلس يصل الى القسطنطينة .
- ١٩ - مجيء بطرس الناسك بعثدثه ، ومعرفه -
أثناء اجتيازه المجر - بخيانة أهلها .
- ٢٠ - نشوب شغب خطير بين الحجاج والبلغار فى
« نيش » احدى مدن بلغاريا .

٢١ - بطرس الباسك يسندعى قواه الهاربة ويحاول الوصول من جديد الى نفاهم سلمى مع البلغار ، ولكن يحدث شعب جديد - أنكى من سالفه - ويفرق كائب بطرس .

٢٢ - بطرس يجمع سرادم جيشه المهروم ويمضى الى القسطنطينية ، ثم يعبر البسفور ويعسكر فى سسا .

٢٣ - جيش بطرس يسنولى فى غيابه على الماشية من الاقليم الواقع حول مدينة نيقبة ويحل احدى القلاع القريبة منها .

٢٤ - فلح أرسلان - أحد أمراء الترك - يسرد المكان المذكور آنفا ويقتل بالسيف كل من وجده فيه .

٢٥ - الجيش الصليبي يحرك بكافة عساكره ضد قلج أرسلان لقتله اخوانهم التسونون ، ولكنه يلقى الهزيمة وهو يحاربه .

٢٦ - فلج أرسلان المنصر على شعبا يدمر المعسكر ويأخذ من وجده فيه ما بين قنبل وأسير ، ثم يمضى لمحاصرة مدينة سنفسوت ، غير أنه يرنده على أعقابها حين يسمع برسالة الامبراطور .

٢٧ - القسيس السيونى حوتسوك يصل الى المجر وهو يقود جبنا ثانيا ولا يردد فى ارتكاب أعمال فاضحة فى حق المجريين يعف اللسان عن روايتها .

٢٨ - رساله ملك المجر الى المدعو جوتشوك وجيشه والقضاء على هذا الجبس قضاء مبرما .

٢٩ - كنف أن جمعا كبيرا من العوم المفونين الذين
خرجوا في أعقاب الجماعات الأولى راحوا يفلون
اليهود ويسيرون فى غير نظام .

٣٠ - فلعة فيزنبرج ومصرع سبعمائة محرى ، ثم
بيان كيف هلكوا أخيرا بارادة الهية وفتلوا جميعا
تقريبا على يد العدو .

هنا يبدأ الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت
المقدس وبطرس الناسك يبدأ
الزحف مع جماعات أخرى

- ١ -

تذهب التواريخ القديمة والرواية السرفبة للقول بأنه فى زمن
الامبراطور الرومانى هرقل بدأت بعالم محمد [صلعم] تسبت
أقدامها سبيتا فويا فى السرف .

ولما عاد هرقل من فارس متوجا بأكاليل النصر عاد أيضا
بصليب المسيح ، وأقام فترة من الزمن فى بلاد الشام رسم خلالها
« موديستوس » المبجل أسقفا لمدينة القدس التى كان خسرو - كسرى
فارس الطاغية - قد خرب كنائسها ، فعهد الامبراطور الى
« موديسنوس » هذا باعادة ترميمها ، أخذ العهد على نفسه أن ينفق
من ماله الخاص كل ما يتكلفه هذا الترميم .

فى هذا الوقت بالذات كان عمر بن الخطاب - ثانى خلفاء محمد
[صلعم] فى مملكته وملنه - قد اسولى على عزه - احدى مدن فلسطين
الشهيرة - بجيش لجب من العرب لا يحصيه العد ، ثم ما لبث أن

نمكن بما يحب يده ، من الكنائس والحسود التي جمعها أثناء زحفه
أن يفتح بلاد الدماشقة ويستولى على دمشق ، كل ذلك والامبراطور
هرقل في فيليقية « لا يعمل شيئاً سوى مراقبة الأحداث في بطورها ،
فلما جاء الخبر بأن العرب قد دفعهم اعسادهم الكبير بجموعهم
الضخمة الى عرو الأراضى الرومانية ولم يترددوا في ضم مدنها اليهم
أدرك أن فوه ليست كافية لصد مثل هذا الجش وقمع غلوائه ،
فأثر السلامة بالرجوع الى بلده ، بدلا من أن يقاتل فواب لا نكاؤها
فواه ، وألا يغامر صدها في حرب لا يعرف ما سمحض عنه ، وكان
الاهالى المغلوبون لا يطمعون الا في حمايته اياهم ، لكنه غادرهم
فازداد بأس العرب شدة مما ساعدهم في رمس وجير على الاسيلاء
على جميع البلاد الممتدة من اللادفية بالسام حتى مصر .

ولقد شرحنا في كتاب آخر ، وفي دفة بالعة ، ما كان من شأن
محمد [صلعم] ومسى كان طهوره ، كما ألمنا بالأحداث التي اسهب
الى أن يعلن أنه النبي المرسل من الله ، كما وصفنا هناك أسلوب
حياته ودعونه والأراضى التي بسط عليها سلطانه ، وكم عاش من
السينين وذكرنا حلغاه وكف ابغوا طربنه في شر هذه المبادئ
في أرجاء الدنيا .

- ٢ -

لقد كانت هناك ظروف حاصه سهلت فتح الشرق ، ذلك أنه
قبل سنوات قلائل من هذا الفتح فام خسرو - الذي أشرنا اليه حالا -
بغزو بلاد الشام بالسيف ، فدمر المدن ، وأحرق ما حولها من البقاع ،
وهدم الكنائس ، وزج بالناس في السجون ، ثم استولى على المدينة

المقدسة ، وقبل بحد السيف سنه وبنالين الف من اهليها ، ثم
رجع الى فارس حاملا معه الصليب الأعظم ، هذا الى جانب استصحابه
ايضا « روبرت » اسقف بيت المقدس اسرا وكذلك من بهي على قيد
الحية من سكانها ومن اهالى السواحي المجاورة .

كان هذا الحاكم العارسي الجبار قد تزوج من ماريه احدى
بنات الامبراطور [البيزنطي] موريس الذي كانت تربطه روابط
الصداقة القوية بالبابا المبارك جريجورى [العظيم] الذى عمّد أحد
أطفال الامبراطور عند حوض المعمودية ، كما أن خسروا عمده هو
الآخر ارضاء لحاظ روحه وطل محافظا على ما ببسه وبني الروم
من العلاقات الودية طيله حياه موريس الذى مات فحلله على العرس
الغيسر فوكاس بعد أن غدر بموريس فاعتاله ، واد داك أعار الملك
حسرو على الامبراطوربه ورحف عليها بجس حرب الاراضى السابعة
لها ، وذلك بسبب تفززه من خيانه أولئك الذين ارضوا أن يولوا
أمورهم رجلا دينيا قد لطخب يدها بدم مولاه ، فعدهم خسرو شركاء
لهوكاس فى اتفاق سرى واعبرهم حلفاء فى الجرم ذاته ، كما أن
زوجه ماريه راحب هى الأخرى نزيد ما بصدرة من غضب من أجل
النار لأبها ، فلما فرغ كسرى من فتح بقية الأراضى النى كانت تحت
الحكم الرومانى كانت بلاد النمام هى آخر ما استولى عليه كما فلما ،
فقتل من أهلها من قتل ؛ وأسر منهم من أسر وساقهم معه الى فارس .

لذلك لما دخل العرب بلاد [النمام] وجدوها خالية قد غادرها
أهلها ، فبادروا لاغنام الفرصة النى لم يكونوا سوفعوها
لبسط سلطانهم ، وفرضوا نفس المصير على مدينة القدس الحبيبه
الى الرب وان منوا بالحياة على سكانها القلائل ممن لا زالوا مقيمين
بها عساهم ينفعونهم فى جمع الجزية التى فرضوها عليهم ، غير أنهم
سمحوا للمغلوبين أن يعبدوا ترميم ما دمر من الكنائس ، وأداء

سعائرهم الدينية ، كما أبقوا لهم أسقفهم ، وأذنوا لهم بممارسته
الديانة المسيحية بلا قيد .

★★★

وفي أثناء اقامة عمر [بن الخطاب] ببيت المقدس راح يستقصي
في دفة عن موضع هيكل (١) السد ويسأل عنه الأهالي لا سيما
الأسعف الموفر « سفرونوس » حليفه « موديسوس » الطيب
الذكر ، ويقال ان الأمير الروماني « تبتس » هو الذي دمر هذا
الهيكل أثناء تخريبه المدينة ذاتها ، فدل القوم [عمر] على موضعه
وأشاروا الى ما سقى من أطلال ضئيلة نشير الى هذا الأثر القديم ،
واذ ذاك أمر [عمر] بإعادة بنائه ، ورصد فدرا كبيرا من المال
للفقة على ذلك الغرض ، كما حلب لبائنه العمال ، وحمل اليه
— عن طيب خاطر — شتى مواد البناء اللازمة له من الرخام والخشب ،
فما لبث الهيكل أن كمل في زمن قصير ، واستوى على الصورة التي
رسمها عمر له في ذهنه ، والني يراها اليوم زائر القدس .

ثم أوقف [الخليفة] على الهيكل كثيرا من الأملاك الفسيحة
الغنية التي كان دخلها كافيا للحفاظ عليه سليما ، وللصرف على
تجديد أجزائه القديمة ، وزوده بمصاييح لا نطفى أنوارها أبدا
بفصل أولئك الذين يقومون بالخدمة فيه .

لكن لما كان كل واحد يعرف تمام المعرفة شكل هذا البناء
ونفاة صنعه فان تفصيل ذلك ليس من شأن هذا الكتاب الحالي .

على أنه توجد داخل هذا البناء وخارجه آثار قديمة قيمة ،
ونقوش عربية محلاة بالفسيفساء التي يعتقد أنها راجعة الى هذا
العهد ، وهي توضح اسم بانيه ، وما أنفق عليه وتوارين ذلك كله
منذ البداية حتى كمل البناء .

(١) يقصد بذلك كيسة القيامة .

لقد دانت المدينة المقدسه - حبيبه الرب - لحكم الأعداء بسبب خطايانا وحملت على مدى أربعمائنه وسعين سنه فيدا لا سنحقه وعانت المشقة على الدوام رغم اخلاف ظروف هذا الأسر بعضها عن بعض ، وكان تغير الأحداث المستمر يتمثل في بديل ولائها وحكامها الواحد بعد الآخر ، كما مرت عليها مرار وضاءة وأخرى كالحه بعا لطبيعة كل حاكم نؤول اليه معاليد الأمور بها ، وكان حالها أشبه بحال مريض نتحسن صحته تارة ، وسوء أخرى بغير الأيام ، ولكن السفاء كان أمرا مستحيلا ما دامت في قبضة حكام طغاة وشعب لا يدين بدينها ، بيد أن السلام رفرف بجناحيه على شعب الله اباان عهد ذلك الحاكم الجدير بكل ساء ، وأعسى به هرون الملفب بالرشيد الذي دان له الشرق ، والذي لا زال تسامحه وعطفه النادرى المنال وطبيعته الرائعة محل تقدير عميق وثناء لا ينقطع فى السرو حتى اليوم .

ولقد قامت العلاقات الطيبة بين هرون وبين المسيحيين على أساس من التفاهم الرائع الذى أرسى دعائمه الامبراطور الورد الخالد الذكر « شارلمان » عن طريق السفراء المستمرين جيئة وذهابا ، وكان الود العظيم من جانب ذلك الخليفة مصدر راحة كبرى للمؤمنين ، حتى لكانهم يعيشون فى ظل حكم الامبراطور شارل وليس نحت حكم هرون ، ونطالع فى سيرة ذلك الخليفة الشهير قول القائل « ان علاقات شارلمان مع ملك الفارسيين (١) هرون صاحب السلطان على كافة أنحاء العالم - باسنثناء الهند - كانت علاقات كريمة حتى ان الأمير [شارلمان] كان يؤثره بمودته على سائر ملوك الدنيا وحكامها، وكان يرى أنه لا ينبغى أن يكون التعظيم والاجلال الا له وحده دونهم جميعا ، ولما وفد على هرون الرسل الذين بعثهم شارلمان لزيارة القصر

(١) بعثه بذلك المسلمين .

المقدس وكنيسة القيامة ودخلوا عليه بالهدايا والحف ، واعلموه
بما جاءوا من اجله ، وافصحوا له عن رغبة مولاهم لم يذهب هروا
باجابهم الى كل ما سألوه اياه بل راد فمكتهم من ملذية هذا المدن
واعبأه من امرك سارلمان ، فلما حو موعد اوبه الرسل الى مولاهم
أوفد الرشيد سفراء من قبله الى سارلمان ، حاملين اليه هداياه البسية
من الباب الحريري والوابل وغير ذلك من منسجات الافطار السرفية ،
كما كان قد أرسل قبل بضع سوا من ذلك انباريح الى سارلمان
- بناء على رجائه - فيلا كان الوحيد عنده اد داك :

وكان سارلمان يمد يد العون السحي على الدوام لمن يعبس في
القدس من المؤمنين الموجودين تحت حكم الماريين ، كما سمل بره من
كان منهم يسكن مصر وافريقيا التي يحكمها السرفيون المعصبون ،
ونعرا في ترجمه حياته « انه لما كان سديد القوى فقد جرب عادة
على بسط يده بالمال للفقراء في سحاء بالبحر ، سماه الاعريق بالركاه ،
أحدا نفسه بهذا العمل عطفا منه عليهم لسد حاجتهم ، ولم يقصر
فعله هذا على من هم في ملكته ، بل تعداهم الى كافه المسيحيين
الذين يعسسون في مربة حتى ولو كانوا وراء البحار في بلاد السام
ودصر وبنت المقدس واسكندرية وقرطبة .

أما الدافع الخاص الذي حملة على عقد أواصر الصداقة مع
الملوك فهو طمعه في أن يتمكن من مد يد الغوب والمباعدة لمن
يعسسون تحت رحمة هؤلاء الحكام .

وإذا أراد العارء الوقوف على ما كات نكايده القدس : مدنة الله
وما حولها من شدة بسبب كثرة البغرات للظروف والأحوال خلال
هذه القمه الانقالية ، فليقرأ كتابي المسمى « تاريخ أعمال أمراء
المشرق » فقد أجهدت نفسي في أن يكون سجلا شاملا لأحداث حولنا
خمسائة وسبعين من السنين ، أعني منذ زمن محمد [صلعم] حتى
الوف الحاصر . وهو سنة ١١٨٢ من مولد المسيح .

كان هناك في ذلك الوقت صراع موصول الحلقات بين المصريين والفرس أشعلت جذوته المنافسة الضارية بينهما حول الزعامة ، على أن الأمر الذي لا يكره احد هو أن كل واحد من هاتين الامم كذب بعض مذهبيا يخالف المذهب الذي تعسفه الأخرى تمام المحالفة ، مما أدى الى حد كبير الى اثاره شعور البعض بينهما ، ولا يرال احلاف المذهبين الدينيين بينهما حتى اليوم هو موضوع الجدل الناشب بين هاتين الامم سوبا أفصى للقضاء على كل براحم بينهما ، حتى ان كل واحدة منهما تعتبر الأخرى كافرة ، وقد ذهب هذا الشعور مذهبيا بعيدا أدى برغبة كل منهما في محالفة الأخرى حتى في الاسم ، فيطلق أنباع المذهب السرقى على أنفسهم اسم « أهل السنة » على حين أن الذين يؤثرون اباع المذهب السرقى المصرى - وهو أقرب ما يكون اليها - يطلقون على أنفسهم اسم «السعة» غير أن سرح الاخلاف في الخطأ بينهما لا يدخل في نطاق هذا الكتاب .

وقد أخذت مملكة مصر رداد قوة يوما بعد يوم اد اسولت على الولايات والأقطار الممتدة حتى أنطاكية ، كما وقع في يدها مدينة القدس وغيرها من المدن التى خضعت لبعض العواوين ، وربب على ذلك أن خفت بعض الشئ متاعب المسيحيين الذين دخلوا تحت سيطرتها ، شأنهم في ذلك شأن سجناء يسمح لهم بالتمتع بعسل من الاسنجمام ، وأخرا أصبح الحاكم [بأمر الله] خليفة لهذه المملكة حزاء وفاقا للؤم الانسان ، فجاوزت خطايا هذا الخليفة خطايا جميع سابقيه ولاحقيه على السواء ، حتى غدا اسمه مضرب الأمثال عند الأجيال التالية التى تطالع خبر جنونه ، وكان هذا الرجل مشهورا بشئى ضرؤب الاثم والاجترأ على ارتكاب المعاصى مما جعل حماه - وهى كربة تند الله والحلى معا - سنحوق رسالة خاصة فائمة

بدايتها ، فكان من الأفعال الذميمة التي اجتريها قيامه بهدم كنيسة القيامة التي شيدها في الأصل « ماكسيموس » الموقر أسقف بيت المقدس بأمر الامبراطور قسطنطين بم أعيد ترميمها - زمن هرقل - على يد « موديسوس » الموقر .

وكان والى الرملة واسمه « ياروق » وهو أحد رجال الحاكم بأمر الله - فد أخذ على عاتقه تنفيذ أمر الخليفة ، وسرعان ما أعمل معول الهدم في البناء حتى سواه بالأرض ، وكان رئيس الكنيسة يومذاك هو «أورييسوس» المعظم حال من هذا الخليفة السبعة ، وتقول الرواية ان الخليفة اتخذ هذا الاجراء البعيد المدى ليبرهن لأهل مله على مدى اخلاصه للمله ، اد كانوا ينعتونه بالنصراني قدحا فيه ونبلا منه لانه ولد من أم نصرانية ، ومن ثم حملته الرغبة في محو هذه التهمة منه على أن يقترب تلك الجريمة ، ولما كان يعتقد أن لن يكون هناك بعدئذ اتهامات توجه الى شخصه وان خصومه لن نواسهم الفرصة بعد ذلك لشن حملات ضارية عليه فقد هدم مهد الايمان الكاثوليكي الذي تصدر عنه الديانة المسيحية .

- ٥ -

أخذت أحوال مسيحيي بيت المقدس منذ ذلك الوقت تزداد سوءا ، ولا يرجع ذلك فحسب الى ما يشعرون به من حزن تقسم بسبب هدم كنيسة القيامة المباركة ، بل وأيضا الى الأعباء المترتبة التي يفاسونها من جراء مختلف الخدمات المفروضة عليهم ، فقد وجدوا أنفسهم مطالبين بدفع اتاوات وضرائب باهظة ينوء بها كاهلهم ، ويرفضها العرف وتشجيعها الامتيازات التي منعم اياها حكامهم السابقون ، هذا بالإضافة الى منعهم من أداء شعائرتهم الدينية التي

كانوا يمارسونها سرا وجهرا تحت حكم الولاة المحلطين ، وكانوا كلما ران عليهم ظلام الأيام ألزموا بالبقاء داخل بيوتهم فلا يجرؤون على الخروج بين الناس ، بل انهم لم يعودوا يرون بيوتهم ملجأ أما لهم ، فقد كان خصومهم يحصبونهم بالحجارة ، ويرمونهم بالفادوراب ويسبون عليهم هجمات وحشية ويلاقون هم من الازعاج أشده ، لاسيما في أعينهم الخاصة ، وكانت الشهمة العابرة يرمهم بها أى فرد كافية لجرهم بالعنف وتوقيع القصاص عليهم ونعديهم من غير محاكمة ، كما تصدر بضائعهم وبجاراتهم ، وسهب أملاكهم ، ويخطف الناس أبنائهم وبناتهم أمام أعينهم ويرغمون بالجلد تارة والكلمات المعسولة والوعود الكاذبة نارة أخرى على جب دينهم ، فان لم يفعلوا ذلك صب خصومهم عليهم حام غضبهم ، وأذاقوهم العذاب ألوانا وبصوا لهم المشائق .

وكان بطركهم الموجود آنذاك هو الذى يتحمل فى بادئ الأمر هذه البلايا وتلك الاهانات ، ثم أخذ بعدئذ يحض أهل مله - سرا وجهرا - على النمسك بالصبر ، ويعددهم بأكاليل الشهادة - فى العالم الآخر - نتخذ على رؤوسهم حزاء ما تحملوه من الشرور الدنيوية ، فكانت كلماته الهاما لهم ولبسما لجراحهم فاقتدوا به ، وراح كل منهم يواسى الآخر ويشد من عزمه ، يفعلون ذلك فى حب متبادل ، فاستهانوا بالأهوال الدنيوية بلقوها فى سبيل المسيح .

وان الامر لبطول بنا جدا لو تكلمنا عن الحالات الفردية ، أو تحدثنا عن ضروب التعذيب الجثمانى الذى تحمله خدام المسيح هؤلاء بصبر يرجون منه أن تزلف لهم الجنة ، لكننى أسوق مثالا واحدا من أمثلة جمة لتدرك جلالتهكم لماذا كانت أتفه الأسباب تؤدى بهم الى ورود حوض الردى ، ذلك أنه كان يعيش بين ظهرائى قومنا فى مدينة القدس واحد من الأشرار الفجرة الذين انطوت نفسه على كراهية سوداء لاهلنا كانت تحمله على الدوام لاضطهادهم ، فدرد

هذا الرجل مكبده فيها هلاكهم ، اد انسل جلسه داب ليله حاملا حيفة كلب بم ألقاها في ساحة الجامع الذي كان القوامون عليه - كذلك أهل الدينه كلهم - حريصين أشد الحرص على بقاءه البامه ، فلما أهل فجر اليوم التالي أفبل ، المصلون على المسجد لاقامه انصلاه ، فوجدوا حقه الجبوان النجس يصاعد منها الس ، فثار باثرينهم ، وبعالت صرخاتهم حتى صبح المدينه كلها على صياحهم ، وأسرع الناس الى المسجد ، فأجمعوا الرأي كلهم - دون أن يسد عنه أحد - على أن مسئولة الحادث تقع على كاهل المسحجين وحدهم .
وماذا كان بعدئذ .

لقد تقرر اعدام جميع النصارى باعبار أن الموت ولا شيء سواه - هو وحده الذي يمكن أن يكفروا به عن هذا الدنس ، فأهبط المؤمنون - وكلهم ثقة ببراءه ذيلهم - لنحمل الموت من أجل المسح ، وببما كان الجلاذون يتقدمون مسهرين سيوفهم ويوشكون أن يعقدوا الأوامر الصادرة اليهم اذا بساب يافع يفيض قلبه بالنحوه يقدم الجموع جاعلا نفسه الفداء لهم ويقول لهم :

« أيها الاخوة .. ستكون أكبر نكبة أن يهلك الكسسه كلها بهذه الطريقه ، وانه لأجدي أن يقدم واحد حيانه فداء للناس جميعا فلا يهلك السعب المسيحي جميعه ، فعُدوني أن نكرموا ذكرى سيويا ، وأن توقروا أسرتي الى الأبد ، وتخصوها بالنسريف ، ان خلصتكم بأمر الرب ، فان عاهدتموني أن نفوا بهذه الشروط خلصتكم جميعا بأمر الرب من هذه المذبحة » .

وانصت المسيحيون الى كلماته في فرح شديد ، وأبدوا اسعاداتهم للوفاء له عن طيب خاطر بما سألهم ، ووطعوا على أنفسهم العهد أن يخرج في يوم عند الشعانين موكب مهيب ممن هم من ذريته ، يحملون الى المدينه أغصان الزيتون رمزا لسيدنا يسوع المسبح :

حيثذاك أسلم الساب نفسه لوجوه أهل بيت المقدس ، معلنا لهم أنه هو الذى افترق ذلك الجرم ، فبرأب بذلك ساحة المسبحين الآخرين ، اد ما كاد الغضاة يسمعون قصه حتى صفحوا عن بفيه قومه ، أما هو فقد ضلوه بالسيف ، وهكذا قدم حياته من أجل اخوته ، وقابل الموت بعزم كريم ، وبام أطيب نومه مباركته وهو واثق كل الثقة أنه قد حظى بعطف الرب .

- ٦ -

ولقد نأى أحيرا أن حلب السفغة الالهية والعطف الربانى على هذا السعيب المنكوب حين وافاه العون الكريم بالرحمة بوضعه البائس ، اد فارق الأمير الخبيث الدنيا ، ومعد من بعده ابنه « الظاهر » معالند السلطة ، فاجنث الاضطهاد من جذوره ، وجدد الانعاقبه التى نعضاها أبوه ، وأحكم روابط الصداقه مع رومانوس امبراطور القسطنطينيه الملقب بلهيوبوليس ، الذى اسجابه الظاهر لرجائه فأدب للنصارى باعاده وبسييد الكنيسة ، لكن على الرعم من حصول مؤمى القدس الاتقياء على هذا الاذن الا أنهم أدركوا أن مواردهم المائلة وحدها عاجزة عن اعاده بناء أثر عظيم كهذا الأثر ، ومن تم أرسلوا سماره الى « قنسطنطين مونوماخوس » الذى ولى العرش بعد « رومانوس » وصار اليه الصولجان والناج فتضرع اليه السفراء باكين بين يديه ، ووصفوا له ما تكبدته الناس من حزن ممض وسعاء بالغ بسبب بدمر كنسيتهم . وضرعوا اليه أن يعمهم سخاؤ الامراطورى لتمكنوا من اعادة سبب الكنيسة ، وكان القوم قد عهدوا بعهده السفارة الى رجل من أهل القسطنطينية اسمه « جون كاريايسيس » جمع بين شرف الأصل ونبل الخلق ، قد نبذ وراءه ظهريا جميع مباحج

الدسا من أجل حلقة المسيح وصرف همه لرعايه الله ، وكان جون هذا يعيش يومئذ فى بيت المقدس ، عارفا عن الدنيا ، باهجا بهج الفقراء من أجل المسيح ، فباط القوم به هذه المهمة فأذاها صابرا غير مقصر، وأخلص فى عرصها بين يدى الامبراطور المبجل حبيب الله . وبجع فى مسعاه ، اذ وعده فسطنطين من ماله بالمال اللازم للسير فى اجراء اب اعادة البناء ، وزاد فجعل هذه النفقة المالة من جيبه الخاص ، فلما أنجز جون مهمه على الوجه الأكمل آب الى بيت المقدس والفرحة نغمه لحصوله على الوعد الذى كان المؤمنون يلهفون عليه .

وعلم القاصى والدانى بنجاح رحلته ، وتوفيقه فيما حصل عليه ، فارتفعت معنويات رجال الدين والناس جميعا ، وبدوا وكأنهم قوم أبلوا من مرض خطير ، وكان رئيس تلك الكنيسة فى ذلك الوقت هو البطررك « نفقور » .

لم يكذ الناس يتأكدون من منحهم الاذن بالبناء وحصولهم على المال من الخزانة الامبراطورية حتى شيدوا كنيسة القيامة المجددة التى لا تزال حتى اليوم فى القدس ، وكان ذلك سنة ١٠٤٨ من ميلاد المسيح ، أعنى قبل تحرير المدينة بواحد وخمسين عاما ، وبعد هدم الكنيسة سبع وثلاثين سنة ، فلما كمل البناء واستقام عاليا رأى الناس فيه عزاء لهم عما كابدوه من الأهوال والأخطار القاتلة التى تعرضوا لها من قبل .

بيد أن الشعب المؤمن لم يخلص تماما من المتاعب والبلايا التى لم تتوقف عن أن تصيبه بين آن وآخر ، فكم تعرض للبصق والصفع ، وطالما زح به فى السجن وكبل بالقيود ، ولم يقتصر الأمر فى الاضطهاد على من كانوا بالقدس وحدها من المسيحيين بل تعداهم الى من كانوا يسكنون فى بيت لحم « وتكوا » أيضا ، ولم يحدث

أن جاء وال جديد أو أرسل الخليفة نائبا عنه الا تجددت الاهداءات
منصب على رأس شعب الرب المتدين الذي لم يقصر أبدا في الوفاء
بكل ما هو مفروض عليه ، ثم يهدد بعد ذلك مباشرة بهدم الكنيسة ،
حتى صارت هذه المعاملة عادة تتجدد كل سنة تقريبا .

**واصطنعت شتى الطرق لايتراخ هذا الشعب ، فاذا أراد
مضطهده اغتصاب أى شىء منه أو من البطرك وتلكا هؤلاء فى
الاستجابة هددوا فى الحال بهدم كنيستهم .**

وكانوا يعانون كل سنة على وجه القريب هذه المعاملة ، فيدعى
النواب الجدد أن أوامره ولاهم صريحة بتسوية الكنائس بالأرض
فى الحال ان تجرأ أصحابها على التأخير فى دفع الجزية والضرائب
المفروضة عليهم .

لكن على الرغم من ذلك فان المسيحيين نعموا – على طول مدى
حكم المصريين والفرس – بأحوال معيشية أطيب من التى عاشوا فى
ظلها بعد أن بسط الترك سلطانهم ومدوا نفوذهم على ممتلكات
المصريين والفرس ، اذ أخذت أحوالهم تزداد سوءا مرة أخرى منذ
أن أصبحت المدينة المقدسة تحت اشراف الترك ، كما قاسى شعب
الله (على مدى ثمانية وعشرين عاما من الحكم التركى) شقا أعظم
هولا من المشاق التى عاناها تحت نير المصريين والفرس والتى بدت
فى نظره أقل فداحة .

وسوف نتحدث كثيرا عن الترك في هذا الكتاب وعن عدوانهم على شعبنا كما سنقص أيضا أخبار البطولة المجيدة التي طاملا فما بها ضدهم ولما كانوا قد دأبوا منذ ظهورهم حتى الآن على الإندفاع الطائش في مهاجمتنا فانه يبدو من الأوفق في الكتاب الحالي أن نعدم موجزا عن نشأة هذا الجنس وتاريخه القديم ، ونتكلم كذلك عن بيوته مقعد العظمى التي شهد الأخبار أنهم حافظوا عليها آمادا طويلة .

لقد جاء جنس الترك أو التركمان (وهما من نبعه واحد) في الأصل من المناطق السهلية ، وهم قوم معرطون نبي الفطاطة ولا يقيمون في مكان واحد ، بل كانوا يجولون على الدوام ههنا وهناك سعيا وراء المرعى النضير لقطاعهم ، ولم تكن لهم مدن أو قرى أو أماكن معينة يستقرون فيها ، فان رأيت احدي القبائل أن يعير مكانها شدة بآجمعها رجالها وخرحت تسعى وقد نصبت عليها شخا يكون أكبر رجالها سنا ، وهو الذي يرفع اليه القبيلة سبي مشاكلها فيقضى فيها بما يرى ، ويلتزم المحاصمون بطاعه فيما قدر وقرر ، لانه لم يكن مسموحا لأحد ما أن يسع هوى ذاته ويحالف ما يقضى به السخ ، وكانوا يأخذون معهم أثناء تجوالهم حمى ما يحتاجونه من علف الجناد ، ويستصحون معهم الماشية والعصم وكذلك عبيدهم ونساءهم ، وذلك كله هو جميع ما يملكون .

وهم لا يهتمون بالزراعة ، ولا يعرفون البيع ولا السراء ، ولبس لهم من وسيلة في الحصول على ضرورات الحياة سوى المقايضة فان أعجبهم موضع معشوشب لطيف وأرادوا النزول به فترة من الوقت دون اضطراب أرسلوا من قبلهم طائفة من أعقل رجالهم الى صاحب الحاجبة يسألونه أن يأذن لهم بضرب خيامهم هناك ، فاذا انهوا الى

اتفاق مرض على دفع قدر معين دفعوه لحاكم هذه الناحية ، ثم يقيمون
بعد ذلك فى العابات والمراعى وفق السروط المبرمة .



وحدث ذات مره أن انفصلت طائفة من هؤلاء الناس عن سواها
ودخلت بلاد فارس ، فوجدت الافليم ملائما كل الملامه لاحتياجاها ،
ودفعت للحاكم ما اتفقوا سعه عليه فى البداية ، وأقاموا هناك ردحا
من السنين أطول مما جرب به عادتهم ، ورايد خلال هذه العرة
عددهم رياده هائله ، والواقع أنه لم يكن هناك حد نفث عنده
كربهم ، حى انتهى الأمر أخيرا بملك فارس والأهالى أن يحرقوا
من نزايد عددهم الكبير ويوجسوا حيفه منه ، فراحوا يقلبون الأمر
فيما بينهم حنى انتهى بهم الى وجوب استعمال القوة فى طرد هؤلاء
الدخلاء من مملكتهم ، لكنهم ما لبثوا أن رأوا بغير هذه الحطة ،
فأضافوا مطالب حديد زادت من المصاعب المراكمه دون أن يخف
الضغط المعاد ، وكانوا يطمحون أن يؤدى هذا الأمر الى ارهاقهم
ارهاقا يحملهم على الزوح من تلقاء أنفسهم ومن غير ضغط عليهم ،
ومع ذلك فقد ظلوا أعواما طويلا بعد ذلك متحملين عبئا ثقيلا من
الماعب ، كما أرهقهم الاناوات المفروضة عليهم ، وأخيرا نشاوروا
فيما بينهم فقر رأبهم على أنه لم تعد لهم طاقة على تحمل ما هم فيه .

فلما علم الملك بذلك أمر المبادئ أن ينادى بوجوب رحيلهم
جميعا من أرجاء المملكة فى فترة معينة لا يتجاوزونها ، ومن ثم عبروا
نهر « كوبار » وهو حد المملكة فى تلك الناحية ، واغتنموا الفرصه
اذ ذاك لاقامة جموعهم الكثيفه ، فلما تهيأت لهم الحياه فى فبسحة
من الأرض وفى رقعة أوسع مما كانت لهم من قبل تأملوا ما هم فيه
من الكثرة ، فراعهم أن يستبكين جيش كبير لا يحصيه العد كجيشهم
هذا لصلف أى أمر ، وعجبوا من أنفسهم أن يتحملوا شتآن الخدمة

ودفع الجريه وكان من الجبل أنهم يماللون العرس وغيرهم من السعوب في العدد والبأس ، وبدا لهم أن العقبة الوحيدة التي تقوم أمام احتلال الأراضي المجاورة بالقوة إنما يرجع لعدم وجود ملك تتولى أمرهم ، كما هو الحال في بقية الأمم الأخرى .

لذلك قرروا أن يولوا عليهم ملكا فاستعرضوا قومهم جميعا فوجدوا من بينهم مائة أسرة لها الصدارة على غيرها ، فأمرؤا أن يخرج رجل من كل أسرة ومعه قوسه ، فتجمعت بين أيديهم حزمة فيها مائة قوس بعدد العائلات ، واذ ذاك استدعوا صبيا صغيرا وأمرؤه أن يسحب سهمها واحدا بعد أن غطوها ، وكان الاتفاق بينهم على أن يتم اختيار الملك من الأسرة التي منها السهم الذي يسحبه الصبي ، وشاءت الصدفة أن يكون السهم المسحوب هو سهم السلاحفة فكان الملك الذي يلي أمرهم في المستقبل من هذه الأسرة حسبما جرى عليه اتفاقهم .

ثم أمرؤا باختيار مائة فرد من السلاحفة اشترطوا فيهم أن يكون كل واحد منهم أكبر رجال عشيرته سنا وأعظمهم خلقا ، وأحسنهم طبعا ، وأكثرهم اقداما ، ثم يتقدم كل واحد من هؤلاء برمح عليه اسمه وجعلوا من هذه الرماح مرة أخرى حزمة وأحسنوا غطاءها ، ونادوا ثانية على الغلام ذاته (أو آخر في مثل برادته) وأمرؤه أن يسحب رمحا فكان الرمح الذي سحبه الصبي يحمل اسم سلجوق .

وكان سلجوق هذا رجلا جميل المنظر من أسرة مرموقة ، قد ذاع أمره وصيته في عشيرته ، وعلى الرغم من كبر سنه إلا أنه كان قوى البنية . فد طال ممرسه فن الحرب ، وكان كل شيء فيه يشير الى أنه أمير عظيم .

نُصَّبَ الرجل باجماعهم كبيرا عليهم ، ووصعوا في يده السلطة الملوكية ، ووفروه التوفير الواجب نحو الملك واصسموا على طاعته وقطعوا له يمين الولاء الصادق بسفيد كل ما يقضى به فيهم ، فبادر هذا الملك في الحال الى استخدام السلطة الموكلة اليه بعمل على ما فيه حير المملكة وبعث المنادى في الناس المجسمين أن يعبروا النهر من جديد بكل كتائبهم وأن يحتلوا أرض فارس التي غادروها منذ قليل ، كما أمرهم بالاسيلاء على المملكة المجاورة حتى لا يضطروا في مستقبل أيامهم أن يهيموا على وجوههم في أرض الغير ، وحتى لا يكونوا عرضة لاسنبداد غير محتمل من الشعوب الغريبة عنهم .

وتمكنوا في مدى سنوات قلائل من اكنساح بلاد فارس وجميع الممالك الشرقية والتغلب على بلاد العرب وغيرهم من أصحاب النفوذ والسلطة من الأمم الأخرى ، وهكذا أتبع لهذا الشعب البسيط التافه أن يسسم فجأة معارج الذروة ويتبوأ القمة حتى ملك الشرق كله .

وكان حدوث ذلك قبل ثلاثين أو أربعين عاما من قيام أمرائنا الغربيين بحمله الحج التي هي موضوع هذا الكتاب .

ولكى نفرق على الأقل في الاسم بين هذه القبائل التي نصَّبت عليها ملكا فنالنها الشهرة العظيمة وذويوع الصيت وبين أولئك الذين لا زالوا محتفظين بأسلوب حياتهم الخشن القطرى فانا نقول ان الجماعة الأولى تعرف الآن بالترك ، وأما الثانية فتعرف باسمها الأصلي وهو « التركمان » .

ولما ترك للترك عرو جميع ممالك الشرق بطلعوا لفسح مصر القوية فزحفوا على بلاد الشام ، واستولوا على بيت المقدس واحتلوا عدة مدن قريبة منها فزادوا من متاعب المؤمنين الساكنين هناك زيادة أرهقتهم كل الارهاق لما فرضوه عليهم من أعمال يؤدونها لهم ، كما أشرنا الى ذلك حالا .

لم يكن المؤمنون في السرق وحدهم هم الذين أتاح عليهم
الطعام بكلدتهم بل لقد صعب الإيمان ووصى نبي العرب ونبي داف
انحاء الارض ، لا سيما بين من كانوا يسمون بالمؤمنين فملاست
حسنة الله من قلوب الناس ، وضاع العدل من الارض . وانعدم
الطمأنينة اذ فسى العنف بين الامم ، وساد العس وعمت الخيانة
والخديعة والاحتيال كل صفع وناد ، وطويت كل فضيلة . ثم يعد
وجود لها وصارت عدما واربع رايه السر مكابها . والندى لا مراء
فيه هو أن الدنيا قد بدت وكأنها منحدره في هوة الطام ، وأنه
قرب الموعد الباسي لظهور ابن الانسان « فقد أمسك الكيرون عن
عمل الخير ، وأصبح الإيمان في العالم غريبا ، وعمت الفوضى ، ولم
يعد أحد يراعى مكانه صاحب مكانه ، وخلل للباطر أن العالم يريد
أن يعود الفهرى الى الوراء الى وصعه الأول من الفوضى التي كان
عليها ، كما لم يعد الأمراء الكبار الذين كانوا ملزمين بالسير برعسمهم
نحو السلام مكتربين بانعافيات السلام التي تعد بين بعضهم والبعض
الآخر ، وراح كل منهم يعادل حتى لأنفه الأسباب ، وعادوا في الأرض
فسدا يحرقون كل ما يلاقونه ، ويسسون على العرائم التي
وجدوها ، ومكنوا أبناعهم السفله الأوعاد من اعصاب ما بملكه
العمراء ، ولم يعد وسط الكوارث الجمه طمأنينه على أية ملكيه ، وكان
مجرد النشك في حيازة الشخص لشيء ذي قيمة سببا كافيا لقبيله
والزج به في السجن حيث يلقي من العذاب الجنائي ما لا يحمل ،
ولم تعد أمة الأديرة والكنائس بمنجاة من هذا الشر ، كما لم يعد
أحد يراعى ما لممتلكات هذه الأماكن الطاهرة من امتيازات منحها
الأمراء الأنقباء لها ، وانعدم التقدير الذي كانت تضفيه عليها مكانتها
الرفعة التي كانت لها من قبل ، فاقتحمت المعابد وانتهكت حرمانها ،
وبهت الأوعنة المعدة للخدمة الديسة ، ولم يرق بد الانتهاك بين

الطاهر والدس ، واعتمد التمييز بينهما وشملت الأسلاب
فينا سملت أكسيه المدايح والأردية الكهنوية والأواشي المخصصة
لخدمة السيد ، ويعقبوا اللائدين بأقصى الأماكن الدينية والمعصم
بالاحرم المقدسه واللاجئين الى ساحاب الكائنات فطالهم ايديهم
وساقوهم الى التعذيب ، وجرعوهم كأس الردى دهاقا ، هذا الى
جانب اللصوص الطلبة الذين سملحوا بالسيوف في الطرق العامة
وراحوا يصبون الكمائن لنصيد المسافرين ، فلم ينج من بطشهم
حاج ولم يسلم من ترهم رجل دس ، ولم تكن القرى هي الأخرى
بمحاة من الأخطار لأن السفاحين المخلعين أحالوا جميع السوارع
والدروب الى أماكن نبب الخوف في نفوس الأبرياء ، وربما كان أسد
الناس عرصه للوفوع في المهالك هم أبعدهم عن السهات .

ومورست شني أنواع العجور حهرا ومن غير حياء كما لو كانت
أمرا مشروعا . ولم تعد براعي روابط القرى من الدم والرواح ،
ويخلي الناس عن العفة - وهي غاليه عند الله وملائكته - فتنبذوها
سد النواء ، وصارت الصدارة للدعارة والانكباب على السراب والهالك
على ألعاب المسر والعمار التي تحتاح الى سترات لبلبة طوبله ،
فمارسوا ذلك كله في ساحات المعاند ، واعتمد التدبر والنعف
وساوى رجال الدين بقية الناس في ممارسة الحياه غير السريعه
وصاروا كمن نقرأ عنهم في الأتساء حسب يقال :

« كما الشعب هكذا الكاهن ، وكما العبد هكذا سيده » (١)
فقصر الكهنه في أداء واجباتهم « وكلهم كلاب بكم لا تقدر أن
نسح » (٢) ، فكانوا لابنورعون عن مقابلة أى أحد « ولا نأبى رؤوسهم

(١) هوشع ٩ : ٩ ، واشعيا ٢٤ : ٢٤ .

(٢) اشعيا ٥٦ : ١٠ .

رب « (١) الخبز ، وصاروا كالرعاة الذين أهملوا قطعان الماشية
الموكول النهم حراسيها وبركوعا عرسة لهجمات الدئاب ، وبأساسوا
كلمات المسيح حيث يقول (٢) « مجانا أخدم » محانا اعطوا » ،
ولم يبورعوا عن خطئهم السموه ، فسلطوا نعار حمري (٣) .

فهل ثم حاجة لمريد من القول ؟

والخلاصة أن أصبح الصداه للردائل « اد كان كل بسر قد
أفسد طريقه على الأرض » ، ولم يستطع تهديدات الرب التي تحلب
كندير سؤم من السماء ولا الطواهر الأرضة أن بزحر من سلخوا
طريق السر ، فاسترب المجاعات وعمت الأوبئة وأرعدت السماء
بالندر (٤) ، وصربت الرلازل كبرا من السلاذ المخلفة وطهر غير
ذلك من الدلائل التي عددها المسيح في الانجيل (٥) .

ومع ذلك فلم يرعو الناس عن غنهم بل ظلوا يركبون سبي
الموبعات (٦) ، سأنهم في ذلك سأن الأعمام ننسخ في رويها (٧) .
وأهابوا الرب الرؤوف الذي يعد طويلا فكان ملهم في ذلك
مل الدس فال منهم السيد (٨) .

(١) الترميز ١٤٩ - ٥٠ .

(٢) مي ١٠ - ٨ .

(٣) اطر القصة والحر كامل في اللوك (نان) ٥ - ٢٠ - ٢٧ .

(٤) الكويين - ١٢ .

(٥) اساره الى ما ورد في مي ٢٤ - ٧ من قوله « لانه يوم أمة على أمة .

ومملكة على مملكة ويكون محاعات وأوثة ورلازل في اماكن » .

(٦) راجع قول السد المسح في لوقا ٢١ - ١١ .

(٧) راجع رساله بطرس الثانية ٢ - ٢٢ حيث قال « كايهم كلب قد عاد الى

قيته ، وحزيره معسلة في مراعة الجماء » .

(٨) راجع أرميا ٥ - ٣ ، ٥١ - ٩ « صرهم فلم يوحوا » أسيتهم وأبوا

قول الناديب » .

- « يا رب أليست عيناك على الحق • صربهم فلم يوحوا •
 أفسهم وأبوا قبول التأديب • صلبوا وجوههم أكر من الصخر •
 أبوا الرجوع » ، وكذلك قوله « داوينا بابل فلم سف » •

- ٩ -

حين فاض مرحل العصب بالرب من هذه الأمور نصى على المؤمنين الصادقين الموجودين فى أرض الميعاد أن يرسفوا فى قيد العبودية المشار إليها من قبل ، وأن يقاسوا من السدائد ما يعجز اللسان عن وصفه ، وبالإضافة الى ذلك فانه أثار عليهم حصومهم وصب عليهم سوط عذاب فابتلى الدين ظلوا حتى هذه اللحظة سادريين فى غيهم ومعتقدين أن كل شيء سيظل سائرا وفق هواهم ذلك أنه بينما كان « رومانوس » الملقب بـ « ديوجيوس » يحكم الإغريق ويدير دفة أمور المملكة فى القسطنطينية على أمم صورة من النجاح اذا بواحد من حكام فارس وسورية الأفوياء واسمه ألب أرسلان ينهض من قلب الشرق بعساكر كيفة جمعهم من سبى الأمم الحاحدة ، وكانوا من الكرة بالصورة التى عطب - كما قيل - وجه السبيطة ، كما اصطحب معه العربات الحربية والعريسان ، ومنتت حلعه قطعان الماشية والأغنام ، وكان مجهزا بكل شيء تجهيزا رائعا ، وتقدم حتى دخل الامبراطورية [البزيطه] وأخضعها كلها لسلطانه وسطر على كل شيء خارج المدن من الحقول والبلدان المسورة والقلاع المننعة دون أن يحرح أحد لصدده ولم يعرض زحفه أى معرض ، ذلك لأن كل واحد من الناس كان لا يعنيه غير سلامة نفسه ، ولا يكرت حتى بنسائه ولا أطفاله بل ولا بالحرية ذاتها ، وعلم الامبراطور فى هذه الأثناء بأن حششا قويا معادبا له كأنه السيف المسلول يهدد نقطم الرفاق قد شرع فى تخريب الامبراطورية المسححة ، فدفعنه

شده انتسعال باله الى استدعاء قواته من الفرسان وجميع المساه
الذين تستطيع الأمة تقديمهم ، اسجابه لما يفرصه الموقف الحرج .

فماذا يقول أكثر من ذلك ؟

لقد رحف الامراطور بكل ما يجمع لديه من الكائب ،
وما حشده من الفرسان الكثيرين ، ولكن زحفه كان على غير رضا من
الله فلاقى الخصم لكن بعد أن كان قد استولى على قلب الامراطورية
وأخذ ينوغل فى داخل البلاد .

ثم كاث المعركة التى سُبِت بعد ذلك فى ملازكرت معركة
ضارية ضراوة تناسب مع قوتين تعادل كل منهما الأخرى تقريبا
وتحرك كلا منهما كراهية يزيدنها عنفا ايمان شديد الصلابة ،
وكراهية لمعتقدات تعتبر الواحد منهما أن خصمه يصدر عنها عن
دنس .

فماذا نقول أكثر من هذا ؟

لقد باد الحش البصراني ، ودارب الدائرة على صفوف
المؤمنين ، وسفك العدو دماء فداها المسح بدمه ، وكان أسوأ النكبات
اللى حاقت بهم وقوع الامراطور فى الأسر .

وعاد من هذا الجيش من قيضت لهم الحياة لقصوا نبأ الكسه
اللى ألب بهم ، فاسمع الناس فى ذهول لما يقولون ، وأدى بهم
الحرن الذى استولى على نفوسهم الى الأس من حاثهم وسلامتهم ،
فأسلموا أنفسهم للبكاء الممض .

فى هذه الأثناء انتسى العدو العظم - وان يكن كافرا - بنصره
الساحق ، وأخذ يساهى بما أحرز من الظهور ، فأمر [ألب أرسلان]

باحضار الامبراطور من يديه ، وجلس هو على عرشه الملوكى ، ثم أمر بطرح رومانوس تحت قدميه ، وأراد اظهار احفاره لكل ما هو مسحى فاجد من جسد الامبراطور موطئا لقدمه ، وراح يدوسه صعودا ونزولا ، حتى اذا رضببت نفسه بما ألحقه به من يحقر وارذراء أمر طائفة من كبار رجال الامبراطور الذين أسروا معه أن يرفعوه من على الأرض ، وأذن لهم جميعا بالرحيل •



حين صك نبأ هذه الاهانة سمع أمراء المملكة بادروا الى اخسار رجل آخر ولوه أمرهم ، شعورا منهم بأن رومانوس - الذى لقي هدم الاهانات الجسدية - لم يكن بعد أهلا لحمل الصولجان ، ولا حديرا بهالات السرف التى تلبق بأغسطس ، بعد أن فضح أجبج فضيحة ، ثم سملوا عينه ، وان نكرموا عليه بالحياة لمعيش ما بقى من أيامه كمواطن عادى •



لم يصادف ملك شاه أية عقبة فى تنفيذ أهدافه ، فقد نجح فما أقدم عليه ، اذ استولى على جميع البلاد الممتدة من لاذقية الشام الى مصبق السفور الذى بنسب الى حوار القسطنطينية ، وكانت الأرض التى استولى عليها تقدر برحلة ثلاثين يوما طولا ، وعشرة أو خمسة عشر يوما عرضا واسترق جميع سكان المدن والقرى ، وهكذا (١) « غضب الرب على شعبه وكره ميراثه وأسلمهم ليد الأمم، وتسلط عليهم مبعوضهم •

(١) الزامير ١٠٦ : ٤١ •

ثم كانت مديته أنطاكية الهامة آخر ما استولى عليه ، وكانت لها الصدارة بين كثير من الولايات في النبل والروعة . إذ كانت أول مركز لأمير الحواريين ، ثم أصبحت تدفع الحرية لحصوم ملتها ، وهكذا دخل تحت سيادة المارونين - وفي زمن قصير سببيا - بلاد « كوليسيريا » بما استملت عليه من ولايات فيلقية وإيسوريا و « بامفيليا » و « ليكيا » و « كبادوسيا » و « علاطيه » وأبصا ولاينا « بوسوس » و « بسينا » وقسم من آسيا الصغرى ، وسنهر كلها بكثرة مواردها ، وكان أغلب سكانها من البصاري لكن حري عليهم الأسر ، وعلت الكنائس على أمرها وامنت اليها يد الدميم ، وانطلق الأعداء بطاردون الملة المسحقة لا يأخذهم في هذه المطاردة هواده إذ أجمعوا العزم على استئصالها ، ولو كان تحت يد ملكسياه فوه بحرية لم له ما أراد من عر حدال فتح المدينة الملوكية (أعنى القسطنطينية)، ذلك لانه بب في نفوس الاغريق من الرعب ما جعلهم يسبعبدون سلامة أنفسهم حتى داخل أسوار عاصمتهم ، ولم يعودوا يعسرون نعلل البحر في أرضهم كافيا لضمان سلامهم تمام السلامة .

أدت هذه الأحداث - وأخرى متشابهة لها في طبعها - الى سيطرة الفرس التامة على كافة سكان بيت المقدس وما حاورها ، فغمر الناس الناس من قمة رأسهم الى أخمص أقدامهم ذلك أن عزاءهم - كما قبل - كان تأتهم في وقت السدة من القصر الامراتورى يوم كانت الامراتورية سعم بالرخاء ، فكانت سلامها وسلامة أحوالها وانعاش حال المدن المحاورة - وفي مقدمتها جميعا أنطاكية - تبع في نفوسهم أملا كبيرا في أن ينعموا بالعيش أحرارا في مسنقل أيامهم .

أما الآن فقد أصبحوا جرعين على أنفسهم وعلى غيرهم فعمتهم الاشاعات المتسئومة حتى أصبحوا يودون الموت أكثر مما يرحون

الحياه ، وانهارت عزائمهم اعمقادات منهم أن قد قضى عليهم بالأسر
الأبدى .

- ١٠ -

حدث فى آناء هذه الأوقات العصبة الحطره أن وصل الى
مدينة القدس جماعه صحمه من اليونان واللايس بحوا من سبي
صنوف الهلاك فى أرض العدو ، وكان محنتهم لأداء ماسك العباد
فى الأماكن الطاهره ولكن حراس أدوانها لم يأذبوا لهم بدخولها
حتى يدفعوا قطعه البعود الذهبه التى حرب العاده أن يدفعها كل
داخل ، عر أنهم كانوا قد صرفوا فى آناء رحلتهم كل دابق كان
معهم ، ولم يبق فى يدهم شىء من بعد تؤدوبه لسداد هذا الرسم
المالى ، وان كانوا قد وصلوا - بسق النفس - الى هدفهم الذى طال
سوفهم الله ، فبلغوه سالمين .

ويجمع الحجاج ررافات أمام المديسه سيطرون الاذن لهم
بدخولها ، وطال انتظارهم حتى مات منهم أكثر من ألف حاج بسب
الجوع والعري ، وكان هؤلاء الناس (الحجاج) - الأحباء منهم
والأموات - عبثا ثقلا سوء به كاهل الأهالى المعساء الذين حاولوا
المحافظة على حياة من لا يرال فيه نفس بتردد ، فراحوا بمدونهم
بما قدروا عليه من الطعام بسكون به رمقهم ، كما بذلوا من حاسهم
ههنا فى دفن الموتى ، رغم أن مشاغلهم الحصوصه كانت فوق
طاقمهم .

أما الحجاج الذين دفعوا الرسم النفدى المقرر ، وأذن لهم
بدخول بيت المقدس فقد أضافوا الى المواطنين عبثا زاد من أعبائهم

وحملهم مسئولية أضحم . لما كان بيندد هؤلاء الحجاج من الأخطار أثناء بجوالهم الذى كان بسم بالبعد عن الحذر بلهفا منهم على رbare الأماكن المقدسة ، وكانت هذه الأخطار سمتل فى البصق عليهم ، أو لكيم على آدابهم ، أو ما هو أسوأ من ذلك ألا وهو حقتهم سرا . ومن ثم فانه لما راح الحجاج سرعون فى المصى الى الاماكن المقدسة مصى المواطنون بسعونهم فى حبان أخوى مؤملين أن نتمكوا بهذه الطرفة من دفع هذه الأخطار عنهم حرصا منهم على حبانهم وسلامتهم وحرعا من أن تقع لهم حادث مؤلم .



وكان فى المدنه دير ملكه « الأمالغون » لا يرال يعرف حنى اليوم باسم دير القدسة مارى وحامة اللانين» وهو ملاصق للمارسان به كنيسة صغيرة أسمى تمجيدا لطرك الاسكندرية المبارك « جون المنتر » وكان يقوم بالناية بالمارسان رئيس أساقفة « الدبر المذكور حالا » . كما كانت المعونة بذل به فى أى وقت للحجاج النؤساء الذين يحضرون فى مل هذه الطروف فننقو عليهم مما نأنى من الدير أو من الهاب الى بحود بها المؤمنون وكان فل أن وحد بين الألف من الحجاج القادمين واحد يستطيع أن يكفل ذاته ونقم أود نفسه اد يكون أكرهم قد فقدوا نفقة سفرهم ، وأرهمهم الصعاب المهلكة ، وما استطاعوا بلوغ غاينهم سالمين الا بعد عسر ومنقّة .

هكذا لم يكن ثم راحة للمواطنين فى بلدهم ولا فى خارجه ، وما كان من يوم يقضى عليهم الا ويحمل لهم نذر الموت ، الذى كان هناك ما هو أنكى منه ألا وهو حزعهم مما هو مائل أمامهم على الدوام من الاسترقاق الفظ الذى لست لهم قدرة على احتماله .

وكان هناك شيء آخر أدى بهم الى أقصى آيات الحزن ، وذلك ان العدو كان يدخل قسرا الكنائس التي أعيدت لأصحابها والتي بدلو جهدا كبيرا فى الحفاظ عليها وفتحها عليهم وهم فى ذروه انغماسهم فى أداء طقوسهم الدينية غير عابىء فط بما لهذه الأماكن الطاهرة من حرمة واحترام ، فينحد من مذابحها مقاعد له ، ويبت الفزع فى قلوب المصلين بصغيره وصياحه الجنونى ، ثم يعلب كئوس القرايين ويظا بأقدامه الأدوات الخاصة بالمراسم الدينية ، ويحطم التماثيل الرخامية ويكيل اللكمات لرجال الدين ويصب عليهم وانلا من اللعنات ، ثم يجذب البطرك المولى الأمر من كرسبه ، ويجذبه من شعره ، ويأخذ بلحسته ويطرحة أرضا كأنه مجرم خفي ، وكم من مرة ألقى به الأعداء فى الحس من غير حرية ، وعاملوه معاملة لا تجور الا مع أحقر العبيد كل ذلك تعذيبا لأنواعه الدين شاركوه الألم باعتناهم اناه أباهم الروحى .

لعد ظل هذا السعب المؤمن بالرب - كما فلنا - نغاسى ذلك القيد الفظ ، ولكنه أبى الا أن يطل مسنمسا بديه رغم بلواه على مدى أربعمائه وسعين سنة . وطالما جأر هؤلاء بالسكوى الى الرب فى صلواتهم التى لا تنقطع واستغابوا به فى أنات مأكبة ، وزفرات حرى ، واجين أن يحلصهم من العذاب الذى لاقوه جزاء خطاياهم ، وكم سألوه ، أن تنغمدهم رحمته العظيمة فتبعد عنهم سؤر عصبه عليهم لأنهم وقعوا فى هوة السر كما يقول القائل « غمر ببادى غمرا (١) ٠٠٠ كل ناراه ولجحه طمت عليه » .

وأخيرا يعطف الرب عليهم وتحن بنظرة منه وهو على كرسبه المجبد ورغب فى وضع حد لهذا الشقاء ، فأبى حنانه الأبوى الا أن يمنحهم الراحة التى يلتمسونها .

(١) الزمير ، ٤٢ . ٧٠ .

ان اهتماما في هذا الكتاب منصوب على بيان طريقة ونظم
هذه الحطة الالهيه التي ارادها الله لانهاذ شعبه من بلواه تمجيدا
للمخلص في المسيح .

- ١١ -

في هذا الوقت بالذات الذي كاتب فيه المدببة المحبونه من
الرب يمر بملك الماعب السابق وضعها ، كان هناك بين الجموع
الكثيرة التي سافرت الى الأماكن المقدسة من أجل العباده والصلاه
فيسس اسمه « بطرس » من أسعفه « أمس » في مملكه الفرنجه
ويعرف « بالباسك » ، وهو لقب طابق لفظه واقع وكان هذا
الرجل قد سُدنه الى رب المقدس نفس الحماسة الروحية .

أما عن هيئته فكان رجلا قميثا ليس فيه ما يحذب النظر اليه.
لكن كاتب يسكن هذا الحسد الضئيل شجاعة عظمى ، هذا الى انه
كان امرءا خفيف الروح دكيا ، حمل العينين ، ولا نقصه البلاغة
اد كاتب طسعة ركب فيه وخلقة فطر عليها .

وبعد أن دفع المقرر حبايته من كل مسيحي راغب في دخول
المدينة اسبصافه أحد الأنعاء المؤمنين بالمسيح ، ولما كان بطرس
رجلا طلعة فقد راح يلقي على مصبفه السؤال نلو السؤال مسفسرا
مه عن أحوال النصارى فجمع لديه مه تفاصيل حمة لا تقف عند
حد الأخطار الحالية بل تجاوزتها الى ذكر الاضطهادات التي قاساها
أحدادهم من قبل على مدى سنوات طوال غائرة ، أما الأخبار الني
فاته سماعها منه فما لاذن فقد أدركها بالملاحظة الدقيقة التي أسعفه

بها عيابه ، كما دلنه استقصاءه الخاصة دلالة حلية على صدق ما سمعه من الآخرين ، ومما يجمع لديه بعد مروره على الكنائس خلال اقامته في المدينة ، ثم ترامي الى سمعه ما كان عليه بطرك المدينة من كبرة الورع وعظم الخوف من الله فسمى لو نكلم معه عن الأحوال السائدة اذ ذاك في المقدس ، كما طمع أيضا في الحصول على صورته كاملة أكر وصوحا عن أمور معينة أخرى فمضى الى رؤيته ، حتى اذا صار في حصره كان حوار طيب استمع به كل من الرحلين وكان هناك مرحم أمس يرحم ما يقوله كل منهما .

أدرك المطرك « سمون » من كلام بطرس أنه أمام رجل فطر ، ملم الماما واسعا بكثير من الأمور ، قادر على الاقتاع بالكلمة والفعل فأخذ يتروح له في اسهاب وصدق الأحوال الجمة المصبة في وحشة على شعب الرب الساكن بيت المقدس ، فاثرت متساع بطرس الأخوية عند سماعه هذه الرواية ناثرا لم يملك معه دموعه عن الابهمار ، ثم راح يسأل في لهفة عما اذا كان في الامكان إيجاد طريقة ما للخلاص من هذه المصاعب المحدقة بهم ، فأحابه الرجل الصالح « اعلم يا بطرس أن السسد الحنون الرحم يأبى أن تكرب نانا وآهاتنا الباكّة بسبب الخطايا التي كلبنا بها أنفسنا ، وليسب الآثام التي اركسناها ولم نطهر منها ، ومن ثم فلا محل في حاضرننا لوقف القصاص منا ، ولكن رحمة الرب العظيمة لن تسمح بأن يمسننا صر ، وبقوة اخوانك المحلصين في عبادتهم لاسسد هذا الى أن مملكتهم – التي تفزع أعداءنا – تمتد امندادا فسحبا شرقا وغربا ، فان هم تعاطعوا معنا في حب أخوى وشاركونا في موقعا الحالى وقسموا من العلاج ما يدفع المصائب التي تنال علينا أو ان هم على الأقل تصفعوا لنا عند المسح فقد يراودنا الأمل في الحصول على أى عون من امراطورية الاغريق على الرغم من أنهم كانوا أكبر

ارتباطا بنا برابطة الدم والجوار ، هذا الى ما عندهم من ثروا -
صحمة أعظم الصخامة ، ولكنهم أصبحوا اليوم لا يقدرّون على الدعاغ
عن أنفسهم اد بلاشت فوبهم بددا ، كما أنهم فقدوا - حسبما سمع
حنابكم الأخوى - أكثر من نصف امبراطوريتهم على مدى سنوات
فلائل » .

فرد عليه بطرس قائلا : اعلم أيها الأب المبارك أنه اذا يومر
لكسسه رومة وأمراء العرب مُبلّغ المعنى ثقة يخبرهم بالمصائب السى
نكابونها ، فلا شك أنهم سوف يبادرون الى بذل الجهد لتقديم
العلاج بأسرع ما يمكنهم قولاً وعملاً لنخلصكم من هذه المساق .
وعليك أن سابر فى الكتابة الى قداسة البابا والى الكنيسة فى رومة
وأن تؤكد الخطاب بخاتم سيادتكم وأما أنا فلن أتراجع من حمى
عن حمل هذه الرسالة رحاء خلاص روحى ، كما أننى مسعد
- مهتديا بالله - لزيارة الجميع والتوسل اليهم ، وسأكون الشاهد
عندهم على محتهم النى يحاوز كل حد وأدعو الجميع أفرادا وجماعات
ألا يتوانوا عن اسعافكم بما فيه خلاصكم » .

نرلب هذه الكلمات برول السلوى على نفس البطررك وملانها
بالغبطة ، كما نقلتها قلوب الجميع قبولا حسنا ، وفرن عمون
المسبحين فرحا لبطرس وشكروا رحل الرب شكرا حريلا على
عاطفته ، وناولوه المكتوب الذى سألهم اياه .

« حقا نارب ما مولانا ٠٠ كم أنت عظيم ورحمك بلا حدود

« حقا يا عيسى السعوى لن يخيب قط من ناط أمله نياك ٠

« اد من أين جاء مل هذه البقة لحاج بلا معين ومن غير سند
كيدا الحاج بطرس وهو ناء عن مستقط رأسه حتى يأخذ نفسه
ويحمل على عاتقه مهمة فوق طاقته ؟ ثم هل له أن يطمع بعد ذلك
في يحصى ما بطلع اليه ٠

« ان التفسير الوحيد هو أنه وجه أفكاره نحوك يا رب وأنت
حاديه ، وفاض قلبه بالحب المتقد فنعاطف مع اخوانه ، وأحب من حوله
حبه لنفسه فسار للوفاء بما فرض عليه ، وعلى الرغم من ضعف قوة
كثائه الا أن المحبة كانت سد أرره ، كما أنه رغم ما ألقاه اخوانه
على عاتقه عن مهمه سافه ان لم تكن مسنحيلة الا أنها نبسرت عليه
وذلت له فصل ما طبع في قلبه من حب لله ولجيرانه ذلك لان الحب
قوى كالموت « وأنه لا نفع الا الايمان الكامل بالمحبة (١) » ٠

« ان خادمك لن يتردد اد أظهرت نفسك له وشجعته بمرآك
ولن تنذبذب ، ولكنه ينهض فوبا لكمل عمل الحب » ٠



(١) اسطر علاطية ، ٥ ٦ ٠

وحدث في أحد الأيام أن خادم الرب هذا الذي أنكلم عنه كان مشغول البال على غير العادة بالتفكير في العودة الى وطنه والوفاء بالمهمة التي حملها ، ثم دخل كنيسة القيامة واجه بقلب خاشع كل الحشوع الى مسع الرحمة ، وأمضى الليل في الصلاة والبهجد ، حتى اذا فارت عاطفه سقط على الدرج واستغرق في اليوم العميق استغرافا لم يحدث له من قبل ، وخيل اليه أنه يرى سيدها عيسى المسيح واقفا أمامه كالطيف وهو يقول له : « انهض يا بطرس وأسرع وانحر ما عهد به لك من المهام غير حواف ولا وحل لأننى سأكون معك ... لعداء الوقت لطهر الأماكن المقدسة ولمساعدة خدمي » .

واسسقط بطرس مسريحا الى الرؤية التي رآها وصار أكراملا للطاعة ورأى - اسجانة للانداز الرباني - أن لا يرب أكثر من هذا ، فدب التساط في أوصاله وبأهب للرحوع ، ولما فرغ من الصلوات المألوفة مضى الى الأب المطرك (سمون) بسأده في العودة فنفضه ببركانه فاطلق شطر البحر حيث وحد سفسة تحارية على وشك الاحار عن طريق، أبولنا فاسقلها فبلغ « ناري » بعد رحلة موفقة . وسما كان على وشك المضى الى رومة اذا به بعلم بوحد البابا ايربان [الثاني] في تلك النواحي فرقع اليه رسالة المطرك ومسحى القدس ، ووصف له ما يعاونه من الأهوال والماعب على أحدى الطغاة الموحودين في الأماكن الطاهرة ونقل اليه في دقة وبراعة ما عهد اليه به .

- ١٣ -

حدث قبل سنوات من هذا الوقت أن سب صراع عسف بين
هيري ملك الألمان وامبراطور الرومان وبين البابا حريجورى السابع
سلف اربان السابى ، وقد دار هذا الصراع حول الحاتم وعباءه
الأسافعه الراحلين ، وكان العرف قد جرى - لا سيما فى
الامراطوريه - على ارسال حاتم أسقف الكسيه الراحل ومسوحه
الكهنوسه الى الامبراطور الذى يقوم بعد ذلك بقبل نارسال واحد
من بطانه أو أحد فساوسيه وتكل اليه مهام الرعيه فى ذلك المكان
دون انتظار لقيام رجال الدين باستحانه ، لكن البابا حريجورى
السابع [سحر بأن هذا العمل يخالف كل قواعد العدل لما فيه من
هدر لحقوق الكسيه ووطئها بالأقدام ، فقام من حابه نهي
الامبراطور عن عهره الكريه هذه ، تكرر منه مرارا هذا الهى
بالكف عما بفعل فلما رأى أن لا حدود من هذه المحذيرات الهادئه
أصدر ضده قرار الحرمان .

غضب الامبراطور من هذا الاحراء أشد الغضب ، وسرع فى
اضطهاد الكسيه فى روما فعمد الى تنصيب جببرت - رئيس أسافعه
رافقا - مكان البابا المعظم حريجورى ، وكان حمر هذا كبر البراء
واسع المعرفة مكبه ثرونه الطائله واعتماده على بطس الامبراطور
من خاع حريجورى الموقر ونولى هو فسرا الأبرشيه الرسوله ، وم
كان غبا غايه الغناء ننقصه صحه الفكر حين اعهد اعقادا حازما
بأنه هو البابا حقا لبعه زورا وبهانا بهذا اللقب .



كان العالم السقى الغارى فى الرذيله يسير - كما فلما قبل
هذا - فى طريق حطر خاسر فلما سب هذا الصراع ازداد بردى العالم

فى هوة أشد عما لنخله عى كل احترام واجب لله وللانسان ،
وراح يجرى وراء كل ما دنسنه الحطية ، ويباعد ما بينه وبين كل
ما ينطوى على الحر ، فصحب السجنون أبوابها للأساقفة ، وكان
اذا بجرأ أحد من رجال الكنيسة على معارضة الامبراطور فى تسببه
هذا زح به الامبراطور فى الحس وصادر كل ما يملك ، كأنه محرم
فقل نفسا ، ولم بقف الأمر عند هذا الحد من صب الأهوال الدنيوية
على رجال الدين بل صاروا عرضة على الدوام للخلع من أبرشياتهم
وبعض سواهم فى أماكنهم هذه .

فمر حريجورى من نقمة الامبراطور الى « ابوليا » حب لى
أعظم الترحيب ، وعومل أشرف معاملة من جانب دوقها روبرت
حيسكارد الذى مد به المساعدة الى البابا ونحاه من الوقوع فى يد
الامبراطور حتى نمكن أخرا من الوصول الى سالرنو حيث وافاه
أجله بها ودفن فى ثراها ، فخلفه اذ ذاك على كرسى البابوية البابا
فيكتور الذى لم يحاور نابوسه شيرس فقط . فتلاه البابا ايربان
الثانى الذى أشرنا اليه من قبل والذى لحا الى قلاع أتباعه النبلا-
المخلصين ليدرا عن نفسه غضب الامبراطور هنرى المذكور من قبل ،
لكنه لم يكن أبدا مسحاة منه اذ كان (الامبراطور الجديد) مصرا
فى عناد شابه عناد سلفه فى سلوك هذا الطريق الخبيث .

وعلى الرغم مما كان فيه البابا من بلاء عظيم الا أنه أحسن لقاء
الموqr بطرس الذى شغل نفسه منذ رجوعه من القدس بسفند المهمة
التي ألفت على عاتقه ، فوعده ايربان وعدا من الرب الذى هو خادمه
انه مبادر لمساعدته فى مسعاه الذى حاه اليه من أجله متى لاح له
الفرصة .

حينذاك اشعلت حذوة الحماسة الزكية فى نفس بطرس الذى
راح يذرع كافة أرحاء ايطاليا وعمر جبال الألب ولم تترك أمرا من

الأمراء إلا راره ، غير مدخر وسعا في حبهم جميعا ويحذبرهم ولومهم .
فنتجحت تحذيراته - بفصل الرب - في حمل بعضهم على المبادرة
الى الجروح لمساعدته احوالهم الدبى مسيهم الملوى ونزل بهم الصر .
رعبة منهم فى ألا يدعوا الأماكن المقدسة - وهى البقاع التى يعطف
السيد فسرفها بحضوره وصانها عن أن تدنس بالخائب .

ولم يكف بطرس بما أثمرته دعوته بين الأمراء وحدهم ، لكنه
يطلع الى أن تؤدى تحذيراته القوية الى تحريك نفوس العامة وأهل
الطبقة الدنيا ، واشغال جذوة حماسهم للقيام بنفس الواجب .

وبنما كان يتشقى طريقه فى بطاء بين الممالك والنسوعوب راح
- فى وفاء صادق لرسالته وفى نشوة روحية مقدسة - يبشر بنفس
الرسالة بين أفقر الناس وأدناهم ، ورعى المسيح مسعاه البار فكان
من عطفه عليه انه لا يكاد يدعو الناس حتى تؤتى دعوته آكلها طسة .
وأصبح بشيره هذا صروبا أشد الصرورة للبابا الذى أجمع أمره
على أن يتنعه دون ابطاء الى ما وراء الحال ، ذلك لان كلام بطرس
كان يفتح قلوب سامعيه لطاعته فلا يجد البابا صعوبة فى دعوتهم
الى نفس الأمر الذى يؤدى الى تحقيق هدفه تحقيقا يجعله قادرا على
التأثير فهم .

- ١٤ -

كانت السنة سنة ١٠٩٥ من مولد السيد المسيح وهى الثالثة
والأربعون من تتويج هنرى الرابع ملكا على الألمان ، وهنرى هذا
هو الثانى عشر من أباطرة الرومان ، كما كان يحكم فرنسا فلنلب

الحروب الصليبية ج١ - ٩٧

الأول بن هري الأول ملك العريجه العظيم ، ورأى البابا ايربان
- وفمساك - ان خب سى ادم قد حاور كل مدى ، وأن كل
سء بندى الى اسفل كما لو كان ينجو الى السر ، ومن ثم عقد
مجمعا لكل ايطاليا فى « بياشيزا » فكان هذا المجمع خطوه احسج
اليها كل الاحياح لرد غلو الناس ، فلما انتهى هذا المجمع عادر
البابا ايطاليا فرارا من غضب الامبراطور عليه ، وعبر جبال الألب
ودخل مملكة فرنسا حيث نسلم ناكبدا بينا عما سمعه. حالا من
الأخبار بين منه أنه لم يعد أحد ما فى أية ناحية يكرب بالدر
العلوبة ، الى حاب اسحقاف الساس بتعاليم الأناجيل وبلاشى
الايمان ، وبانت كل نعمه وفضلة مهدده بالخطر وفعرت مملكة الشر
ودول الطلام فاهل لبسبع الجميع .

ونظرا لمكانة البابا ايربان الثانى فقد كان شديد الميعة بعرفة
السبيل الذى يسلكه للقضاء على الرذائل والخطايا الفاحسه التى
كانت للأسف تزداد بشاعة حتى لتكاد أن نبتلع الدنيا بأجمعها ،
لذلك عزم على الدعوه لمجمع عام عقد أولا فى « فريلسه » ثم فى
« بوى » ، حتى اذا حل سهر نوفمبر اجتمع باسم الرب فى كلرموم
- احدى مدن « أوفرن » - مجمع مقدس من الأساقفة ورؤساء الاديره
من شتى النواحي والولايات الواقعة وراء حمال الألب ، بكلهم
الرعاية الالهية .

وحضر هذا الاجتماع أيضا بعض أمراء تلك الولايات دانيها .
كما قررت فيه التنظيمات التى يمكن أن تؤدى الى التخلص من
الظروف غير الملائمة التى تمر بها الكنيسة ، وكان هذا القرار بناء
على نصيحة رجال الدين وأهل التقوى ، كما أذيعت المراسم التى
كان يرحى منها أن تساعد على تقويم الأخلاق وتصحيح الأخطاء
الجسيمة .

ولما كان بطرس الباسك يسعر بالمسئولية الكبيرة بحاه الرساله
التي حملها ، فقد رأى أن هذه الاجراءات ربما أدت الى عوده السلام
الذي يبدو وكأنه قد تلاشى من الدنيا .

وأحرا ألفى ابرهان عطفه وهي كما يلي .

- ١٥ -

« اعلّموا أيها الاخوة الأعزاء ، وحق لكم أن تعلموا كيف أن
فادى الجنس البشري قد نزل في مجالد هبكل بسري لخلاصنا
جميعا ، وعاش يسا كائنسان ، وكان مجيئه نمجيدا لأرض المبعاد .
الى وعد بهما من قبل ، والتي داعب شهرتها بأعمال الباموس
والمعجزات المتكررة التي قام بها ، وهذا ما يشير اليه العهدان :
العديم والجديد في كل ما بصمناه بقربا ، وأن الواضح حقا أنه
أحب تلك الأرض حبا صادقا منذ أن يعطف على ذلك الجراء من
الأرض - أو بلفظ أدق - على هذه البفعة الصغيرة قسمها بميراثه ،
رغم أن للرب « الأرض (١) وملؤها المسكوبة وكل الساكنين فيها »
ومن ثم فانه هو القائل أيضا بصوت أشعيا (٢) « مراثي اسرائيل »
والفاثل أيضا (٣) « ان كرم رب الحدود هو ست اسرائيل » .

(١) مرمر ٢٤ ، ١ ، ٤٩ ، ١٢ .

(٢) اشعيا : ١٦ ، ٢٥ .

(٣) اشعيا ٥ ، ٧ .

وعلى الرغم من أنه كرس الدنيا بأجمعها منذ البدء لنفسه
 إلا أنه اسعى المدينة المقدسة على وجه الخصوص لتكون خاصة به ،
 وذلك بسهادة النبي القائله « الرب (١) أحب ابواب صهيون أكثر من
 جميع مساكن يعقوب » ، وقد قبل في هذه المدينة أقوال كبيرة رائعة
 فهناك أكد محلصنا بعالميه وعدايه وفيامه من بين الموبى أن الخلاص
 اما يكون فى أرضها ، لذا فقد اخبرك تلك المدينة منذ البدء لتكون
 شاهدا على هذه الأمور ، ولنكون هيكل الأسرار ، واختيرت حقا لتكون
 خاصة لمن اصطفاهم بقوله : « اهتفى يا بنت اورشليم » هو ذا ملكك
 يأتى اليك من أجل اورشليم المدينة التى اخترتها لنفسى لأصح
 اسمى (٢) فيها .

لكن على الرغم من أن خطايا أهلها حملت الرب العادل على أن
 يوقعها مرة بعد أخرى فى أيدي السريرين ، ويجعلها تكابد فظاظهم
 فترة من الوقت ، إلا أنه لا ينبغي أن يذهب الظن بأحد الى أنه دخل
 عنها ونبدها منذ النشأة لانه مكتوب (٣) « ان الذى يحبه الرب
 يؤدبه ويجلده » .

ولكنه يغضب على من يقول له (٤) « لذلك ... أحل غضبى
 بك فتصرف عيرى عنك فأسكن ولا أغضب بعد » ومن ثم فانه يحب
 هذه المدينة حبا لا تطفى حذوته وأنه القائل (٥) « مستكونين اكليل

(١) مزامير ، ٨٧ ، ٢ .

(٢) ملوث أول ، ١١٠ ، ٣٦ .

(٣) عزرائيل ، ١٢ : ٦ .

(٤) حرقيا ، ١٦ : ٤٢ .

(٥) اشعيا ، ٦٢ ، ٣ ، ٤ .

جمال بسد الرب ، وناجا ملكيا بكف الهك ، ولا يقال بعد ذلك
يهجوره ولا يقول بعد لارصك موحنه بل ندعين حصصيه وأرصك
نرعى يعوله لان الرب يسر بك (١) » .

وان مهد ايماننا ، ومهبط رأس مولانا ومبيع الخلاص فد
تملكها الآن عموة شعب غير مثاله ، هو ابن الجارية المصريه [هاجر]
لدى يفرص على أبناء المرأة الحرة [سارة] ظروفًا بالغة السوء حتى
قالت : « اطرده هذه الجارية وابنها » .

لعد طل حنس الشرفيين (٢) البغيض عبر سموات طوال مصب
يبسط سلطانه على الأراضي الطاهرة التي مشى عليها السيد بقدمه ،
ثم خضع المؤمنون للعهر ، وراحوا ينخبطون في فيد الأسر ، فدحلت
الكلاب الأماكن الطاهرة ودنس الهيكل وضربت المذلة على عباد الرب ،
واليوم ها هو ذا الشعب المخار يحمل الأحوال التي لا يسحقها ،
وها هم رجال الدين مسروقون ، والكرامة ساقطة في الوحل والطين ،
وأصبحت مدينة الرب - التي هي فوق كل مدينة - محكومة
لا حاكمة ، فمن ذا الذي لا تنفطر نفسه كمدا ، ولا يذوب قلبه
حسرة حيث تخطر بباله هذه الإهانات !!

« أيها الاخوة الأعزاء : من ذا الذي يستطيع سماع هذا كله
ولا تبكى مقلته ؟

« لقد غضب يسوع فطرده من هيكل الرب جميع من اتخذوه

(١) سفر التكوين ، ٢١ ، ١٠ .

(٢) وقد يمكن ترجمتها بالمسلمين لأن لفظ Saracens أصبح في كتب
الغربيين في العصور الوسطى وعند بعض المؤرخين المحدثين مرادفا لكلمة «المسلمين» .

مكانا للبيع والسراء ، حتى لا يصير بيت أبيه - وهو بيت الصلاة - معاره للصوم وماوى للشياطين (١) .

« لقد كان هذا هو الذى أثار الحماسة الكريمة فى نفس القديس ماسوس - السلف العظيم للمكابين الطاهرين كما يشهد بذلك هو نفسه اذ يقول : « لقد أصبح الهيكل شمه اسان ملا شرف ، وتلاشت كل المآثر الرائعة » .

« ان مدينة ملك الملوك التى نقلت الى الآخربن نوامس الامان السلم قد دانت رغم أنفها الى برهاب الخوارح ، كما أن كسسه القمامة المجنحة التى هى آخر مكان رقد فيه السيد تقاسى حكمهم وداطح نأوساح أفوام لن يكون لهم حظ القمامة بل كب عليهم أن يطلوا فى الجحيم الى الأبد ، كأنهم هسم النار لا ينطفئ لهمها أدا ، كما أن الأماكن الموقرة المخصصة للأسرار الالهية ، والمواصم التى عرفت السيد زائرا لها بسخصه ، وشاهدت آياته ، وباليها حسابه ، وبحسم فيها كل البراهين الدالة على ذلك فى ايمان صادق قد عذب مداود للمانسة وحظائر للبهيم ، كما أن أحسن الناس الذين باركهم رب الأرباب قد تعالى أنسهم من حراء عبء الخدمات المفروضة عليهم ولا يستطيعون التحلل منها ، ولا يُنقدون عليها الا الأحسـ الساقه .

وان أبناء هذه المواضع - وهم أغلى مهر للكنيسة الأم - قد ألقى القيص عليهم ، وسبقوا أذلة ، وأرغموا على خدمة الخوارج الدسسين ، حتى بنكروا اسم الله الحي القوم ، ويطن شفاههم الظاهره بالمجديف فيه ، فاذا امنعوا ذعرا من أوامر الكفار الآثمة

(١) متى ٢١ - ١٢ - ١٣ .

دبحهم بالسيف دبج الأصاحي فيدخلون في عداد الشهداء الأبرار .

« ان الدين انتهكوا حرمة المقدسات الديسه لا يهيمون حرمة للمكان ولا للناس ، ولا يسورعون عن فعل الفسوس واللاويين ، ويرعمون العذارى على ارتكاب الفحشاء والا كان الموت بالعذاب من صيبهن ولم يشفع عندهم للعجائز شبخوخهن .

« الا فالويل لنا نحن الدين يعيش في نعاسة الرمن الخطير الذي نبأ به الملك الطاهر داود المختار من الله ، وشكى منه اد فال (١) « يارب ، ان الامم قد دخلوا ميراثك وجسوا هبكل قدسك » ، و قوله (٢) . « الخطاه يسحقون سمك يا رب ويدلوه ، حتى مى الطعام يا ربى يسمون ؟ منى يا رب بغضب كل الغصب وسفد كالبار غرنك ؟ » « هل الى الدهور يرفض الرب ولا يعود للرضا » « حنى منى يا رب نخنبي كل الاخساء » « أذكر يا رب ماذا صار لنا ، اشرف وانظر الى عارنا » الويل لى حين ولدت لأرى هذا البؤس المحق بسعنى وبالبلد المقدس وأن يسام الى أيدي الأعراب (٣) .

« أنت هو ملكى ، يا الله باسمك ندوس العائمن عاما » (٤) .
« فحسب » لا بطنوا انى جئت لألقى سلاما على الأرض بل سفا » (٥) .
« فسأحوا أنفسكم أبها الأحاب بحماسة السيد فبه نطح مضائقنا ،

(١) مرايم ، ٧٩ ، ١ .

(٢) مرايم ، ٩٤ : ٥ .

(٣) راحع المكايين ، ٢ ، ٧ .

(٤) مرايم ، ٤٤ ، ٤ .

(٥) مى ، ١٠ ، ٣٤ .

وإذا أحس أحدكم بالحمية لسريعه الرب فليتنضم إلينا ، وهيا بنا
نمضي لحطم الصود الى نكلنا ونلقى بعيدا بحبالهم عنا ، فالروح
نفسه سيهد أيضا لأرواحنا أننا أولاد الله ، فان كنا أولاده فانتا
ورثته أيضا ووارثون مع المسيح » (١) وأذهبوا وليكن الرب معكم ،
ووحبوا السلاح الذي سجدتموه لعل بعضكم النقص الى صدور أعداء
الملة وخصوم المسيح .

« ان مملكة الرب لن تكون لمن أحرما فسرخوا ومن اتهموا
باشعال النار عن عمد ، ولا لمن نهبوا التماس وسفكوا الدماء
ولا لأصحاب الحرائم الأخرى المسابقة لهذه في طبعها . »

فأطيعوا الرب الطاعة التي يرضاها ، عسى أن تنزل عليكم
رحمه سريعا ويكون لكم سقاة القديسين فيففر لكم ما اقترفتكم من
خطايا أثرت بها حتى الرب عليكم فاستشيط غضبا .

« وعلى ذلك فحن محدروكم وموصوكم باسم الرب بالعمل
على التطهر من خطاياكم وذلك بمشاطرة اخواننا سكان القدس
وما حولهم في مصائبهم وآلامهم ، وكونوا شركاء لهم في ارث ملكوت
السموات ، وعليكم أن نكبخوا بكل عضبة ديسة وقاحة الكفار الذين
يحاولون اخضاع الممالك والولايات والدول ، وأن نحاربوا ما وسعكم
الجهد هؤلاء الذين أجمعوا العزم على ازالة الاسم المسحى ، فان لم
نفعلا ذلك فان كنيسة الرب الى لم نرتكب اثما سوف تفقد الايمان
سريعا وتكون السيادة لجهالة الوثنية ، ولقد رأى بعضكم بعينى
رأسه هذه الأمور الى نكلم عنها الآن ، وعرف مدى الأهوال التى
يحياها أولئك الأسقاء ، وان رسالتهم التى أحضرها بده ذلك الرجل
الموقر « بطرس » الموحود معا الآن لتحمل نفس الأمر . »

(١) رومية ، ٨ : ١٧ .

« ومن ثم فتنة منا برحمة الرب ، وبقدرة الحوار بين الطوبانسي
بطرس وبولس لتعبر خطايا المسيحيين الصادقين الذين يحملون
السلح لقنال الكفار ، وينحملون مسقة رحله الحج هذه . ونضع
عنهم كل عقاب مفروض عليهم بسبب آثامهم ، ولسق الداهيون الى
هناك بنه صادقه وبقة نامة بغفران خطاياهم ، وبحصولهم على
النعمة الأبدية . »

« كما أننا في الوقت ذاته سوف نبسط حمايه الكيسه ورعايه
المباركين بطرس وبولس على من ينهضون مسلحين بايمانهم الصادق
لحمل عبء محاربة الكبار ، وسندرجهم في عداد أسدنا المطيعين
المخلصين » ونرسم بأن يطمئنوا ، وألا يخالجهم أدنى خوف على أملاكهم
وذويهم ، فان اجترأ أحدا ما - أثناء هذا الحج - على أن يسبب لهم
ضيقا أصدر أسقف ناحيته قرار الحرمان ضده ، ويظل فرارا مصلاطا
عليه عند الجميع حتى ترد المسروقات ، وحنى بقدم العويص الملاثم
عن الأثيياء المفقودة ، كما أن الأسافعة والعساوسة الذين لا يقعون
موقفا صلبا ضد أمثال هذه الأحداث سيعاقبون بحرمانهم من ممارسة
مهام وظائفهم حتى ينوبوا ؛ لنالوا رحمة الكنيسة الرسوليه « هكذا
ختم [البابا ابربان الثاني] موعظه ، وأمر جمع الحاضرين اذ ذاك
من رجال الكنائس بالعودة الى أبرشياتهم لكرسوا أنفسهم لما
سمعوه ، ولسعوا سعيا حنيئا لحد أناعهم على النهوض الى الحج . »

ولما فرغ [ابربان] من هذه الرسالة أمسك عن الكلام وانفض
المجمع الذي راح كل من حضره يودع أخاه ويرجع الى موطنه ؛
وانصرفوا منصاعين في صدق واخلاص لسفد قرارات المؤتمر (١)
وحب الناس جميعا على السواصي بحفظ السلام الذي ائلف الناس
على تسميته « بسلام الرب » . وصدر الأمر بعدم اعاقه من عزموا

(١) أى مؤتمر كلرمونت .

على لرحله ، وألا نعم فى وجههم العرافل أساء انخذعم الاجراءات
للارمه للسفر .

- ١٦ -

وزياده على ذلك فانه نظرا للخدمات الجليلة التى أداها بطرس
للدين ، فان الله انعم عليه - وهو الخادم المطيع المبسر ، ذو الهمة
العالية الرائعة - بالبلاعة والفصاحة ، ووهبه القبول الحسن فى عمون
الجمع حتى ان كلمانه كانت تبدو وكأنها وحى من الله ، اد بلغها
القوم - صغبرهم وكبرهم - بالرضا والامسال ، غير عابئين بما يبطوى
عليه بنعذها من مشقة .

ولم يكن الحماسه الدينيه لهذا الحج فاصره على من اسمعوا
اليه شخصصا ، بل تجاوزتهم خطبته - حين داعب طولا وعرضا -
الى من لم يكونوا حاصريها ، قبئت فيهم رغبة عارمة للعلم بنفس
الرحله ، كما صدع الأسدعه بما أمروا به ، مطهرين الدعوى الكريم
فدفعوا أبناعهم للسفر للحج ، ودأبوا على النقل فى ربوع أسقفياهم
بيذرون بدور الحياه بين الناس ، وما كان لحبه منها أن يموب اذ كانت
لا نفع الا ونؤبى آكائها طيبة مباركته ، ومن الحق أن نقول أنه بحقق
كلمة السبده (١) اد يقول « ما حثت لآلهى سلاما بل سبعا » ، فقد
افصل الروح عن روحه والمرأة عن بعلمها ، وفارق الآباء أبناعهم
والأبناء آباءهم ، ولم يسطع أى رباط محبه أن يحول دون هذه
الحماسه ، كما عادر كبير من الرهبان أديرهم ، وفعل السناك

(١) مى . ١٠ . ٣٤ .

فعلهم فتركوا صوامعهم التي احدها طواعة ملحق بهم فيه كل واحد منهم على انفراد « حيا في الله » .

لكن الرب لم يكن مع الحميع في عملهم هذا ، اذ لم يكن الحصافة - وهي أم الفصائل كلها - محركهم الحقيقي ، فقد شارك البعض البعض الآخر حتى لا يعرفوا عن بعضهم ، ونهض آخرون حتى لا يهتموا بالنراخي والكسل ، وساهم غير هؤلاء وهؤلاء بدوافع نافيه ، أو عساهم بخروجهم هذا يهربون من دائنهم الدين أنفلوهم بالدون العادحة ، وهكذا كاتب هناك أسباب مختلفة أسرع بالجمع الى نفس الهدف ، ولم يكن هناك في بلاد العرب أى اعراف بالسن أو الجنس أو الوضع أو الظروف . كما لم يستطيع أحد منع أحد من الصام بالرحلة مهما زو له الكلام ، بل اشد البعض بالبعض دون تمييز بين الواحد والآخر فكانوا جميعا يدا واحدة ، وأقسموا كلهم المنين بقلوبهم وأرواحهم ، وبدا الانجاز الحرفي لما جاء في الكتاب (١) من انه « سبأى أهم كسرة من بعد تمتدح أورشلين وسجد لها ، ويحملون الهدايا في أدبهم » .

لقد تلقى الكسرون ممن حصروا مؤمر « كاسموت » هذه الكلمة الراسخة بفرح عظيم ، وكان على رأسهم « أديمار » أسقف « بوى » ذلك الرجل الطاهر الذبل العاطر الذكر ، والذي صار بعدئذ النائب للبابا ، فسار بسعب الرب في حملته هذه سره ملؤها الصدق والاخلاص .

كما كان من بسهم أبضا « ولتم أسقف أورنج » الصادق الايمان والذي يخاف الله .

(١) طوبيا ، ١٣ . ١١ - ١٥ .

ودب (١) نفس الحماسة كذلك في نفوس أمراء جميع الممالك الذين لم يحضروا الاجتماع ، اذ راح كل واحد منهم يسجع صاحبه ويستعدون للسفر الذي حددوا يوما معنا له يكون بعد انمام جمع ما يلزم من الاسنعدادات وبعد ان يجمع كل رفاقهم ، والحق أنه يبدو كأن العناية الالهيه هي التي رببت الحمله التي تكلم عنها . وكان الأوامر صدرت اليهم من الرب ، ذلك أنه لم يكن يشاع أن أميرا ما من الأمراء قد قطع العهد على نفسه بالحج حتى ينوافد الناس عليه زمرا اثر زمر ، يتوسلون اليه أن يسمح لهم بالانضمام الى جماعه ، ويعترفون بسيادته عليهم ، ويهبطون العهد على أنفسهم بالطاعة والإخلاص له ، ولما كان المل (٢) يقول عار على أن أنخلف عن الناس اذا كان الطاعون قد أخذهم حتى آحر واحد فيهم » ، فقد أسرعوا الى تجهيز أنفسهم بكل ما يلزمهم ويحتاجون اليه ، وكانوا يتزاحمون ويسابق كل منهم الآخر ، والحق أنه كان تكريسا الهيا لان نار التطهر هذه كانت لازمة لمحو خطايا الماضي وحب آثامه التي كانت - وا أسفاه - كبره حدا ، كما كان الانصراف لتدبير السفر مقيدا في منع ارتكاب الخطأ بعد ذلك ، بعد أن كانوا قد حادوا عن طريق الرب وأساءوا السر مع غيرهم .

وقد اتفقت الآراء جميعا على قبول ما اشترطه البابا من قنام كل من أقسموا على السفر لهذا الحج برسم شارة الخلاص على ثيابهم ، ألا وهي الصليب الزاهي ، وبذلك يحملون على أكفاهم

(١) جاء في الترجمة الانجليزية التي اعتمدها ، وبناء على ما ذكره . Man i Sacrorum conciliarum nova et impressissima collectio, vol xx. col. 923.

أن كل ذكر بلغ الثانية عشرة أو أكثر كان عليه أن يقطع اليمين كل ثلاث سنوات على حفظ سلام الرب ومراعاته .

(٢) رد المرحمان الأمريكان هذا المل الى هوراس Horace . Ars Poet. 417

ذكرى الذى عزموا على رياره الناحيه الى سهبت آلامه ، وكانوا
فى عملهم هذا مقلدين للسيد الذى أسرع الى هناك من أجل خلاصا.
لأه : « يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا ويكون الرياسه على كفه » (١) .

ويبدو كأن الآيه النالبة من سعر أسعنا سير الى هذه الحركة
حيث يقول ان السبب (٢) سوف يرفع رايه للأمم ويجمع منيعي
اسرائيل .

وظهر أيضا نمام كلام السيد حرفا بحرف مصداقا لقوله (٣):
«ان أراد أحد أن يأبى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويسعى» .

- ١٧ -

عمد الأمراء النالية أسماؤهم من كلتا المملكتين الى تعوبه
عزائهم بعلامة الصليب ارتباطا منهم بالحج القادم :

السادة المشاهير : هيج الكبير شقيق فلب الاول ملك
الفرجة ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورمندى ابن
وليم الاول ملك الانجليز ، وستيمن كونت شارنرز وبلواوالد كونت
تيوبولد الكبير ، وأديمار أسقف بوى ، ووليم أسقف أورنج ،
وريموند كونت بولور وسيل حيل ، مع آخرين غيرهم من الرجال
العظماء .

كما ذهب أيضا المحارب الباسل لورد جودفروى العظيم دوق
اللورين ، ورحل معه كذلك أخواه اللوردان بلدوين وأستاس ،

(١) اشعيا ، ٦٠٩ .

(٢) اشعيا ، ١١ : ١٢ .

(٣) متى ، ١٦ : ٢٤ .

وصحبهم كذلك بلدوين الملقب سورج وهو قريب الاحوه الملائه
واين لورد هيج كونت ريبيل ، وحاسه دى جراى ، وبلدوين كونت
هينولت ، وايزور كونت ديبى ، وربولد كونت اوريج ، ووليم كونت
فوريز ، وكونت مسمن دوماال ، وروبرو كونت برسى ، وهيج كونت
سب بول .

وممن صحبهم من علية القوم وان لم يكونوا من فئة
الكونتات : النبلاء اللامعون الذين تقدموا طواعبة من تلقاء أنفسهم
وههم :

هنرى دينس ، ووالف بوحنسى ، وايفرارد دى بويسيه ،
وجاسيون دى بارف ، ووليم آمانجو ، وجاستون دى سزيه ،
ووليم دى مونلييه ، وجارارد دى رؤسبلون ، وجارارد دى شيريزى،
وروجر دى بارتفيل ، وجى دى بوسسا ، وجى دى جارالاند سكال
ملك الفرنجة ، وتوماس دى لافبر ، وحالن دى كالفوموب .

• رجا، سار بطرس الناسك بطائفة كنفه من الناس جمعهم
يمشقة كبرة من مملكة [فرنسا] وامبراطوريه [آلمانيا] .
• وحاه من الحانب الآخر من حبال الألب بوهموند أمير مارنو
ابن روبرت حسكرارد دوف أبولنا ، وابن أخيه تانكريد ، وكنرون
غيرهم لا نعي ذاكرنا أسماءهم ولا نحصى عددا .

وظل جميع هؤلاء - مع فواب ضخمة من أهل القبال فى
انقطار الساعه الملائمة للانضمام للكنائب الحربيه المسحقة ، وهم
على أتم أهية لمسئال: أرواحهم لتحمل: أهوال حجب عظيم كهذا الحجب
مرضاة للمسيح .

ومن ثم فما كاد الشناء ينصرم ونبدأ بباشير الربيع فى المظهر
ونكسر سده السرد ويعود الجو اللطيف يغمر الدتتا حتى هتوا

حسادهم ، وأعدوا سلاحهم ، وجمعوا ماعهم ، كما طل من أزمعوا
الخروج معا على انصال بعضهم ببعض ، وحددوا موعدا دفيما
فما بينهم والساعة التي رأوها ملائمة لبدء سيرهم ، وانفقوا أين
يكون ملنقاهم ، واستعرضوا المسالك فاختاروا أيسرها عليهم
وأسرعها في ابلاغهم عايهم . واد لم يكن في قدره أى اقليم أن ينفرد
وحده بموفر المئونه لهذه الآلاف المؤلفه من الناس فقد ربوا ترتيبا
دقيقا أن يقوم كل واحد من الأمراء الكبار بالسير على انفراد بمس
يبعه من القواب ، ويسلك طريقا لا يسير فيه سواه ، وانفقوا على
الا تلفي هذه الحوش الا في مدينة « نقة » .

لهذا - كما سنشرح عيما بعد - سار الدوق [حودفردى]
مكتائبه من طريق البحر ، واتخذ كوت بولوز وأسقف بوى طريقهما
عبر « دلمانسا » أما الزعماء الآخرون فاخرفوا « أبولنا » وبذلك
وصلوا في النهاية الى القسطنطينية ، وان لم تكن بلوغهم حمصا في
وقت واحد بل في أوقات مختلفة . وأعدوا في الوقت ذاته العباد
الذى رأوه كافيا لرحلة طويلة كهذه الرحلة ، وراح كل منهم بحد
المال الذى نطلبه هذه السفرة بما يتناسب وطول الطريق ، كل
ذلك وهم ناسون أن الأمور كلها بيد الله ولبس بيد البشر لأن
الاسان في ضعفه لا يعلم ما يأتى به الغد .

لم تكن بم دار واحدة من دور جمع ولايات الغرب ساكنة
هادئة ، بل كان كل امرئ منهمكا حسب امكانياته في ترتيب ما يهمه
من أموره الخاصة ، فهنا الأب يدبر شئون أسرته ، وهناك الابن
وهم الأسرة كلها منصرفة لاعداد ترتيبات السفر .

وحام رسائل كثيرة بعث بها أولئك الذين أزمعوا الرحل
في وقت واحد ، سجع كل منهم الآخر وبخذه التأخر في الخروج .
وبصحه بالبيكر فيه . ولما أخذ الذين قلنا انهم قادة الجماعات

المحلقة في دعوة البعية بعد انزعوا أنفسهم من أحضان أعزائهم
وسط العويل والرفرات ، وقد ودع كل منهم الآخر وتبادلوا القبلات
فما بينهم ، ثم رحلوا ، وكان خروجهم في جو من الانسحاب
والولولة ، فرى الأمهات يصحبن الأبناء ويرى البنات يودعن الأبناء
والأخوات والأشقاء ، أما الزوجات فانطلقن يودعن أزواجهن حاملات
أطفالهن الرضع على أذرعهن .

فلما فرغن من الوداع الأخير رحن يابعن بنظرات حادة من
لا يستطيع مصاحبهم أبعد من ذلك .

- ١٨ -

كان وولتر المجلس الشريف النبعة والمحارب الكمي أول من
بهض للحج خبب بدأ رحلته في اليوم الثامن من سببر مارس
عام ١٠٩٦ من هولد المسبح ، واستنصحب معه طائفة كبيرة
من الجند المساه ، أما الفرسان الذين كانوا معه فلم يزيّدوا
على سرّمة ضئيلة ، فلما عبر بهم مملكة النيوتون دخلوا بلاد
مملكة المجر التي كان الوصول إليها أمرا عسيرا لكثرة المسبقات
التي تغطي معظم بواحيها وأحداق الأنهار الكبيرة بها ، ومن ثم لم
يكن في استطاعة المسافرين الوصول إلى المملكة أو الخروج منها إلا من
أماكن معنة شديدة الضيق .

كانت مملكة المجر حينذاك تحت حكم أشد الملوك نمسكا
بالمسحبة ، ألا وهو الملك « كولمان » الذي ما كاد يعسم باقتراب
« وولتر » وكان يعرف خبر رحلته ويستنصوب هدفه الكريم حتى
رحب بدخوله مملكته ، وسمح له أن يسير فيها بحملته ، كما أذن

له بعقد سوق عامه ، فسار « وولتر » فى بلاده آمنا ، وبلغ نهر
، ماروس « سالما ، وهو الحد الفاصل المعروف به بين المجر والسرو ،
ثم عبر النهر ووصل بقواه الى أرض البلغار فى مكان يعرف
« بلجراد » .

لم يكن يدور بخلد [وولتر] أن طائفة من جماعه قد تحلف
وراءه على الجانب الآخر من النهر فى موضع يعرف باسم « سمان »
لسراء الطعام وما لا غنى عنه فى الرحلة ، فأمسك المجريون بهؤلاء
الرجال وجردوهم مما عليهم من الساب وضربوهم ، ثم أرسلوهم
بعد ذلك الى أصحابهم خاوى الوفاض، فحزن القوم جميعهم حزنا عميقا
للمحنة الطامة التى حاقت برفاقهم ، ومع ذلك فقد أقنوا نمام البقي
أنه من الصعب عليهم - بل من المستحيل - أن يعودوا فعبروا
النهر أخذا بالبار لما فى ذلك من تأجيل مسيرتهم ، فأرأوا - فى
ظروفهم الراهنة هذه - أن النفاذ عن المضرة التى أصابتهم إحدى
عليهم من المبادرة الى القسام بعمل طائس لا يستطيعون احرازه
فصاحوا على ما فعلوا نادمين . واذ كان أملهم فى الله الذى يتصور
من أجله عظما فقد انصرفوا عما أرادوه ايمانا منهم بأنه ما من
مصيبة باقياها حشد المسيح الا والرب غر مهمالها بل معاقب عليها
بمنايا لأنه وعد أتباعه بذلك اد قال (١) : « تكونون مغرضين من
الجميع من أجل اسمى ، ولكن شعرة من رؤوسكم لا نهالك ،
وبصبركم افتنوا أنفسكم » . ومن ثم ساروا لطبهم ، ومضوا فى
طريقهم حتى جاءوا - كما قلنا - الى « بلجراد » فوجدوا « وولتر »
قد سأل الدوى حاكم أهلها أن يأذن لهم بعقد سوق ينابيع فيه ،
ولكنه رفض رجاها ، فلم يجد اذ ذاك بدا من أن يضرب معسكره أمام
المدينة ، واذ كان عاجزا عن كبح حماح حسه الحائم فقد فسد الكبر

(١) لوقا ٢١ . ١٨ - ١٩ .

من رجاله ، ذلك لأن عسكريه لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الحصول على أى شئ من البلغار اطلقوا للبحر عن الطعام ولم يتخرجوا عن أبة وسيلة لالتماسه دفعا للجوع الذين عضهم بابه ، فقد لهم أن يأتوا الى قطعان من الماشية والأغنام كانت للبلغار فأخذوها قسرا وسافوها الى المعسكر ، فلم يكذب أصحاب القطعان يعلمون بما حرى لها من نيب حتى هسوا الى أسلحتهم وكروا على [اللادين] كرة ضاريه محميين العزم على اسرحاعها ، وهاجموا اللصوص الذين كانوا يسوقون الدواب أمامهم ، وفتكوا بهم غير جماعه فوامها مائة وخمسون رجلا قدرت لهم النجاة انفصلوا عن بقية رفاقهم ولجأوا الى كنيسة صادفوها فى فرارهم فأضرم العدو فيها النار ، فمات حرقا من اعنصموا بها الا فلة لاذت بأذيال الفرار .

ولما أدرك « وولتر » أنه يقود جيشا عبيدا لا يعرف النظام ولا يكسب بما يفعل فقد انفصل عمن ابغوا شهواتهم اتباعا أعجزه عن كبح حماهم ، وسلك ببقية عسكريه مسلكا فيه الحكمة والحرص ، فاحاز بهم غابات بلغاريا الكنيقة ، حتى انتهى السير بهم أخيرا الى « سرالكا » (١) وهى مدبنة حملة من مدن « داكيا الوسطى » ، فصرح لحاكمها بما لحقه من الخسارة وشكى اليه البكبة التى حاقت طلما بسعب الله على يد البلغار وطلب منه أن يعوضه عن ذلك كله ، فعامله هذا الدوق معاملة كلها عطف عنه ، لانه كان رجلا مستقيما يحاف الله ، وصرح لهم باقامة سوق يستطيع الجنس أن يسرى منه ما يحتاجه بثمان معقول ، وكبل لا تطغى فيه ، وزاد فوعدهم أنه غير حاجب عنهم ما يحتاجونه مما يفرضه نوايس الانسانية ، كما أمدهم بمرشدين يدلونهم على بقعة الطريق حتى يبلغوا المدينة

(١) رحلت الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب أن تكون هذه المدينة هى « صوفيا » فى الوقت الحالى .

الامبراطوريه ، ولما وصل « وولتر » الى القسطنطينية جىء به الى
حضرة الامبراطور ، ونجح فى الحصول من جلالته على اذن يسمح
له بانزال جيسه قرب البلد وبعقد سوق للتجارة ، على أن يكون
ذلك الى حين ، حتى يصل بطرس [الماسك] الذى كان قد آتاه
لوولتر أن يسير تحت قيادته .

- ١٩ -

ما كادت تفضى فترة وجيزة بعد الأحداث التى ذكرناها حتى
زحف بطرس عبر « لوثاريجيا » و « فرانكونيا » و « بافاريا »
والاقلسم المسمى بالنمسا ، وكان تحت امره حشد ضخم يكاد يقرب
من أربعين ألفا جعل منهم جيوشا على اختلاف أمهم وقبائلهم وألستهم
وشعوبهم ، فلما أشرف بهم على تخوم مملكة المجر بعث برسالة الى
ملكها ، فجاءه الاذن فى سر بالدخول ، على أن يسير فى المملكة فى
هدوء ، عبر محدث ارجاها ولا مسب شغباً فاستجاب بطرس لما
اشتراطه الملك ، وبادر بالانتفاع من هذا الاذن ، ودخل المملكة
بعسكره ، وأمدّه أهلها بكميات كبيرة من الطعام قدموها اليه بضمن
معقول ووفق شروط طيبة ، فنقدم العسكر فى هدوء الى المدينة
« سملين » التى أسرها اليها ، حسب حاجهم بئاً ما حاق برؤاهم الذين
سبّوهم بقيادة « وولتر » وما عوملوا به من معاملة دنسة على أيدي
أهل تلك الناحية ، فلما طالعوا ما كان معلقا على أسوار المدينة من
أسلاب وسلاح رفاقهم رمزا لانتصار المجريين عليهم أغضبهم ذلك
كل الغضب وحشدوا انتضوا أسلحتهم واقتحموا المدينة عنوة ، فلقى
غالب أهلها مصرعهم اما قتلا بالسيف أو غرقا فى النهر القريب
منها ، ويقال انه هلك فى هذه الحركة الهوجاء ما يناهز أربعة آلاف

مجرى ، وكان ذلك غفابا يكافى جرمهم ، ويعول الأحبار أن « بطرس
فقد فى هذا اليوم مائة رجل فقط من رجاله ، فلما فرغ الحجاج من
الاسلاء على المدينة بقوة السلاح أقاموا بها خمسة أيام سويا
بسبب ما وحدوه بها من وافر الطعام .

★★★

كان دوق البلغار المدعو « نيكيناس » هو المستول عن رفض
السماح لولتر وجيسه بعقد السوف ، فلما ترامى الى سمعه خبر
انقمام عسكر بطرس من مدينة « سملين » بسبب المعاملة السي كان
قد صادفها حس وولتر سرب الحوف الى نفسه من أن يزل به
هؤلاء نفس العقاب لانه لم يكن يريثا من هذا الموضوع ، ولما كان
« نيكيناس » غير واثق تماما من وسائل الدفاع عن مدينة بلغراد
السي يحكمها فقد عادرها ، وغادروها فى انره سكا بها جميعا
مستعجبين معهم مواشهم ودوابهم ، ولاذوا الى الغابات فرارا الى
ما بها من المحابى والأماكن السرية .

وبينما كان بطرس لا يزال مقيما بالمدينة المغلوبة على أمرها
حاءه الأخبار بأن ملك المجر - وقد هزه نبأ المذبحة النى حرب على
شعبه - استدعى اليه فوانه الحربية من شتى أرجاء تلك الناحية
واستعد استعدادا جبارا للنار لهذه الدماء المهرقة ، فبادر بطرس
فى لحظته الى الاستلاء على جميع السفن الراسبة على طول النهر ،
وأمر حسنه تركوبها والعبور بها على وجه السرعة ، فاستجابوا له
وأخذوا معهم ما وحدوه بالمدينة المنهوبة من ماشة ودواب ، وحازوا
ما بها من أغلى الأسلاب حتى توفر بن أيديهم من ذلك كسرة فوق
الوصف ، ولما تم نقل كل شيء الى الشاطىء الآخر ضربوا معسكرهم
أمام بلجراد النى وجدوها مهجورة من أهلها ، وسار بطرس من هناك
من معه ثمانية أيام اجتاز خلالها غابة كثفة بالغة الاتساع ، خرج

مها الى « سس » ، وسار من خلفه كل الجيس بما معه من عربات
ومركبات وقطعان الماشية والدواب .

ومدينة «نبس» هذه شديدة الحصانة بفضل سورها وأبراجها
الى حجمها فوه كثره من السجعان والأبطال ، فعمر جس [بطرس]
النهر الذى يجرى الى جوار المدينة من حسر صخرى ، وضرب معسكره
على مقربة منه .

كانت المثونة النى معهم فى الزحف قد أخذت فى النفاذ ،
وأصبح العسكر يواجه نقصا بسا فى الطعام ، ومن ثم بعوا برساله
الى حاكم المدينة يتوسلون اليه فى لهجة رقيقة أن يأذن لهم باوامه
سوق بسروط كريمة وأسعار معدله ، ويكون السوق حافلة
بمطلبات الحياة اليومية الضرورية لهؤلاء القوم الحجاج الذين
خرجوا امتثالا للأوامر الالهية ، فأحابهم الوالى بأنه عر مستطع
الاذن لهم بذلك الا اذا بعوا اليه أولا برهائن من رجالهم ناكدا
لعدم قيامهم باحداث أى أذى ، وأنهم لن يقدموا على أى عمل من
أعمال العنف نصبون به الأهالى العاملين بالسوق ، وارضى الطرفان
هذا الشرط ، وأرسل [اللاتن] اليه الرهائن ، واذا ذاك مضى
المواطنون من المدينة حاملين معهم بضائعهم .

- ٢٠ -

توفرت كميات هائلة من الزاد لكل الجيس ، وجرى التعامل
بين الجانبين بيعا وشراء على أحسن ما يكون التعامل ، واصرم اللاتل
فى هدوء تام ، والناس من كلا الجانبين يتحدثون بعضا الى بعض فى
مودة ، حتى اذا بدت تباشير الصباح عاد الرهائن الى قومهم وأخذ

الجيس ينأهب للمسير ، وبينما كانوا على وشك الرحيل - أو بلفظ أدق - بينما كان الجانب الأكبر - ان لم يكن الجيس كله قد أخذ فى الرحيل ، اذا بجماعة قليلة من طعام اللاس ودعاة القوضى يمر يستحقون لعنة الله عليهم قد حدثهم نفوسهم بإحداث شغب بأفه فى الليلة السابقة أثناء شائهم بعض ما بلزمهم من رجل بلغارى ، فاستحبوا وليلا من الصعوف النى كانت قد رحلت وأضرمو النار فى سبع طواحين كانت موحدة قرب الحسر وفوق النهر المذكور ، فانت النار عليها كلها حتى صارت رمادا .

كان أبناء الماعون هؤلاء - وعددهم قرابة مائه شخص - من سعب السويون الدس لم يكف العمل السرير الذى ارتكبوه فى اطفاء غصصهم المجنون ، بل رادوا عليه فراحوا يقذفون بالنار بيوت طائفة معنة من اللاس تقع خارج الأسوار فأحرقوها هى الأخرى ، ونفوسهم ملأى بنفس الضغنة ، فلما فرغوا من حريمهم هذه أسرعوا للانضمام الى بقعة الحس البرىء مما فعلوه ، وساروا كأنهم غير شاعرين بما ارتكبوه من الاثم .

كان حاكم المدينة قد بلغاهم فى الليلة السالفة لعاء بالغ اللطف ، فلما رأى نكرانهم لأفضاله عليهم اضطر لدبير حطة بعاقبتهم بها بدلا من منابعة الاحسان اليهم ، وترمى هذه الخطة للقضاء عليهم قضاء لم يعرف النصفة فيه ، اذ عدهم جمعا لصوصا مخربين ، وأخذ الحس كله بحرمة سرذمة قللين ، ومن ثم استدعى اليه الأهالى وأمرهم بحمل السلاح ، ولم يأتخر هو ذاته عن قيادتهم بنفسه فكانوا جمعا كبيرا ، وراح يسجمعهم بالقول والعمل على مطاردة الصليبين كما لو كانوا ماضين للنار من فجرة دنسين ، وأصبح أهل البلاد كلهم رجلا واحدا ، قد توحدت مشاعرهم ، ويقدموا مهاجمين القوات التى كانت قد سبقت غيرها ، ثم كروا على المؤخرة

كرة عنيفة وراحوا يعملون سيوفهم فيها . ثم جاءوا الى أولئك العساء
الدين لم يكونوا قد انضموا بعد الى الجنس الأصلي فهاجموهم بسدة ،
وحرعوهم كئوس الموت دهافا ، كما أوقعوا نفس العقاب ، ان
قصدوا أو عهوا - بكثير من الأبرياء ، فأخذوا البرىء بجبره المذنب ،
واسنولوا على العربات والمركبات المحملة بسى أنواع المئونة ، وفبدوا
السيوخ والعجزه والساء والصنا والبنات الذين تم يستطيعوا
اللاحاق ببقية القوم ، وساروا بهم ، فسعى غليلهم ما سفك فى
المذبحة من دماء العلى ، ثم عادوا الى المدينة محملين بالقنائم .

- ٣١ -

راح بطرس فى هذه الأثناء بتقديم بطلعة عسكره وكنار رجال
الحملة وهم على جهل تام بالكارثة التى أصاب رفاقهم حتى طالعهم
فحاته رسول يخب به حواده على عجل ، حاملا الهم نأ الفاحعة ،
وأسهب لهم فى شرح قصة القبض على رفاقهم اسهابا ما كاد يضافح
أذنى بطرس حتى نادى فى العسكر أن يوافوه ، واستجاب لنصيحة
أهل المحربة منهم ، فكروا راجعين عبر الطريق الذى تقدموا منه
طوال اليوم كله ، فلما طالعهم حذب اخوانهم الصرعى - وكانت
برهانا على المذبحة - لم يستطيعوا امساك أنفسهم عن البكاء والعويل .
ثم وقفوا أخيرا للمرة السانة أمام المدينة فى البقعة التى كانوا
معسكرين فيها الليلة المارحة .

لم تكن عند بطرس ومن معه من زملائه الذين كانوا أحسن
من غرهم فى سبطرنهم على انفعالاتهم الا فكرة واحدة وغرض
واحد بالنسبة لهذه المسألة . . . لقد عادوا لكثشفوا

سبب الفاحشه . ولجاولوا ازالة دواعى الرعاع حتى تمكنوا من
منابعه رحله حثيم فى امان اكبر ، وذلك حين يسبب السلام
اسبابا ناما وبعد على اكمل وجه بين السعبيين ، وبصوه
المعوس من كل سائبة ، فأرسلوا الى حاكم المدينة والى سوحها
من أجل هذه الرغبة رجالا أهل قطنه وادراك للمستولية ، وعهدوا
البهم أن يتقصوا الحفائى والطروف التى أفضت الى ذلك السغب
العفائى ، واهراق كسر من الدماء المريثة .

فلما وقف الرسل على سبب [هذا التشقاق] بين لهم أن
الأهالى لم يعمدوا الى حمل السلاح جزافا بلا مبرر يدعوهم للغصب ،
ولما لم يكن الوقت ملائما للمطالبة بالسار جزاء ما اركبوا من
الأخطاء ، فقد بذل الرسل غاية جهدهم لمحاوله اعاده السلام الى
محراه ، بأن يعاد الى رفاقهم كل ما فقدوه من الغنائم والماع .

وبسما كابوا بسعون سبعا حسبا للوصول الى هذه الحامة
والى انفاق يرضى الطرفين ، اذا بهم بسمعون ضجة هوحاء فى
المسكر سببها العواطف المأجحة النائرة ، وأدكاها تهور بعض
الأشخاص الذين لا يكتراثون بسىء ما ، ولكنهم أرادوا سلوك طريق
العنف للانتقام لما وقع عليهم من أضرار .

وطمع بطرس فى بهدئة ثائرتهم وازالة ما فد يؤدى الى مذبة
أخرى . فاختر رهطا من المسئولين أصحاب النفوذ القوى وأرسلهم
الى الرعاع فى محاولة منه لمنعهم - وهم فى سورة غضبهم الحونى -
من مهاجمة الأهالى ، فما أحبط هذه المحاولة نفعا ، فقد رفضوا أن
يسمعوا الى تحذيره المجدى ، واذا ذاك أصدر أوامر صريحة الى
الجسس عن طريق المنادين أن يلتزم كل واحد يمين الطاعة التى فى
عمقه له ، فلا يحاول بأى صورة من الصور أن يساعد أو يعضد الذين

يريدون المحرق سلوكهم الطائس على سجب السلام الذي عاد
برفرف الآل من أحديد عليهم .

واسجباب الجيس لهذا التوجيه وعده أمرا لا مفر من الحضور
له ، واذ ذاك ركن الجمبع الى الهدوء انتظارا لانتهاء البوره الأولى
ومعرفة نتائج الأمر كله .

أما الرسل الدين كانوا ذهبوا الى الحاكم لعقد الاساقى بند
رأوا العكس من ذلك ، وأن الأهالى لم يمكن بهدئة ثائريهم ، بل ان
غضبهم راح يزداد عنفا بين لحظة وأخرى ، فلما أدركوا ألا أمل
فى نجاح مهمتهم السى جاءوا من أحلها ببذوا هذه المحاولة وراء
ظهورهم ، وعادوا الى المعسكر لمساعدته رجل الرب بطرس فى احداث
ناثرة الفنة ، لكن هذا كان ضربا من المسحبل ، فقد اندفع وراية
ألف من الباس فى هذه المحاولة المجنونة ، وكانوا فى عددهم هذا
يمائلون عدد من هب من أهل البلد ، وبمخض الأمر عن معركة
شرسة حرت أمام المدينة .

ورأى من بداخل المدينة أن السقاى قد بس من هم خارجها ،
واد كانت الفنة قد وقعت على كره من بطرس وعلى الرغم من أمره
الصريح ، فقد راودهم الأمل فى وقوف بقية الجبتس بمعزل عنه
لا تمد له يد المساعدة ، واد ذاك فبحوا مزاليج الأبواب ، واندفع
حموعهم هادرة ففتك بما يقرب من خمسمائة رجل من رجالنا الذس
على الحسر ، والذين كانت بقتهم كلها لا يعرف مواضع المحاضاب ،
ولا تدري شبتا ما عن الموقع بأجمعه ، فابتلعها النهر ، فلما رأى
العسكر هذا المطر هبوا سراعا الى أسلحتهم لأنهم لم يعودوا قادرين
على تحمل الأحوال التى انصبت على رفاقهم ، والتقى الجمعان
المتعاديان وجها لوجه فى معركة وحشية أسفرت عن مذبة مروعة .

فكان الحطب فى هذه المرة أشد من سابقه ، ولم يستطع العمامه
ولا الرعاع غير النظاميين أن يصمدوا أمام ضغط البلعار عليهم ،
فتخلوا عن موضعهم ولاذوا بأذيال القرار ، فتأثر بهذا الهرب
الجنسوى آخرون كانوا يحاربون ببسالة ، فاقنقوا أثرهم وفعلوا
فعلهم •

على هذه الصورة هرب الجيس كله •

فلما صدعت الصعوف وانفرط عقدها ، لم يعد يوجد أحد ما
يحاول المقاومة ، وفى وسط هذا الاضطراب فقد بطرس كل ما كان
الأمراء المخلصون قد أهدهو اياه من الهدايا ، كما ضاع كل ما كان
عنده من مال كان قد اعزم بدله فى سد حاجات الفقراء وأهل الفاقة
فى أثناء الطريق ، وذلك بسبب استلاء العدو على العرة التى كانت
تحمل هذه البروة ، فضاع كل شيء بضياعها •

أما البلعار فقد حدوا فى أثرهم بعصونهم وانقضب يملأ
حواسنهم ، فقارب من قتلوهم منهم عشرة آلاف مسبحى ، واسنولوا
على العربات ، ونيسوا ما عندهم من الماع ، وسبوا كثيرا من النساء ،
واسرقوا العديد من الأطفال •

فأما الذين سلموا من الوقوع فى أيديهم فقد التمسوا النجاة
فى الفرار الى أعماق الأدغال التى لا يمكن الوصول إليها ، وكان من
أصعب الأمور استدعاهم للرجوع فى اليوم الثالث ، اذ أخذوا يدقون
لهم الطبول ، وبنفخون الآه اق ، حتى التفوا حول بطرس هم ومن
نجا منهم ، وارتدوا جمعا الى بل صغير يرتفع بعض الشيء عن
السهل •

ولما كان اليوم الرابع وفد تجمعت القوات المسرده ، وأقبل الهاربون من الأماكن الخفية التي ظلوا منوارين فيها ثلاثة أيام سويا ، وصار عدد الجيس الذي عاد بعضه الى بعض يهرب من ثلاثين ألفا نهشوا من جديد لمتابعة الزحف ، وعلى الرغم من سلوكهم الطائس الذي أدى الى ضاع ما يقرب من ألفى عربة نعل ومركه حمولة من أيديهم ، الا أنهم استسرعوا العار ان لم يجزوا حجهم فعادوا لمواصلة رحلتهم تحت ظروف بالغة المشقة ، اذ بسما كانوا يهيمون بالسر رغم حاجتهم الملحة الى المثونة اذا بوافد من الامبراطور يصل الى المعسكر مزودا بالأوامر الامراتورية الصادرة الى بطرس وغيره من قادة العسكر ، فخطبهم الرسول غلاسة بقوله :

« أيها السادة السلاء العظام : لقد وصلت الى سمع الامبراطور شائعة بضمن رمكم بيهمة شسعة ذات طبيعة نكراء ، ونقول انكم سرتهم سريرة خرفاء في امبراطوريه ، وأنكم اركبتم أمرا اذا في حق سكان البلاد وحى رعاياه ، وأثرهم القلافل والاضطرابات ، فاذا طمعهم في أى وقت في نوال عطفه ، وأن نفخوا عند حالته موقع الرضا فاننا منهاكم - بأمره - ألا تفكروا في البقاء بأى مدينة من مدنه أمدنا نحاوز ثلاثة أيام ، وعليكم أن تسدوا رحالكم سريعا الى القسطنطينة في انضباط ونظام نامن ، وسيدل الجيس على الطريق ، ونعنكم بما تحاحونه من الطعام بنمن مقبول » .

شدت هذه الكلمات من عزيمة القوم ودفعنهم حاجتهم للطعام الى التسرد ، كما أن رافة الامبراطور أنعشت الآمال في نفوسهم ، فراحوا يشرحون للمبعوث الامبراطورى بعض الظروف التى أدب الى الاضطراب الآخر مدافعن عن أنفسهم ، ومرئين عنده ساحتهم ،

ويحدثوا عن تذرعهم بالصبر فى احتمال البلى التى أنزلها السلفار
بهم ظلما وعدوانا ، فلما فرغوا من كل ذلك ساروا - كما وجههم -
راسدس حتى بلعوا القسطنطينية بعد رحله سافه ، فاما باعوها
وجدوا بها « وولر المفلس » وقوانه التى كانت معه فى انتظار
قدومهم ، فانصم المعسكران بعضهما الى بعض ، وخموا فى الموضع
الذى حصص لهم ، واستجاب بطرس للاستدعاء الامبراطورى .
فدخل المدينة ووقف فى الحضرة الملوكية التى سألته عن مقاصده
من وراء هذه الحركة الكثرة ودوافعه اليها ، فأسهب بطرس فى
شرح الأمر اسهابا دل على ما هو عليه من فصاحة اللسان وقوة
الحنان ، وأخبره أن أكبر أمراء العرب فادمون فى أثره ، وهم رجال
مخلصون فى خدمة الرب .

ولقد أظهر [بطرس] روحا عالية ، وامنلاكا لناميه البلاغة ،
مما حمل كبار رجال العصر على الاعجاب بعظنته وشجاعته ، بل ان
الامبراطور دانه مال اليه كل الميل وأثنى على هدفه ، ثم صرفه بعد
هذا الاستقبال الكريم ، محملا بالهدايا الرائعة ، وأمره بالعودة الى
حنده الدين معه .



كان الحسن قد أقام فى هذا الموضع بضعة أيام أسح لرحاله
خلالها أن يعموا بالراحة وبما طاب لهم من المأكول ، ثم صدر الأمر
الامبراطورى بتزويدهم بالسفن يعبرون بها البسفور الى « بسيسا »
وهى أول الولايات فى منطقة آسيا ، ويحدها نفس البحر الذى باخوا
مكانا بقع عليه اسمه « سفمتوت » فأقاموا به وضربوا معسكرهم فيه .

كتب البعثة الى عسكر فيها الحس نفع على نحوم بلاد العدو ،
فظلوا مقيمين بها أمدا فارب السهرين اقامه طيبة ناعمة ، يوفر
لهم بها سنى صوف المثوبة . كما أنه فى حلال هذه الفرة كانت
هناك كميات ضخمة من البضائع تعرض عليهم كل يوم للبيع ، كما
أنبحث لهم فرصة من الاستجمام الذى كانوا فى مسس الحاجة
اليه ، غير أن هذه النعمة العظيمة من الطعام والفراغ الكبر حولت
هؤلاء التعساء والجفاه الى قوم اسيد بهم الطيش، ودفعتهم البلهنة
الى يتقلبون فى مطارفها الى الصلف ، فكونوا من سبهم جماعات
لا تأتمر بأمر أحد ، وراحوا يتوغلون فى البلاد - على غير رضى من
رؤسائهم - لمسافة بلغت عسرة أمال أو أكثر ، فساقوا منها قطعان
الماشية والدواب .

وطالما جاءتهم كتب من الامبراطور يحذرهم مغبه ما يعترفون ،
وينهاهم عن التجرو على الابعاد أو استفزاز العدو ، ويأمرهم بالبقاء
فى الموضع الذى خصص لهم ، وأن ينهجوا النهج القويم الى حين
وصول فوادهم الذين قيل انهم فادمون وراءهم .

وخاف بطرس على من وكلت اليه رعايتهم فذهب الى المدينة
الامبراطورية عساه يحصل على تخفيض ثمن ما يشترونه ، وعلى
ظروف أحسن فى المتاحرة ، فاعتنم العسكر المشاكس الذى لم يالف
النظام فرصة تغيب بطرس ، وساروا سيرة رعناء حين قامت
طائفة منهم ، فوامها سبعة آلاف جندى من المشاة الذين يمانلون من
ذكرنا فى غيهم ، وانفصلوا عن الجيش الأصلى ، وضموا اليهم
ثلاثمائة فارس وزحفوا جميعا على نقيية من غير اكتراث باعراض
رفاقهم الآخرين على مسلكهم هذا ، ورتبوا صفوفهم للحرب ،

واندفعوا فساقوا من صواحي المدينة عددا كبيرا من القطعان والأغنام ، وعادوا بها سالمين الى المعسكر .

★★★

ورأى جماعه من السيون وغيرهم ممن يكلمون لعنهم ما صادفه اللانين من النجاح فى غزويهم هذه ، فنملكتهم هم أيضا الرعبة فى مجاراتهم فى السلب والنهب ، وأجمعوا العزم على القيام بعمل هذه المحاولة ، مؤملين أن يحوزوا من العجر لأنفسهم مثل الذى حازه هؤلاء ، وأن يرفهوا عن دواتهم فجمعوا من هذه الأمة [السونوييه] ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص ومائتى فارس . ورحلوا بهم على نيقيه .

وكان فى ذلك الاقليم - وعلى بعد أربعة أمال من نعمة نفسها - مدينة حصينة تقع على سطح أحد النلال ، فدنا منها هؤلاء النيون وهاجموها أعنف هجوم ، وأحدقوا بها من شتى النواحي ، واسولوا قسرا على ذلك المكان رغم استبسال أهله فى مقاومتهم . لكنهم فكوا بهم وملكوا كل شئ فى البلد ، ثم أعجبهم جمال الناحية وغناها فحصنوها بحصنا قويا ، وأجمعوا العزم على البقاء هناك حتى يصل القواد .

- ٢٤ -

كان [قلع أرسلان بن] سليمان [بن فطامس] صاحب هذه الأرض وحاكمها قد علم قبل ذلك بأمد طويل بقدوم الزعماء الصليبيين ، ومن ثم حشد جيشا كنيفا من السجعمان الذين

لا يحصيهم العد من بواحي السرى ، نادلا فى سبيل ذلك كل وسائل
الاغراء والمال ، وعاد بهم الى هذه الجهات ليمد يد المساعدة المنسودة
الى أهالى الناحية ابتغاء صد هجمات العدو ، فلما بلغه الخبر أن
التيوتون الذين ذكرناهم حالا قد استولوا على احدى قلاعهم ، بادر الى
الزحف عليهم ، وحاصر القلعة حصارا شديدا ، وحكم السيف فى
رفاب كل من وجده فيها .

ووصلت آناء هذه النكبة الى المعسكر [الصليبي] ، وسرعان
ما تردد الصدى بأن طائفة البيوتون الذين عادروا المعسكر منذ
قريب قد هلكوا عن بكرة أبيهم على يد فلح أرسلان . فاسبب الدعر
بنفوس القوم من هذا البأ ، ولم يستطعوا أن يكفوا ما اعلمل به
صدورهم من الأسى ، فأسلموا أنفسهم للبكاء والأين ، حتى اذا
أصبح الحفيعه فى النهايه معروفه لا حياء فيها عم الاضطراب جمع
الناس فى المعسكر ، وارتفعت صيحاتهم عالية تلح الحاحا شديدا
ألا يسكتوا عن هذه الكبة التى نزلت باخوانهم ، وتنادوا بأن بهم
الفرسان والمشاة لحمل السلاح للخروج ثارا لدم رفاقهم المقولين.
وكان أعظم رجال الجيش وأهل الخبرة فى مثل هذه الأمور راعين
فى اطاعة أوامر الامبراطور ، فلما أرادوا التغلب على هذا الموضوع
وكبح حماح العامة الطائشة ثار الناس ضدهم وتمردوا عليهم ،
ورأسوا عليهم واحدا منهم اسمه « حودفروى » ويلقب « بيوريل »
وكان صعلوكا ، وجعلوه قائد هذه العصابة ، وراحوا يصبون اللعنات
على رؤوس أصحاب المكانة العليا ، زاعمين أن عدم اتاحة الفرصة
للانتقام بالسيف ممن قتلوا اخوانهم انما يرجع الى الجبن ، أكثر
من أن يكون صادرا عن تفكير سليم .

كانت العلبة أحيرا لمُسئته العناصر الشريفة ، فحلفوا وراءهم
النساء والأطفال والشيوخ العزل من السلاح ، على حين سلح
القباقون . فجمع مبيهم رهط كانوا خمسة وعشرين الفا من النساء
المدحجس بالسيوف . ومائتين من الفرسان المجهزين أحسن بجهر
بما عليهم من الرردباب . وصعدوا صفوفهم للقتال ، ورحفوا في
الغابات المنسار بها ، وكانت وجهتهم ناحية التل في اعلم نيقية ،
وما كادوا ينقدموه ثلاثة أميال في الغابة حتى كان قد بلغت أيضا
قلج أرسلان على رأس جبس من قومه كالدبي كره ، وراح بعد
السر سطر معسكرنا الذي ذكرنا موضعه من قبل ، قاصدا مباعسه
بالهجوم ، وترامب الى الاسماع صحاح وصحاح غير مألوفة صادرة
من العباب أنشأته أن الصليبيين قد غادروا مخيمهم ، وأنهم في الطريق
للمهاجمة ، فبادر في لحظة الى مغادرة الغابة والنزول الى السهل
العسج ، ففعل رجالنا متلما فعل [قلج أرسلان] ، غير شاعرين
بافتران العدو منهم ، فلما اكسفوا أنه أدنى ما يكون اليهم هوا
للاقتضاض علف ، وراح كل واحد منهم بسجع الآخر وسد من
عرصة ، وأحاطوا به مسرعين سيوفهم لسنقموا بأيديهم لدم اخوانهم
المراق لكن بسما كان رجالنا مندفعين الى الأمام بعلوب ملؤها الحمه
والخبرة إذا بسنؤف العدو نلقاهم ، وذلك لأن الترك - وقد أقنوا
أنه طرايع حتى الموت - فاوموا مقاومة عنيفة ، يذكها غضبيهم
العارم لا اعجزهم بكنرة جندهم ، واستبسل الجانبان اسبسال
قويًا راتيج لكن هارت الدائرة أخرا على الصليبيين بسبب كره
خصومهم ، ولما لم بسنطع رجالنا أن يتحملوا شدة المعركة أكثر
مما تحملوا فقد اضطربت صفوفهم ولاذوا بأذيال الفرار ، فانقض
عليهم الترك سيوفهم وتعقبوهم حتى معسكرهم ، وأعملوا فهم
مذبحة شنيعة .

رأى دبل حتى عده المعركة بصعده رجل من دوى المكانه فى
معسكر بطرس ، منهم « وولر » المخلص ، و « ريسه دى بروس »
و « فولنر دى أرلمانز » وغيرهم .

أما الخمسة وعشرون ألفا من الجند المساة ، والخمسائه
فارس الدين كانوا قد خرجوا من المعسكر ، فقد راح معظمهم ما بين
فيل وأسير .

- ٢٦ -

دبت السنوة الكبرى فى أعطاف فلج أرسلان ، وهزبه المرحه
الطاغية لهذا النصر الذى حازه ، ولما لم يعد بأفيا أحد قادرا على
مقاومته فقد حكم السف فى رقاب الأحياء ، عر مسبق تلى وقد
الحماة أحدا مريضا كان أو عجورا ، رجلا كان أو امرأة ، وهلك
الرهبان وجميع رجال الدين ، لم يسن من هؤلاء كلهم سوى من
لم يملعوا من الرشد من الصبيان والبنات الصغيرات الذين كان
يخدمهم عنده نهاء طلعتهم وصغر سنهم ، ولم تكن استنأؤه إياهم
إلا لضرب عليهم الرق .

★★★

وكان على الساحل قرب المعسكر حصن قديم نصف حرب ،
ليس له أبواب ولا مزالج ، وليس من أحد يقم به ، فالتأت
الضرورة طائفة من الحجاج تقدر بثلاثة آلاف حاج الى الهروب الى
هذا الحصن والاعصام به ، اعتقادا منهم أنهم واجدون فيه الملاد
الأمين ، وحاولوا الدفاع عن أنفسهم فى موقفهم العصب هذا لسد

الحروب الصليبية ح - ١٢٩

مداحاه يدروعيم رد لاجار الصحه بدحرجونها الى هناك ، كي يحولوا بين أى أحد من الافراب منه . ولكن البرك سُددوا عليهم الحصار فلم ينع هذه السدة المحصورين من الاستسسال دواعا عنه حتى ردوا مهاجميهم على أعقابهم ، كما أرسلوا فى الوقت دانه رسولا على حياح السرعة الى بطرس يجبره بهلاك جماعه ، وأن الفله الناضه منهم على فد الحاة نكابدون حصارا سديدا ضربه العدو عليهم فى قلعة نصف خربة ، وأنهم فى مسس الحاة للطعام والأسلاح . فادر بطرس بالمضى من ساعنه الى الامراطور ، واسطاع بوسلانه الله وبصرعانه أن يحمله على أن يرسل فى لحطه هذه بعض الفراب الى هناك . وألقى لهذا العسكر أمره بانقاد الأحياء منهم من الخطر الذى يكسهم ، فأنجروا ما كلفهم به على أم وحه ، اذ ما كاد البرك يسمعون بأمر الامراطور حتى كفوا فى الحال عن مهاجمة ذلك المكان . واستحبوا ومن حلفهم أسراهم ، وعادوا الى نقة ، كما حملوا بالاصافة الى ذلك أحسن الأسلاب والخم والفساطيط والحاد والعال وجميع الجهراث التى يهبوها من الصلبيين .

وهكذا فان الطيس الجبوى الذى كان عليه هؤلاء القوم الجعاه عن البطامس ، انصرفون عن الأحد نمسوره من هم أحكم منهم قد أدى بهم الى الابادة الشاملة ، ولما لم يكونوا معتادين على النظام المحمود فقد سلكوا سبلا لم يجنوا من ورائه خيرا ، واصبحوا بها لسوف العدو .

بعد فترة وحيره من وصول بطرس الى « سسبا » قام سيسس بتوئني اسمه « جوسوك » سار في أثر خطي بطرس يحبه السروق لأداء رحله الحج هذه . ولما كان جوسوك قادرا بالطبيعة على اسماله الناس اليه بكلامه فقد استطاع اعراء كبر من السريون في جميع رحاب تلك المملكة على الاسنراك في هذه المهمة ، حتى نجحه لدبه منهم قرابة خمسة عشر ألف حاح دخل بهم المحر ، لم داي كندا . كما استحاب المجريون من حانهم الى أوامر ملكهم فعدهرا المضائق بأثمان معقوله الى رجال جيس « جوسوك » الدس انطربهم وفره الطعام بين أبدبهم ، فأسلموا أنفسهم الى البطانة والكسل ، وانعسوا في الشراب لعبون منه عبا ، وأساءوا السره مع الأهالي والحقوا بهم شرورا كسرة اذ راحوا ينهسونهم ، وامدنت أديهم بالسرفه الى البضائع المعروضة للبيع في الأسواق العامة ، واخرجوا الستات فقتلوا الناس غير مراعين أصول الضافة .

فلما وصلت أخبار ما فعلوا الى الملك اسنبد به الغضب ، فأمر أن ينادى في كافة أرحاء مملكه أن يحمل الناس وكبار ملاك الأرض السلاح للقضاء على هذه الأخطار الكبيرة ، لا سيما وقد ارتكب في كبير من الواحي تحاوزات مهلكة ، بلغت من العار حدا يفوق الوصف ويعف اللسان عن ذكرها ، وكان من المسحجل على الملك أن يفض الطرف عن مثل هذه الجرائم والا اتهم بالجبن ، وحلب على نفسه كراهية شعبه له ، ومن ثم تجمعت قواب المملكه ، وكبروا كرة رحل واحد غاضب على الصليبين ، باغنارهم أعداء يستحقون الاستئصال الدام ، وأجمعوا العزم على الفتك بهم انقاما مما احدثوا من الآثام .

وأخيرا نسي لموات الملك أن يعير على طائعه من هؤلاء المجانين
 الفوضويين في مكان يعرف « ببلجراد » يقع وسط تلك المملكة .
 وكان هؤلاء (السنون) قد سمعوا بزحف الملك ، وأبصوا أمام
 البعير من حقه السديد عليهم ، كما أزعجهم شعورهم بما اقترفوا
 من الحرم ، ورآهم المجريون - وقد حملوا سلاحهم - عازمين على رد
 القره بالقره فأرادوا درأ الخطر عن أنفسهم ، لكنهم أدركوا استحالة
 الاشتباك معهم دون أن يفقدوا الكثيرين من رجالهم ، ذلك لأن هؤلاء
 المسحس [السنون] كانوا في الواقع رجالا ذوي بأس وشجاعة ،
 ومهيرة في استعمال السلاح ، نأبون أن يسلموا أرواحهم من غير
 قتال ، ولذلك فإن المجريين - حريا على مألوف عاديتهم - حاولوا أن
 يألوا بالحناء ما يعجزون عن بله بالعنف ، فأرسلوا وفادة الى
 « حوسوك » وزعماء حسه ، يطمئنون خواطرهم - خديعة -
 بالكلمات المعسولة .

- ٢٨ -

لقد قالوا لهم .

« أنه برامى الى سمع الملك الشكوى المريرة من فعال جنسكم ،
 وقل له انكم أنزلتم برعاياه الخاضعين له كثيرا من الأضرار البالغة
 والأهوال التي يعجز اللسان عن ذكرها ، وأنكم ساربتهم حسن
 المعاملة التي عومل بها عسكريكم بأسوأ ما يكون الجزاء ، ومع ذلك
 فإن الملك يدرك بحكمته تمام الادراك أنكم لستم جميعا نحلون وور
 هذه الجرائم ، وهو واثق أن فيكم رجالا حكماء ممن يمتليء قلوبهم
 بحسنة الله لم يرضهم فعال الآخرين الشريرة ، وأن هذه الجرائم

التي أثارت عن حق الحق الملكي قد نمب على غير رضى هؤلاء وأنهما حدثت رعم اسسكارهم ، ولما كانت رغبة الملك ألا تؤدى خطايا المرحس الى نأثم الكل ، وألا يؤخذ البرى بحريه المذهب فقد قرر أن يكسح جماح غضبه حتى لا يصيب اخوانه فى الملة المسححة بضرر ، ومن لم فانا ننسر عليكم أن سسسلموا وسسلموا كل ما معكم الآن ، بما فى ذلك سلاحكم ، دون قيد أو شرط ، واضعين ذلك كله فى يد المالك حتى يذهب عنه غضبه تماما ، فان لم نفعلوا ذلك لم سسسطع أحد منكم النجاة من الموت - لأنكم - بوجودكم فى وسط ممالكه - لستم أكفاء لسا فى القوة الحرسية ، كما أنه لا قدرة لكم على المساعدة من بطسه » .

☆☆☆

ظهر منذ البداية عدم رضاء « حوسوك » ورؤساء حرسه عن المسلك الجنونى الذى سلكه شعبهم العنيد ، لكن بساطة قلوبهم دفعتهم للقة فى اعبار رحمة المالك أمرا لا يخالج السك فيه أحدا ، ومن ثم فقد حملوا عسكرهم بالقوة تقريبا على الاذعان لفكره تسلم أنفسهم وسلاحهم وكل ما تملكه أيديهم الى الملك ، وبذلك يكمرن عما ارتكبه من آثام حرسه ، وانتهى الأمر أخيرا برضائهم عن نكرة أنهم بما يقرر ، هذا على الرغم من احساحهم العنف ، ومداهم السديد للحرب دفاعا عن أنفسهم ، بد أنهم ما كادوا يفرغون من تسليم أسلحتهم وجمع مناعهم لقواد الملك ورسله حتى وحدوا الموب فى انظارهم ، بدلا من العطف الذى كانوا يتوقعونه ، اذ قام المجريون بساغطة التوتون على غرة منهم ، وكروا عليهم فى الوقت الذى كان فيه هؤلاء عزلا من كل سلاح ، ابمانا منهم برحمة الملك ، وثقة منهم به ، وأعمل المجريون قبيهم مذبحة من أشنع المذابح فى السعد عن الانسانية ، دون تفرقة بين الصالح والطالح منهم وأسفر

الأمر عن عرق المكّن كله في بحر الدم المظلول ، واملااته حسب الصلي
واسئى الأمر بهلاك هذا الجمع الكثيف الذي لم يبق منه سوى نفر
قليل نجوا من الهلاك السامل ، ممن سملهم رحمة الرب فلم
تأخذهم سيوف المجريين ، فعادوا الى وطنهم يقصون خبر المدبحة ،
ويروون نبأ المصير المشؤوم الذي لقيه اخوانهم على من اربطوا بالعهد
ممن كانوا على وسك القمام بذلك الحج دانه وأسدوا الصبح لهؤلاء
الحجّاج الجدد بوحوب اصطباع الحكمة في سرهم ، واتخاذ أكبر قدر
من الحذر من هذا الشعب الديّ ، لما ارتكبه من خيانة لن نحمي من
الأدهان .

- ٢٩ -

في هذه الأثناء - أو بعدها بقليل - نجتمع من بلاد العرب
رمر كسفه لا يحصنها العد من المناسة ، كانت تحركهم نفس الرعة
[في الحج] ، وانطلقوا لم يزعموا عليهم أحدا أو سجدوا لهم
مرشدا ، وزحفوا من غير هدى ولا نبصر أو حكمة ، على الرغم من أنه
كان بينهم في الواقع رجال من أصل شريف ، أمثال « نوماس
دي لافر » و « كلاربولدوى فندبل » ، و « ولهم البجار » وكوب
هارتمان وغيرهم ، غير أن القوم كانوا لا يعرفون الانضباط فلم يطيعوا
هؤلاء السادة بأي صورة من الصور ، وضربوا عرض الحائط
بما أُنشأ به عليهم أهل الحجى والبصرة ، فانطلقوا على وحوهم
هنا وهناك ، مقرفين الفعال التي يرفضها القانون ، ويركبون
ما يملئهم عليهم شهوانهم ، ومن ثم فقد ركبوا من الجنون والبسطة ،
مع أن واجهم كان يحسم عليهم أن يحملهم خوفهم من الله على السير
في هذه الرحلة الباهضين بها سيرا كله طاعة للأوامر الالهية ، وأن

يلزموا تمام الالتزام بالنظام فى حجهم الذى يقومون به من اجل
المسح ولكنهم كانوا لا يمرون بمدينة أو قرية الا وثبوا على من فيها
من يهودها فذبحوهم من غير أن تأخذهم رحمة ، ولم يكن اليهود
قد أخذوا حذرهم منهم اد لم يكن هناك ما يحملهم على أن يوحسوا
منهم سرا فتخافونهم •

وقد وقعت هذه الاعداءات على وجه الخصوص فى مدنى
« كولوبا » و « مسز » حب كان الكونت « اميكو » أحد سلا
ومسهورى تلك الباحة الأقوياء قد انضم بالكبرى من معوه الى
عصابات الحجاج ، وكن [اميكو] بالسنة الى مكانه ملرما
بما تعرضه عليه هذه المكاة من التمسك بالأحلاف ، الا أنه لم
كن بالسحص الذى يسحب التماور فى السلوك ، وسار على
العكس من ذلك ، اد ساهم فيما ارتكبه أساعه من أعمال الفساد
والسر ، وزاد على هذا فراح يسجعهم على اقتراف الجرائم •

اخبرف هذه الجموع كلها « فرانكوسا » و « بافاريا » حتى
تلبت ناحية تدعى « مسسورج » (فمزيلورج) على بحره المجر ،
وكادوا يوقعون السماح لهم بالدخول من غير صعوبة ، لكنهم
ما كادوا يرون المدخل مغلقا فى وجوههم حتى وقعوا على هذا الجاني
من الجسر •

وكان فى الباحة قلعة شديدة الحصانة بفصل حماية بهرى،
« الدانوب » و « لبثا » لها ، وكذلك المستنقعات العميقة المحطة بها •

وتقول الأخبار ان عدد الحس الذى رحف الى هناك فارب
مائى ألف حدى من المساة ، وثلاثة آلاف من الفرسان •

يضاف الى ذلك أن ملك المجر أصدر أوامره بعدم السماح
لهؤلاء العسكر الراغبين فى عمور بلده بدخوله ، فقد نذكر الأهوال

السي كان قد أوقعها بهوات « جوسوك » فحاف ان هو ان لهذا
العسكر بالدحول أن يدفعوا الى القنال لأخذ النار ، لا سيما وأن
خير المجزرة الدامة التي جرت حديثا قد عم السهل والجبل ، ويردد
في جميع الآفاق ، فحملت صناعة هذه العمال الملك على الخرب .

وعلى الرغم من ذلك فقد اضل هؤلاء الحجاج بالمركزول اليهم
حراسة المدينة وبقواد العرف القائمة بحماية هذه الناحية وكان
انصاليهم بهم لسؤالهم الاذن لهم بارسال رسل من قلوبهم الى الملك
لمسبون منه الحصول على انقاصه بدخولهم عبور تلك النواحي .

وفي خلال هذه الفترة كان الحسد قد ضربوا مسكرهم في
مرعى مسوسب بهذه الناحية ، وأقاموا في اسطار ما يسبحون عنه
سفاريهم الى الملك .

- ٣٠ -

انقضت بضعة أيام عاد بعدها الرسل الذين كانوا قد ذهبوا
الى الملك ، وأعلموا فسل سفاريهم فسلأ ناما ، وحينذاك آبقن زعماء
الحملة أن لا رحاء في خبر يأتيهم من ناحية الملك ، لذلك أودعوا
أمرهم على تخريب بلاده الواقعة على هذا الجانب من النهر ، واضرام
النيران في ضواحيها ، سالكين بذلك مسلك الأعداء في أملاكه ،
وبنما كانوا ذات يوم منهمكين غاية الانهماك في هذا العمل اذا
نكوكسة من رجال الملك قوامها سبعمائة فارس قد عبرت الى
لحماية المنطقة من أن يعيث الأعداء فيها تخريبا ، فصادفوا على غير
انتظار جماعة الحجاج فلم يستطع الفرسان تجنبهم ، كما حال النهر

بسيهم وبين العوده الى الساحة التى جاءوا منها ، تاتى فرسان الكوكبة
أو حلقهم مصرعهم ، ولم يسج منهم الا نفر قاتل فقتلوا حيادهم ورأوا
الاحياء يحلفاء المسيفعات حفاظا على حياتهم ورحمته لأرواحهم .

تملك السحابة الحجاج بما أحرروه من نصر على عدوهم .
فصمموا على بناء بعض الجسور ومهاجمة القلعة حتى اذا تم لهم فتح
الطريق نحد السف عزموا على دخول المملكة ، لذلك اسندعوا جميع
عسكرهم لتحقق هذه العابة ، وعبروا الجسر الى فرعا حالا
من افانها ، وتمكنوا من الوصول الى الحصون والقلاع ، ثم دفعنهم
الحرأه للاستعداد لسف الأسوار وسق طريقهم الى الداخل .
محدث من دروعهم وقاء لهم ، وبجحت محاولاتهم الحاده فى فتح
ثعرا فى أماكن كبره من الأسوار ، حتى اذا باعء ملهم بقطه صار
دخول الحجاج فيها الى المدينة أمرا مقرا ، واسند الناس بهوس
المبمن بها الذين لم يعد لهم أمل فى البقاء على حياتهم ، اذا
بالصلبس المهاجمين يصسهم رعب مفاجئ أرسلته السماء هلع
له فلوبهم فخلوا عن الهجوم وفروا ناركن وراءهم معطم مباعهم ،
وعلى الرغم من أن ظاهر الأمور كان يسر الى أن الصر حلفهم وأنه
لس هناك ما ببرر فرارهم ، الا أنهم ولوا على أعقابهم منهزمين ،
مدبرين غير مفلين ، ويقال أنه لم يكن ثم سبب وحه الا أن يكون
آثامهم الجمة وخطابهم الكبره قد حلت عليهم سخط الله لأنهم
كانوا قد غرقوا الى الأدفان فى لجة الكفر الذى يزلزل بالخوف فلوب
أصحابه مصداقا لكلمات الحكم « هرب الحبان دون أن يكون أحد
يطارده » .

تبدل وضع المجربن الى ما هو أحسن حين رأوا القوات
الصلبية تلوذ بأذيال الفرار فانطلقوا انطلاق الغالبين يتعقبون هذه
القوات التى أنزلت الفزع الممض بهم منذ قليل وكانت هذه القوات

المعادية هي التي لم يكونوا يستطيعون دفعها حتى وهم وراء الاسود
في حماية المستعاب ، أما الآن فقد راحوا يطاردونهم من خلفا .
أنفسهم ، ولم يكفوا سب العرع فيهم ، بل رادوا فراحوا يقتلونهم .



فر من هؤلاء كوت « ايسكو » ومعه الجانب الأكبر من فوانه
المدحوره ، وعاد بهم الى وطنه .

أما الأمراء الآخرون الذين اسرب البهم من قبل فقد فروا عبر
« كاريسا » حتى بلغوا ايطاليا الى عمروها ووصلوا الى حدود
« أبوليا » ومن هنا اتجهوا نحو بلاد اليونان في أثر أولئك القرا .
الذين قاموا هم أيضا بنفس هذه الرحلة ، والذين كانوا قد امسحوا
عليهم أن يركبوا البحر الى « دورازو » .

ولقد تأثر العرب كله عن حق بهذه الحركة وبغيرها مما على
شاكلتها ، وراح كل أمه على وحه العريب يرسل فوانها على حده ،
وقد انفصل الواحد منها عن الأخرى ، فمضى للحج جماعات بحب
امره فاده معس ، ورح آخرون من عر أن يرثسوا عليهم أحدا
لكن كان من الواضح أن الطريق الذي سلكه القوم عبر البحر كان
أقصر الطرق ، بيد أنه أصبح مسدودا في وحوهم . بسبب
ما أنراوه سكان هذه البلاد من المصره والسرور التي حاوَز كل
مدى وسبب ما ارتكبه الصحاح الذين سبقوهم من حرم ، فأصابوا
به الناس من عر انهم اقرفوه .

من أجل هذا السبب واحه الذين حاءوا من بعدهم صعدوه
بالعة في الحصول على عطف ملك المجر .



هنا ينتهى الكتاب الأول

الكتاب الثاني

جيوش الحملة الصليبية الأولى تزحف الى القسطنطينية

فصول الكتاب الثاني :

- ١ - موعد رحيل حودفروى والنبلاء المصاحبين له ،
وكيف تقدموا حتى بلغوا المجر .
- ٢ - رساله الدوق الى كولمان ملك المجر على لسان
« حودفروى ديس » ، ورد الملك على الدوق .
- ٣ - الملك وقوادنا يعقدون مجلسا فيما بينهم
ويرسلون بلدوين أخا الدوق « رهينة » ثم عودته
بعد احتجازهم المجر ، والملك يتحف الدوق بكنير
من الهدايا .

٤ - عسكريا يهدم فى أراضي الامبراطورية ، روصف
الدخول وملاحظة عن أحوال بلاد الاغريق
العمسة .

٥ - الدوق يرسل مبعوثين الى الامبراطور يطلبون
منه اطلاق هيج المطيم وغيره من البلاء
الموجودين فى السجون . قوايا ننهج الافلم
ثم تصل فى النهاية الى القسطنطينة .

٦ - الادبراطور يدعز الدوق للحضور اليه ، لكن
الدوق يرفض الدعوة فنسب العداوة العمسة
بينهما فيعمد الامبراطور الى حيلة مكره بسل
بها الجبس الى مكان عمه له .

٧ - وصف موقع القسطنطينة . الدوق يرسل
رسلا الى الامبراطور ، وحسنا يكابد الماعب من
الكمائن التى لم يكن يتوقعها والتى نصها
الاغريق له .

٨ - الحس يعود الى المدينه ونسب معركة كبيرة
تتمخض عن مذبحة فطعة فى الاغريق .

٩ - الناس يهرعون لحمل السلاح ويعملون بد
التخريب فى الناحية كلها ، ويسفر الأمر عن
توفر كميات ضخمة من المثونة فى المعسكر .

١٠ - وصول رسل من ناحية بوهيموند الى الدوق
جودقروى يحملون اليه رجاءه بعدم الذهاب الى
الامبراطور ورد الدوق على بوهيموند .

١١ - الامبراطور يرسل ابنه جون بوروفرو وحسن الى الدوق رهينة عنده ، ويدعو حودفروى اليه فندعب حودفروى فتنبأه الامبراطور ويسقر السلام بين الاثنين .

١٢ - الدوق سئادن فى المعادرة فبره من الوقت فيرحل محملا بالهدايا ، عهد سقو للحجاج وعور عسكر الدوق الى البسفور وضرهم خامهم فى الافلم المحيط بخلقدوسا .

١٣ - اسراع بوهيموند فى القدوم ووصف من كان فى معننه من الكمار ويدبر الامبراطور الحطط السربة لصندهم .

١٤ - رسالة الامبراطور الكسوس الى لورد بوهيموند وفنام حسن الامبراطور بهجوم سرى على معسكر بوهيموند والقبض على أسير فصيح بوايا الامبراطور السرير

١٥ - الدوق [حودفروى] بخرج لاسسيفمال الأمر بوهيموند وبسر به رغم أنه الى الامبراطور الذى يستقبله باحترام كبير ، كما أن نانكرىد بحرك فى الوقت ذاته كتائبه فى سنسا فننظم الى حسن الدوق ، .

١٦ - وصول روبرت كوس فلاندرز بجسده ودهابه محروسا الى حصرة الامبراطور بباء على استدعاء الأخير له . وأغداق الهدايا الجمة عليه ثم عوره البحر وانضمامه الى الزعماء الآخرين .

١٧ - كونت بولوز وأسقف بوى بحسرفان دلماسيا
بجيوشهما ، ويلاقبان كبرا من الصعوبات فى
عبور هذه البلاد .

١٨ - سفاره امبراطوريه نقابل الكونت فى دورارو .
والبلغاريون يلقون القبض على أسقف بوى ولكن
سرعان ما يطلق العنايه الالهيه سراحه ، وحين
وصول ريموند الى « رودسو » يصله رسل من
الامراطور ومن فادننا مرة أخرى .

١٩ - الكونت يرك حيسه ويذهب الى الامراطور تكبه
لا بواقى على وجهه طوره ، فعمد الامراطور
- خيانة منه له - الى اصدار الأوامر بمهاجمة
حيس الكونت .

٢٠ - الاعريق يباغون حس الكونت أنباء عماه
فيحدم الكونت غبظا من الامراطور ألكسيوس
الذى يندى ندمه على ما جرى وبدفعه خوفه على
نفسه الى أن يطلب من الأمراء التدخل ويظهر
ببرائه مما حدث .

٢١ - الكونت يضافى مع الامراطور بسبب وساطه
القادة ويدعوه لمرافقة القادة الصليبين فى
زحفهم ، أما القوات التى عبرت البحر فنسرع
الى نقيه ويسير الكونت فى أثرهم فى الحال .

٢٢ - وصول روبرت كونت نرمدى وأستاس - أخى
الدوق - بكتائبهما الى القسطنطينية واستقبال
الامراطور لهما بالترحب ووصلهما بالهدانا

الحمة ثم عورهما السعور ومحتهما الى الرءماء
الآخرين .

٢٣ - اتصال أحد موظفي الامبراطور - واسمه
تايكبوس - بزعمانا وبودده اليهم وكان رجلا
شديد المكر مطبوعا على الحبب الدنيا .

★★★

هنا يبدأ الكتاب الثاني

جيوس الحملة الصليبية الأولى تزحف الى الفسطنطينية

- ١ -

فى نفس هذه السنة ، أعنى سنة ١٠٩٦ من مولد السيد المسيح ، وفى اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس ، قام « جودفروى » دوق « لوثاريخيا » العظيم المبجل بجمع أصدقائه فى رحلة الحج ، وأعد أمتعته بالطريقة المألوفة ، وكان خروجه بعد رحيل « بطرس الناسك » أثر الطامة الكبرى التى حافت به وأشرنا إليها ، وفى أعقاب مذبحه جماعة « حوتشوك » التى ذكرناها أيضا ، وبعد النكبة الأخرى التى حرت على حدود المجر ووصفناها سابقا ، وقلنا انها نزلت بالجيس الذى جاء من بعده ولقد انضم الى معسكر « جودفروى » رجال من ذوى المكاة السامية ، الحديدىين بخلود الذكر ممن ربطوا أنفسهم به ، وهم لورد « بلدوين دى موتس » كونت « هينولت » ، ولورد هيج كونت « سسنب بول » ، وابنه « انجراند » وكان شابا غرائقا على الهمة ، وكونت « حارنسه » المعروف بجراى ، ولورد « رينار » كونت نول وأخوه بطرس ولورد بلدوين « دى بروج » أحد أقارب الدوق [جودفروى] ، ولورد « هيرى دينس » وأخوه « جودفروى » ، و « دودو دى كونسى » ، و « كونون دى موباج » وكثيرون غيرهم ممن لا نعى اسماءهم ولا ندرك عددهم .

(الحروب الصليبية ح ١) - ١٤٥

ولقد سار هؤلاء جميعا فى طريقهم فى هدوء مسيره طائفة واحدة مرابطة ، حتى اذا كان يوم ٢٠ سبتمبر بلغوا سالين معادين ناحة فى ولايه النمسا يعرف باسم « سولنبورج » حيث يكون نهر « لبا » الحد الفاصل بين أقاليم الامبراطورية وبلاد مملكة المجر .

وحين بلغ هؤلاء هذه المدينه وقع عليهم وقع الصاعقة أبحار النكبة التى قبل انها حاف بجوسوك وعسكره ، فساور بعضهم مع بعض كفى ينسى لهم السر فلما فى أمان حتى يتم لهم ابحار العمل الذى أزمعوا القيام به ، فانفق رأبهم فى النهاية على وحب ارسال سفارة الى ملك المجر تقضى منه السبب الذى أدى الى هلاك حس اخوانهم الذين سبقوهم فى تلك البلاد على هذه الصورة .

وزيادة على ذلك فقد كلف الرسل الموفدون بايجاد فرصة للفاهم مع الملك حول اسباب السلام ، وأوصوا أن ينحلوا جانبا عن اثاره الشكاية من الخصومات السابقة ، حتى يتمكنوا من الحصول على اذن يملكون به سالين عبر المجر ، لأنهم لو راحوا يبحثون عن طريق آخر يسلكونه بعد أن بدأوا مسيرتهم فان خسارتهم تكون فادحة . ومسقتهم التى يلقونها عطمة ، لذلك ابحاروا لهذه السفاره الشريف « حودفروى ديش » أخا هرى ، مع طائفة معينة من دوى المكانة العاليه والرسه النبيله ، وكان احبارهم [حودفروى ديش] راحا الى روابط الود والصداقة التى كانت تربطه منذ سنوات طويلة سالفة بملك المجر ، فلما صار [حودفروى] فى حضرة الملك حياه بما تلقى مكانته ، لم ألقى على مسامحه بما كلف أن يقوله :



قال :

« لقد جئنا الى جلالكم مبعوثين من قبل السبل السرى
جودفروى دوق لوئارنجنا » ومن فى صحبه من العاده الآخرى ،
عماد الرب المرافقين له ، والصادقن فى طاعهم للاراده الربانية .

« وابهم لموافقون أن يعرفهم السبب الذى من أحله عومل شعب
مسحى طالعتنا حنهم على طول الطريق هذه المعاملة الى سكرها
الانسانية على يدكم ، وأسم أمة ذاعت شهرتها بين الأمم بأنها من
الشعوب المؤمنة المخلصة ، وكأنه كان من الأسلم لهؤلاء المسحيين
لو أنهم وأوا وحوهم سطر بلاد العدو فسلكوها ، فان كانت حرائم
هؤلاء الناس شعبة بشاعة اسحقوا من أحلها العقاب الشديد فان
الذى أرسلواى اليك مسعدون أن يحملوا - عن طيب خاطر -
اصلاح ما أفسدوه ، ذلك لأنه اذا كان الجرم يعادل العقوبة كان
ذلك عدلا ، ولن نثير غضبا كبيرا ، بل ننغى أن نقبله فى صبر .

« أما اذا لم يكن الأمر كذلك ، ولم يكن هناك مبرر لمهاجمتكم
الأبرياء . فان زعماءنا لا يقبلون السكوت وغض الطرف عن النكبات
التي كانت من نصيب خدام الرب ، بل ابهم مستعدون للنار لثم
احوانهم ولذلك فانهم ينتظرون أن نوافقهم بالجواب عن كل هذه
الأمور ، وسوف نخدون قرازم بما ننفق وخلصه بركم » .

وختم جودفروى دبش خطابه بهذه الكلمات .

فأجابه الملك وهو محاط بكبار رجالاته .

« أيها العزيز جودفروى ، يا من حبونا منذ زمن بعيد بمودتنا
التي هو أهل لها ، انه لسعدنا أن تكون قد آتيت لا لجدد صداقة

الأيام الحالية فحسب بل ولتسمعنا ونحن نؤكد براءتنا أمام حكم
عادل مثلك .

د اننا - كما قلت بحق - في عداد المؤمنين ، واننا سنبطع
بأعمالنا أن نعلى من شأن هذا الاسم ، ولكن الذين سبقوكم من أساع
بطرس الناسك وذيول جوتشوك ومن بعدهم ممن حاولوا الاسيلاء
قسرا على احدى قلاعنا القائمة على أطراف المملكة ، واقحام مملكتنا
بالعنف ، لم نكربوا في الواقع من أساع المسح . ولا أهلا لحمل
هذا النعب ، فلقد احفلنا ببطرس وحسنه في بداية الأمر احفالا
كريما ووهبناهم ما عندنا من السلع مجانا وبمن رخص . ولكيهم
رغم ذلك كانوا كالحجة تختبئ في الصدر أو كالفأر في صوان
الملابس ، اد ردوا احسان المضيف أسوأ رد ، لأنهم بدلا مما كان
يجبهم علينا الواجب من مجازاتنا بالشكر على ما نفضلنا به عليهم ،
اذا بهم يقتحمون واحدة من مدننا الواقعة في أقصى نجوم المملكة ،
ويمكنون بأهلها فكا دريعا ثم يرحلون في خسة اللصوص . سائقين
أمامهم قطعان الماشية والأغنام ، وحاملين معهم ما سلبوه ، وعلى الرغم
من هذا الفعل الذمهم فقد أذنا لجيوش جوتشوك بالدخول دون أن
تكلفه رهقا أو تسبا ، كأننا لم نلق أذى من الجيوش التي سبقه
في المجيء ، لكن رجاله لم يترددوا بدورهم في النهب ، ولم يكفوا عن
العنف ، ولم يتحرجوا عن اضرار النار ، بل انهم لم يتورعوا عن
سفك الدماء لأوهى الأسباب وأتفه العلل ، ومن ثم فقد أغضبوا الرب
منهم بسبب شناعة جرائمهم .

» ولما لم يعد في طوق صبرنا قدرة على تحمل ما أبلروه من
البلايا برعايانا ، فقد صبح عزمنا على القيام ببعض ما فيه علاج
لهذه الظروف الخطرة ، فدلثنا تجاربنا الماضية على أن الحكمة
تقتضينا أن نوصد أبواب مملكتنا في وجه هذه الجماعات المؤلفة من
فجرة أوغاد ، حتى لا ننكب للمرة الثالثة على أيديهم ، فكانت

محاربينا اياهم كأعداء خيرا مما يرلونه بنا من اهانات ، ويلحقونه بنا من الخسائر العادحة .

« فليكن ادن فيما فصلت عذرا لنا عندك ، وآب الرجل القطر اللبيب ، فوالله لقد بنا الحق الصراح كما جرى » .

ولما فرغ الملك من قوله هذا أمر باستنصاف الرسل أحسن ضيافة ، وأن يعاموا بوافر الاحترام حتى يستطيع - بعد مساورة رحاله - اعداد رسل الى انقاده [الصلبيين] يحملون اليهم الرد الملائم ، ثم يبع أحيرا الى الدوق والى القادة بعض أهل بيته صحبه السفراء ، وحملهم هذه الرسالة البالية .

« لقد سمعنا وحاءنا الأخبار الصادقة منذ آمد بعبد بأك بعد عى حى أمرا عظيما حاملا ، كبر العدر فى فومه ، كما أن العقلاء - وان بعدوا عنك أرضا - لبنون على صدق ايمانكم ، وتباب حناكم نبانا سكرتون عليه ، وقد شئنا اليكم حسن الأحذوثة عنكم ، وبطولة أعمالكم فرأينا أن نحسك حتى فى غيبابك ، وأن نجبوك بعطف أكبر . ونحن نعتقد أن الرجال النبلاء الذين أرسلهم ، والذين يمالوكم أيضا فى حمسهم للعقيدة المسححة ، قد قاموا كذلك بعمل كله بقوى . ولما كنا عازفين كل العزوف عن أن يعنور القصور والمراخى ما بننا من ود بسبب عمل غير مرض ، فائنا على استعداد لأن نعمل كل ما يزيد هذه المودة نماء ، ونبدل العطف للجميع ، ونعاملهم معاملة تنطوى على الحب الأخوى » .

وها هى دى الفرصة قد وائتنا لندرجكم أن تفضلوا بالحضور الى فلعتنا « سيبيرون » لنعقد واياكم مجلسا طال اشتاقنا له وتطلعنا اليه ، وحى تكون قادرين على الوصول الى سلام ينلهم مع رغباتكم » .

بعد اسماع الدوق الى رسل الملك ومشاورانه اصدقاءه ،
غرب يوما معينا مضى فيه الى المكان الذى قسم له ، مستصحبا معه
ثلاثمائة فارس من الصفوة المسفأة من رحاله ، فلما احسار الحسر
وحد الملك الذى استقبله أروع استقبال ، وخصه بأسمى آيات
الرحيب . وأبدي كل منهما لصاحبه الصداقة الحميمة . ثم انعقا
فى النهاية على ببادل الرهائن الذين يخاروبهم من عليه القوم ،
كما انعما على ألا سطوى صدور الحانين على كراهة بعضهم لبعض ،
وأن يعود السلام بن الفريقين ، فلما تم قبول هذه الشروط أذن
الملك للدوق وعسكره بدخول المملكة .

ورغبة من الملك فى أن يزداد قلبه طمأنينة اذ يسمح بدخول
مل هذا الجيس اللحب الذى قد يحدث - بطريق الصدفة المحضه -
أن سوسل نأى ذريعة لاحداث ما يكون فيه مضايقة للملك اعنادا منه
على كثره عدده وشجاعه فقد سألهم أن يعطوه بلدين - أخا الدوق -
وروحه وأهل به رهائن عنده ، فوافق الدوق على ذلك . وأسلم
أخاه رهنة كما اتفق على ذلك من قبل ، ثم دخل المملكة راضى النفس
قرب العين بعسكره ، وحسذاك أصدر الملك - وفاء بوعد - فرارا
نقى بتقديم الطعام اللازم للحد فى كل ناحية يمررون بها من نواحي
الملد لقاء سعر معقول ، وألا يطفف عليهم فى الكيل ، وزيادة على
ذلك فقد أمر بأن يصحب الحشش سوق يناعون منها ما يريدون .

أما الدوق فقد أمر من حانبه أن يساوى المنادون فى أرجاء
المعسكر ألا ينهب أحد شيئا ما أو يلجأ للعنف أو السده مع من
يأتون الى الحشش ، والا كان الموت حزاء ومصادره كل ما بيده ،
كما أمر أن تجرى معاملات البع والشراء فى جو من السلام والمحبة
الاخوية .

وهكذا قدر لهم - بفضل من الله - أن يعبروا كل بلاد المجر
فى سلام لم يعكر صفوه أحد من الطرفين ، ثم مى الملك برهائه
الى يسار الجيش على رأس قوة كبيرة من حرسه الخاص ، وهو على
أم أخته لأن يخدم فى الحال أى سعب قد يحدب ، فلما وصلوا أحرا
الى « سملين » التى تكررت الاشارة اليها بوفقوا على شاطئ بهر
الساو ، حتى تم اعداد ممر للعسكر [الصلى] ، ولما لم يحدوا
سوى بصع فوارب قليلة لا تكفى لىل قوم كبيرين كهؤلاء انقوم فقد
جهرب أرمان لهذا الغرض ، وأقاموا ألف فارس فى كامل سلاحهم
لحراسة الساطى الآخر ضد ما قد يكون هناك من كمين بصفه العدو
لهم حتى يسر للجيش - بعد عبوره النهر - أن يحد مكانا هادئا
بوفرت فيه أسباب الراحة .

وحسبك أخذ الحجاج يسفلون الى الحانف الآخر فى لهجه
وشوق .

ما كاد [اللاس] وبعض رعمائهم بحازون النهر حتى أسرع
الملك بالقدم مسسجبا معه حرسا كبيرين ، وأسلم بلدين وزوجه
وبقة الرهائن الى الدوق وفق ما انفقوا عليه فى البدانة ، ثم وصل
الدوق ومن معه من العادة بالغالى الثمين من الهدايا الى وصلهم بها
الملك نكرما لهم واحلالا لفرهم ، ثم عاد الملك بعدئذ الى قصره .

حسبك بادر الدوق مع القادة الآخرين وبقة الناس الى السر
وراء الحند الذين كانوا قد عبروا النهر الى الساطى الآخر ، حتى
اذا وصلوا الى بلجراد - احدى مدن بلغاريا التى أشرت اليها من
قبل - نصب الدوق خيامه ، فلما فرغوا من ترتيب مناعهم ، وبها
الجند للرحيل ، شقوا طريقهم عبر غابات بلغاريا وأدغالها الساسعه
الكشفة ، فبلغوا أول ما بلغوا مدينة « نيس » ثم « سترالمكا » .

من اليسير على المرء أن يدرك ما عليه الاغريق من النعاسة وأن يعرف مدى الصعف الذى بلغتة الامبراطورية حين يساهد أوصاع الأماكن التى كانت فى السالف ولايات غنية ، حافلة بكل ما تسهيه النفس من السلع والمجر ، لكن حدث بعد انهاء حكم أمراء القسطنطينة اللابن أن وقع الامبراطورية بسبب أخطائها ومساءها تحب ساطان المونان بزعامة نففور الأول ، فاعسمب شعوب المظفه اليمحنة فرصة ضعفها وبادرب فى الحال الى سُن سلسلة من العاراب على الأراضى الخاضعة للامبراطورية ، وراحت تعامل السكان وفق هواها .

كان من بين هؤلاء الغزاه جماعه « البلغار المبربرين » ، الذين لم يأخذوا بحد من الحصاره ولكنهم أغاروا عليها من الشمال . وبسطوا ساطانهم على جمع الأقطار المصدة من الدانوب حتى مدنه القسطنطينة الامبراطورية ، وكذلك الى بحر الأدرياتك ، وجم عن ذلك أن اضطرب أسماء الولايات واختلطت الحدود بعضها ببعض . وأطلق اسم « بلغاريا » على كل الأصقاع التى طولها مسيرة شهر ، وعرضها عشرة أيام أو أكثر . ولم يدرك الاغريق الأشعفاء أن هذا الاسم بالذات كان دللا على اللعنة التى انصبت عليهم ، ذلك لأنه كاتب بمع فى القديم على بحر الأدرياتك ولايا « ابروس » وكانت عاصمة احدهما الكبرى هى « دورازو » التى كانت فى وقب من الأوقات فصبة برهوس « ملك الأسروت » وكان رحلا شجاعا وكان موضع الإعجاب من الناس .

كان الافليم الذى يوشك أن يحارزه الدوق [جودفروى] على رأس جسده نألف من ولايتى « داكيا » وأعنى بهما داكيا (ربنسس)

وهي التي تكون على يسارهم حين عموهم الدانوب . وداكا البحرية
التي مروا بها في طريقهم ، وفيها مدينتا نيس وسرالنكا
الرائعتان .

كذلك كانت توجد ولايات أخرى في نفس المنطقة هي اركاديا
وساليا ومقدونيا وأقاليم براقيا الثلاثة التي قدر لها أن تبقى نفس
الخط العابر [الذي لنفسه الامبراطور به] لم تكن هذه الولايات كلها
هي وحدها الأملاك التي صاغت من يد الاعريق بسبب ضعفهم ،
ذلك أنه لم يكن مسموحا لأحد ما أن يقيم في الأراضي الواقعة في
الولايات القاصية ، ولا يجوز له رراعها حتى بعد أن أخضع الامبراطور
« باريل » الاعريق نفس السعب البلغاري . وكان واضحا على وجه
الخصوص في حالة الأراضي الماخمة لحدود الممالك الأحيية والتي
كانت تمتد الى بلادهم وأعنى بها ولايتي « دوكا » ، ولا يزال نفس
الوصف مطبقا حتى اليوم . ولما كانت الناحية بأجمعها عظماء
بالغابات الكثيفة والنباتات المتناسكة فلم تكن ثم أحد يتأدر على
اخرافها حتى ولو رغب في ذلك ، ورجع هذا الى أن اليونان وضعوا
ثقتهم الكبرى في العوائق التي تعود الى صعوبة الطرق وكثرة أسجار
العوسج والسوك التي كانت تعبر وسائل دفاعة نفوق ما يستطيعه
قوات اليونان الدفاعة .

ونهج اليونان هذه السياسة دائما فتركوا « بروس تريموس »
أرضا عذراء خالية من السكان ، حتى ان الغابات المهجورة والأحراج
الموحشة أصبحت لا تفتح طعاما ، وصارت عقبة كداء في وجه من
ينبغي دخولها ، وكان هذا الأفليم الذي لابد من أن يحنازه بقية
القادة الآخرين يبدأ عند « دورا زو » ويمتد مسرة أربعة أيام في
الجمال المسماة بجمال البلقان .



سار الدوق بمن معه من العسكر عبر داكما البحريه المعروفه
أيضا باسم « موزيا » ، فلما احراز الأخراج المسماة عاده بممر سائب
بازيل صادف ناحبه أكثر اساعا ورفاهة أمدته بكمات وفرة من
المثونه حتى جاء الى مدنه « فيلسو بولس » الجمباء ، الآهله
بالسكان . وهذا علم بما فعله الامبراطور من رح هنج الكبير - آحي
ملك فرسا - في السجن مع ثله من رفاه البلاء ، فأرسل على
جناح السرعة وفي لحظنه رحلا من قبله الى الامبراطور . ولاحه
بالرسل ملحا عليه أن يطلق سراح هؤلاء الرجال . ويلومه على
ما أنرله بهم - وهم الذين وهبوا أنفسهم لرحلة الحج نفسها - لكنه
سحنيم من غير حرم ارنكوه .

وكان هذا الرجل الوحه [هيج] أول العاده حمعا في الخروج
الى الحملة ، وفد احراز جبال الألب ودخل ايطاليا ، ثم عادرها الى
« أبوليا » حيث أبجر في حراسة قليلة ، وبوقف في « دورارو »
في اسطار القادمين وراءه ، ولم يكن يخطر بباله أبدا وفوع أى خطر
عليه ولا على من معه ، وهم في مملكة الاغريق المنظور اليهم بأنهم
يعتقون المسححة ، عبر أن والى هذه الباحة ألقى العيص عليه وزح
به في السحن ، لسلمه الى الامبراطور كى يقضى فيه بما ساؤه
ارادته الملوكة ، فحسه الامبراطور كما لو كان لصا أو سفاكا
للدماء ، وكان الامبراطور سطر وصول القادة الذين قالوا انهم في
الطريق . فاذا قدر لهم النجاح فى الحضور أطلق سراحه كند بمن
بها عليهم ، أما ان كان الأمر غير ذلك فاسوف بقمه أسرا طول
حياته .

كانت الامبراطورية اليونانية في هذه الآونة تحت حكم رجل
ماكر يدعى « ألكسيوس » وبلغ « نيكومسيوس » ، كان يعبس من
قبل في العصر الامبراطوري ، ويشغل وظيفة كبير الحجاب التي
سقط به واحبايا ، وهي وظيفة سميها نحن [اللاس] بحاجب
الحجاب ، أو مدبر شئون القصر ، ويجعله في مكانة بلي مباشرة مكانة
الامبراطور ، مما أسبغ عليه تقديرا كبيرا عند الامبراطور « نفور »
الملقب « نيوتاس » صاحب الصولحان في هذا الوقت ، لكن ذلك
الرجل [الكسيوس] خان ولي نعمه [نفور] وكان ذلك قبل
مجيء شعبنا بحمس سنوات أو ست فتخلع مولاه ونقلد الأمر بدلا
منه في الامبراطورية ، وأصبح مالكا لها الآن اعصابا .

وجاء رسل الدوق الى الامبراطور ، وراحوا ينعذون العلمات
الملقاة بهم ويسألونه في الحاف أن يطلق سراح هيج ورفاقه ، فلما
رأوا اصرار الامبراطور على رفض رحائهم عادوا الى الجسس الذي كان
اد داك قد حاور « أدرنه » وبرل للاستجمام في أحد النسهول .

ولما علم الدوق والقادة الآخرون عن طريق معرنتهم أن
الامبراطور لم يمس بالحرية على هؤلاء الرجال [هيج ورفاقه] انفق
رأيهم جمعا على الاذن لعسكرهم بنهب الافلسم ، واد طالب اقامتهم
هنا ثمانية أيام سويا فقد دمروا الناحية دمارا شاملا ، لكن ما كاد
أنباء ما فعلوا تصل الى سمع الامبراطور حتى بعث رسلا من لده
الى الدوق يرحوه - عن طريقهم - أن يكف أيدي جنده عن أعمال
الحريب هذه ، ويؤكد له أنه مستجيب لرجائه ، ومطلق سراح
الأشراف الذين في حبسه ، فقبل الدوق هذا الإجراء بنفسه حتى
وأمر جنده بالوقوف عن مناعة السلب والنهب ، ثم سار بعدئذ الى
مدينة القسطنطينة مستصحبا قواته في أحسن نظام ، فلما صار

أمامها أمر جسسه ، القوى البأس ، الكثيف العدد ، ينصب خيامهم
هناك وإقامة معسكرهم .

أما السلاء الدس أسربا اليهم وهم : هيج الكبير و « دروحو
دى نيسل » - و « ولیم » النجار ، و « كلاريبولد دى فنديل » ،
ففد قدموا من المدينة لمقابلته ، ثم ذهبوا الى المعسكر شاكرين له بده
عليهم فى تحريرهم من أسرهم ، فاستقبلهم الدوق استقبالا نفص
بالود ، وحباهم بما هم أهل له من التعظيم ، واستبقاهم معه بعض
الوقت مسبغا عليهم عطفه ، ومواسمهم مواساة الأخ لآخوانه يساركيم
آلامهم الى بحلوها ظلما .

- ٦ -

لم يكد هؤلاء يرفعون من عناق بعضهم البعض ومن يبادل
الأحاديث الرفقة فما بينهم ، حتى وصل رسل من جهة الامبراطور
[ألكسسوس كومبن] بحملون الأوامر بوجوب اسراع الدوق للمصول
بالقصر الامراطورى ولكن فى حرس قليل ، غير أن الدوق رأى - بعد
مساوره أصدقائه - أن يرجى ذهابه اليه ، مما أغضب ألكسسوس
غضباً حمله على رفض الاذن لهم بعقد سوق يبتاع منه العسكر الوافد
مع الدوق ويشترون ، بد أن ما صار فيه القوم جميعا من مسس
الحاجة الى المثوبة وقلّة ما لديهم منها ، حمل القادة مرة ثانية على
الانفاق على احناح تلك النواحي بجماعات مسلحة كبيرة ، وعادوا
بسوفون أمامهم قطعان الماشية والأغنام التى غنموها ، ورجعوا الى
المعسكر وقد فاضب أيديهم بشتى أنواع الماكولات ، حتى ان الرعاع
منهم أصابوا منها وفرة ضخمة أصابتهم بالكظة .

★★★

ولما رأى الامبراطور أن المنظمة قد عرضت للحريق والنهب ،
خاف أن تتطور الأمور الى ما هو أفدح من هذا فأمر بعقد السوق ،
ولما كان يوم الأحزان لمولد سيدنا قد قرب مواعده ، وصار على
الأبواب فقله أصدر الزعماء — احتراماً للدين — قراراً ينهى الجند
عن النهب وارتكاب الموبقات خلال هذه الأيام الأربعة ، فانقضى العد
فى أتم هدوء وسلام .

ثم جاءت بعد ذلك رسالة من الامبراطور سسل كلماتها روه
وعذوبة ، وإن انطوت على الخديعة ، يسألهم فيها أن يخرج الجيش
عن طريق الجسر المجاور للقصر المسمى بعصر « بلاسرباي » وأن
يقيموا فى القصور المتعددة المتناثرة على شاطئ البسفور ، فأقبلوا
فى سر على تنفيذ هذا الأمر ، لأن طلائع النساء الذى كان على
الأبواب كانت تزعجهم أشد الازعاج ، كما ضربتهم العواصف الناحه
بشدة لم يسبق لها مثيل ، حتى ان الخمام لم تمنع المطر من التسرب
اليهم ، فتولاهم الجزع من الخطر الذى يهدد الطعام وسائر معادياتهم
بالفساد والعفونة بسبب العرض الدائم للرطوبة ، ولم يكن هناك
من انسان ولا حيوان ولا ذى روح بقادر أن يحمل أكثر من هذا
البرد القاسى الذى كان يخرق كل شيء ، وعجزوا عن مجابهة البلوح
الكترة ، ناهيك بالبلل والمتاعب التى لحقت بهم وكانف فوق طاقتهم .

وعلى الرغم مما كانت تحمله كلمات الامراتور من العطف على
الحجاج ، الا أن هدفه الحقيقى كان يخلف عن ذلك تمام الاختلاف .
فقد كان السبب الجوهرى لهذا الانفصال هو أن يصبح العسكر أقل
حرية فى التحرك هنا وهناك ان هم صاروا فى بقعة محدودة ، كما
تزداد قدرة الامبراطور فى كبح حمايتهم والسطرة عليهم .

ولكى يكون هذا القول أكثر وضوحاً فلا بد من ابراز بعض
الحقائق عن موقع تلك المدينة المذكورة أعلاه .

ان بحر بنطس [البحر الأسود] الذى يحذ اسمه من الافليم
المجاور له يقع على بعد ثلاثين ميلا من شمال القسطنطينية ، ويكون
جزء معين من هذا البحر على شكل نهر ينحدر جنوبا عبر مسالك
ضيقة . ثم يسبق مجراه لمسافة قدرها مائتان وثلاثون ميلا ،
يخترق فيها مدينتى سيستون « وايدوس » الموغلنن فى القدم
ونفع احدهما فى أوربا ، والأخرى فى آسيا ، ثم يصب فى الهامة
فى بحرنا الأبيض المتوسط ، وعند خروج هذا الماء من البحر الأسود
ينتشر للاثين ميلا فى مجرى يمد من الممر الأول الذى دخله ويكون
فى الناحية الغربية خليجا يعرب طوله من خمسة أمال الى ستة ،
وعرضه ميل واحد ، ويسمى هذا المجرى الضيق الذى يمد لاثين
وبلدين ميلا من البحر الأسود الى البحر الأبيض المتوسط بالسفور
أو « بروبوس » أو « هيليسبونت » ، ويشهد بذلك « سولوس »
فى الفصل السابع عشر من مذكراته حيث يقول « ان خليج أوربة
الرابع يبدأ عند الهيلسبونت وينتهى عند بحيرة « ماوتس » والعرض
الكلى لهذا المجرى المائى الذى يفصل أوربة عن آسيا يتحول الى
مضيق يتألف من سبعة روافد ، وهذا هو البسفور الذى عبره
احرسييس على حسر من العوارب أمر باقامه ، ويجرى الماء من هنا
على شكل قناة الى مدينة « بريانوس » الآسبوية الى اسولى عليها
الاسكندر الأكبر أثناء مروره بجوارها حين كان يتطلع لعزو العالم ،
ويسع هذا المجرى المائى مرة أخرى ويتحول الى سطح واسع جدا
من المياه فسمى بروبوننس [أى البسفور] - أما الآن فانه يضيق
الى مسافة عرضها خمسمائة خطوة ، ويصبح بسفور براقا الذى
نقل « دارا » حنذه عبره .

وببدو أن هذه الأسماء ترجع فى أصولها الى الشعراء القدامى

فسمى البسفور بهذا الاسم لما يقال من أن جوبير سكر في شكل
ثور حاملا عبر مياهه « أوربه » اسم أجبور .

وجاء اسم هيللسبونت من « هله » أخب « فركسيس » الذى
تزعّم الأسطورة أنه عبر هو الآخر البحر بأخيها على ظهر كس ،
وهو يعبر الحد الفاصل بين أوربا وآسيا ، ويعرف عادة باسم ذراع
سنت جورج وقد ذكرنا طوله ، أما عرضه فلس منساوياً فى كل
الأماكن ، ونظرا لموقع الأراضى المحاورة له وطسعة نكويها فان عرضه
الآن يصل الى ميل ، ثم نسع حتى يبلغ ثلاثين ميلا أو أكثر .

وأما الخليج الذى يمد الى الغرب فكون - كما ذكرنا - واحدا
من أشهر مواى الدبا وله مرفأ رجب ، وأما المدينة التى تكلم عنها
فقع فى رواية بن هذا الخليج وبين السفور ، وكانت تسمى فى
العديم بربطة التى كانت موضعا لا يعتد به ، والأغلب أنها كانت
آخر المدن فى براصا ، أما الآن فهى أسعد المدن حظا اذ تحمل اسم
الامراطور الذى راد فيها حتى أصبحت قصبة الولايات كلها كما
صارب مقر الامبراطور ، وأصبح اسمها بفضل مكانها المسارة
مافسا لاسم سبتها رومة .

وتذهب الرواية الواردة فى الكتاب السالب « لول أورسماس »
الى أن تأسس هذه المدينة كان على يد « ناوساوسوس » ملك
الاسيرطس ، وهى على شكل ميلب عبر مساوى الأضلاع التى يمد
أولها من تلك الزاوية الواقعة بين البحر وبين هيللسبونت حسب
نوح كيسة سنت جورج المعروفة باسم « مانحانا » ، ويمد هذا
الضلع بامتداد المناء الى القصر الحديد المسمى بقصر بلاشرباى .

أما الضلع الثانى فيمد على طول السفور من عند دير سنت
جورج الى البوابة الذهبية .

وأما القسم الثالث فيمد بطول الافليم من نفس البوابة الى
عصر بلاشيرناى المذكور حالا ، وهو محصن بالأسوار والأبراج
ووسائل الدفاع الخارجية ، ويوجد عنده نهر يصب فى المبناء وهو
صحل جدا فى الصنف ، أما فى الشتاء فنغزر مياهه بسبب فئصال
مياه الأمطار مما تصح الحسر معه ضرورة لابد منها .

★★★

ولما احبار جئسا هذا الجسر مضى الى الواحى التى حصنت
له فى بعض المائى الكئيره القائمه على امداد ساطيء البسفور .
وهى الدور الواقع بين مياه البحر الأسود ، وحدث فى أساء
انتظارهم قدوم القادة الآخرين أن نسلم الدوق عدة رسائل من
الامبراطور . برجوه فهأ السخوص اليه ، غير أن عدم اطمئنان
« حودفروى » الى صدق الملك وتخوفه من الاجتماع به حملاه على
الاحكام عن اسجاة دعواته ، وان شعر أن من سوء الأدب ومحالفه
نوامس السرف ألا بيعب على الأقل أشخاصا ملائمين لمسله عنده ،
طالما هو عازف عن الذهاب بنفسه ، ومن ثم فقد أرسل البيل
كونون دى موناج وبلدون دى بورج وهى ديس يعدرون
للإمراطور عن عدم قدوم حودفروى . فلما أدرك ألكسسوس أن
لا رجة للدوق فما فرره وأنه لا سبيل أبدا لارغامه على الحصور
الى مجلسه عاد فأمر بعض السوى ونقضه ، ولكن هذا الإجراء لم
يسح فى ثنى هذا الرجل [حودفروى] عن عزمه ، واد ذاك اتخذ
ألكسسوس اجراءات أشد صرامة ، فأرسل فى السر جماعة من رماه
الأقواس عبر النهر ، فى قوارب الى المكان الذى كانت تعسكر فيه
قوات الدوق ، فلما أهلت أولى تباشير الصباح قتل هؤلاء الرجال
بسهامهم طائفة كبره من رجالنا لم نكونوا فحسب من بين الذين
ذهبوا الى الساطيء ، بل وأبضا ممن كانوا بطلون من النوافذ .

حين جاء نبأ ما جرى الى الدوق اسدعى في الحال رعاء
الناس لمساورتهم ، ونزل على ما أجمعوا كلهم عليه ، فوجه أحاه
[بلدوين] تلى رأس كسبه من العسكر للاستيلاء على وجه السرعة
على الجسر الذى عبره الجسس ، حتى لا يغدو محصورا فى هذه
الأماكن الضيقة ، وحتى لا يفقد الكبرن من رجاله ، فخرج بلدوين
النشاج على رأس خمسمائة فارس وأسرع بهم الى الجسر واسمى
عليه عنوة ، ولم يعد الخطر فاصرا على من حاءوا بالهوارب بل ان
المدسة بأجمعها أيضا حملت السلاح بربد الفك برحالها .

رأى الصليبيون ان استداعهم الاغريق سطون فى اقامة
الاستعدادات ضدهم ، كما حمل الأهالى السلاح للقضاء عليهم ، لذلك
أضرموا النار فى جميع القصور التى كانوا يزلونها ، والى مد
مسافة ستة أميال أو سبعة على طول البسفور ، فسب الحربى فى
جميعها ، سواء ما كان منها ملكا للأهالى ، أو كان للامراطور ،
والهمنها اليران حتى بهاب الى الأرض ، وسمع رجالا دى الطمول
ونفر الأبواب بردد مدويا فى الأحساء المحلفة الى كانوا قد
انكفؤوا اليها التماسا للراحة ، فأسرعوا لحمل سلاحهم ، وسموا
الدوق الذى أسرع الى الجسر بهود عسكره وقد صفهم للقتال ، عر
أن أصحاب الخرة الحرة الكبيرة خافوا أن يضيق العدو الحما
على الجسس وهو فى مواضعه الضيقة هذه ، فهلكون ان اسمولى
الخصم على الجسر ، ومن ثم لم يريثوا فى انتظار فرق المشاة ، بل
بادروا الى جمع كل الخبالة فى تلك الناحة ، الا أن بلدوين - أبا
الدوق - كان كما قلنا - قد أسرع الى الأمام واحتل الجسر رغم
محاولات الأعداء فأرغمهم أن بولوا الأذمار هارين ، فسيطر بذلك
على الشاطئ الآخر للنهر ، واستخلصه لجيشنا .

ومن ثم فقد تمكن الدوق وجميع رجاله من العبور بكل ما معهم
من المنايع والتجهيزات ، وأقاموا مره أخرى فى موضع بالعراء ، واحه
المدينة ، ويمند فى كل اتجاه دون أى عائق .

ولما اقترب المساء من الدخول سببت معركة فى البهجة الواقعة
عندما يعرف الآن باسم قلعه بوهيموند الموجودة بين كنيسة السيدس
الطاهرين كوزمو ودامين وبين قصر بلاشرباي الجديد ، القائم فى
راوية من المدينة قرب الميناء ، وهلك فى هذه الموقعة أعداد كبره
من الناس ، وعجز الاغريق عن حمل ضراوة القنال فكفروا عنه
وارتدوا الى المدينة .

حينذاك نزل عسكرنا المنصور فى أروع بقعه من الساحه الى
اسفلوا عليها بسجاعتهم ، ولولا سرعة دخول الليل ووضعه ديانة
للقنال الدائر بين الجبشين لتمكن الأهالى من معاودة الحرب بسبب
ما صمرونه من الكراهية السوداء المني كانت تعسفى فى صدورهم
بحونا ، وزادها حدة غضبهم علينا ، وكان من الممكن حينذاك أن
يحرى معركة ثالثة أسد وحسنة من سابقنها فتمخض عينا خساره
فى الأرواح أكبر من الخسارة السالفة .

هنا - ولأول مره - تحلى بوضوح للعنان مدى الشر الذى انطوى
عليه خطة الامراطور فى اصدار الأمر بنقل المعسكر ، اذ كان ذلك
نابعاً من رغبة منه فى أن يضع هذا السعيب الصليبى الذى تساوره
الشكوك فيه فى منطقة ضيقة محدودة ، فصبح بن المطرقة
والسندان -

ما كاد النهار يطلع على الكون حتى نودى علامة بين الناس بحمل السلاح ، وخرجت طائفه بقيادة رهط من الزعماء ليعسس المنطقة التى حولهم ، والعودة بالأطعمة التى منع الامبراطور سعيها .
وصدرت الأوامر لهذه الطائفة بالحصول على ما خرجوا من أحله ان عسبا أو بالسرا ، وألا يحلفوا وراءهم ماسية ولا عسا ولا عله ، ولا أى نوع من المثونة .

كما صدرت الأوامر لغرهم ولطائفة من العاده بالبقاء مع الدوى فى المعسكر لحراسته ، ذلك أنهم حين اكسفوا غدر الامبراطور وخيانة شعبه ، لم يدحروا وسعا فى الاسعانه بكل الوسائل الممكنة لحمايه أنفسهم من هذه المكائد الوضيعة ، فنهض اد داك كسه كبرة من الفرسان والمشاة ، وخرجت فى حملة لجلب التلصام وطالت غمبتهم سه أيام بلالها ، راحوا خلالها يهبون الحفول فى دائرة محيطها سنون ميلا ، فلما كان اليوم البامن عاذرا الى المعسكر بكلمات وفرة من المواد الغذائية لا بصورها العقل ، والحق أن قطعان الماشية والأغنام ودواب الحمل - بله العربات - كانت كبرة جدا ، حتى لقد صادفوا صعوبة بالغة فى احضار كل ما نهموه .

سما كانت هذه الأمور تحرى فى المعسكر وصل الى [حودفروى] رسول من الأمر بوهيموند بحمل اله خطابا بقول فمه :

« اعرف يا أعظم الرجال انك تتعامل مع أحقر الحيوانات ،
 ومع رجل خسيس كل الخسة ، لمس له من عرض أبدا الا الحديعة ،
 ولا ينور عن اصطناع أى وسيلة أو سلوك أى سبيل يكون فيه
 هناك كل من هو من أمه اللابس ، وسببرهن لك نفديرك الذاتى - أن
 آحا أو عاجلا - على صدق احساسى نحو هذا الرجل ، وذلك
 لأنى أعرف أن اليونان بضمرون السر والصعينة لكل من هو لاتينى ،
 وتلك طبعة متأصلة فيهم ما لهم منها من فكاك ولا يسقطون عنها
 حولا ، ومن ثم فعلك أن نغادر المدسة - اذ سئنت - ورحل الى
 الواحى المحيطه بأدرية و « فلسوبولس » ودع هسار الجنس
 الدين عهد بهم الرب المك ليسجمعوا وينعموا بلذبذ الطعام فى
 مطعة أخرى خصصة ، واننى لقادم المك - ان بأذن الرب - فى مطلع
 الرسع لأقدم المك - باغنارك مولاي - خدامى الأخوبة المطونة على
 الحب والنصحة صد أمر الاغريق اللثم » .



قرأ الدوق الرسالة ، وبعد أن تنصر ملأ فى فحواها عقد
 مجنسا مع الفادة ، ثم أرسل الرد كناية وشفاها بهذه الصورة
 الحكمة .

« اننى أعرف يا سفيق الحسب - كما حاءنى الأخيار منذ
 وقت طويل مؤكده صدق ما أحس - أن الجنس اليونانى المحتال
 بطوى قلبه على الكراهية العميقة لنا ، ويلتفه للاضرار بشعنا ،
 وإذا كنت فى حاجة الى شئ من هذه المعرفة من قبل فقد أكدنها
 التجربة يوما بعد يوم ، وليس أسك فى أن ما انطبعت عليه أنت
 من صادق القوى بحركك ضدهم ، كما لا أشك فى صحة احساسك
 الغربى بخسهم ، ولكننى اذ أضغ خوفى من الله أمام عنى .

ولا أغمصها عن هدف حملى ، فان بدنى يقسعر من أن أوجه صد
أى شعب مسحى سقى الذى تطع العهد على أن أنابل به الكمار ،
ومهما يكن الأمر فان الجنس الذى معا - أيها المحب للرب - لا
سوقا الى قدومك وقدوم الأمراء الآخرين المخاصين للسند » .

- ١١ -

استبد بالامبراطور وبجميع من حوله الفزع الكبير حين رأوا
البلد بأكمله عرضة للنهب ، كما أنه لم يعد فى قدره الامبراطور
احتمال أنين سعبه وبكائه ، وزاد الطين بلة ما عرفه من خبر مجيء
رسل الأمير بوهيموند وقدومه حالا فى أنهرهم ، كما أنه خاف ان
يتحد الأمراء الذين على وشك الوصول ويصبحوا يدا واحدة تعمل
لدماره قبل أن ينجح هو فى استرضاء الدوق ونهضة نائره ،
ومن ثم فقد عاود مرة ثانية ارسال مبعوبه اليه ، مانمسا منه زبانه
وكان هذا هو السبب الذى حملة على أن يجهد نفسه كل الاحتاد فى
أن يتم الوفاق بينه وبين الدوق قبل وصول هؤلاء الأمراء ، وذن لم
أرسل وفادة ثانية الى الدوق ياج عله أن يبادر بالحضور الى النصر
دون أى ابطاء أو تمهل حالمًا بصله ابنه « حنا برفرحتس » الذى
أرسله اليه ليكون رهينة عنده .

ولقد أبلج هذا الاتصال قلوب العادة [اللاتين] فأوفدوا
اثنين من ذوى المكانة الرفيعة هما « كونون دى مونتاج » و « بلدوين
ذى بوج » لبيكونا فى استقبال ابن الامبراطور الذى عهدوا به الى
الرعاية الكريمة من بلدوين أخى الدوق ، وما كاد ذلك الأمر يتم
خلف الدوق أخاه فى قيادة الجنس وشخص هو الى المدينة ، يصحبه

العاده الآخرون ، ودخل على الامبراطور الذى كان يلهف أسد اللبفه على فدومه فاستقبله الامبراطور استقبالا كريما وكان محاطا برحاله الماردين وكلهم يوافون لرؤبة الرجل الذى طالما سمعوا به وعرفوا الكبر عنه من قبل .

وأكرم الامبراطور أيضا وفاده من كانوا فى شرف صحة الدوى ، واحتمى بكل منهم الاحتفاء اللائق بقدره ومكانته ، ثم قبلهم حمضا فملة السلام ، وأكثر من السؤال عن صحتهم ، مخاطبا كل واحد باسمه ، ورفق لهم ، وأبدى لهم العطف عساه يكسب ودهم. ثم المص الى الدوق قائلا له .

« أيتها الدوى المحبوب لقد سمعنا أنك أعظم من معك من الإهراء ساءا وقرة ، وما كما حاملين حماسك الكريمة فما عاهدت به نفسك المام به من مسروع حاطتك التعوى الكريمة فه برعايتها. أصف ال ذلك أن الأخبار الى ذاعت عنك شرقا وغربا فد أكذب لما أنك رجل قوى الروح ، صادق الايمان ، ولهذا فقد اكسبت عن حق حب الكبرن حتى من لم نتح لهم الفرصة للعائك .

« ولما كانت رغبتنا أن نحوطك بكل آبات الحب ، وأن نخصك بالرد المادق ، فقد صممنا أن نتنالك اليوم ابا لنا فى حضره كبار رجل فصرنا المقدس ، ونعهد اليك بامبراطورينا ، عسى أن يظل تماسكيا عن طرفك صححا غير منلوم فى نظر الجموع التى احسدت ها ، وكذلك فى عمون أناء العصور القادمة » .

بهذه الكلمات التى صاحبها احتفال ملكى جرت العادة باتخاذها كلما كان هناك نيز من هذا النوع ، أمر الامبراطور أن يلبسوا الدوق الشاب الامبراطورية ، وتبناه حريا على عادة المملكة .

وبهذا عاد السلام وحسن النية بين الاثنين من جديد .

حي فرع الامبراطور من هذا الحفل فتح خرائنه للدوق ورفاهه ،
ووصلهم بالهدايا الذهبية الرائعة ، وأغدق عليهم الحواهر والساب
الحريرية . والمرهريات الغالية النعسه التي يعجز الحال عن
تصويرها صغره وقيمة ، وذلك لأن الامبراطور أراد - من وراء
اتحافهم بالهدايا التي أكرمهم بها - أن سردهولم وأعجابهم بما هو
عليه من ثراء ليس له مثل ، كما هدف أن تحلب ألبهم بعظمه
الماء كـ . ولذلك لم يقصر كرمه الذي حص به الدوق على أن يكون
مره واحد فحسب . بل أحد مند يوم العطاس حتى عمد الصعود
برسمل إلى أسبوعيا من العصر الامبراطوري من العقود الدهسه
ما بكل أكاف ارتد رجال أسداء عن حملة . هذا الى جانب عسره
أنقال من الدراهم الحاسبه ، عبر ان الدوق لم يسبق من كل ذلك
شيئا لهسه ، بل حاد بما جاءه على البلاء والجيش ، حسما سسلزم
حاجة كل فرد .

★ ★ ★

استأذن الدوق ومن معه ، بعدئذ الامبراطور في الرحيل .
ورجعوا الى المعسكر ، ثم ردوا اليه ولده يوحنا الذي كانوا قد
استبقوه في المعسكر رهينة الى حين أوبة الدوق ، وقد صحبه في
رجوعه كوكبة من حرس الشرف .

حينذاك أصدر الامبراطور بسانا عاما بقصى بتجهز كل
ما يحتاجه جيش الدوق بمن معقول ، وكل لا جور فيه ولا ظلم ،
وبودى بقل كل مخالف لهذا القرار ، كما أعلن الدوق من ناحيته
على لسان مناديه باعدام كل من يرتكب في معسكره عملا من أعمال
العنف . أو يخطيء في حق رجال الامبراطور ، وبهذا استمر الحانبا

في تعاون مبادل بينهما في أمور البيع والسراء وسادهما جو من
التوافق العام .

ولما آذن شهر مارس بالانصراف عام الدوق بوصول الفاده
الآخرين ونزولهم بجيوشهم في تلك الناحية ، فأمر الامبراطور
بتهيئة السفن وعبورهم البسفور ، بعد أن وافقه على هذا الأمر كبار
رجالابه آنس ، واذا ذلك حرب [-ردفروي] مصكره في خلعونية
في بسسا الى كانت أول ولاية في أسسا بصل البها .



وكان قد انعقد [في سنة ٤٥١] في خلعونية لى هى من
أعمال بيسينا ، وفي زمن كل من البابا لبو الكبر والامبراطور
ماريان المجمع الدينى الرابع العام ، وحضره سمائة وسة وثلاثون
من آباء الكنيسة ، فسحب المجمع هرطقات كل من الراهب
« اوتيسبوس » راهب اسكندرية و « دوسكورس » طررها .

كان هذا المكان [وأعنى به خلعونية] أقرب ما يكون الى
القسطنطينية ، ولا يفصله عنها سوى البسفور ، ويسنطع الناظر من
هنا أن يطالع المدينة « الملوكية » ، حتى لكأنها الى حوار .

يضاف الى ذلك أنه كان في استطاعة من بحم عليهم أعمالهم
الذهاب البها من المعسكر القسام بهذه الرحلة ذهابا وايابا ثلاث أو
أربع مرات يوميا .

عبر أن كلمات الامبراطور المعسولة - في الاحاح على الدوق بأن
يعبر هو وجسه البحر قبل الوقت الذى كان محمدا لذلك - لم تكن
صادره عن اخلاص وصدق طوية ، بل كانت على العكس من ذلك تابعة

• لما دأبج عليه من الحل والرعبة في خداع الدوق حتى لا يصمم
 • رايه الى قواب اللابن الآخرين عند وصولها ، كما أنه ساك ستميل
 الخبب دانه حين احنال فأرغم الآخرين الذين جاءوا بعدئذ على ركوب
 البحر . زاحدا بعد الآخر ، حتى لا يفسى مطلقا وجود جسمين مما
 في وقت واحد أمام المدسه •

- ١٣ -

هكذا كان الموقف بين الامبراطور والدوق في القسطنطينية ،
 رحدث في هذه الأساء - وقبل دخول فصل السناء العارس الرد -
 أن قام لورد بوهموند بن روبرت حسكراد أمير ناراسو بصور بحر
 الأدرباتك ، ووصل الى دورازو على رأس جمبع عسكره ، رباع
 من هناك - هو من معه - الرحف في بطة عمر عادات بلغاريا وكان
 قد انضم الى حنسه كبر من أصحاب المكانة السناءة وأهل الدره من
 ابطالها وغيرها من البلاد ، وقد أوردنا أسماء هؤلاء وعددهم لئلا
 ذكرهم خالدة أبدا ، منهم تانكريد بن ولسم مارشيسوس ، وريسارد
 الرسيماني بن ولسم دي الذراع الحديدية أخو روبرت حسكراد ،
 رآخوه ريسولف ، وروبرت انزي ، وهيرمان دي كاني ، وروبرت
 دي سورديقال ، وروبرت بن تستان ، وهمفري ابن رالف ، وربنشادر
 ابن كونب ريسولف ، وكونب ريرونولو مع اخوته ، وكذلك
 بويللودي شارترز ، والبيريدي دي كانسانو ، وهمفري من هرب
 سكالوزو •

انخرط هؤلاء جميعا بح رايه بوهموند ، حتى اذا بلغوا
 " كاسوربا " احمقوا بعد ملاد المسح •

لم يكن المدينة تعقد في هذا المكان أسواقا لم يسر بالناحية من الناس ، ومن ثم اضطر [اللاتين] للاستلاء فسرا على قطعان المسه والدواب ، ويتب كل ما يحاحونه للعس مما أدى الى حصاره الأهالي الذين بطروا اليهم بطريهم للأعداء .

ثم أحد [اللاتين] بعد ذلك في مباحه رحفهم من عدد الناحه حتى بلغوا منطقه سديده الحصب والماء ، ويعرف باسم « بلا حرسا » فضرروا معسكرهم بها ، وهنا وافهم الأخبار أنه يوجد على مقربه منهم مدينه حصنة يسكنها الهراطة . فأوسعوا خطاهم نحوها ما وسعتهم السرعة واستولوا عليها بالسلاح . وأصرموا النار في مباحه ، وراح ما بنا من بن هالك بالسيف أو صريع اليه النار ، ثم عادوا منها محملين بالغنائم الصحم والأسلاب الوفيره .

ولما سمع الامبراطور أن كنائب بوهيموند سابع رحفها ، أوعر سرا الى مقدمي حموسه الذين كان قد أرسلهم في مساهي ذلك المكان أن يطاوا سائرين مع جميع قواب تلك الناحيه الى حاسب القواب المسححة حتى يصلوا الى نهر الورداد ، على أن يغسموا الفرصه ان لاحت لهم لئلا أو نهارا للاغارة على طلعة الجبس ، سرا أو جهرا ، وذلك لما نعى الى علمه من أعمال القتل التي جرت عند مجيء الفائد بوهيموند ، وكان الامبراطور قد داى منه ومن أبيه روبرت حسكراد الأهوال الحمة فى سالف الأيام ، لكنه استطاع بفضل ما طبع عليه من الدهاء والمكر - أن يوفق غاية التوفيق فى سنر أغراضه واخفاء أهدافه . بارساله طائفة من كبار من حوله الى هذا الرجل العظيم [بوهيموند] ألقى اليهم أن تكلموه بلبن الكلام وأرقه ، وأن بصطنعوا معه من الأسلوب المطمئن ما يخفى غرضه ، وأن يستعملوا كلمات تبث فى نفسه الطمأنينة ، لكنها نخفى وراءها الغدر الذى لا مناص

منه ، كما أمرهم أن يبدلوا قصارى حيدهم لخديعه . وكانت لهجة الرسالة المكتوبة اليه وكذلك الكلمات التي فاء بها الرسل كالأتي

- ١٤ -

« قد علم جلالنا - رعانا الله - بما لا يدع مجالا للسك أنك أمير جليل القدر ، قوى السكينة ، رقيق المكاة ، كما أنه يعلم أنك ابن أمير مبجل نوى لم يعرف الكلل اليه سبيلا ، وقد أنزلناك ما سرك الحب ، وحبوناك من اقبالنا ما أنت أهل له . وان كما لم نرك وجهها لوجه حتى الآن . »

« وقد علمنا أن طاعك للرب حملك على أن تهيب نفسك لخدمته ، وأن تسارك بقية الأمراء المخلصين في الصيام برحلة الحج . وان هدفنا هو أن نزيديك منا حبا ، وننزلك منزلة الود من نفسك لذا (فانا نلتمس منك) أيها الصديق الحبيب أن نوعز الى أساعك بكف أيديهم ومنع أذاهم عن رعايانا ، وألا يرتكبوا عملا من أعمال العنف أو النهب أو اضرار الحرائق ، ونسألك أن تبادر ما وسعك البدار للمجيء الى حضرتنا لا تخاف شيئا ما ، عساك أن نعم بآلاف السرف ، وتحظى بالنعم التي نعتزم اغداقها عليك ، ولقد أصدرنا أمرا الى حامل هذه الهدايا على تهيئة كل ما هو لازم لجيشك ، بمن لا فصال فيه ، حتى تظل امداداتكم بأسباب العيش موصولة على الدوام » .

وعلى الرغم مما يوحى به طاهر كلمات الامبراطور هذه من الود الكبير ، الا أنها كانت تخفى وراءها السم ، غير أن بوهيموند - وحر الرجل العطن اللماح ، المدرك تمام الادراك ما سطوى عليه نفس الامبراطور من الشر - كم مساعره ، وأخذ حذره الشديد ، وأرجى الى الملك آيات الشكر على ما أبداه من العطف والاهتمام بسلامته ، وبع الدوى هؤلاء المرشدين ، حتى اذا بلغوا نهر الورداد وجدوا قسما من عسكرنا قد عبروا النهر حالا ووقفوا على ساطئه الآخر ، بينما كان هناك غيرهم يأهبون لصبوره ، فظن أتباع الامبراطور الذين كانوا يقتفون أثر معظم جيشنا ان قد لاحب الفرصة لهم ، فكروا فى وحشية ضارية ، وروح عدوانية كريهة ، على هذا الرهط من الناس الذين كانوا على وشك العبور .

فلما اضمح المكر السيء لباكريد - وكان مسعدا للدوام للعمل - هب كانه البرق الخاطف الى تلك الناحية ، مسبصحا معه ما بقرب من ألفى فارس وعبروا النهر المزد سباحة الى ساطئه الآخر الذى لم يكادوا يصلونه حتى وثبوا على العدو بسوفهم ، فدمر صغوفه وأرغموه على الفرار ، ثم مضوا بعقبونه بعض الوف وفكروا بالكسرين من رحاله ، كما أسروا البعض منهم وجاءوا بهم الى بوهيموند الذى أمطرهم بأسئلته ، مستفسرا منهم عما وراء مطاردتهم حبشا مسحيا مثلهم واقتفاء أثره ، فقالوا له انهم رجال الامبراطور ومرتزقنه ، وأنه لابد لهم من الانصاع لأمره ، وتال من أوصاهم بقتالهم .

وحينذاك اضمح للجميع بما لا يدع مجالا للشك والريبة زيف كل ما قاله الامبراطور لهم وأنه قول لحمته الخديعة ، وسداه الرداء .

غير أن بوهيموند لما كان يعلم أنه موشك على الرحيل ، وأنه فى حاجة لاستعمال كل ما يقدمه له الامبراطور من وسائل السفر ،

فقد تصدى للودود في وجه ارادة بقية رجاله ، ورأى أن يكس
أحاسيسه ، حتى لا يبر حنى ألكسوس من غير فائدة بحنها •

- ١٥ -

بعد أن احتاز الحنن مقدونيا وولاية الليريا كلها ، راح يبحث
الخطي وهو بحث قتاده حودفروى الحكمة حتى دنى من المدينة ،
فوقف قربها ، وكان ذلك قبل عند الميلاد بخمسة أيام ، وهما جاء
سفاره ثانه من الامبراطور الذى أرسل برحو من بوهمود في
الفتح أن يحلف وراءه قوائه ، وبضى لزيارته فى حرس ليل ،
فتردد بوهمود فترة قصيرة وأجل سقذ هذه الأوامر بعض الوقت ،
لانه كان بسك فى بوابة الامبراطور ويدرك ما بضمه من السر ،
وببما كان يبحث فيما يسبى علمه اخذاه ، اذا باندون العظيم
جودفروى يعبل فى أبهة عظيمة ، يحوطه كوكبه سرف من النبلاء ،
وقد وفد على بوهمود - استجابة لوسلات الإمبراطور الماجة عليه -
فى محاولة منه لحمله على زبارة حلالته الامبراطورية دون خوف أو
وجل ، فعانق كل منهما الآخر ، وتبادلا قبلا الحب ، ودارت
بهما الأحاديث اللطيفة وراح كل منهما يسأل الآخر عن أحواله ،
فلما فرغا من ذلك أشار الدوق حودفروى - بناء على ما لديه من
العلماب - على بوهمود - بزيارة الامبراطور ، ولكن الآخر أظهر
فى بداية الأمر اصراره الشديد على رفض هذا العرض ، غير عابى
بنصحة الدق ، لعدم ايمانه بصدق ما يقوله الامبراطور كما
ذكرنا ، سد أنه رضخ فى الهابة لرجاء حودفروى ، ومضى مطمئنا
فى حراسه الثوق الى القصر ، فلما بلغه تلقاه الامبراطور بقبلة

السلام ، وأحاطه بكل ضروب العطف ، وبعد حوار أخوى طويل أصبح يوهيموند « رجل الامبراطور » كما يقول المل وأعلن بعبسه له ، وأقسم يمين الولاء له حريا على عادة الافصال لساداتهم اللوردات الاقطاعيين .

فلما فرغ من قسمه انبالت عليه الهدايا الغالبة التي لا تعدر يمين ، والتي حياء له نيا من الحزاة الملوكية ، حب فدمرا اله الذهب والساب والمرحبات والاحجار الكرمة . وبذلك انعقد السلام بين الاثنين .

☆☆☆

أما نانكريد - ابن آحب يوهيموند - وكان رجلا يسبر كل ما فيه الى عظمته - فقد كان حريصا كل الحرص على ألا يذعب الى الامبراطور حتى لا يتحدث اليه ، وبينما كان خاله [يوهيموند] لا يزال في البلاط الامبراطوري انتقل هو بكل عسكره الى بنينيا في اقليم خلفدونية الواقعة على لجانب الآخر من السفور ، وضرب خايمة قرب جيش الدوق [جودفروي] الذي كان قد عبر البحر منذ قليل وأصبح الآن في انتظار الجيوش الأخرى .

ولما علم الامبراطور [ألكسيوس] بتجنب نانكريد المجيء الى حضرته اشند غضبه منه ، الا أنه نمسك بالعقل وكظم غيظه ، وراح يفتق - بين آونة وأخرى - الهدايا على الأمراء الذين يزورونه ، فاذا ما صدروا عنه الى معسكراتهم فيما وراء السفور - وصلهم بآيات التسريف .

وأقام الجبسان هما في وئام واستقرا في انسجام على مقربة

من المدينة في اسطار وصول الجيوش الأخرى ، ثم انصم الجمع
بعضهم الى بعض في جيش واحد في السير الى الحج الذي اعزموه .

ولقد أمدت المدينة الملوكية والمنطقة التي حولها أهل المعسكر
بكمات كبيرة من الطعام ، حتى أصبح الجميع قادرين على التمتع
بالوفرة منه حسبما يساءون .

- ١٦ -

في هذه الأثناء ، وعند اقتراب دخول فصل الشتاء ، سرع
روبرت كونت فلاندرز العظم في الإبحار من « ناري » إحدى مدن
أولمبا الساحلية ، وأرسي بعد إبحاره بجمع حشده في « دورارو »
ونحاسي زدهيرير الشتاء بنزوله وسط الثباب والمراعي وفي منطقة
خضبة تزخر بشنى متطلبات الحياة ، فأقام بها ، حتى اذا دنى
فصل الربيع تابع رحلته وهو أنسط ما يكون لتنضم الى الفادة
الآخرين الذين سبقوه فعبروا البحر .

وأنفذ الامبراطور — كما فعل مع القاده الآخرين — رسلا من
جهته الى كونت فلاندرز قبل وصوله القسطنطينية ، يسرون عليه
بنرك قوائمه خلفه ، ومنابعة رحلته مع ثلة من رفاقه ، للمول بالحضرة
الامبراطورية ، وأوقفه هؤلاء الرسل على كل صغيرة وكبيرة مما فعل
سابقوه في هذا الموضوع مع الامبراطور ، فلما بلغ الكونت
القسطنطينية مضى الى القصر في شزيمة ضئيلة من حاشيته ، فلقاه
الامبراطور بكل مظاهر الاحلال ، وعامله أظب معاملة ، فلم يكن من
[الكونت] الا أن نهج نهج الآخرين فقطع على نفسه يمين الولاء الذي

طلبه منه الامبراطور ، واذا ذاك انهال عليه من مظاحر الكرم
والهدايا أكثر مما انهال على السابقين ، وكان حظ رفاته مثل حذا
الحظ من الكرم ، وان نال كل منه حسب مرتبه .

وصل الى الادن لجيس كوت فلاندرز بالبفاء عنه أيام حرب
المدينة منعا بأطيب الطعام ومسحما ، وقد أكبر الكوت في هذه
الأيام من اجتماعه مع الامبراطور ليجب المواضع التي دلت
ضرورية ، فلما فرغ منها استأذنه في الرحيل بعسكره فأذن له ،
فأبحر للانضمام الى اخوانه الحجاج الذين استقبلوه بالحب العظيم .
وانضم الحسان بعضهم الى بعض .

أقام العاده بضعة أيام يفص الواحد منهم على الآخر الاحداث
المختلفة التي جرب له في رحلته ، وقد سادهم روح البهجة . حتى
اذا فرغوا من استعراضهم للصعوبات التي مر بهم اسهوا أحبرا الى
مناقشة المسائل الخطرة ، وكان من الضروري بعد أن عقد كل منهم
محادثات دفقة مع الآخر أن يقرروا متى وكف يكون احاز المسروع
الذي أقدموا على النهوض به ، وبينما كانوا مهتمين في لوم رفاقهم
الذين تأخروا في المحيء وحملهم مسئولية انصرام الوقت نال طائل
اذا برسول يصلهم من كونت بولوز وأسقف بوى ينمؤهم ناهما على
مقربة منهم ، وأنهما سرعان ما سيدخلان المدينة .

- ١٧ -

بلازم هذان الرحلان العظمان منذ مسنهل السر ، وظلا جنباً
الى جنب بحوشهما ، فكأنما رفيق رحلة لم ينفصل أحدهما فيها عن
الآخر ، وكان في ركبهما رجال بارزون من علة القوم خلعا ومكاة ،

مهم : ولم أسقف أورنج ، ورينولد كوت نفس المدينة [أورنج]
وحاسمون دى بيريه ، وجيرار دى روسيلون ، ووليم كون
مونتبلية ، ووليم كون فورير ، ورينولد بيليه ، وجاسون
دى بيارن ، ووليم أمانجو وكثيرون غيرهم ممن لم تع الذاكرة
أسماءهم ، الا انهم سيظلون من غير شك أحياء فى ذاكرة الزمان ،
ذلك لانهم آثروا الفقر عن رضا وطيب خاطر ، فهجروا ، مهبط
رؤوس آبائهم وفارقوا أحبابهم وأقاربهم ، وبخلوا عن أملاكهم
الفسيحة التى ورثوها عن أسلافهم من أجل اقتفاء خطى المسيح .

وصدقت النية من هؤلاء الناس جميعا فأخلصوا فى خروجهم
وتابعهم من ذكرنا من الرجال الموقرين ، وشدوا رحالهم الى ايطاليا .
واجازوا لمبارديا ، حى اذا حلقوا وراءهم الاقلم المسمى «فورم حيلي»
دخلوا استريا القريبة من «أكويلنا» فأفضى بهم السير فى
النهاية الى أرض «دماشيا» الواقعة على امتداد الطريق الواصل بين
المجر وبحر أدرياتيک ، والتى توجد بها أربع مدن كبرى هى «زارا»
و «سالونا» (المسماة أيضا بسبالو) و «أنتيقارى» و «راحوزة»
التي يسكنها قوم قد أوغلوا فى الهمجية ، وبلغوا من الوحشية
أقصاها ، فهم يعيشون على السلب والنهب والقتل .

وأرضهم مكسوة كلها بالغابات ، وشقتها الأنهار الكبيرة ،
وتحفل بالمراعى الفسيحة ، ومن ثم تقل بها الحقول الا ما تنثر منها
هنا وهناك .

ويعتمد الأهالى فى معاشهم اعتمادا تاما على الماشية والأغنام
باستثناء جماعات قليلة جدا تقيم على ساحل البحر ، وتختلف اختلافا
بيننا عن بقية القوم فى العادات واللغة ، فلسان هذه الجماعة هو
اللاتينى ، على حين يتكلم بقية الأهالى اللغة السلافية ، وسلوكهم هو
سلوك المتبربرين .

ولما دخل الكونت وأسعف بوى ورجالهما هذه الولاية صادفهم كثير من الصعاب على طول الطريق لا سيما بسبب طبيعة الاقليم الوعرة ، واصراب فصل الشتاء ، كما ظلوا بضعة أيام يكابدون وطأه المجاعة لقلة ما عندهم من الطعام والمتونه .

ولما طالع الأهالي وجوه فوما فزعوا فزعا شديدا ، حملهم على ترك مدنها والتخلي عن أماكنهم الحصينة ، وفروا فرارهم من وحوش كاسره ، واعصموا باللال والأدغال مسنصحين معهم نساءهم وأطفالهم وماعهم وان ظلوا يتابعون فى خلسه - وعلى بعد - آثار حبسنا الزاحف ، ويفكون بمن ترميه الأقدار فى أيديهم من المرضى والمسبن والعجائر من النساء ، ممن لم تسعفهم قواهم وخطاهم البطئنة بملازمة بقعة القوم ، فانفصلوا عنهم .

ولما كان الكونت يسعر بالمسئولة الملقاة على عانقه عن هذا الحسد الكفيف ، فقد ولى قيادة الطلبة الزاحفه أمامه جماعة من الزعماء . وأما هو فقد وقف فى المؤخرة على رأس الجانب الأكبر من الفرسان ، كما أنه هو ذابه كان آخر العائدين الى معسكره .



كان الجو ملثا بالضباب الكنف ، والظلام سديدا كأنه قطع متصل بعضها ببعض حتى ليكاد المرء يحسها ، ومن ثم فقد كان من الصعب جدا على السائر فى الخلف أن يتبين الذين أمامه ، على حين أن طلعة الجيش كانت لا يرى قدامها أكثر من رمية حجر ، هذا الى جانب ما ذكرناه من أن الاقليم زاخر بالأنهار والقنوات المائية ، ونكثر فيها المسنقعات التى تعمل على زيادة الرطوبة والضباب الكنف لحظة بعد أخرى ، حتى كاد الهواء أن يخنق الأنفاس .

يضاف الى ذلك أن المواطنين الدماشيين والسلاف كانوا على

دراية نامة بالا فليم ، فراحوا يبايعون الجيش وهم على العمم الساهمة
وفى الغابات الكثيفة ، وكسبرا ما كانوا يبرزون فجاء من العباب
لمهاجمة الحجاج العزل من السلاح .

غير أن الكونت ومن معه من العاده طالما قاموا أيضا من جانبهم
يردون على هجماتهم عليهم بملها ، فقصص حرايهم وسوهم على
الكثيرين منهم ، وكان فى امكانهم أن يفحسوا العنل فهم أكبر
مما فعلوا لولا فرار هؤلاء الدلاسين الى الأحراج القريبة منهم ،
مسخدين منها ملجأ أمينا لهم ، وحدث فى يوم من الأيام أن وقع بعض
هؤلاء الأشرار فى يد الجنس فأمر الكونت بقطع أيديهم وأرجلهم من
خلاف ، عسى أن يكون فى هذا العقاب زجر لغيرهم ، فكفون
- جزعا - عن متابعة الجيش وملاحقته .

ظل الحجاج ثلاثة أسابيع منناله يعبرون هذا الجزء من الاقليم
وهم فى كرب وضيق ، حتى انتهوا أخيرا الى موضع يقال له
« سكوتارى » وجدوا به ملك السلاف ، ولما كان الكونت رجلا رحما
رضى الخلق فقد سخى فى تقديم الهدايا الى ملك السلاف راحا أن
يؤدى هذا الكرم من حانه الى نوثق روابط الصداقة بين الجناس ،
وحتى يضمن لمن معه مودة الألبا عساهم يعقدون لهم سوقا يشترون
منها ما يحتاجونه من بضاعة .

لكن الكونت لم يستطع - حتى بهذا السلوك - أن يهدد من
وحسنة هؤلاء القوم ، أو يخفف من قضاظتهم ، بل الواقع أنهم
ازدادوا شراسة عما كانوا عليه من قبل .

لكن سننى للجيس أن يصل فى النهاية الى دورازو بعد مسره
أربعين يوما داخل أرض دلاشيا كابد فيها كل الصعاب .

حاصرت المخاوف الكثيرة الامبراطور من مقدم الكونت ، لما كان عليه هذا الأمير من الفطنة والعقل ، الى جانب ما كان تحت قيادته من جيش بالغ الضخامة ، وكان الامبراطور قد أرسل منذ أمد طويل قبل وصول الصليبيين الى هذا المكان سفارة من كبار رجاله لمقابلته الكونت في دورازو ، وعهد اليهم أن ينقلوا اليه تحياته الرقيقة النابضة بالود ، فامتلأوا لأوامر مولاهم وذهبوا الى الكونت وخاطبوه بالفاظ سداها الرقة ولحمتها المدهنة ، وقدموا اليه رسالة الامبراطور النى تضمنت الآتى :

« أيها الكونت العزيز ، لقد طبق الحافقين منذ أمد بعيد كبير من أخبار فطنتك ، وما اشنهرت به من حسن الأحذوثة شهرة ذاعت شرقا وغربا حتى بلغت بلاطنا ، مما حملنا على حبك ، ومن أجل هذا الحب ، ورغبة منا في اظهار مودتنا ، فاننا ندعوك اليسا لتؤكد لك - بسبب فضائلك - وعلى رؤوس الأشهاد - تقديرا الشخصى لما أنت عليه من الفضل ، ونحن نتطلع فى لهفة الى قدومك علينا ، واننا نريد أن نناقش مع عظمك - وأنت العزيز الغالى عند امبراطوريتنا - كثيرا من المسائل المتعلقة بالأمور العامة ، ونرحوك رجاء حارا أن يكون سيرك عبر بلادنا من غير شغب ولا ازعاج ، وأن تبادر بالمحبة اليينا معتمدا على محبتنا ، ولتكن واثقا مما عزمنا عليه من اعداقتنا عليك آيات الشرف ، كما أصدرنا تعليمات الى حاملي هذه الهدايا أن يهينوا موضعا تبتاعون فيه ما تحتاجونه ، وأن يظل التعامل التحارى بين قومنا وقومكم موصولا ، تحت شروط ملائمة كل الملائمة » .

حين تسلم الكونت هذا الخطاب انشرح صدره وصدر عسكره انشراحا كبيرا ، ققرروا متابعة السير ، فساروا آياما كثيرة

فاسوا حلالها المساق في اجتيازهم الأجراف والجبال ، حتى اذا
جاوزوا بلاد ابروس كلها نزلوا في الاقليم المسمى ببلاحوسا ، ناصبين
معسكرهم به لكثرة ما يزخر به مما تهواه النفس .

١٨٨

وأما أسقف بوى الذى عاش حياته عفيفا طاهر الدليل فقد
انتقى من دون الجند مكانا قصيا اينارا منه لراحته ، ونصب هناك
معسكره ، لكن ما لبث البلغار أن هاجموه وأخذوه أسيرا ، غير أنه
لما كان شعب الرب لا يزال في مسيس الحاجة الى فسيس عظيم
كهذا القسيس فقد أبت رحمة الرب الا أن سداركه ، فأبقت على
حياته ، وما كان ذلك الإبقاء الا عن طريق الصدقة البحنة وحدها ،
اد طلب منه أحد اللصوص أن يسلمه ما معه من الذهب ليبسط
عليه فضل حمايته ، فلا يباله أحد بضر ، فأعطاه ما طلبه ، فأغصب
هذا بقية اللصوص ، فناربت بينهم فتنة تعالى ضجيجها حتى سمعها
عسكرنا ، فهبوا جميعا الى سلاحهم ، وكرروا على المفسدين وأنقذوا
الأسقف المجل ومن معه من بين أيديهم .

★★★

تابع العسكر بعد ذلك مسيرتهم ثانية فعبروا سالونكا وكل
بلاد مقدونيا ، وظلوا يابعون زحفهم المضنى عدة أيام حتى بلغوا
مدينة « رودستو » البحرية المطلة على البسفور ، والتي تعد عن
القسطنطينة مسيرة أربعة أيام ، وهنا جاء الى الكونت وفد آخر من
جهة الامبراطور ، كما وفد عليه رسل من القادة [اللاتين] الذين
قدموا قبله يحضونه النصيح ، وبلحون عليه أن يأذن لجيشه بالسير
ولكن فى بطاء ، أما هو فعلمه أن يبادر بالخروج فى شردمة ضئيلة
من حرسه للذهاب الى الامبراطور ، حتى اذا فرغ من أمره معه يكون
حشبه قد بلغ [القسطنطينية] ، واذا ذاك يستطيع ملاحقة الآخرين

بأسرع ما يمكن ، دون أى إعاقة للجيس الذى كان راعا فى سرعة الزحف .

وكان الكونت قد أرسل [الى القادة] من تلقاء نفسه جماعة من عنده . فلما عادوا اليه شجعوه على اتخاذ نفس الخطوة .

- ١٩ -

بلاشى أحيوا بردد الكونت أمام الإلحاح المسنم من جانب مندوبى كل من الرسل الإمبراطورين والقادة [اللابى] الذين المسوا هم أيضا منه أن يسرع الى قصر الإمبراطور ، فاستجاب لهم جميعا . وبرك جيسه تحت الحماية الدقيقة من جانب الأساقفة وعمرهم من الأشراف الذين كانوا فى المعسكر ، ومضى هو ملبا الدعوات المكرره اليه ، ودخل القسطنطينيه فى رهط قليل من حاسسه ، وفى حراسه مندوبى الإمبراطورية ، فلما مثل أمام الإمبراطور بالامبراطور ووحوه رجاله فى الترحاب به واطهار التعدير العظيم له ، لكن ما كادت تسهى كرمات البناء التى فلتت لاسنمالاته وخديعه ، والنى تضمنت الإلحاح السديد عليه لقطع يمين الولاء للإمبراطور بالطريقة التى انبعاها القادة الآخرون الذين سبقوه ، أقول ما كادت هذه الكلمات المعسولة تنتهى حتى رفض الكونت قطع اليمين رفضا باتا .

بنما كانت هذه الأحداث تجرى فى القسطنطينية ادا بالامبراطور قد استبد به الحق لرفض الكونت اعلان تبعيته له كما فعل الآخرون ، وحينذاك أسر الى قادة جنده الموجودين فى تلك النواحي

بمباغة فواب الكونت وأخذها على عره ، وأمرهم ألا يدخروا وسعا
 فى ازعاجهم ، حتى ولو أدى بهم الأمر الى اغتيالهم ، وقد شجعه على
 ركوب هذا المركب وسلوك هذا السبيل النزام القادة الآخرين بيمين
 الولاء الى قطعوها له ، كما أغراه على ذلك أيضا أن جوسهم كلها
 كانت قد عبرت البحر ولم يعد من السر رجوعها ، كذلك صدر الأمر
 الى جميع السفن المتجهة لنعل البحارة أو الناس بحرا بعدم مغادره
 الساطىء الآخر ، وبذلك نصبح كل فكره للرجوع ضرا من العب
 لابعدام وسائل النعل ، وكان الامبراطور قد نجح بكلماته المعسولة
 الخادعة ، وما اصطنعه من اعراءات كبيرة فى حمل الجيوس على
 العبور فردا بعد فرد حتى لا يجمعوا كلهم فى المدنة فى وقت
 واحد ، وكان الداعى له الى ذلك الأمر هو خوفه - كما سرحنا - من
 أن يجرى هؤلاء العسكر فىكون فى تجمعهم كلهم خطر ما بعده من
 خطر عليه . كما أن سخاء القادة لم تكن عن كرم أو حس فصد ،
 بل كان سياسة خبثنة تنطوى على المكر وهى وليدة البأس ، ومع
 ذلك فقد أعدم زعمائنا على تلبية ما طلبه الامبراطور منهم لنقيم فيه
 وتصديقهم لما بقوله ، وكان من أصعب الأمور اقناعهم بسوء طوبة
 الاغريق ، ولؤم نة الامبراطور وخداعه وختله الذى لا ينقضى ،
 لا سيما منذ أن بالغ فى السخاء عليهم واكرامهم وتظاهره نحوهم
 بأقصى مظاهر حسن النية •

- ٢٠ -

راح الضباط الذين تلقوا أوامر الامبراطور - وهم من أمراء
 الخمسمائة وكذلك الموكل بهم قيادة القوات الحربية - ينفذون
 توجيهاته ، فقاموا سرا - والبلبل يلف الدنيا بظلامه - بمهاجمة

عسكر الكونت الذين لم يكونوا يتوقعون فط أى خطر يأتهم من هذه الناحية ، فراحى حراسهم ، وغفل عيوبهم ، فأخذهم الاغريق على غرة منهم ، وقتلوا بالكثيرين منهم فسكا دريما ، وذلك لأن المباغته أدت الى عدم اتاحة الفرصة لهم لانضاء سبوقهم ، فجرت فيهم مذبحه محزنة ، وفر من نجى فرارا مشييا لكنهم ما لبثوا أن رجعوا على أعقابهم حين تصروا حالهم ، واستردوا شجاعهم وعادوهم بطولهم ، فأنزلوا كثيرا من الحسائر نلك العصابات الحربية من مرفقه الامبراطور ، ولقد أبدى الصليبيون مقاومة عميقة أخذين بعين الاعتبار ظروف الزمان والمكان ، غير أن اليأس بدأ يسرب الى نفوسهم بسبب مشقة الطريق وما يلقونه كل يوم تقريبا من أخطار لا سهى ، بأنهم على غير انتظار منهم ، فراحوا يستسلمون لليأس ، وطالما لاموا أنفسهم على ذلك ، وأخذت حماسهم نفتر كل يوم عن الذى قبله بسبب الارهاق الذى نال منهم كل مال ، ومن جراء المصاعب الشاقة التى واحهم ، وندم الكبرون منهم على المغامرة التى أقدموا عليها ندما جاوز الكثيرين من العامة الى طائفة كبيرة من أبرز رجالهم الذين يشأونهم مكانة ، والواقع أن الريبة ساورتهم فى قدرتهم على انحاز حجهم ، فنسوا ما قطعوه على أنفسهم من عهود ، وما أقسموه من أيمان ، وراحوا يعدون العدة للعودة من حيث جاءوا ، ولولا أن أخذهم تحذيرات الأساقفة ورجال الدين من كل جانب ونصائحهم البهم وحثهم اياهم على الوفاء بما فى أعناقهم من يمين فهجروا الحشس وحاولوا الرجوع الى ديارهم ، غير مألين بالخطب الذى يترتب على ذلك .

ولما سمع الكونت هذا النبأ عصر الحزن قلبه واستبد به الألم وبكى وأعلن أن قد غرر به ، ثت أرسل رهطا من أشرفه المخلصين الى الامبراطور يهولون له على لسانه انه خائن ، لانه خرج على جميع مقتضيات اللياقة والذوق إذ أمر رجاله بمحاربة جيش الكونت

ريموند فى الوقت الذى ذهب فيه ريموند الى الامبراطور استجابة
للكتب العديدة التى جاءته من القادة ، ونزولا على النماساتهم
الكثيرة منه .

كذلك لام الكونت القادة لمداومتهم اللاحاح عليه بالمضى الى
الامبراطور حتى ترك حبشه وشخص الى القسطنطينية ، وأعلمهم
ريموند بالمصائب التى آلت بكتائبه وبخيانة الامبراطور لها ، ثم
طالبهم - كاخوة له - أن يثأروا لهذه العمال الشائنة .



لو ان قوة الكونت كانت مكافئة لرعبته الصادقة فى الاسقام
لرجاله لما كان لتهديدات الآخرين ، ولا لمدخل سواهم من القادة
فدرة على ثنيه عما اعزمه ، فقد اشهر عنه انه كان رجلا صلب
الارادة ، قوى السكينة ولا بثنبه ثان عما أحجم العرم عليه ، كما
أنه لا ينسى الاساءة أبدا .

وحين عرف الامبراطور المدى البعيد الذى ذهب اليه ندم على
ما بدر منه ، ورأى أن يبعث فى استدعاء القادة الذين لا رالوا
بجيوشهم على السواطى الأخرى طالبا البهم الممول فى حضره ،
طمعا منه فى أن يؤدى ندخل هؤلاء القادة - وهم الدوق وبوهيموند
وكونت فلاندرز - الى اسرضاء ريموند ، فاستجابوا كلهم لدعوه،
وعلى الرغم من شدة حنفهم جمعا على ما قد جرى الا أنهم رأوا عدم
ملاءمة الزمان ولا المكان لطلب الثأر ، ومن ثم انفردوا بالكونت رحاء
أن يحملوه على ألا يصرح بالأخطاء التى يشعرون أنها قد حاقب به
وبهم أيضا ، مبينين له أن اندفاعه فى طريق الانتقام قد يؤدى الى
ضاع جهد أيام طويلة ، والى عرقلة زحف أولئك الذين يرغبون فى
السير فى طريق السيد ، فاستجاب الكونت لحججهم هذه ، ورضخ

لتدخلهم الرحيم ، وكبت مساعره المريرة واحساسه بالآلم ، وحصح
لنصيحة القادة ، ووافق على ما رنبوه ، وحينذاك ذهبوا جميعا الى
الامبراطور بنفوس راضية وان عبروا بالاجماع عما يسعرون به من
السخط على ما جرى ، فلما أدرك الامبراطور ما هم عليه من الالساء ،
وقد رحدهم جميعا شعور جماعى مبن ربط بينهم جميعا لم يحد بدا
من التنازل والاعذار للكونت أمامه وفى حضور بطانه ومن لا تمت
اليهم بصلة . وزاد فأقسم بأنه لم يعلم بما قالوه من خبر الالهانة التى
لحقب الكونت ، وأن شئنا من ذلك لم يصدر عن أمره . وقال انه
على الرغم من ذلك فانه راغب فى اسنرضاء الكونت لتؤكد له
براءته .

هكذا كانت مكسف للعبان - يوما بعد يوم - حدع الاعرنق
وخيانة الامبراطور ، ولم بعد هناك أحد من الزعماء لم بصح له
وضوح الشمس فى وسط النهار ان نفس الكسوس نطوى على
كراهة سوداء لسعنا واحتقاره اناه ، ومع ذلك فلما كان يحقق
هدف الحجاج بدفعهم الى أمور أخرى . ولما كانوا هم أنفسهم نواقين
لأنحار مهمتهم على الوحه الذى يرضاه الرب ، فقد رأوا أن الجاوز
عما لحقهم من الأهوال أعظم من انصرفهم عن هذا المسروع المقدس
الذى جاءوا من أحله .

- ٢١ -

انصاع الكونت لنصيحة القادة فنصافى مع الامبراطور ،
واقسم له يمين الولاء على الصورة التى أقسمها الآخرون ، فأصبح
الامبراطور منذئذ بحوه بعطفه السامل ، ويسخو عليه بالهدايا

المسه الى لا يحصيها العد ، والننى تبلغ قبمتها فدرا لا يدركه
التصور ، كما مضى يصل الزعماء الآخرين بالمزيد من العطايا ،
واذ ذاك استأذنوه فى الرجبل فأذن لهم ، والتمسوا من الكونت
- على وحه الخصوص - ألا يبطئ فى اللحاق بهم ، بل عليه أن
يجئ اليهم على جناح السرعة ، واذا ذاك انطلقوا عابرين المسفور ،
وانصهوا الى كائنهم الموجوده فى بينينا .

أما عسكر الكونت [ريموند] فكانوا قد بلغوا القسطنطينية
حينذاك ، فأمرهم الكونت بركوب البحر فى ساعنهم هذه فاسجباوا
لأمره . وانضموا الى الجيوش الى سبغتهم وان تحلف ريموند عنهم
للطر فى ترنسب أموره الخاصة ، وبصرىفا نصريفا لم يحل بيه
- وهو الرجل الفطن - وبين الاهسام بالصالح العام ، اذ فعل ما فعله
العاده الآخرون من قبله حن راح برحو الامراطور رحاء الملح أن
يصحب القوم فى زحفهم . على أن تكون له فمادة حس المسح ،
وبكون حينذاك صاحب الأمر فنه .

وعلى الرغم من أن جمع فادننا - لا سيما كونت بولوز -
طالما النمسا منه مرة بعد أخرى أن ينفصل بمرافقنهم كقائد لجس
المسح ، وأن يأخذ القيادة العليا بده ، الا أنه ظل ينصل مسحلا
المعاذير ، بحجة أنه محاط بأعداء همجيين كالبلفار والكومان
والبشناق الذين لا يكفون عن الحركة على حدود الامراطورية
لاعنام الفرصة لسن هجماتهم الفجائية ، وتهديد سلم الدولة
وأمانها . وبين لهم أنه رغم رغبته الشديدة فى المساهمة معهم فى الحق
العظم . ومشاركهم فى النصر المقبل الا أنه لا يستطيع أن يتنحى
عن المسئولية الملقاة على عاتقه بمملكته ، والا أتاح الفرصة للعدو
المحقق بها لبزل الضر بها .

لكن كان جميع ما صرح به افكا وكل ما فاله بهتانا حسوه
الخدعة .

وكانت غيرته من رجالنا هي التي دغنه الى هذا الادعاء ، لانه كان يلتمس أى ذريعة- نمكنه من كف مساعدته من شعبا واعاوه تقدمهم بأى وسيلة تستطيعها .

وكان القادة الذين عبروا البحر حالا - وأعنى بهم جودفروى وبوهيموند وروبرت كونت فلاندرز وأسقف بوى - قد أعدوا حوائجهم وصاروا على أهبة الاسعداد لمواصلة الحج مرة أخرى ، كما أزمعوا السير على مهل الى نيقة فى انتظار رفاقهم القادمين وراءهم ، ومن ثم ساروا يومهم كله قاصدين نمقوميديا ، التى هى أكبر مدن ولاية بشسا ، واذاك خف بطرس الناسك لمقابلة الكائن المقدمة وتحية الزعماء .

كان بطرس - تحنبا منه للجو القارس - فد أمضى الشتاء فى هذه الناحية مع الفئة القليلة الباقية ممن ظلوا على قيد الحناء . فانضم بهم الى زمر الحجاج الذين رحبوا به أجمل نرحب ، ولما سألوه عما لقيه حيثه من الأهوال أسهب لهم فى تفصيل كل ما حاق بهم ، ولم يفته أن يصف لهم روح الفوضى والنمرد التى كان عليها هؤلاء العصاة الرعاع الذين خرجوا فى صحبه ، ونسب النكبة الى ألفت بهم الى سلوكهم الذاتى أكثر من نسبتها الى شىء سواه فشاركه القادة الحزن العميق فى مصيسته ، ثم وصلوه هو ومن معه بالهدايا الثمينة الجمّة .

ازداد حينذاك عدد الجيش زياده كبيرة بعون الرب ، وذلك لان الطوائف المختلفة اتحدت حتى صار حماة واحدة تابعى السر تحت قيادة حكيمة لسبة ، فبلغوا نبقية فى الوقت المحدد ، ونصبوا معسكرهم على شكل دائرة أحاطت بالمدينة ، وخصصوا أماكن معينة

للزعماء الذين لم يعدوا بعد ، حتى اذا كان اليوم الخامس عشر من شهر مايو [سنة ١٩٠٧] ضربوا الحصار على المدينة .



حين فرغ كونت تولور من انجاز شئونه في القسطنطينية اسأذن الامبراطور في الرحيل ، فسأ عليه ثانية سحاء بالغاً ، ووصله بالهدايا اكراما له ، فسار بمن كان قد ظل معه من رجال جيشه ، مقتفين أثر عسكر اخوانهم ومسرعين في زحفهم ، وسرعان ما بلغوا المدينة المذكورة آنفاً .

- ٢٢ -

في هذه الأثناء قام لورد روبرت - كونت برمدي العظيم - وغيره من كبار النبلاء البارزين ممن كانوا في معينه ، ومنهم لورد ستيفن كونت شاترتز وبلوا ، ولورد أسباس أخو الدوق حودفروي ، بايفاد الرسل من جانبهم الى الامبراطور والى اخوانهم ، يعلنون اليهم أنهم قادمون حالا .

وكان مع هؤلاء أيضا ستيفن كونت أومال ، وآلان فيرجانت ، وكونون ، أحد سراًة برباني ، وكذلك روترو كونت بيرش ، وروجر بارنفيل .

وكان جميع هؤلاء النبلاء مع كثير من غيرهم من الأبطال البارزين وفيهم كونت فلاندرز وهيچ العظيم قد وصلوا العام المنصرم الى أبوليا مع دخول فصل الشتاء .

وكان الأخيران قد عبرا البحر الى دورازو ، أما بعبهم فقد كان خوفهم من برودة الجو القاسية حاملا اياهم على فضاء الساء فى ربوع أبوليا اللطيفة ، وعلى حدود كلابريا [قلهورية] .

لكن ما كاد الربيع يطل حنى استدعوا أنبأهم الحجاج ، وجهروا مناعهم للسفر ، ويمموا وجوههم شطر الساحل ، سالكين الطريق الذى سلكه الآخرون ، فأبحروا الى دورازو ، وأرسوا بها ، ثم تابعوا سفرهم منها على جناح السرعة لتعويض الوقت الذى قضوه فى أبوليا ، وأعانهم الرب فاحازوا الولايات الوسطى لا سما « الليريكوم » ومقدونيا ومنطقتى تراقيا ، وكانت رحلة هائلة أبانغهم العسطنطنية آمنين ، فاستدعاهم الامبراطور استدعاءه الزعماء الآخرين من قبل ، فلما دخلوا القصر تلقاهم جلاله وجمع من حوله من الرجال البارزين لقاء حارا مشرفا .

ثم أجرى الامبراطور محادثات طويلة مع الزعماء السلالة . مجتمعين تارة ، ومع كل منهم على حدة تارة أخرى ، ملاحظا انهم بكامانه الرفقة ، ووعوده الجمة ، فقطعوا له على أنفسهم العبد الذى قطعه الآخرون له من قبل .

وكان هؤلاء القادة الآخرون قد أخبروهم - قبل ذهابهم الى الامبراطور - بكل ما ينبغى عليهم فعله فقالوا لأنفسهم ، لسنا أكبر من كبارنا الذين سبقونا ، ومن ثم فانهم اقتداء منهم بهم بهجوا نهجهم وربطوا أنفسهم بالامبراطور وقطعوا له يمينا كاليمين التى قطعها له على أنفسهم من سبقوهم ، فكان الرد عليهم أن حطوا بعطف أكبر مما حظى به هؤلاء ، وأصبحوا جديرين بالحصول على منحة فاقت كل ما قدم من قبل ، فكثرت المال بين أيديهم ، وحاءهم من الهدايا ما لم يروا له مثيلا من قبل ، من الذهب والملايس النمنمة والأواني التى تشد الناظر اليها : مادة وصنعة ، وكذلك النساب

الحريرية ، فأذهلهم سخاء الامبراطور الذى حاور عطاياه فى طبيعتها وقدرها كل ما تنصوره بحس ، ثم اطلقوا محملين بهذه الهدايا الرائعة بعد استئدابهم الامبراطور فى الخروج حتى لا يكونوا سببا فى تأخير اخوانهم الحجاج ، وعبروا البسفور ، وأسرعوا بجمعهم الى نيقية حيث كانت بقية الجيوش الصليبية لا تزال بها ، فنلقاهم الأمراء بالأحضان ، ثم نزلوا جميعهم راضين فى المكان الذى قسم لهم .

- ٢٢ -

انصل بمعسكرنا افرى اسمه « نانكوس » كان موصع ثقه الامبراطور ، وكان لشم الطمع عذارا ، بدل أنه الأفطس على ما اطلوب عليه نفسه من الشرف ، وكان زعمائنا قد سألوا الامبراطور أن يمد لهم مرشدا لتكون رحلتهم أكثر أمانا ، فصدر الأمر الامبراطورى بسين [نانكوس هذا] لتكون مرافقا ومرشدا لنا .

لم تكن معرفه البامه بناتك النواحي هي وحدها - كما فعل - التي دعب الى اختياره ، بل ان الامبراطور كان كبير الاعتماد عليه لما كان عليه من فساد النية والنفاق الذى لا حد له ، فانضم بانكوس بقواته الحاصفة الى زعمائنا ، عساه يكون كالأوزة التى تصح غالبا بين الدجاج ، وكالحبة الرفطاء بين ثعابين الآكل ، فكان أذن الامبراطور وعنه فى كل ما يجرى بالحيلة ، وبفسر له كل ملاحظة يبدىها أى شخص تفسيرا يرضى بالحق ، وينلقى من مولاه على يد الرسل الكبريين المررددين بسهما غدوا ورواحا موحزا للخطط التى يوحه اليها مشاريعه الشريرة .



ولقد نألف هنا - ولأول مرة - جيش منحدر للسيد الحي ،
وكان فى مجموعته مكونا من زمر شتى ألقت قبادنها الى رجال
تزعموها فى أماكن مختلفة وفى أوقات متباينة ، ثم انحدرت هذه
الجماعات الكثيرة حتى اذا وصلت الى ها هنا صارت جيشا واحدا ،
ذلك لأنه لم يتأت لأحد من قادة جيش الرب وزعمائه منذ مغادرتهم
أوطانهم حتى بلوغهم هذه المدينة وضربهم معسكرانهم بها ، أقول لم
يأت لهؤلاء رؤية بعضهم البعض ، ولم تسنح لهم الفرصة لمناقشة
المسائل المتعلقة بالصالح العام كما سنحت لهم الآن .

واحصوا العسكر فوجدوهم ستمائة ألف شخص ، ذكرا وأنثى
مشابه لا طهر عندهم ، أما الفرسان من أصحاب الدروع فكانوا
مائة ألف .

وقد عسكر هذا الجيس بأجمعه أمام مدينة نيقية ، مكرسا كل
نشاطه بنسي الطرق الممكنة للاستيلاء عليها ، وذلك يهدون أول
ثمار عملهم للسيد فى اخلاص .



هنا ينتهى الكتاب الثانى

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

فصول الكتاب الثالث

- ١ - وصف مدينته سقية وذكر أسباب شهرتها ، وكيف جمع حاكمها فلح أرسلان قوة كبيرة من الترك من كل نواحي الشرق لمحاربنا ، وكيف أعدوا الكمين لمهاجمتنا .
 - ٢ - قواننا بهاجم المدينة في ضراوة ولكن المواطنين يجدون سبيلا لهم للخروج عن طريق الحجرة ، فيرسل إليهم قلح أرسلان رسالة يشد بها أزرهم .
 - ٣ - القبض على حامل الرسالة وافضاؤه الى العاده بكل أسرار العدو ، ووصول كونت بولوز
- (الحروب الصليبية ح ١) - ١٩٣

– وكان الغائب الوحيد – على جناح السرعة
استجابة للزعماء الآخرين .

٢ - قلع أرسلان ينزل من النلال ويهاجم معسكرنا
بعنف ، ولكن الهزيمة حقيق بحشه ويرسل
رجالنا بعض امارات انتصارهم الى الامبراطور
فيكافئ الرعاء على ما فعلوا .

٥ - اقامه الفادة في الأماكن التي خصصت لهم
ومهاجمة المدينة المحاصرة من كل النواحي وهاك
طائفة من السلاء في المعركة .

٦ - أهل المدينة يحطمون آلة كانت على الأسوار
فيهلك نحبها كبر من الصليبيين ، كما أن
البحيرة يعوى نجاح محاولنا .

٧ - الصليبيون يقلون الفوارب من البحر على
العربات ويسيطرون على البحيرة ، وينظر الأهالي
في يأس ودهشة الى براعة شعبنا .

٨ - معاودة الهجوم على بعية من كل الجهات ،
ومحاولات كونب تولوز التغلب على برج أمامه
واستعماله من أجل ذلك الآلات وشنى الحيل
الممكنة ، ولكن مقاومة الأهالي أدت الى فشل
جهوده .

٩ - البراعة العظيمة التي أظهرها جود فروى ، وقيام
أحد الأهالي بقذف النار وصب الزيت على الآلات

وما حذب اذ ذاك من المصير المحزن الذى لقيه
أحله رجالنا البارزين •

١٠ - أحد الصناع يقدم خدماته للرمضاء اليائسين
فيبنى لهم آلة ويحدث نعبا بالسور الذى
سرعان ما ينهار •

١١ - زوجة قلع أرسلان نفع فى الاسر هى وولداها
أثناء محاولتها الفرار ويسولى اليأس على
الأهالى فيفاوضون تايكوس الاعريقى كى
يسنسلما ، ويبعث القادة الرسل الى
الامبراطور بشأن هذا الموضوع •

١٢ - الامبراطور يوفد رسلا من قبله لسلم المدينة ،
كما يبعث أيضا بالهدايا والشكر للقادة ، ولكن
السلطان يسولى على الصليبيين ويشكون من
شجب الاتفاق بيه وبينهم ، وبصدر الامبراطور
أمره بسوق الأسرى الى القسطنطينة ويقدم لهم
الهدايا ويبيع بهم من هناك الى بلادهم •

١٣ - رفع الحصار عن نيقية ، والجيش يتابع زحفه
وينفرق القادة ، ويعوم فلج أرسلان بأعراض
الصليبيين مرة ثانية بجيش كئيف •

١٤ - نشوب المعركة وهلاك وليم أخى تانكريد فيها ،
وأما جيش بوهيموند فبصبح بأكمله فى خطر
عظيم ، كما أن تانكريد نجا من الأسر بأعجوبة •

١٥ - القادة الآخرون يصلون لجده اخوانهم
المنهوكين ، فيفر قلع أرسلان ويحقق البوار

بجيشه ، ويعود الصليبيون وقد فاصب أيديهم
بالغنائم ، وينجمع العسكر كلهم مره أخرى .

١٦ - الجيوش تدخل « بيزيديا » ولكنها تكابد هـا
الشدة بسبب قلة الماء ويصبح العسكر فى حال
بالغة الحزن شديدة الخطورة .

١٧ - انفصال بعض القاده عن بقية اخوانهم وحريرهم
الاقليم المجاور ، وبجاة الدوق من الموت باعجوبة
من هجوم دب عليه .

١٨ - اصابة كونت تولور بمرض أشفى به على الموت ،
وأما الجيش فيعبر « ليكونيا » ويصل الى
« مرعش » حب تمون روجة بلدوين أحي
الدوق .

١٩ - دهاب نانكريد الى فيليقية ومحاصره طرسوس ،
وزيارة بلدوين - أخى الدوق - لتلك النواحي
واستقباله بالتعظيم الذى هو أهل له .

٢٠ - بلدوين يطلب انزال راية نانكريد من فوق
القلعة لرفع رايه مكانها ، فيرند نانكريد عاضا
ويسنولى « جلف » على أدنة .

٢١ - استيلاء نانكريد عنوة على المصيصة وهى احدى
المدن الواقعة فى نفس الاقليم .

٢٢ - استيلاء بلدوين على طرسوس وهلاك ثلاثمائة
صليبي أمام باب المدينة فى نكبة فادحة .

- ٢٣ - بعض المحاربين يحملون السلاح لمقاومة بلدوين ،
ولكنهم يهدأون أخيرا وبصل الى طرسوس
أسطول من الغرب محمل بالرجال .
- ٢٤ - بلدوين يزحف على المصصه بعد اسسلاته على
طرسوس ، ونشوب معركة بينه وبين تانكريد
ثم يتصافى الاثنان ويتصالحان .
- ٢٥ - بلدوين يعود للجيش الاصلى أما تانكريد فيخبر
على كافة أرجاء قيلقية ويسنولى عليها ، فسرع
الحكام المجاورون لمهادنه كسبا لوده ويقدمون
الهدايا اليه .

هنا يبدأ

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

- ١ -

كانت نيقية - وهي إحدى مدن بيبسنا وعاصمة الافليم - خاضعة في القديم لسوميديا ، ثم تحررت من سلطانها عليها على يد الامبراطور قنسططين . بعدد لما قررته أول مجمع ديني مقدس انعقد فيها ، فقد حدث في عهد كل من البابا سلفيسر واسكندر الموقر بطرك القسطنطينية والامبراطور قسطنطين الذي اشربا اليه حالا أن اجتمع في ببقية مجمع مقدس حصره ثلاثمائة وتمايون من آباء الكنيسة لسحدوا قرارا ضد هرطقه آريوس وأساعه ، فمحمض المجمع عن سجب ما عليه هؤلاء من عقده فاسدة ضاله ، واسيدالها بالحق المبس على شهادة الكتاب المقدس ، وبدك قدم المجمع الى كنيسة الرب ايماننا نقي الجوانب ، كما عقد في نفس المدينة مجمع عام آخر ، يعرف بالسابع ، في زمن الامبراطور المؤمن قسطنطين [السابع] ابن ايرين ، احتجاجا على اللا أيفوسين أعى المهامين للصور المقدسة ، وكان يحلس على كرسى رومه اذ ذاك البابا أدريان . وكان بطرك القسطنطينية حنذاك ثاراتيوس الموقر ، ولقى الهراطقة المشار اليهم في هذا المجمع من الكنسة الارثوذكسة الحكم العادل الذى يستحقونه بشجب بهتانهم .

★★★

ونفع مدينة « بيعة » في الافليم السهلى ، وتنمى بموقع رائع كل الروعة ، وتشرف عليها الجبال التى تحيط بها من شى النواحي ، كما أنها حافلة بأحسن الحقول فى المنطقة فأرضها خصبة ، هذا الى جانب المزايا العديدة التى سحت بها عليها الغابات والاحراج ، ويوجد بالقرب من المدينة بحيرة عظيمة الاتساع ، وهى بمد شطر الغرب امتدادا كبيرا ، وكانت الأمواج اذا هاجت بها علت المياه وعسلت جدرانها •

وزباده على ذلك فان بيعة مكنته بالسكان الذين هم مساعير حرب ، ونوم بحراسها حراسة تامة أسوار عريضة الاتساع . وابراج ساهقة الارتفاع ، قدت من الصخر الجلود ، حتى ان الدخشة استولت على رجالنا حين أخذوا يقربون منها فرأوا وسائل دفاع ضخمة •

كانت المدينة وبعمه الافليم والولايات المناحمة لها فى هذا الوقت تحب حكم وال تركى شديد المراس قوى الشكيمة ، بدعى « قلىج أرسلان » ويكى « بالشاه » التى معنى الملك فى اللسان الفارسى ، وكان قلىج أرسلان هذا على جانب كبير من الحق ، وما كان يسمع بعزم فواتنا على المجيء حتى أخذ للأمر أهبه ومضى الى الشرق يلتمس العون والنجدة من حكاهم تلك النواحي ليحول بين الصليبيين وبين المجيء ، واستطاع بقوة اقناعه ، وبالمزيد من التوسلات ، وبالمال الذى بدله أن يجمع اليه من فارس وما تأخمها أعدادا ضخمة من الأتراك الذين طمع أن يعينوه على انقاذ « نيقه » وتجنب الناحية بأجمعها وبلات الخطر الذى يهددها ، وحدث قبل هذا بقليل - وكان على القسطنطينية الامبراطور رومانوس ديوجينيس وهو الثالث قبل الامبراطور الحالى الكسيسيوس [كومنن] - أن تمكن أقوى ملوك فارس يومذاك واسمه ملك شاه - وهو عم قلىج أرسلان من الاستيلاء

عموه على جميع الأقاليم الممتدة من خليج السفور حتى بلاد الشام ومسيرها رحلة ثلاثين يوما ، كما يمتد نفس المسافة من البحر الأبيض المتوسط الى الشمال ، وقد آلب معظم تلك الأراضي في ذلك الوقت الى فلج أرسلان الذي استغل ملكيه اياها ، فمطلع الى الاستيلاء على كل الاقليم الممتد من طوروس في فلسطين الى السفور ، ومن ثم كان له - وهو على مدى رمة فوس من القسطنطينية ذاتها - بوابه الذين يجنون له الصرائب من المارين بها ، كما كان هؤلاء النواب يجمعون لمولاهم الجزية والاناوات من كل المواحي المحيطة بالاقليم .

كان هذا الحاكم يقسم في الماطى الجبلية المحاوره ، التي لا نبعد عن قوائنا أكثر من عشرة أميال ، وكان يربط الفرصة المواتية لمهاجمها دون أن يعرض نفسه للخطر بفصل ما توفر له من جيش بذل الجهد في جمعه ، وبهذا كان يأمل أن يذهب عن المدينة الجزع الذي يؤرقها من هذا العسكر .

- ٢ -

لم نكد قواسا نقف أمام المدينة حتى سبت هجوما عينا عليها رغم عدم حسن تريب العسكر ، لأنه لم يكن قد تم تنظيمه بعد ، ومع ذلك فان عسكرنا الذين جاءوا أولا قد نخبوا لأنفسهم مواضع محددة يقيمون فيها ، وخصصوا أخرى ملائمة للقادمين بعدهم ، وبذلوا غاية جهدهم لمنع الأهالي من دخول المدينة أو الخروج منها غير أن البحيرة الملاصقة لأسوار المدينة - كما قلنا - كانت تقف حائلا دون تنفيذ هذه الخطة بسبب ما كانت توفره السمن الموجودة

فيها من السلامة لم يريدون الخروج من البلد أو دخوله ، وعلهم
حسب شأؤوا ، ولما لم يكن لدى جيشنا قوة بحرية فقد كان عاجزا
عن تقييد حرية السفن هذه ، ولكنه استنطاع بشىء الحيل أن يمنع
الوصول الى المدينة عن طريق البر بفضل عنايته الشديدة بمراقبة
جميع مسالكها ومافذها ، ولما عرف فليج أرسلان أن مدينته تعاني
أحوال الحصار فقد أرسل اثنين من أتباعه ليدخل الطمأنينة في
قلوب أهلها ، وبشجعهم على الاستمرار في الصمود ، وقد أرسلهما
في قارب يعبر بهما البحيرة ، وبعد معهما عبارات التشجيع التي
جاء فيها حسب العادة •

• ان قدوم هؤلاء الماكند المبريرين الذين يطنون أنفسهم
قادرين على فرض الحصار على مدينا لا ينبغي أن يسبب لكم خوفا
كثيرا ، لأننى مرابط الى حواركم بقوة ضخمة من الرجال الأشداء
العظماء ، كما أنني في ارتفاع أعداد أكر فادمة بعدهم ، وحين يلتزم
شمل هذه القوات كلها في جمع واحد فسوف نفاجئ معسكرهم
بالهجوم ، فاذا هاجمناهم نحن من الخارج فهبوا أنتم من ناحيتكم
لمساعدتنا ، وكونوا مسعدين لفتح الأبواب وانفضوا محدس
لا يسعاكم شاغل سوى مهاجمهم ، ولا ترهبكم كبرة عددهم اد
ليس عندهم من العدد والعدة ما بكافىء ما عند قوائنا النشيطة ،
لأنهم جاؤوا من أقصى بلاد العرب ، فأعياهم طول السفر ، وأرهفهم
بعد المسافة ، وقت في عضدهم ما صادفوه من الماعب ، وهم
لا يملكون سوى حياء لا يصمد للقتال الشديد ، ومن ثم فهم ليسوا
نظراء لقواتنا التي وصلت حالا ، ولا يبلغ نشاطهم نشاطها ، وعليكم
ان تذكروا كيف انصبرنا في يسر على جيشهم القوي ، وأوردنا
ما ينيف على خمسين ألف من رجالهم ورد الردى في يوم واحد ،
فقرروا نفسا واهدأوا بالا ، ولا يأخذنكم الجزع لانكم تلقون نهار
الغد نحلة كبيرة ، وسوف تتخلصون من العدو •

ظل الرسولا مبحرين على طول الساحل سعيا لأحسن مكان
يرسوان فيه ، وبينما كانا يللمسان متعدا أميا يمدخلان منه اذا
برجالا يباعوبهما على حين غرة مهما ، فوقع أحدهما فى الأسر ،
وأما الآخر فقد فل حلال الهجوم ، فأخذوا الأسير الى القادة لم
يمسوه بسوء ، فاعترف لهم تحت التهديد والخوف بما يعرفه وكشف
النقاب عن كل شيء وأحبرهم عن أرسله وعما حملة على إرساله .
فانصح من روايه أن فلح أرسلان يبع بالرجلين ليخبر الأهالى أنه
قريب منهم ، وأنه قادم اليهم بالجند القوى الذى جمعه ، وقد
أجمع العزم على مباغنة معسكرنا عدا .

فلما عرف زعماء كناننا أن فلح أرسلان على وشك العدوم
أمرؤا بابقاء الأسر تحت الحراسة ، وبأدروا فى لحظتهم فأرسلوا من
فلهم الى كونت بولور والى أسقف بوى - اللذين لم يكونا قد انضموا
الى بقية العسكر حتى هذه اللحظة - رجالا يللمسون مهما المجيء
على جناح السرعة ، فلما سلم هذان الهائدا تلك الرسالة من
أخوانهما جزعا عليهم حرعا عر فليل ، وندما على بأخرهما عن اللحا
بهما . وخرجا وظلا سائرين طول الليل حتى بلغا المعسكر مع أولى
بأشر الصباح وقتل شروق الشمس ، وندما وحولهما الناس
ما بين مهلل وهائف ، والرايات ، تحق أمامهما ، ويلمع الأسلحة
فى الجو ، وما كادا يضعان أنفاهما جانباً لسحذا مكانا مع بقدة
الحيش فى المكان المقسوم لهما حتى انحدر قلح أرسلان من ناحية
الجبال - وكانت الساعة الثالثة طبقا لما قاله الأسير ، واجناز السهل
فى طريقه الى المدينة ، على رأس حشد كشف من الفرسان ، ان تعدهم
بخدمهم قرابة خمسين ألف رجل ، وما كاد رجالا برون العدو حتى
هبوا الى أسلحتهم فحملوها ، والى طبول الحرب فدقوها ، والى
الأبوا فننفخوا فيها ، وأيقطوا العسكر كلهم فرتبوا صفوفهم
استعدادا للقتال ، وأخذوا لكل شيء قد يعرض لهم أهيتة ، وتهيشوا

لمواجهة العدو القريب منهم في صورة الرموا فيها عاية الانلزام
بقواعد التنظيم الحربى الذى دربوا عليه ومارسوه طويلا .

- ٤ -

أرسل فلج أرسلان كنيبة قوامها عشرة آلاف رجل على خيولهم
لكوبوا طليعه ، نحو البوابة الجنوبية النى وكلت حراسها الى
كونت بولوز ، لكن لما كان فلج أرسلان غير عالم بوصول ريموند
فقد توقع أن يجد البوابة كعهده بها فى اليومين السالفين من غير
حراسة ، بيد أن أملة تبدد هباء اذ صادف عندها من الجود المرابطين
أكثر مما فى أية بقعة أخرى ، لكنه لم يكن عالما بهذه التغيرات .

ومن ثم أسرع فسن غارة شعواء على رجال الكونت الذين رعم
أنهم لم يتخففوا من أحمالهم الا منذ قريب الا أنهم صمدوا للهجوم ،
وبددوا شمل الصف الأول من عسكر العدو الذى أدبر هاربا ،
بيد أن ظهور فلج أرسلان على رأس امدادات قوية أحييا عزيمة
عسكره ، فعادوا الى ساحة القتال بعد أن كان قد انعط عقد نظامهم .

فى هذه اللحظات لاحظ البدوى وبوهيموند وكونت فلاندرز
أن العدو قد عاد بقوات أكبر عددا وأنها تقف صفوفها مرصاة ، كما
لاحظوا أن الارهاق بلغ من رجال كونت بولوز مبلغا جاوز الحد ،
بسبب جيش كاسج بأسل الشجاعة قد اندفع اندفاع رجل واحد
لمساعدة رفاقه ، فقام [الثلاثة] قومة صادقة بمهاجمة معسكرات
العدو والقريبة ، وتناوشوه بالرماح والسيوف ، وعلى الرغم مما كان
يبدو على العدو حين طلوعه فى البداية من دلائل الشجاعة والبأس .

إلا أنه لم يمض غير ساعة واحدة من الصراع حتى وعدوا أربعه آلاف
نفس ما بين قتيل وأسير ، مما حمل بقينهم على الفرار .

وهكذا أحرزت قواتنا هذا النصر الأول بعون الرب ، واستمروا
يحاصرون الخصم حصارا أحاطوا فيه بالأسوار ، فلم يجرؤ قلعج
أرسلان أو أى أمير آخر من أمراء العدو - منذ ذلك اليوم وأيام
الحصار التالية له - على القيام بهجوم كهذا الهجوم ، وإذا كان
رعمأونا المذكورون آنفا قد برهنوا على كفاءتهم ، فإن تاتكريد وولتر
دى جار لاند صنجان الفرنجة ، وجى دى بوسسا ، وروجى دى بار
نصل أبدوا من البسالة ما أذاع صيهم وأكسبهم حسن الأحدوبة .

ورغبة فى زياده بب الفزع فى قلوب الأعداء بعد صدر الأمر
لرجالنا بقذف أعداد كبيرة من رؤوس البرك المقولن الى داخل
المدينة ، قذفت بها الآلات اليهم ، وكما بعوا الى الامبراطور ألفا
من هذه الرؤوس وطائفة من الأسرى هدية ، فكان لذلك وقع طيب
فى نفسه ، وريادة على ذلك فقد قام ألكسيوس بمكافأة زعماء
الجيوش بمبالغ طائلة من المال ، وخلع عليهم شتى أنواع السياب
الحربية المختلفة الأنواع ، ثم زاد فى كرمه فأرسل المواد الضرورية
لهم من غير ابطاء عليهم ، وأمر بجهيز سوق حافلة بالضائع من
أحلهم .

أراد قوادنا تنفيذ غرضهم ، فأروا من الملائم فرض الحصار على
المدينة من كل جوانبها كما قلنا وذلك بوضع القواد فى أماكن
استراتيجية راحوا يصبون منها وابلا من الأضرار على الأهالى ،
عساهم يحملونهم على الاستسلام دون مشقة نلقاها ، لذلك قسموا
منطقة السور الى أقسام متساوية ، عهدوا بكل قسم منها الى فريق
معين من الزعماء .

فرايط الدوق وأخواه بقواتهم فى الجانب السرفى .
أما القسم الشمالى من المدينة فقد وقف فيه بوهيموند بجيشه
ومعه تانكريد والقادة الذين تبعوه . والذين ذكرنا أسماءهم من قبل .
وكان على هؤلاء فى الترتيب كونت فلاندرز ، وأمير نورماندى
مع جندهما .
كما خصص الشطر الجنوبى لربمويد كونت تولوز ولأسقف
بوى بمن معهما .
وقام سيقن كونت شارنرز وبلوا بنصب معسكره وراءهم .
وكان معه هيج الكبير وبعض النبلاء الآخرين والرجال العظام .
ولما تم الاحداق تماما بالمدينة على هذه الصورة أجمع القادة
على وجوب الاسراع فى نصب الآلات اللارمة لفويص الأسوار ، وهى
الآلات المسماة بالآلات المحركة .
كذلك صدرت الأوامر بالتعجيل بساء آلات رمى المنجنيق
وقذف الأحجار التى توفر الحصول على المواد الملائمة لصعنا من
الغابات القريبة .

- ٥ -

وسار العمل سيرا حثيثا فيجىء بالفعلة الذين راحوا يتنافسون
فما بينهم فى انجاز ما بيدهم من عمل ، ليفرغوا لمهاجمة المدينة ،
وظلوا على هذه الصورة سبعة أسابيع ، وان دأبوا خلالها على مراوحة

المدينة بهجمانهم بين آن وآخر ، حتى جاء يوم من أيام كرههم طالعههم فيه نكد الطالع ، يوم فقدوا اثنين من محاربيهم الأشاوس جمعا بين ببل المحمد ورمعة المكانة ، هما : بلدوين الملقب بكالديرون ، وبلدوين الغننى ، فقد هلكا وهما يقا تلان أروع فال أثناء قصف المدينة ، اذ أصيب أحدهما بحجر أرداه صريعا ، وجاء الآخر سهم عرب أودى بحياته ، ومن ثم فرر العادة شس هجوم ثان ، ولكن هلك فيه وليم كونف فوريز ، وجالو دى ليل ، وهما يحاربان ببسالة ، وقد رميا بسهمين أصابا منهما مقنلا .

وأصاب المرص هنا أيضا دى بوسسا أحد نبلاء مملكة الفرنجة ، وكان مرضا عضالا أودى به ، فدب الذعر فى نفوس شعب الرب لهلاك هؤلاء المحاربين الذين سيعوا الى مواهم الأخير محاطين بالشرف والحرن العميق ، وكان موكب حنازهم موكبا حافلا لم بحر العادة بميله الا لمن تسنموا ذروة الشرف الرفيع .

- ٦ -

وحدث فى مرة أخرى أن كان جمع العادة منصرفين الى الحصار ، وقد بذلوا أنفسهم أصدق البذل فى ذلك ، فلم ينالوا قسطا من الراحة أو فلبلا من التمهل ، وراحوا يحاولون بكل ما فى وسعهم نصب آلاتهم على الأسوار ، عساهم يمكنون من شق طريق لأنفسهم يفتحون منه المدينة .

وانصرف كومت هارتمان وهنرى ديش - وهما نبيلان من مملكة التيوتون - وانصرف أتباعهما وحواشهما ومعاونتهم الى

نصب آلة صنعت - على أحسن ما تكون الصنعة - من جدوع البلوط التي سدوا بعضها الى بعض شدا متينا ، وأحاطوا الآلة بأعمده غلاظ ، وربب عسى أن نسع في جوفها عشرين من الفرسان الشجعان عهد اليهم بقويس السور ، فادا صار الفرسان في جوف الآلة آمنوا على أنفسهم حتى من أعتى الصخور الضحمة الى برميهم بها الآلات . لكن حين أسمدت هذه الآلة الى الجدار اشد الاهال في رميها من فوق رميا أسفر عن تحطمها تمام التحطيم ، بسبب ما اتهال عليها من القذائف الحجرية ، فنثرت أجزاءها بددا ، وهلك جميع من كانوا بداخلها فقد سحقوا سحقا فاشد حزن الناس على هؤلاء النلاء ، وعظم الكرب لصاع جهد أيام كثيره صرفوها في بساء تهدم عن آخره ، ولم يعد له أدنى فائدة ، وحزن الناس على مصير أولئك الشجعان الذين فطرت القلوب للنهاية الى اسهوا اليها ، ومع ذلك فما زال الأمل يراود النفوس ويهدد الجوانح ، لمفيهم الجارم بن هؤلاء الذين خاطروا بحياتهم في سبيل المسح في هذا العمل ؛ بما فازوا بحياة أسمى من هذه الحياه الدبا ، ولادراكهم الحقيقي أن هؤلاء الرجال الذين ماؤا في ذلك الفبال ماؤا شهداء ، لذلك فقد ازدروا هم أيضا الموت واسهانوا بالحياه الدنيا ، واسنمروا يواجهون سسى المخاطر بقلوب ثابتة الحنان ، ومن ثم فقد انفق الغاده على الاسمرار في مضاعفة رمى جميع أسوار المدينه ، وراح كل فائد يبذل قصارى جهده في تشديد الحصار - في قطاعه الدى وكل البه - شدة حملت بفيه الناس على النحدث بما كان مه . وسار العمل قدما ، وان كلفهم غالبا ، كما أن المعارك الموصولة والكمائن شبه الدائمه ، لم تدع لأهل البلد وقيا لالتقاط أنفاسهم .

ومع ذلك فان البحيرة المجاورة للمدينة كانت تقف أمام ما يعمله الصليبيون كأكبر عقبة أنفسدت عليهم جنى الثمرة المرجوة التي بذلوا من أحلها جهودهم المضنية ، هذا الى جانب ان هذه البحيرة كانت

مصدر راحة وطمأنينة للمحصورين الذين يسر لهم بركوبهم ماءها
أن يجلسوا ما يشاؤون من الطعام والمثوبة ثم انها كانت تمكنهم بين
آونة وأخرى من ادخال رؤوس كثيرة من الماشية الى المدينة بحب
بصر قوانمنا التي كانت تقف مكشوفة الأيدي عاجزة عن معهم
من ذلك .

- ٧ -

حينذاك اجتمع القادة أحباب الله للنظر في هذه المشكلة على
وجه الخصوص ، وتدبير أحسن الوسائل لمعالجتها ، واستقر الرأي
منهم أخيرا على ارسال رهط من بنهم الى البحر ، بحرسهم كوكبه من
الفرسان ، ووكلوا الى هذه الطائفة من الناس أن ينقلوا القوارب من
البابسة الى البحيرة مفككة أو كاملة ، مسنضملين في ذلك ما يسر
لهم من عربات الحمل والعجلات وغيرها من وسائل النقل . وراوا
أن عدم تنفيذ هذا الاجراء لابد أن يؤدي الى فشل جميع مجهودات
الصليبيين وضياع كل ما بذلوه من مال ولا تعود نمة جدوى لأي
شيء ما .

وخرج الرهط الموكل اليهم تنفيذ هذه الخطة فيسر السيد
طريقهم ، وكلاً محاولتهم برعايته ، اذ وجدوا السفن الراسية هناك
من الحجم المتوسط فحصلوا عليها في سهولة من الامبراطور ،
وجروها على اليابسة الى البحر بعد أن شدوا كل ثلاث عربات أو
أربع الى بعض حسب طول السفن التي يحاجونها ، وأمكن بهذا
النقل على مدى ليلة واحدة سحب هذه القوارب من البر الى

البحيرة ، مسافة سبعة أمال أو نريد ، بعد أن شدوا الحبال الى
أكتاف الرجال ورواب الجياد ، وكان من بينها سفن كبيرة الحجم
تسع الواحد منها ما بين خمسين ومائة مقاتل .

ولما تم سحب هذا الأسطول على البابسة ، وفرعوا من انزاله
الى البحيرة ، بلغ فرقة الجيش الصليبي غايتها ، وأسرع الى
الشاطئ ، وحى بالجدافين المهره والرجال المغنولى السواعد المشهود
لهم بالمهارة فى هذا الفن ، وسرعان ما املاأ قلوب الجميع بالهبة
فى اسنلائهم على المدينة .

ولاحظ أهل البلد وجود عدد من السفن أكبر مما اعتادوا
رؤيته ، فملكهم الدهشة ولم يدروا أهى بعض من الأسطول الذى
حاء لمساعدتهم أم انها من سفن العدو .

ثم أدركوا بعد حين أنها لنا ، قد نقلها رجالنا من البحر بعد
بدلهم مجهودات مضنية فى سحبها على اليابسة ، ثم أنزلوها الى
البحيرة فتملكتهم من الدهشة أكبرها من بأس الصليبيين ومهارتهم
اد يحجوا فى تعمد عمل يعبر من المنوس منه وشبه مسجبل .

- ٨ -

أدى ادخال السفن الصايبية الى سد معرج المدينه عن طريق
البحيرة ، ومن ثم نادى المنادى أن تحمل كل كتيبة سلاحها ،
وتقف بفبادة فائدها فى المكان المخصص لها ، كما نودى بتشديد
الضغط على أهل البلد ، وشن الهجوم العنيف على المدينة ، ومضى

كل فائد يشد من عرم رجاله ، ويحرج على رأسهم الى المعركة وهم في أكمل سلاح ، فلما سم ذلك كله حرب معركة لم تكن في الحسبان ، أبدع فيها رجالنا أما ابداع في استعمال الآلات ، مدللوا على شجاعتهم ، وبينما كان بعضهم منصرفا الى ملعمه الأسوار ، مضى غيرهم يقدفون الأحجار الصخمة على الحصون لضعف صمودها .

أما القسم الجنوبي الذي عهد به الى كوت بولوز لستده مركزا لهجماته فكان به برج يبرز كل برج سواء في ارتفاعه الشاهق وبساته المحكم ، وفيل ان زوجه فلج أرسلان كانت تبهم على مفرقة مه .



وظل الكوت بضعة أيام يبذل كل جهده لهدم هذا المرج فما أفلح ، بل بات مساعيه كلها بالفشل اد على الرغم من موالاته ربه بالصخور التي كانت تنصب عليه من آلين الا أن الباء الصلد أثبت أنه من المستحيل رحنة حجر واحد مه ، فلم ين ذلك الكوت عن مضاعفة الضغط عليه كما زاد من عدد الآلات التي أعدها لقصفه ، غير أن موالة قذفه بكسل الصخر والأحجار البقيلة أصابه بالشروخ فوهب مقاومته ، وانتهى الأمر أخيرا الى اصعافه ، فلما رأى العسكر هذا المنظر البهيج وثبوا فرحين وببة فوية عبروا بها الخندق المملوء بالماء حتى حاذوا الأسوار في محاولة منهم لتفويصه ، وكان كل منهم يشجع رفنفه على الهدم ، فان أعجزهم الهدم فلا أقل من فتح نفرة فيه .



كان الأهالى يدركون أن الحظر يهددهم ان انهيار البرج ، فانطلقوا يملؤون داخله بالأحجار والأسمنت حتى اذا زعرت الآلات أسواره أو قوضتها حل الجديد محل القديم ، وأصبح عائقا فى طريق الذين يحاولون فتح النقرة .

غير أن رجالنا نجحوا فى هذه الأثناء فى سبيت سمار مى الى السور من هجمات العدو ، ثم قبض النجاح لهم أخيرا بعد أن بدلوا من الجهد عاينه ، وبفضل عددهم الحربية ، ويمكنوا من فتح ثغرة كافية لادخال رجلين فى غير مشقه كما أخذ الأهالى فى الوقت ذاته يزدنون من معاومهم العيفة ضد عدوهم ، وراحوا يقابلون الحيلة بالحيلة ، ويواجهون القوة بقوة ملها ، وأظهروا روحا لا تقل عما عند الصليبين وحاربوا بكل ما يملكون ، وجاهدوا كأهم رجل واحد ، فرموا بالنشاب والمنجنيق وكل سلاح تسر بين أيديهم تسنى لهم العشور عليه ، وتكاتفوا فى رد العدو ونفادى الأهوال المصبة عليهم .

- ٩ -

كان من بين المدافعين عن السور والفائمين بصد القوات المهاجمة رجل تميز من بين الرجال بضخامة جسمانه وشدة بطشه ، وكان نسيج وحده بما تنطوى عليه نفسه من كراهية لنا لم يحاول سترها ، وقد أذاق هذا الرجل رجالنا كثيرا من العطب بما كان يرميهم به عن قوسه ، وقد غره ما كان يصادفه على الدوام من كبد لنا ، ولم يعف عن نيل رجالنا بفاحش القول يرميهم به ، فلم يطق جود فروى العظيم احتمال هذا العار ، فتتكب قوسا ضخما ، وتخبر مكانا مناسباً ، وسدد رميته فى دقة ، فأصاب السهم - وقد انطلق -

أحشاء هذا الحاسر فجندله صريحا على الارض قد فارقه روحه فلفى
الحراء الحق الذى محا الالهات الجمّة السى كان يصبها على
الصلبيين ، وكان رفاق هذا الزنيم قد نسجوا على مواله فوصعوا
حطة محكمه كل الاحكام فى هذا الجزء من السور ، غير أن فرعهم
من الدوى اسبىد بأكرهم فقللوا من رميهم رجالها بالسلاح ، وكفوا
عن ملاحقتهم بالاهانات ، على أن رحالا عرهم لم يعلموا بآ هذه
الكبة فابروا على تشاطهم فى الدفاع عن المدييه من أماكن أخرى
على طول السور من أخذهم الحدر الشديد ، ولم يكفوا عن اصابه
رجالها برموهم وهم على الأسوار والأبراج ومنركونهم ما بين جربج
وقتيال ، ولم يكفوا بأن بصصوا عليهم العار والريب والدهن وعبر
داك من المواد السى تؤهج النار ضراما ، بل رادوا على ذلك بأن راحوا
برمون النار المشعلة على آلاسا فنلف أكرها ، الا ما كان منها فى
أماكن سددت عليها الحراسة الدفقة .



أما رجالنا الذين كانوا فى الناحية الجنوبية فكانوا يشون
هجومهم العنيف على البرج ، واسنمروا على ذلك الحال من السباط
حتى البهانة ، لكنهم لما رأوا أنهم كلما نقبوا جزءا من السور نهارا
رمة العدو لئلا فانهم سرعان ما نراخوا فى جهودهم بنض الشئ ،
حتى اذا أيقنوا فشلهم التام كادوا أن يقلعوا عما هم فيه ، لولا أن
رحلا منهم شجاعا على المكانة - وهو فارس من جيش كونت نرمدى
قام بمحاولة بارعة ، مؤملا من ورائها أن يقنقى الآخرون منواله ،
فلس درعه ، ووضع خوذته على رأسه ، وعبر الخندق مستهينا بكل
خطر ، ودبا من السور مخذا من ترسه مجنا يقه العطب ، عادفا
من وراء ذلك أن يقوض البناء الحجرى الجديد الذى شيده الأهالى
فى الميسل ، وأن يعيد فتح الثغرة التى كانت موجودة فى اليوم

السابق ، فأصر أهل البلد أن يكون الهجوم الذى يشبوه من أعلى هجوما عنيفا ، فساءت محاولة [الفارس النورماندى] بالفشل اذا لم يجزؤ أحد من الصليبيين على القدوم لنجده ، سردى قنلا فد سحقه الفذائف الحجرية الضخمة ، فهلك حب السور على مشهد من رفاقه الذين وان كانوا راغبين أسد الرعه فى انقاذه ، الا أبهم كانوا أعجز ما نكونون على مده بأى عون من جانبهم ، فجذب المارقون الجنة الهامدة بالخطاطب الحديدية ، وقذفوا بها فيما وراء السور ، حسب طلب موضع سخرتهم المفعنة ، ثم جردوه فى النهاية من درعه وسلبوه حوذته ، وألقوا به الى قواننا فى الخارج ، فبكاه الناس وهم يسبون عليه وعلى شجاعته ، ثم دسوه بما يلبق به من الاحرام وسحبوا حنمانه فى قبره ، ولم يشكروا أبدا فى أن منته هذه كانت عظمت فى عين الرب ، وأن روحه — وقد لقب هذه الخاتمة النبيلة — سوف تكون مع أرواح الصفوة المختارين ، لأن الجميع — كما قيل اجمعوا على أن من يسقطون فى ساحة القتال سبوا فى لهم ما وعدوا به من حياة أبدية مجيدة بين القديسين .

- ١٠ -

قام فى هذه الأثناء رعاء جيوشنا الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الرب بعقد مؤتمر على مألوف عادتهم بعد ان اتضح لهم عدم احراز أى تقدم فى مشروعهم ، بل نسبوا أن واقعهم حرى على العكس مما رتبوا ، وأدركوا أنهم أضاعوا جهودهم وبعثوا نشاطهم سدى ، ومن ثم راحوا ينشاورون فيما بينهم بروح ملؤها الجدل فيما ينبغي عليهم عمله فى ظروفهم الراهنة هذه ، وبينما هم يقلبون الأمر على شتى

وجوهه بقلوب جازعة ، اذا برجل لمباردى يأنيهم ويبثهم أنه لاحظ
ألا جدوى من وراء جمع مشاريع مهندسيهم ، وان جهدهم داهب
ادراج الرياح ، وذكر لهم ما هو عليه من مهاره فائقه في هذه
الصنعة . وبين لهم أنهم لو وفروا له المواد اللارمه والمال الكافي
لابمام العمل بأخذونه مما عندهم في حراسهم العامه فانه بمشنة
الرب منحره في ايام فلائل معدودات وأنه مدمر البرج . وفانح فيه
غره واسعه ، ان بشأ الجميع ان يفحموه منها لم يعسر ذلك
عليهم . وأكد لهم أنه منم ذلك العمل دون أن يفقد رجلا واحدا ،
فأمدوه بما يكفي نغفاه مما أخذوه من الأموال العامة . هذا بالاضافه
الى تحصيصهم مبلغا مناسباً مكافأة له على جهده .

وجيء له بالمواد التي أرادها ، فعمل آلة رائعه الصنع صمم
على هيئة بسطيع من بداخلها - رغم مقاومه العدو - أن يعلقوها الى
الرح من غير خطر يهددهم . فان دخلوها أحصمهم وتمكنوا من مباعه
عملهم في تقويض المباني وهم آمنون . لا حوف عليهم .

وأنجز الرجل صنع هذه الآلة كما أرادها ، فلما ضمت أجزاءها
بعضها الى بعض وتم تحصينها من كل النواحي حسبما أشار
[صانعها اللومباردى] دخلها هو مع رهط من الرجال الشجعان ،
وبدأوا عملهم في تقويض المباني وهم آمنون ، لا خوف عليهم .
ثم دفع القوم الآلة بمن في داخلها من الصاع ، حتى اجتازت الخندق
ثم سنوها الى الأسوار في براعة ومهارة فائقين .

على أن الأهالي لم يفارقهم اندفاعهم الذي طبعوا عليه ، فراحوا
يرمون الآلة من عل ، ويقذفونهم باليران المسنعة فما أجدتهم هذه
القذائف ولا أضرت بالآلة ، ولا كان منها شر عليها لأن الانحدار
الشديد لكل من السقف وجوانب الآلة حال بين هذه القذائف وبين

آن تسمر حيب رميم . فسلم كل من كان فى الداخل من الرجال ، وسرعان ما أخذت ثمة الأعداء نزع فى أساليبهم السليديه . وكان اعجابهم بعفوية المخرع وقوة الآلة ، اعجابا بالغيا لما اتضح من فسل كل حبله حالها .

كان الدين بداخل هذا المحبب آمين تماما من مكائد العدو ، ومن ثم ظلوا يبايعون عملهم فى تقويض البرج وفى نقب السور بكل ما أوتوا من قوة ، ولم يكد الصدع يام بحجر الأساس فيحمله حتى وضعوا مكانه العروق والأعمدة الخشبية خوفا من أن ينهار ما دوى السور على الآلة فيسحقها سحقا اذا ما نزع الأساس اذا لا تعود الآلة فادرة على تحمل كتلة ضخمة كهذه الكله ان هى انهارت عليها .

ولما اصبح أن البرج قد ذهب بما يكفى لسقوطه ، اسعوا البيران فى الدعاثم الى يعوم عليها الحائط الآيل للسقوط . وجيء أيضا بمواد ملهبة تعمل على بقاء النار مشتعلة على الدوام ، واذا ذاك ترك العمال الآله وعادروها مسرعين الى رفاقهم ، حتى اذا انتصف الليل أو كاد أنت النار على الأعمدة الخشبية فصرىها هسيما ، وانهار الرج وصحب انهياره دوى كأنه الرعد ، أثار فى الناس حمىا - حتى من كانوا على مسافة قاصدة - فرعا وحفب له قلوبهم ، ونبه صوب انهياره الجند فهوا الى أسلحتهم مجيعين العزم على افحام المدببة عنوة .

- ١١ -

طلب روجة فليج أرسلان - حتى هزم الابطحة - صابرة صبرا شديدا على بحمل أهوال الحصار ، أما الآن وقد بلغ العزم منها غايته بسبب انهيار البرج فقد أمرت - كعادة النساء - بأعداد السفن

وصحبت جواربها وكل أهل بيها ، وانقلب سرا من المدينة عازمه
على الناس مكان يكون أكبر أمنا وسلامة ، لكن المسلمين كانوا
قد أقاموا حراسا فى القوارب الراسبه بالبحيرة لمنع المحصورين من
الدخول أو الخروج ، واد كان هؤلاء الحراس رجالا عقاء قد أعدوا
لكل سىء عدته ، ربقطين أشد البعظه فى مرافبه أنه حركة فهد بكسف
لهم أمر هذه السنده وهى على وسك الهروب ، فامسكوها ومعها
ولداها الصغيران وساروا بهم الى القاده الذين أمروا بوضعها وولديها
تحت الحراسة الكسفة .

★★★

أما الأهالى فقد مسهم العرع الشديد بسبب الغره التى يمكن
عدوهم من فتحها ، وبسبب القبض على سنده لبا هذه الخطوره ،
وتملكهم الأس القابل من قدرهم ، فأرسلوا فى لحطهم وفاده الى
الرعاء يلتمسون منهم منحهم هدنه لمرتب خطه الاسسلام .

ولما كان نايكيوس الذى تكلم عنه من قبل رجلا سديد المكر
كبير الدهاء ، فقد أدرك أن الأهالى لابد أن يحلوا عن دفاعهم عن
المدينة ، ومن تم دعا كبار رجال المدينة الى لقاء معه بصحبه فنه أن
يسنسلمو للامبراطور احلالا له ، كما أشار الى ان حش التحاح
الواقف الآن قبالة المدسه مشعول هذه الملحطه باحار أمور أخرى ،
وذكر لهم أن هؤلاء الرجال الذين كان اشتركهم فى الحصان عن
طريق الصدفة البحة قد بعدوا ساما عن حطهم الرئيسيه ، كما
أكد لهم أن الامبراطور سوف يقف على الدوام الى جانبهم (وليس
الى جانب الصليبيين) ، وأن فى قدرتهم الاعتماد النام على رحمة
الجديرة بشكرهم ، وحنذاك يحق لهم أن يأملوا أن تكون الأمور
أكثر يسرا عليهم وألقى اليهم أن الخير لهم أن يسسلمو - ادا

استسلموا - الى الامبراطور وأن يؤثره على قوم مجهولين ،
وأفهمهم ان الاستسلام الذى لا مفر منه يجب أن يكون للامبراطور
الذى سوف يمكن اذ داك - بمعونتهم من اسروداد المدينه السى
انتزع منه ظلما مد قريب بسبب بطش الأبراك .

آنت هذه الحجج القويه وأمالها اكلها فى حمل الأهالى
المجمعين على موافقه [ناسكيوس على ما طلبه] مسرطين عليه صما
سلامتهم ، فلما استجاب الى ما طلبوه منه وما اسرطوه عليه فقد
آثروا أن يسلموا المدينه وأنفسهم وكل ما ملك أيديهم الى
الامبراطور .



لم يكن هذا العرض مرفوضا أيضا من جانب العادة الصليبيين
نظرا لأنهم كانوا فى الواقع ينطلقون الى حامة تختلف كل الاختلاف
عن هذه الحامة ، ولم يكن من عرصهم أن يعيموا فى نيفية أطول
مما أفاموا ، ومع ذلك فقد طمعوا أن يطبق الاتفاق [المبرم بينهم
وبين ألكسوس] فندفع عنائم المدينه وأسلابها الى الجسس تعويضا
له عن المشاق السى كابدها والحسائر السى مى بها ونجملها .

على أن [الفاده اللابى] اسرطوا - قبل أن ييجوا كل
ما يعلو بالاستسلام . وقبل أن يوافقوا على ما قبه بحقيق رغبات
الأهالى فى هذا الصدد - أقول انهم اسرطوا ان يعود الى الجسس
جميع اخوابهم من عسكر بطرس الناسك ، الذين أسرهم قلعج أرسلان
فى قلعه سيفنوت وكذلك من أسرهم الأهالى أثناء الحصار .

لذلك تم موافقه القادة وأهل المعسكر على انفاذ رسل من
قلعهم الى الامبراطور ، يحملون اليه الرسالة النالبة يقولون له فيها :

« لقد أخلص الجيش الصليبي وفواده السه في حصار بعله
محبه منهم في المسيح ، واستطاعوا بجهودهم الصادقة الدؤوبه ،
وبعون الرب أن برعموا تلك المدينة على الحصوع ، واننا لنلمس
من كريم حلالكم أن لا تتأخروا عن ارسال بعض وحوه رجالكم الى
تلك الناحه ، على رأس قوة كافية لتسلم هذه المدينة الى استسلم
تعدرا منها لاسمكم » .

« وعلى الاهالى ان يلزموا هم أيضا بارجاع من في أيديهم
من الأسرى وهم كيرون ، ذلك لأننا راعبون في الرجل في أعقاب
تسلم حلالكم المدينة ، ومعزومون مناعة السر في طريق الحج
الدى اعزمناه بفضل الله » .

- ١٢ -

ملات هذه الرسالة قلب الامبراطور عبطه ، فأعذ في ساعه
الى نيفسه رهطا اختارهم من حاشيته ونفائه وأهل الحره ممن
تستطع الاعتماد عليهم في تسليم المدينة والقيام بتحصينها ، وكلفهم
بأن يحملوا اليه - كملك خاص له دون سواء - كل ما غم من
الأسرى من ذهب وفضة وشتى أنواع المناع ، كما أرسل الى القادة
هدايا ضخمة طمعا منه في كسب ودهم ، وزاد فأزجى اليهم شكره
الخاص - كتابة وقولا - على خدماتهم الجليلة والعطاء العظم الذى
حصلت عليه الامبراطورية بفصل جهودهم .



على أن الحق بلغ غايه مداه بعامة الجند ومن دونهم ، لما
بذلوه هم أيضا من أقصى الجهد في حصار المدينة : الأمر الذى كانوا

يتوقعون معه أن تكون لهم وحدهم ودون سواهم هذه العناثم التي استولوا عليها من الأسرى ، وما عمروا عليه من البضائع ، وما رخرت به المخازن الموجودة في المدينة دابها ، فيعوصهم ذلك كله عن حصارهم لأعدائهم ، لكن بين لهم الآن أنهم لم يجزوا الجزاء الأوفى على ما تكبدوه من المشاق فقد أصبح لهم ما عرم عليه الامبراطور من احتجاز كل شيء لنفسه ولخزائمه الخاصة ، أعشى الغنائم التي نص الاتفاق المبرم بينهم وبين الامبراطور على أن تكون عنيمة مساعه . فقدموا على ما بذلوا من جهد ، ونجلى لهم الآن أن كل المال الذي أنفقوه قد ضاع بندا .

كذلك دأب العاده على انهام الامبراطور [الكسبوس كومبين] بانه نكب عهده . وخالف بصوص الاتفاقية التي نصت شروطها المبرمه بسهم وبسه على أنهم اذا استولوا أبناء رحفهم كلهم معا على بلاد الشام بارساد الرب على أى مديسه من المدن التي كانت تابعة لامراطوريه وحب عليهم ردها اليه هي وما يلحقها من البواحي ، أما الغنائم والأسلاب وما شاكلها فنؤول من غير حبال الى العسكر مكافأه لهم على جهودهم ، ويعويضا عن النعاب التي تكبدوها .



بادر الصليبيون الى اخراج مرزفة الامبراطور من المديسه وردوهم الى مولاهم صفر الأيدي ، وما كان لأحد أن يلومهم على هذا العمل الذي قاموا به ، بل اللوم يكون في التزامهم الوفاء بالعهد مع رجل نقض عهده معهم ، غير أنه لما كان الخوف من الرب بملا جوانحهم ، ولما كانت الرغبة في الاسراع بانجار عمل أجل خطرا من هذا وأبلغ أهمية ملأ نفوسهم ، ولما كان امام حجبتهم هو مقصودهم فقد كموا مشاعرهم الحقيقية في صدورهم حفاظا منهم على الصالح العام .

ثم حاولوا بكل ما فيهم الرقيفة بهدنة مشاعر العامة الدين كان
سخطهم شديدا على هذه المعاملة التي عاملهم بها الامبراطور .

★ ★ ★

ولما دخل المدينة الرسل الاعريق الدين اوفدهم الامبراطور
لاسلامها وأخذوا سلاح أهلها وسلموا البلد منهم مضوا الى المعسكر
ووقعوا أمام العاده بأعبارهم - أى الرسل - مسئولين عن حياة
الأهالى وسلامتهم مصرحي بأن الأهالى هم الدين أعادوا المدينة الى
الامراطور ، وانهم استأمنوه على أنفسهم ، وأسلموه رقابهم .

بعد ان استسلمت مديته بعيه على هذه الصورة ، أقيمت فيها
فوه كافيّة لحمايتها ، وسيرت بعدئذ امرأة قليج أرسلان وولداها ،
وطائفة كبيره من الأسرى الى انقسطنطينية ، فلم يكف الامبراطور
بعاملتهم بالرحمة ، بل زاد فبالغ في الاحسان اليهم واکرامهم ؛ إذ
لم تكذ تنفسي أيام قلائل على ذلك الأمر . حتى رد عليهم حريتهم
التي كانوا يتمتعون بها من قبل ، ويقال ان الدافع له على ذلك
هو ما كان يرأوده من الأمل في اكتساب موده الترك ، وما كان
يطمح فيه من تحويلهم ضدنا من غير جهد يبذل ، وما كان يقدره
من أن قواننا لو حاصرت أى مدينة أخرى فلن يخامر أهل تلك
المدينة خوف منه ، أن هم استسلموا له على هذه الصورة التي
استسلمت له بها مدينة نيقية .

وكان الاستيلاء على مدينة نيقية في العشرين من يونيو من
مولد السيد .

لم يكد الحصار يرفع عن بيعة حتى أصدر القائد أمرهم بمابعه السير ، فربب العسكر مناعهم ، وحرحت كنائبهم يوم التاسع والبتشرين من يونيو ، فى وحده مماسكه ، وظلوا سائرين لمدة يومين ، فلما كانت الليلة الثانية اتفقوا على النزول عند جسر معين لوفرة الماء عنده ، فافاموا هناك ، حتى اذا أهلب طلائع العجر الوليد وان كان الطلام لا يرال بمد رواجه على الكون تأهبوا للرحيل مره أخرى فعبروا الجسر ، وهبا حبس اما صدقه أو بانفاق من الفاده - أن مضى كل منهم بكتيبه معارفا غيره ، وادا ببوهيموند كونت نورماندى، وسيفن كوت بلوا ، وناكريه وهيج كونت سنن بول ييمون وجوههم ناحية السيار ، وساروا ذلك اليوم وحدهم لس معهم غرهم ، حتى انتهى بهم السر الى واد يسمى «بجورجون» فعسكروا به حوالى الساعة التاسعه ، ونزلوا عند ضفاف نبع جار . كثير الكلا ، وافر المرعى ، وأقاموا الحرس حول العسكر ، ونعموا ببللة هادئة رغم انشغال بالهم .

★★★

أما القادة الآخرون فقد ابجهوا يمينا ضاربين معسكرهم - بعد مسرة يوم - فى ناحية لا يكاد يفصلهم فيها عن غيرهم سوى ميلين ، وقد توفر لهم هنا أيضا المرعى الطيب والماء الغزير .

فى هذه الأثناء كان قلح أرسلان - وفد أهله الخطب الذى نزل به - دائم التفكير فيما دهمه على أيدي الصليبين من ضماح بلك المديه الرائعة من قبضته ، وما كان من فقده لزوحته والصبيين ، فاشتعلت نيران النار فى قلبه وأجمع العزم - ان أمكن - على نصب كمين لعدوه ، حينذاك حشد عددا كبيرا من العسكر ، منعبا بهم

الجيش الذى اعطى الى اليسار نفس خطاه ، وكاتب عبوه تأبىه
على الدوام بأخبار حركات العسكر الذى يسبقه ويليه لاجسام
الفرصة الملائمة لماعسهم ، وسرعان ما أعلمه كشافه بانقسام
الجيش سطرين ، وأن أحريهما اليه أضعفهما وأقلهما عددا ، وأذكر
فى الحال أن الفرصة التى ينشدها مند وفن طويل قد وافته منزل
من الحمل بجيشه الذى لا يحصيه العد .

★★★

وما كاد الصياء يسرع فى بديده عبس الظلام التمسح حتى بين
للمراقبين ذلك لأن الجيش الصليبي كان قد وصح رحالا يرسدون
من بعد مكائد العدو ، ويعطون الاساره فى الوقت المناسب ،
فأعطوها ، فدفع الطبول فى الحال محذره من اقترابه ، فهب
العسكر جمعهم الى سلاحهم وقد بههم دق الطبول ونداء
المنادين ، وأسرجوا حولهم واستعدوا للالحام فما قرب من
النواحي ، وكان ذلك فى الصباح الباكر من أول يوليو ، واصطط
الصفوف لنقال ، سواء منهم أمراء المثين أو أمراء الحمسين ، ويقدم
كل واحد منهم على رأس جماعه ، أما الزعماء فكانت أماكنهم فى
أحنحة المشاة .

ولما كانوا يريدون أن يكون تقدم القوات للعمال من غير عائق
يعوقها ، فقد أنزلوا فى غابات البوص المتكاثف القريبة منهم جميع
العجزة والمسنين من الرجال والنساء ، والآلاف المؤلفة ممن لا جدوى
ترنجى منهم فى المعركة وحملوا معهم كل ماعسهم ، وكان هذا المكان
الذى اخناروه ، والذى تحميه العربات الخفيفة وغيرها من مراكب
النقل ملاذا آمينا ، وبصعوا بالرسول الى كئائب الجيش الأخرى التى
دفعها الطبش للانفصال عنهم حاملين اليهم نبأ ما هم فيه من حرج
وضيق ويحونهم على المجئ اليهم على جناح السرعة لتجديتهم .

ومن ثم سم احاده بنظم كل شئ في معسكر بوهيموند وفق ما يعصى به أصول الحرب ، ولما فارب الساعه الثانيه بهارا ظهر قلع أرسلان ، يفود جماعة لا يحصنها العد من البرك . فاسولت الدهشه على حششا ، اد لم ير في هذا الحشد الكسف الذى قيل انه حاور مائى الف معادل سوى الجماله . على حين كانت قواتنا - كما قبل - سأل من حليط من العرسان والمساءة .

- ١٤ -

حين أخذ جيش البرك فى الاصراب بعالت فى المعسكر ضجه هائله لم يعد أحد يدرك معها أو يسئبن منها كلمة مما يقال ، فلم يكن سسمع الا صليل السلاح ، وصهيل الحبل ، وقرع الطول ونفخ الأبواق . وهافات المعسكر الحماسيه التى بعالت حتى حل انها ببلغ عيان السماء . مما أوقع الفزع فى خلوب من لم يالفوا شهود مل هذا الموقف .

وأحدب صفوف البرك برمى بنفسها على فواننا ، ممطرة اياها بوابل هبان من السهام ، كأنها المطر الدفاى فسدت الأفق ، حتى انه ما من أحد من المحاربين الصليبيين الا وقد أصابه جرح لنوالى السهام بعضها فى آبر بعض ، وكانت كل رهبة أكف من سابقتها ، فان فات سهم واحدا أصابه التالى بحرح واذا كان هذا الأسلوب من القتال عرييا على رحالتنا وليس مألوفا عندهم ، فقد صعبت عليهم مواجهته . وأخذت خيولهم سهاوى بحهم وأمام أعينهم ، وهم عاجزون عن نجدتها اذ كانوا هم أنفسهم مرمى صربات تأتيهم من حيث لا يحتسبون ، ومن نواح سدت عليهم فيها مسالك الفرار ، ومع ذلك فقد استمروا يقاثلون خصومهم بالسيوف والحراب ، وبجاهلوتهم دفعا الى الوراء ، حتى اذا عجز الترك عن الصمود بسب

شده الغارة عليهم ، فسحوا صغوفهم عمدا لتجنب الالتحام ، فجارت الحيلة على الصليبيين اد لم يجدوا واحدا يصدى لهم ، ورجعوا الى مواقعهم فى الخلف دون احراز النجاح ، وحسناك عاد المرك ثانيه فصموا صغوفهم ، وكروا على رجالا صابيين عليهم سيلا جارفا من السهام والنشاب ، حتى قل أن اسطاع صليبي واحد فى هذه اللحظه النجاه من غير حراح خطيره نافذه . وقد قاوموا ما وسعهم المعاومه ، يحميهم ما عليهم من الدروع والرديات والخود ، ولكن سافطت الجياد على الأرض ، ووقع من لا سلاح معه واخنلط الحابل بالنابل .

ولقد سقط فى هذه المعركة فراهه ألفين من وجوه الفرساى والمنساء على السواء ، كان من بينهم « ولجم » اس المركير الطيب وأحو نانكرند ، وكان شابا ببسر يومه بما سيكون عليه فى غده ، ذلك أنه بسما كان مسنبسلا فى الدفاع عن جماعه ، ادا سبهم عرب أصابه فصرعه .

كذلك لقي روبرت أوف باريس نهايه بنفس الطريقة ، وكان محاربا بارعا مشهودا له بالكفاءه .

بل ان نانكرند دانه – الذى لم تكن بكنرت بالحياه ولا يعا بمكانته السامبه – كاد أن يكون هو نفسه من الهالكين ، وكان الموت منه فاب قوسين أو أدنى ، اد طوح بنفسه فى معمان القتال ، صابا على العدو أهوال الدمار ، ولكنه نجا بفضل ما بذله بوهمود من جهد فانزعه من برائن الموت رغم أنه . واسمرت كفه العدو بزداد رجحانا ، على حين شالت كفه الصليبيين وأخذت شوكتهم فى الصيعف ، واذا ذلك شرع الترك فى مهاجمنا بالسيوف ، وضيق الخناق علنا ، وهم أقرب ما يكونون لنا ، حتى لم تعد أية حدود

نرتجى من الفسى المدلاه من بجادها ، فاصطربب الصغوف ، واربد
المجاربون الى حب بوجد أمعتهم وأحملهم فى الغاباب الكيفه
المشابكه ، وراحوا يتزاحمون حول العرباب ، أملا فى أن بجدوا
شبتا من الحمابيه .

- ١٥ -

فى هذه الاباء البى كان حبش الاياب فيها يحارب بعب عبء
الطروف ، والبى أخذت فيها فوة بوهموب فى الضعب والبلاشى ،
حب لبجدهم رهط من احوابهم الأساس العظام ، بطالع فبهم
دوى حودفوى ، وكوب ريموب ، وهبج العطب . وبلدوين أساس
أحا الدوى وسواهم من العادة الذين أخلصوا الببه لله وكانوا قد
خلعوا وراهم فى المعسكر من لا ظهر عندهم ىركبوه ، ونركوهم مع
سبنى أنواع الأمعة ، أما هم فقد هبوا نحدة على رأس أربعين ألف
مقال من العرسان ومعهم أحسن السلاح . فبت فدومهم الحماسة
السديدة فى رجال بوهموبند الذين كانوا على وشك التسلبم ، فلما
عاودهم نأسهم ، عادوا الى ساحة المعركة أشوق ما يكونون لأخذ
النار ، النار ، انعاما لما نزل بهم من المصائب ومسح عار هزيمتهم
السابقه ، وكروا على العدو كرة ضاربة ، وأجادوا الضرب سبوفهم
بأيد لا يعرف الكلل البها طريقه وما لبثوا قبللا الا وقد هزموا الأعداء
الذين لم يعودوا قادرين على الصمود ، والذين كانوا يخافونهم أسد
الخوف ، ويحبسونهم أشد منهم بأسا .

★★★

وفد راح أسقف بوى — مع رهط من مساعديه فى نفس أسقفبيه —
بقوى عزائم الناس ويعظمهم ويشجع القادة ألا يتراخوا فى قتالهم

أخذوا بدم من هلك من اخوانهم ، مؤكدا لهم أن النصر لا يد مسعهم .
من السماء ، ودعاهم الا يمكنوا خصوم الله وأعداء اسم المسيح من
التباهى بأنهم أهلكوا المؤمنين . وظل رجال الرب يحنون الناس على
القبال بهذه الكلمات وأمنالها من عبارات الشجيع ، وبسوا فيهم
الشجاعة .

ومن ثم شن الصليبيون فى همة لم يعهد فيهم س قبل ،
هجوموا عسفا سلوا فيه سيوفهم على الأعداء ، مغربين صفوفهم حتى
حملوهم على الفرار ، وأعملوا فيهم مذبحة شرسة ، كما راحوا يعقبون
الفارين فى اصرار وعزم مسافة ثلاثة أو أربعة أمال الى ما وراء
معسكرهم الذى كان يقوم فوق واد شديد الخصوبة ، وكان القتل
فيهم فطيعا .

وهكذا تبدد الترك أمام عدوهم مكبدين خسائر فادحة فى
الأرواح . ثم عاد الصليبيون الى معسكر حصومهم فجاءوا منه ببعض
من قومهم [اللابى] ممن كان العدو قد أسره ، وعروا فى هذا
المعسكر على كميات كبيرة من الذهب والعصا ، كما اسولوا على
كثير من الحمير وبغال الحمل وفوافل الجمال (وهى دواب لم يسس
لعومما رؤسها من قبل) كما اسولوا على بعض الخيل ووجدوا فيما
وجدوا شسى أنواع الخيم والفساطيط المختلفة الألوان ، فأخذوا هذه
المغانم الغالية كلها وقفلوا راجعين بها الى معسكرهم برورف عليهم
راياب البصر ومحملين بأعلى الأسلاب ، وسائقين أمامهم الدواب
والعبيد .

ويقال ان العدو فقد فى هذا اليوم ما يعرب من ثلاثة آلاف رجل
من رجاله الأفوياء البارزين من أصحاب المكانة الرفعة فى قومهم ،
كما سقط فى تلك المعركة أربعة آلاف من عامنا ، ومن الطبقات
الدنيا من الرجال والنساء على السواء .

ويقول أهل السن - اعتمادا منهم على ما تعيه ذاكرتهم - أنه لم يهلك من وجوه قومنا سوى اثنين فقط ، ولقد حرب الموقعة يوم أول يولنو ، وكان الحظ فيها بين صعود وهبوط كما أنها حرت بين هوات لا بكافىء أحد الجانبين فيها الآخر فى العدد ولا فى العدد ، واستمررت من الساعة الساعة حتى الساعة من ذلك اليوم وقبل ان عدد الفرسان وحدهم الدين أحصوا فى جيش قلع أرسلان كان يربو على مائة ألف وخمسين ألفا ، أما فرسان الصليبيين الذين شاركوا فى هذه المعركة فقد قاربوا الخمسين ألفا .

ولما فرغ الجيش من هذا النصر العشيب الذى هبأه له العناية الإلهية انضم رجاله بعضهم الى بعض مره تابه ، وأنجب لهم فرسه راحة قصيرة صرفوها فى مداواة جراحهم ، وأقاموا ثلاثة أيام سونا وسط المراعى الخضراء مستجمين معنيين بجادهم ، وزاد فى رفاهيتهم جميعا ما خلعه العدو وراءه رغم ارادته من متونه وأحمال ضخمة من المأكولات الكيرة .



وطهر قوادما العظام ظهورا بيبا فى هذه الأثرة الخطيرة ، كما وابت الفرصة من هم دونهم لكسب المجد المؤمل ، لاسبما بلنديين بورج وبوماس لافير ، ورينو دى بوفيه ، وجالو دى شوموت ، وحاسنون دى بيرن وجيرارد دى شيريزى .

وسمر منذ هذا اليوم بالاجماع أن ننضم الكنائس بعضها الى جانب البعض وتنوحد ، وأن نسير مترافقة كالجسد الواحد حتى ينقسموا جميعا لاقبال الحظ اذ يقبل ، وادباره اذ يدبر .

أقام المحاربين مسجمن في هذه الساحية ثلاثة أيام كما فدا
وكانوا هم وحادهم أحوج ما يكونون لهذه الراحة ، ثم لما ناداهم
النكير استعدوا مرة أخرى لمابعه رحلة حجهم التي بدأوها ، وكان
طريقهم الذي سلكوه يمر عبر كل بلاد بسينبا الى بسنديا ، وقد
دفعهم رغبتهم في اخضرار زحهم الى الترول عن عر فصد في افلم
جاف ، يكاد يكون بأكمله حلوا من الماء ، ولما صاروا فرسه للخطرين
الجسيمين : الظمأ وسدة فيظ يوليو كما هي العادة ، فقد أخذت أعداد
كبيرة منهم في الهرب ، وتقول الروايات أنه هلك يوم ذاك أكثر من
خمسمائة من الحسنين من شدة العطس والحر ، ومضى الرواية
بقول ان الحوامل من النساء طرحن ما في بطونهن من شدة الظمأ
والحر المهلك ، وكان ذلك حدثا لم يسجل البارخ له مسلا .

أما النساء اللاتي كن بعائنين غصص الكرب السديد ، فقد حلفن
أطفالهن في المعسكر ، منهم الأبناء ومنهم الموي ، وفيهم من يعاون
سكرات الموب ، ودفع الرحمة الانسانية غيرهن الى احتضان أطفالهن
في صدورهن ، عبر آبهات أن يراهن الرحال وهن سطلقن
في الطرقات شبه عاريات ، لا يشغل بالهن شيء سوى خطر الموب
المفرع ، عبر حافلات بأنوثتهن .



ولم يحد الرحال فنيلا قوبهم الجنمانية الهائلة ، فأعمى عليهم
من وطأة الحر ، ومما بذلوه من جهد ، فراحوا يلهون بأفواه مفتوحة ،
وأنوف نثلف على سمة ريح ، ويسعون لالتماس الرطوبة ، عساه
تخفف بعض ما هم فيه من ظمأ ، لكنهم لم يحدوا شيئا مما ننسدونه .

لم يصبر مكابده هذه الأهوال على الآدميين وحدهم ، بل تعدى بهم
أيضا إلى دوابهم التي تحمل ماعهم فعصمهم كل بهيمة داب طلب
كاتب سنجب لكل ما يؤمر به ، أما الطيور الصغيرة والصقور
المحلفة في السماء فقد لفظت أنفاسها ، كما أن البزاة التي كان
البلابل يجمعون بها أثناء خروجهم للصيد والعص فقد ماتت هي
الأخرى في أيدي أصحابها ، على الرغم من الرعاية القصوى التي
يجبونها بها .

وأما الكلاب ذات حاسة الشم النافذة والمدربه على الصيد ،
والحيوانات الأليفة فقد هجرت أصحابها الذين سبعمهم ، وراح
يسافط على طول الطريق وهي تلهب من الظمأ ، وكان أسد الأشياء
ايلاها للساداة وأوجعها لبفوسهم ، هي أن جباههم الصافات - وهي
رفقهم في حروبهم وكان عليها كل اعتمادهم في طلبهم السلامة
لأنفسهم والتي حققت الفخر لنفسها بقوائمها الوثابة وأساسها
الرافة - هوب هي الأخرى نافعة كما نفقت دواب الحمل العاده بحب
وطأه الحرارة والظمأ .

وأجبرا بفضل سع كل الرحمة ورب السلوى ، فأنقذ هؤلاء الحجاج
المعذبين الطماء اذ قادهم إلى نهر كانوا أحوج ما يكونون إليه وقد
طال بحمهم عنه ، فتدافعوا إلى مائه في لهفة مجنونة ، وراح كل منهم
يراحم الآخر في الوصول إليه . لكنهم بعمورهم على هذا الماء الذي
طال سوفهم إليه سقطوا في خطر أكبر مما هم فيه ، حيب أفللوا
يعبون منه عبا ، ولا يستطيعون مسك أنفسهم عن السرب ، فكان
ذلك خطأ منهم في هذه الحال ، اذ كانت كثرة الماء تحمل لهم الهلاك ،
الذي كانوا قد نجوا منه من قبل ، ولم يقف الأمر عند هلاك الآدميين
بل نفى كبر من دوابهم بنفس الأسلوب .

ثم شاعت عناية الرب أخبرا أن تنقذهم من هذه الإخطار فجاءوا

الى ناحية شديدة الخصب والماء قرب أنطاكية الصغرى ، عاصمه
بسنديا ، وكانت من أجمل الواحي لما فيها من العنواب والمراعى ،
فضربوا مخيمانهم فى حقولها الحصراء .

- ١٧ -

وحدث لأول مرة فى هذا الموضع أن عمد بعض الرعماء الى
الانفصال بعوانهم عن الجيش الرئيسى . وكان أول من فعل ذلك
منهم بلدوين أخو الدوق ، وانضم اليه بطرس كونت سننناى وأخوه
رينارد كونت تول ، وبلدوين دى بورج ، وحلبرت دى موب كلتر،
واسمى متحجبوا معهم سيمائة فارس وجماعة من الجند المشاه .

أما ناني القاده الدين انفصلوا عن الجيش فكان ناكريد ومي
صحيه ريسارد من برسباس ، وروبرت أوف اترى على رأس
فوه كبيرة فوامها خمسمائة فارس وبعض الجند المشاه .

كان يحرك هؤلاء الفرسان جميعا غرض واحد لا يخلفون فيه،
ألا وهو استطلاع الطرق واستكشاف الاقليم المجاور . والحب
عما يجدونه ، وكان عليهم بعد ذلك أن يبعثوا الى الزعماء الذين
أرسلوهم جميعا بتقارير عن كل ما حدث بالنسبة للزمان والمكان ،
وأن الجيش يمكنه متابعة الزحف فى سلام وطمأنينة ، وكابوا فى
بدابة مغادرتهم المعسكر ملازمين للطريق الرئيسى فمروا ببعض المدن
المجاورة ومنها فوننة وهرقلة ، ثم عرجوا بعدئذ يمسا ، وأخذوا
يحسون الخطى ناحية الساحل .

فى هذه الأثناء استهوى الدوق والقاده الآخرين من ظلوا فى
المعسكر حسن منظر الواحي المحطة بهم وبهاؤها ، وجذب انسابهم
قرب المكان من الغابات ، فانطلقوا الى واحدة منها فى طلب الصند
وذلك لانيهم أحسوا وهم فى عمرة انسغالهم بالعمل المضى بحاحيهم
الى الرويح عن أنفسهم بعض السئ ، وودوا لو خلوا وراءهم - ولو
لفرة قصره - ما يشغل بالهم من أمور كانت تقلقهم على الدوام ،
فلما دخلوا الغابة استلقت انتباههم كبير من مباهاجها ، ففرقت بهم
المسالك ، ولاقوا مخاطر حمة .

فأما الدوق الذى خرج للغابة التماسا للرياضة وللهو ، فقد
واجه على غير انتظار دبا بشح المطر يأهب ليعض على رجل من
الفراء الحجاج يعمل خطابا فاصدا امراسه ، وعسا كانت
مجاهدة الرجل فى العثور على ملجأ يهرب اليه فرارا من الدب . فلم
يسعه الا الصراح بصوب عال يسأل المعوة فى محنه الخطيرة البى
هو فيها ، وشاء العدر أن يظهر فى هذه اللحظة الدوق الذى أسفى
على رفيقه المكوب ، فاندفع لنجدته ، فما كاد الدب يرى الدوق الذى
كان موشكا أن يرفع سيفه لضربه حتى انصرف عن فريسه الأولى
وألقى بنفسه على الخصم الشجاع ، مكسرا عن أنابه ، ومسددا
نحوه مخالبه ، فأصاب حصانه بجرح خطير وجد الدوق نفسه ازاءه
مضطرا للدورل عن طهره ، مصلتا سيفه لمهاجمة الوحس الذى رمجر
زمجرة ترعد لها الفرائص ، وأقبل على الدوق فاغرا فاه ، مكسرا
عن أنابه . غير مكثرت بسيف الدوق ، بل هم بالامساك بصاحبه
الذى رد هجمته بحسامه محاولا جهده أن يطعنه طعنة نجلاء ترديه ،
فتحاشى الحيوان السلاح ، وطوق الدوق بذراعه وطرحه أرضا ،
فلم يعد الدوق يملك دفاعا عن نفسه اذ علاه الوحس ، وأصبح من
السر علبه أن يمزقه اربا بمخالبه وأسنانه ، ولكن المحارب الباسل
استل حسامه ، واذا كان شديد البأس فقد احتضن الدب المهاجمه

بيسراه ، بينما أعمدت يماه سبعة حصى مقصصه في حبه وصرعه ،
وهكذا كسب الدوى الجولة بالدم وان حرح منها بحرح حطر في
ساقه ارمى منه على الأرض وقد وهى بدنه وسرى الصعف في كناه
اذ اساب من دمه ما لم يعد معه قادرا على البىوض .

وبعالى صراح الرجل القعر الذى قدرب له النجاه مفصل
مساعده الدوى له . فببه صياحه العسكر لما حرى ، فاطلفوا كلهم
صوب الناحة البى كان البطل السجاع - حامى الجبوس - مسحى
فيها ، وقد أنخسه حراحه فوضعه على محفة ، وحمله القاذة الآخرون
الى المعسكر وسط نكاء الجمع . واستدعوا له المطبين الذين بدلوا
المحاولات السافه لانقاذ ، ووصفوا له من الأدوية المناسبة ما جعل
الامل يداعب النفوس فى أن يسرد عافنه .

- ١٨ -

حدث فى هذا الوقت بالذات أن اعمرى المرض الشديد ربوبه
كوب بولور ، ذلك الميجل الذائع الصب ، وحمل هو الآخر فى
محفه وقد أنهكه علنه وأثقله مرضه . حى انهم لما وضعوه على
الأرض فى انتظار موته كانت أنفاسه شبه مقطوعة ، فقام ولم أسقف
أورانج الطاهر السلوك بأداء كل الشعائر الى نؤدى للمؤمنين ،
مثما يفعل ازاء رحل قد انهى ولفظ أنفاسه .

واذا رأى العسكر أنهم قد حرموا - أو كادوا أن يحرموا -
من توجهات هذين الرحلين العظمين فقد ران عليهم من الأس

ما كاد ان يصرفهم عن متابعة رحله الحج الذى كانوا قد قطعوا العهد على أنفسهم للقيام به . واستحرقوا جميعا فى البكاء لانسعال بالهم بحاله فائديهما ، وفام كل الحجاج أبناء نأديهم السعائر الديسة برفع آكف الضراعه للرب عساه يرد على هدين الزعمين عافسهما ، فأصغى اليهم الرب الرحيم واستجاب لموسلاهم ودعائهم ، ورد على الرجائن صحنهما ، وأصغت الرحمة لصلوات شعبه .



ولما انتهى العسكر الحجاج من اجبار ببسيدا دخلوا افلم ليكوبيا ، وجاءوا الى عاصمه قوبه ، وكانت هذه الحاجبة فاحله جرداء . فابلوا فيها بعص كثير فى الطعام أدخل الأس الى فلوبهم ، وكان الترك قد علموا من فل برحفا عليهم . فاطلقوا بعسوس فسادا نى الافلم بآجمعه ، وبينوا جميع مدنه اعمادا منهم على عجز رجال أى مدينه عن المقاومه . وزادوا على ذلك بأن سبوا النساء ، واسرقوا الأطفال وبهوا كل ما صادفوه من الماسه والأعنام ، ثم نررا الى الجبال المسعة منصمين بها . وكان أمأهم الوحيد هو أن يبادر الصلبسون الى مغادرة الاقلم حين بلغ الجهد منهم غايته بسسر حاجهم للطعام ، ولم تكن الترك واهمين فى هذا الأمل ، اد فر الحجاج من هذه الناحه الفاحله السى لا يستطيع اسعافهم بما يقدم أودهم وغادروها على حياح السرعة .

فلما خلفوا هرقله وراءهم ، حاءوا الى مدينة مرعس ، فنبصوا معسكرهم بها . وأقاموا بها ثلاثة أيام .

وفى أنشاء وحودهم فى مدينه مرعس هذه فاضب روح [حودهيلد] روجه بلدوين - أخى حودفروى - الذى كان قد تركها فى رعاية أخوبه حين سفره ، فرفد فى الرب فى هدوء ، ولفظت

انقاسا بعد مرض عصال أمصها ، وكاتب «جودهيلد» (١) هذه امرأه
شريفة المولد ، عاشت حياة حميدة طاهرة ، وتخلق بالخلق الكريم ،
ودفنت حسب مايت ، بعد أن أقاموا لها شعائر الشرف الحديرة بها .

- ١٩ -

فى هذه الأثناء قام نانكريد الفاضل ، وهو من هو فى الفصل
بعرض الحصار على طوروس وهى أهم مدن تلك الولاية . وبحج
اذ سناك أقصر الطرق فكان أول من بلغ صليفا احدى ولايات الشرق ،
وساء على ما بقوله القدماء فان ولاية « أنتوكينا » كانت تسمى بمطغه
السرق .

رياحم صليقة من السرى ولاية كوابسريا ، « سوربه
الشمالية » كما نأحمها من الغرب ايسوريا ، ويحدها من الشمال
حال طوروس ومن الجنوب بحر ايجة ، ويوجد بها مدينان
رئيسيان هما طرسوس موطن معلم الميندين ومهبط رأسه أما
الأخرى فتدعى « عين روبة » ولكل منجما فراها النابعة لها . ومن أجل
هذا يقال أنه بوحد قنابقنة الأولى وقنابقنة النامة .

والقول السائق أن مؤسس طرسوس كان يدعى « طارسيس »
وهو ناسى أولاد « حافام » ابن يافت الذى نذهب الروابات المدينة
الى أنه الابن المالك لروح ، ويدلأون على صحة هذا القول بأن المدينة
تدعى اسم مؤسسها .

(١) أشادت الترجمة الانجليزية فى تعليقها على حبر هذه السيدة أنبا عرنت
ناكتر من اسم ، ومع أن وليم أثر من هذه الأسماء كلمة « جوتيريا GUTEREA »
الا أنما بفصل « جودهيلد » ساء على المراجع الواردة فى هذه الحاشية الانجليزية .

ومع ذلك فإن لسولسوس رأيا مخالفا لهذا الرأي بشأن هذا
المؤسس ، فيقول في الفصل الثالث والأربعين من كتابه «المذكرات»
« وسبع فيليشيا مدينة طرسوس التي هي أم المدن ، والتي أسسها
بريسوس داناى الشريف ، ويسقها نهر « كيندس » الذى بهول
بعض النفاذ انه يبع من جبال طوروس ويحدرا انحدارا عسفا
محبعا ، على حين يذهب آخرون للفصول انه أحد روافد نهر
« هند اسباس » .

وربما كان هناك سىء من الصحة فى كلا القولين من أن مؤسسها
هو طارسس ، ثم جاء من بعده بريسوس فحصبها وزاد فيها .

أقام بانكريد ورجاله على حصار مدينه طوروس بصعه ابام
حتى أرغم أهلها - بالوعيد ناره والكلام المعسول ناره أخرى - أن
يقبلوا ما رسمه من ادخال رايه ورفعها على أحد أبراجهم رمزا
لاعترافهم بالحصوع له . فاستجابوا لطلبه هذا ، مشرطن عليه أن
يطلبهم بحمائه حتى يحضر بوهيموند والجنس الرئيسى ، وألا يذبحهم
- خلال الفترة الواقعة فيما بين دخوله وقدم بوهيموند - على معادرة
دورهم أو ترك مزارعهم ، فان رضى بهذه الشروط قبلوا أن يسلموا
المدينة فى هدوء الى بوهيموند حين يصل ، ويبدو أن هذا العرض كان
مرصا لبانكريد . فقد قبله هو أيضا .

كان أهالى هذه المدينة مسيحيين مثل جميع بقية سكان
الافليم ، وهم يتألفون من الأرمن والاعريق ، غير نلة قليلة من الترك
الذين كانت لهم الغلبة الحربية لمهارتهم فى استعمال السلاح . والذين
كانت حراسة الحصون موكولة اليهم ، وقع على عاتقهم مهمة قمع
الأهالى بالسدة ، أما المؤمنون فلم يكن مسموحا لهم بحمل السلاح
ومن ثم صرفوا همتهم لممارسة البحارة والاشتغال بالزراعة .

فى هذه الأثناء كان بلدوين - أخو الدوق - ورفاقه الذين.

سلكوا مسالك لم تكن مألوفة - فى ميسيس الحاجة للطعام ، لكن
سسى له أخيرا ، بعد جولات دائرية ، أن يصل بالصدفة الى قمة
جبل من الجبال اسشرف منها منظرا يمد حتى البحر الى قيليقيا
ومدنها المساربه بحب قدميه .



ولما بين لبلدوين أن هناك معسكرا حول طرسوس ، سرب
المحاف أن يكون قد ضل الطريق ، وأن تكون هذه الحيام حيام
عدوه ، بيد أن رعبه الملحه فى الوقوف على هويه هذا الافلم وعمن
يكون أصحاب هذا المعسكر الذى يراه على بعد دفعه للحروح على
رأس جماعه بما عرف عنه من الاقدام ، ونزل بهم الى السهل .

وكان ناكريد قد أقام لنفسه هو الآخر عبونا فى نقاط مرتفعة،
كما أخذ حدره توفعا لأى عدوان قد يقوم به العدو ، فاسدعى فى
الحال الله رفاقه فى الحرب وحملوا أسلحتهم لعينه بأن الدين
رآهم انما هم عسكر الحصم ، جاءوا نجدة للمدينة ، فصاح فى رحاله
مسححا اياهم ، وخرج بهم رافعين راياتهم لصد القوات الراحفة ،
ولم نظر روحه شعاعا لايمانه بالله ، فلما اقترب المصافان بعضهما
من بعض ورأى كل واحد منهما الآخر رؤيا العين ، عرف أن لىسب
هذه أسلحة العدو ، فدنا اذ ذاك كل واحد من الآخر فى اطمئنان
ونعانقوا .

وبعد الفراغ من الأحاديب الرقيقة المألوفة انضم بعضهم الى
بعض وابعوا زحفهم الى المدينة لاكمال الحصار ، فنلقاهم ناكريد
بالنرحاب والاكرام ، وأولم لهم لىلتهم هذه وليمة قدم لهم فيها لحوم
الأغنام والماشية النى بهوها من النواحي المساخمة .

ولما أشرق الصباح وبجلى النهار ، رأى بلدوين ورفاقه راية تانكريد تهب على أعلى برج بالمدينة ، فهتفهم العيره في الحال بأنسابها ، وسوا أواصر الحب والأخوة التي عقدوها فيما بينهم أساء رحفهم في سلام ، وهي الأواصر التي صمموا - أفرادا وجماعات - على أن يظل عراها نابتة لا انفصام لها ، لكن الذي جرى كان عكس ذلك ، اذ غضب رجال بلدوين من جرأة تانكريد على رفع راية فوق المدبنة ، في الوقت الذي يوجد فيه كثيرون غيره من الأمراء المحاصرين ، وهم أكثر منه حدا ، وأكثف عسكريا .

كان تانكريد رجلا مواضعا فأراد فء غضبهم ، فأبكر أن يكون قد استهدف اهانتهم من وراء رفع رايته ، وقال انه انفق على رفعها مع أهل المدينة بسبب بسالته ، وذلك قبل وصول الزعماء . وقبل أن يخامر الأمل أحدا في قدومهم .

أما بلدوين الذي راح أصحابه يبيرونه بكل فواهم ، ويحونه على سلوك هذا السبيل ، فلم يعبأ بما فعله تانكريد ، بل نهج عكس هذا النهج ، وكان مدفوعا في ذلك بانفعالاته ، فجاوز حدود القنطة ، فبطاول على تانكريد بكلماته السفهية ، وأدت عطرسه الى مأرق أوشك فيه كل منهما أن يقا تل صاحبه ، ويفنك به ، وأخرا استدعى بلدوين إليه أهل البلد ، وهددهم علانية بتخريب المدينة وما حاورها من النواحي غير عابئة بما وعدهم به تانكريد من بسط حمايته عليهم ، ان لم يبادروا الى انزال راية تانكريد ونصب رايته هو مكانها .

ولما رأى الأهالي أن بلدوين أشد من تانكريد بأسا وأكثر منه حدا فقد أذعنوا له على نفس الشروط التي سلف لهم اشتراطها على

تأنكريد الذى أنزلوا رايته ورفعوا مكابها علم بلدوين ، فلما رأى تأنكريد هذا الحيف الذى حاق به أحرقه العطش عن حق ، لكنه كظم عطشه بفصل ما طبع عليه من رخاحة العقل ، ومن عوده الصبر على تحمل الآلام شفقة منه من حدود شقاء خطر بين قوات المؤمنين ، لذلك بقص معسكره ، وازد الى مدينة محاوره بدعوبها « أدبه » ، فلما بلغيا لم نأذن له أهليا بدخولها لان شخصاً معبه اسمه « حلف » من الأمة الرجيدية كان قد استولى عليها ، وكان « حلف » هذا انفصل عن الحس الأصلى مع ثلة من الآخرين ، وجمع اليه حسداً كسفاً من الناس انخرطوا بحب رايته ، وشاء الصدفة أن يؤدى به الى أذنة حيث طرد منها الترك ، واستولى عليها قسراً .

ولما علم تأنكريد أن مسننه الرب قد أسقطت هذه المدينة فى أيدي شعبها ، بعث الرسل الى حلف بلمس مه فتح أبوابها لندخلها حماه وأعلمه أنه ببعى البرول بها وسراء ما بحاجه عسكره من ضرورات العس . فاستجاب حلف للرسل ، وأمد تأنكريد وخيله بكل ما هو لازم لهم فى كصاب وفترة جعل بدصيا اليه هبة ، والبعض الآخر نائمان معقولة ، وذلك لان حلف كان قد وجد المكان ملثاً بالذهب والفضة وقطعان الماشية والأغنام والحبوب والنسذ والزيت ، وقصارى القول بكل شىء نافع .

- ٢١ -

حين طلع النهار رحل تأنكريد من المدينة بكل من معه وأغد السير فى الطريق الرئيسى المؤدى الى المصصة ، الى كانت واحدة من أروع مدن هذا الاقليم ، والنسب نال حظاً من السهرة بفضل

أسوارها وأبراجها وكثره سكانها ، كما زاد فى قدرها موقعها
البهيج ، وحقولها الحصبة ، وأرضها العسة ، وما كاد نانكرید يعسكر
على معرفة منها حتى أعار عليها وراوحها بسلسلة غير مقطوعة من
العاراب حتى نمكن من الاسسلاء عليها فى مدى أيام فلائل بمعونة
الرب ، وحكم السف فى رقاب أهلها المارين .

ووجد بها نانكرید ثروات ضخمة وكميات كبيرة من الميرة من
كل صنف فوزع على أتباعه كل ما وجده ، فى أنصبة يلائم كل منها
ما أداه كل حاج من الخدمة ، ففاضب أيديهم بما ملكوا ، وعوضهم
الطعام الوفير عن أسام المسغى التى فاسوها من قبل ، كما
اسسلموا فى الوقت دانه للراحة ، وأقبلوا على أكل ما يشتهون .
وأطاقوا ما عندهم من دواب النقل حرة برعى كيف شاءت .

- ٢٢ -

راح بلدوين - بعد رحيل نانكرید - يكبر من نائب أهل
طرسوس ويهددهم بهديدا شديدا ويحذرهم مره بعد أخرى ، وأمرهم
أن يفتحوا الأبواب أمام عسكريه لدخلوها ، اذ حيل اليه أن العار
لاحقه ان هو أصاع الوقت بلا عمل حتى بجىء الجيس ، فخاف
الأهالى منه أن يهاجم المدينة من قرب ان هم رفضوا اطاعة أمره ، لما
رأوا من عجز نانكرید عن مقاومته ، هذا الى جانب رعزعة ثقيهم فى
قدرتهم الذائنة فعملوا من الضرورة فضلة ، وفتحوا الأبواب وأدخلوا
بلدوين وجميع عسكريه ، وخصصوا برجين جعلوهما فى وقتهما
الراهن سكنا خاصا له .

أما بقية جنده فقد نفروا فى بيوت المؤمنين من أهل المدينة .

وأما الأبراح الأخرى فكانت في أبدى السرك الدين كانوا لا يزالون يحتلون المدينه ، وكانوا أكثر منهم عددا . هذا بالإضافة الى أنهم كانوا يملكون بلا جدال معظم استحكامات البلد . ومع ذلك كانت الريية بخامر نفوسهم من ناحية طائفة البصاري الدين أدوا [لعدوه] بدخول البلد ، واذ لم يكن لديهم ثم أمل في بجهه تأتيهم . فقد كانوا يلتزمون الفرصة للسبل في الحفاء الى حارجها مع زوحابهم وأبائهم وما ملك أيديهم .

وحدث في هذه الليلة بالداب ان وصل الى طرسوس ثلاثمائة رجل من حملة بوهيموند كانوا في طريقهم للانضمام الى نانكريد . فأصدر بلدوين أمره بعدم السماح لهم بدخول المدينه ، ولما كان طول السفر قد أرهقهم ، وفلس في أيديهم ضرورات العبس . فقد ألحقوا في السؤال التماسا للسكن وعقد سوا لهم . فعطف عليهم في محنتهم هذه رفاقهم من الحجاج الذين هم دونهم مكانة والذين كانوا في المدينه ، وألحوا في طلب الاذن لهم بالدخول لكنهم ردوا فاشلين ، لأبهم كانوا ، كما قيل طائفة من رجال حملة بوهيموند الذين كانوا مغذين السير لمساندة نانكريد .

وعلى الرغم من عدم قدرة المسيحيين الموجودين في المدينه من الخروج الا أنه لم تكن تنقصهم العواطف الأخوية فراحوا يدلون الحبال بالسلال من الأسوار ملأى بالخبز ، والروايا منوعة بالنبيذ . وهكذا أمكنهم امداد الدين بالخارج بالطعام الكافي لهم في هذه الليلة ، ولما وجد هؤلاء الرجال ألا مناص لهم من البقاء خلف الأسوار فقد وطؤوا أنفسهم على الاقامة أمام أبواب المدينه ، وتدبر حاسبهم جهد استناعتهم .

فلما كان الليل استسلم لليوم العميق والراحة التامة من داخل المدينه وخارجها على السواء من المسيحيين ، وضرب السكون أطنابه

ولكنه كان سكونا مريبا ، فقد قام البرك وغيرهم من كهار طوروس
بفتح الباب في هدوء تام ، وخرجوا منلصصين مسسحبين معهم
نساءهم وأطفالهم وعبيدهم وكل ما ملكت أيديهم ، وذلك لأنهم
لم يكونوا يشعرون بالهدوء في بلدتهم الى جوار هؤلاء الصيوف الذين
نزلوا بينهم على كره منهم ولكنهم خافوا مساكنتهم ، وأصبح هؤلاء
الترك قادرين كل القدرة على مغادرة المدينة متى شاءوا ، اذ كان في
أيديهم بوابة أو اثنتان من بواباتها ، وأبوا الا أن يخلفوا وراءهم
انتصارا دمويا على عدوهم ، ذلك أنهم بعد أن فرغوا من ارسال
أحمالهم وما ثقل من متاعهم أمامهم عادوا ففتكوا بكل الذين كانوا
يغطون في سباتهم العميق .

- ٢٣ -

فلما كان اليوم السالى وقد ملأ النور الكون ، اسيعط مسبحو
المدينة فوجدوها مهجورة ، فعجبوا كيف هرب العدو من غير صجة ،
وانطلقوا الى الأسوار ومداخل المدينة عساهم يعرفون كيف تمكن
هؤلاء من التسلل الى خارجها ، وبينما كانوا يتقصون الأمر في دقة
وينقصون كل ركن وزاوية اذا بهم يطالعون آثار المذبحة التى أنزلها
الترك الفارون بخدام المسيح فحزنوا أشد الحزن ، وتقطعت نفوسهم
حسرات وأسلموا أنفسهم للبكاء .

ثم وقف رجال الطبقة الناسة على بعد من الآخرين وحمىوا
السلاح ضد بلدوين وغيره من الزعماء الذين يشأونه مكانة ، وذلك
لأنهم اعتبروهم السبب فى هلاك رفاقهم الحجاج ، حين أبوا أن
يستضيفوهم ، وكانت هذه الاستضافة واجبا لا يصح التئصل

منه ، كما كانت حقا لكل دى حاجة ، ومن ثم فقد استبد بهم الحقن ،
فاندفعوا اندفاعا عدوانيا يمسدون النيل من زعمائهم الدين لولا
انسحابهم الى الأبراج العالية لقتل منهم مثل الذين قتلوا وراء
الأسوار .

ولما رأى بلدوين أخيرا أن الهرج الذى استولى على الناس بحق
أخذ فى الزيادة ، راح يدبر فى لهفه كيف يرر مسلكه ، وكيف
يعتذر عن نفسه عند فومه ، عسى أن يهدأ نائرتهم ، ويركنوا الى
السكينة ، فتريث لحظة استرد فيها أنفاسه ، وسألهم الاصابات
فهدأت غاغة الرجال قليلا وان كانوا لا يزالون مشهرين أسلحتهم ،
وراح هو يبرىء ساحته عندهم ، مقسما لهم بأن السبب الوحيد الذى
حملة على اغلاق أبواب المدينة فى وجه الحجاج هو أنه كان قد وعد
وعدا لا حيث فيه ألا يسمح لأحد بدخولها حتى يصل الدوق ، كما
أن كلماته المرائية ، وألفاظ الاستعطاف التى كان لابد منها فى مثل
هذا الموقف والسى قالها وقالها بعض أشرافهم فعلت فعلها ، وأفلح
فهدأت من ثائرة الناس بعض الهدوء وتراضوا فيما بينهم .

وهكذا انتهى النزاع ، ولبت اليوم هناك فى سكون بضعة
أيام ، حتى رأوا أسطولا يمحى البحر على مسافة تقرب من ثلاثة أميال
من طرسوس ، فما كاد الفرسان والمشاة يطالعون هذه السفن حتى
هبوا سراعاً ناحيتها ، وحدثوا مع القادمين من البحر فعلما منهم
أنهم نصارى ، ولما سألوهم من أى البلاد هم قالوا انهم من فلاندرز
وهولندة وفريزيا ، حيث ظلوا يمارسون القرصنة ثمانى سنوات ،
ثم صحت ضمائرهم فندموا على ما كان منهم ، وتابوا عن اثمهم
فركبوا هذا البحر فى طريقهم الى القدس للصلاة .

فلما عرف رجالنا أنهم مسيحيون مثلهم دعوهم لدخول الميناء ،

وصافح بعضهم بعضا ، وبادلوا فيما بينهم قبيلات السلام ، وبعد
أن أرسست السفن آمنة بالثغر قادوا رجالها الى طرسوس .

كان رعيم هؤلاء القوم يدعى « حينمار » من اقليم بولونيا ،
ومن مقاطعة كونت استاس ، والد جودفروي ، وما كاد حينمار يعلم
أن بلدوين هو ابن سيده حتى ترك الأسطول وتهايا لمرافقته الى
القدس ، وكان حينمار فاحش الثراء وزاد من ثرائه هذه الحرفة
الدنيئة التى مارسها ردحا طويلا من الزمن ، وكان فى خدمته رهط
كبير من الناس أبى معظمهم الا مصاحبته حين علموا بعزمه على اتباع
بلدوين ، واذا ذاك انقضى انتقاء دقيقا خمسمائة من أتباع القائدين
لحماية المدينة ، أما كل من سواهم فقد راحوا يتهئون للخروج
للبحث عن حظوظهم .

- ٢٤ -

عادر الجيس طرسوس مميا وجهه شطر المصيصة حتى بلغها ،
وكان تانكريد كما قلنا من قبل - قد احتلها عنوة منذ أمد قريب ،
وأحكم قبضته عليها فأنزل بلدوين جنده خارجها وفي البساتين
المحطة بها . ليقينه التام بأن تانكريد لن يسمح لهم قط بدخول
المدينة .

ولما ترامى الى سمع تانكريد خبر وصول بلدوين ، وانه نصب
معسكره على مقربة منه ، غلى مرجل غضبه ، واثارت ثائرتة وتأججت
نيران استغظه اذ عاودته ذكرى المصائب التى صيها هذا الرجل ظلما

وعدوانا عليه ، ودعا رجاله وهو في سوره حنقه الى حمل السلاح
مجمعا العزم على رد الصاع صاعين ، وأن ينزل ببلدوين من الأذى
مثل الذي أنزله هو به من قبل ، ومن ثم أنهض فرقة من رماة النساب
لرمى جياد بلدوين التي سرحها في المراعي ، ولأخذها أو دفعها .
كما خرج تانكريد ذابه في خمسمائه فارس في دروعهم مهاجما بهم
معسكر بلدوين وأخذ الحراس على غره منهم قبل أن يتمكنوا من
امتنساق سيوفهم ، حتى كاد أن يفهم عن بكرة أنفسهم ، ولكنهم مع
ذلك هبوا الى أسلحتهم واستعدوا للمقاومة ، وحررت في اثر ذلك
معركة عنيفة ، استتبسل فيها كل من الجانبين استتبسالا ضاريا كما
لو كان كل واحد منهم يحارب خصما لدودا ، فسقط من الجانبين
قتلى كثيرين ، وأسر كل فريق رجالا من رجال الفريق الآخر ، غير
أن عسكر تانكريد كان دون عسكر بلدوين بأسا ، وأقل منه عددا ،
ثم ان القتال أجهد تانكريد اجهادا لم يعد قادرا معه على تحمل
شدته ، فاضطر الى ترك ساحة المعركة ، والارتداد الى المدينة .



كان الجسر الشديد الضيق الذي يعلو النهر الفاصل بين
معسكر بلدوين وبين المدينة يقف عقبة كأداء في وجه قوات تانكريد
وهي تسرع في الفرار الى المدينة ، حتى لقد هلك رهط غير قليل
من فرسانه ومشاته ، وان أسعف الفرار ثلثة منهم هربوا الى داخل
البلد ، ولولا أن الليل أرخى سدوله مما أدى الى وقف القتال لكان
من الممكن أن تكون الخسائر أفدح مما هي عليه ، نظرا لما كان يكتنه
كل فريق من كراهية تضطرم كالنار في قلبه للفريق الآخر .

كان من بين أتباع تانكريد الذين وقعوا في الأسر رجال نبلاء
بارزون منهم واحد من ذوى قرباه اسمه ريتشارد دي برنسباني .

وآخر اسمه روبرت دانزى ، وكانت مشوره هدى الرجلين
وبحريضا بهما هى السبب الرئيسى فى قيام نانكريد بحركة الاسقام
التي ذكرناها .

كما وقع فى أسر نانكريد واحد من أنباع بلدوين ومن علة
القوم وأسماهم مكانه ، هو جلبرت دى مونت كلدر ، ونجم عن
غياب هؤلاء القادة أن شاع الاضطراب فى صفوف كلا الحاسبين ،
اعتقادا منهم بهلاكهم فى معركة اليوم .

وحين ذر قرن الفجر فى اليوم المالى أخذت أحاسيس الكراهية
فى التلاشى ، وخفت سورة الغضب ، وكان الفضل فى ذلك للرحمة
الالهية اذ تذكروا ما جاءوا من أجله ، فصفا تفكيرهم وعاد الى
هدوئه . ومن ثم مضت الرسل بين الجانبين تنشده اقرار السلام ،
ورجع كل أسير الى جماعته ، كما راحوا بتبادلون قبلات السلام
ارضاء لكلا الجيشين ، وعاد الوثام يرفرف من حدود بن الحمص
وأطلهم السلم بجناحه .

- ٢٥ -

نزل بلدوين على طلب رفاقه ، وعاد من المصبصة مضما بكل
عسكره الى الجيش الاصلى الذى كان قد وصل - كما قلنا - الى
مرعش ، وكان بلدوين قد علم بالحادث الخطير الذى ألم بالدوق فى
بيسيدا أمام انطاكية فاشتد حزنه على سلامة جودفروى ، وأراد
أن يتأكد تماما عن واقع حاله .

كان نانكريد فى هذه الأثناء قد زاد من بأس فوائه بمن صمهم
اليها من الرجال الذين جاءوا فى صحبة الأسطول ، فكثرت جيسه بهم
كنرة بالغة ، مكنته من اجبياح كل صلبقا ، والاسيلاء فسرا على
معافل العدو انى وجدها فأضرم النار فيها حتى تهاوب الى الأرض ،
واذ ذاك عرض من فبها على السيف فصلهم جميعا ، وكان آخر مكان
عصف به جنده هو « الاسكندرية الصغرى » الى اسنولى عندها
أيضا رغم مقاومتها اليائسة ، فمكنه هذا النصر الأخير من أن يصبح
مسطرا على الاقليم كله .

سرعان ما نواردت الأخبار نقير الى تمام استيلاء نانكريد على
كل المنطقة ، بفضل ما تجمع لديه من مختلف القوات ، فرفضت
قلوب الترك والأرمن الجليلين خوفا من أن يعوج نانكريد عليهم ،
ويفتح مدنهم ، ويسنرق أهلهم ، فراح كل يافس الآخر فى سرعة
المبادرة بإرسال الرسل اليه ، محملين بالهدايا السمية من الذهب
والفضة والجياد والحيول والأفمسة الحريية ، مؤملين أن يهدى
هذا الكرم حدة غضب ذلك الزعيم العظيم ، عساهم يكسبون وده ،
ويعقدون واياهم أواصر الصداقة .

هكذا كان النجاح حليف نانكريد فى كل خطاه ، لأن الرب
كان معه ، ولأن السد كان يوحه جميع أعماله لأنه خادم أمين .



هنا ينتهى الكتاب الثالث

الكتاب الرابع

اجتياح الصليبيين شمال الشام وشروعهم في حصار أنطاكية

فصول الكتاب الرابع :

- ١ - بولدوين أخو الدوق - يعود الى الجنس الأصلي
وينزل على اقتراح باكراد فيقود حمله برحف الى
الشمال ويحتل كل الاقلم حتى الفرات .
- ٢ - شهرة بلدوين تنتشر في كل ناحية ، فيستدعيه
أهل الرها فيسجيب لهم ويسرع اليهم عابرا
الفرات ولكنه يقع في كمين نصب له في بعض
الطريق فنخرج المسيحيون لمقابلته ويجعلون من
أنفسهم حرسا له ويدخلونه المدينة فرحس به .
- ٣ - الغيرة من نجاح بلدوين تدب في نفس حاكم

المدييه الذى يندم على قراره الذى اتخذه ويرعب
فى سجن الاتفاق ، لكنه من أجل اسرضاء الأهالى
يتبنى بلدوين ويتحذه ولدان وان أضمر الغدر به .

٤ - بلدوين يحاصر سمبساط استجابة لرجاء أهل
المدييه الذين يأمرؤن ضد حاكمها الضعيف
انتقاما منه للأضرار الجسيمة التى أنزلها بهم .

٥ - الأهالى يفتكون بحاكم الرها وينصبون بلدوين
واليا عليهم فيشتري سمبساط من حاكمها
« بلدك » بمبلغ كبير من المال .

٦ - بلدوين يحاصر بلدة « سروج » ويسمولى عليها
بالقوة فيسكره أهلها سكرًا يعجز اللسان عن
وصفه .

٧ - ارسال طائفة معينة من رجال الجيش الأصيل
يحلون بالقوة مدينة « أرياح » واذا تروا أنباء
ذلك الى أهل أنطاكية يبادرون الى هناك بقوة
ضخمة وينصبون كمينًا لشعبنا ، ويهاجمون
مدينة « أرياح » لكنهم يفشلون فى محاولتهم
هذه فيعودون الى ديارهم بعد تحصين الجسر .

٨ - الجيش الرئيسى يصل « أرياح » ويرسل الكشافة
من هذا المكان لكشف الطريق ثم يقترب من
الجسر ويعبر النهر رغم ما بذله العدو من
محاولات كان يهدف من ورائها الى صده .

- ٩ - وصف مدينة أنطاكية ، ومكانتها .
- ١٠ - القول فى الإقليم الذى به المدينة ووصف موقعها .
- ١١ - من كان حاكم هذه المدينة التى هى أنطاكية ، وكيف يادر هذا الحاكم - حين سماعه نبأ اقترابنا - الى تحصينها ، ثم جلب الى داخلها العسكر الذين استقدمهم من المدن المجاورة .
- ١٢ - زعمائنا يتساورون فيما بينهم ويتقدم الجيس الى المدينة .
- ١٣ - القادة يأخذون مواضعهم حول أنطاكية فى أماكن استراتيجية ويسدون منافذ المدينة فيسيطر الخوف على نفوس الأهالى .
- ١٤ - المسيحيون يقيمون جسرا ختسيا على النهر حتى يساعدهم على توفير مزيد من حرية الحركة للبحث عن العلف ، كما يقوم الأهالى بنسج هجبات مفاجئة على معسكر كونت بولوز من أقرب البوابات اليهم .
- ١٥ - الكونت يقوم بكثير من المحاولات ضد العدو وينتهى الأمر أخيرا بسد البوابة بأكوام من الأحجار يهيلونها أمامها .
- ١٦ - العدو يهاجم الجماعات التى خرجت فى التماس العلف وينسج عن ذلك قتال ضار بهلك فيه

الكثيرون من الجانبين اد يهلك بعضهم بالسيف
ويبتلع النهر غيرهم فيموتون غرقى .

١٧ - الضعف يستولى على جميع الاقاليم وتتفاقم
المجاعة وتزداد سوءا ويصبح الناس فى صراع
صد الجوع ، كما تؤدى الأمطار الغزيرة الى
الرطوبة التى تعمل على انتشار العفن فى الخيام
وهو عفن يهدد الجيش بالفناء .

١٨ - بوهيموند وكوبت فلاسرز يخرجان فى حملة
كبيرة سعيا وراء الكلا ، كما يقوم المواطنون فى
الوقت ذاته بتسليح هجوم فجائى على المعسكر ،
ويسمى الصليبيون بحسارة كبرى ويكثر فيهم
الجرحي .

١٩ - الغرفة الباحثة عن الطعام تكشف العدو وتهزمه ،
ثم يعود بالغنيمة والأسلاب الوفيرة .

٢٠ - مقتل « زفين » أحد أبناء ملك الدانمركين على
أيدي الاتراك قرب « فيلو ميليام » بينما كان
يفذ السير للانضمام الى الجيش .

٢١ - ناتيكوس الوغد يترك الجيش وليس فى نية
العودة اليه ويدعى ان ذهابه انما هو من أجل
عقد سوق يستبضعون فيها ، كما يزعم أنه ماض
الى الامبراطور ليسانله الحضور لمساعدتهم .

٢٢ - المجاعة تزداد تفشيا والطاعون المهلك يصيب
الناس فيأمرهم الأساقفة بصيام ثلاثة أيام ،

ويسرد الدوى جود مروى صححه ساما ويترح
الجيش بفاهته .

٢٣ - فورد بوهيموند يقترح خطة حكيمة للقضاء على
ما سببه الكسافة الذين أرسلهم العدو من
الازعاج .

٢٤ - خليفة مصر يوفد رسلا من قبله الى الزعماء ويطلب
عهد معاهدة بينه وبينهم ويحاول كسب
عودهم .

هنا يبدأ

الكتاب الرابع

اجتياح الصليبيين لشمال الشام وسروعهم فى حصار انطاكية

- ١ -

بيما كان بانكريد يتابع احصاء كل ارجاء فيليبيا عبر هياپ ولا وجل ، كان الجيش الرئيسى قد وصل الى مرعش [يوم ١٣ اكتوبر ١٠٩٧] ، واذا ذاك اعتزم بلدوين رياره أخيه جود فروى ، فلما وجده قد تماثل للشفاء ثارت فى نفسه نيران الغيرة من بانكريد مرة أخرى ، وأحفظه منه أن يجمع الكل على امتداح بساله الى طبق خبرها الآفاق ، ومن ثم دعا اليه أصدقاءه ، وأوصى ايهم بعزمه على معاودة القيام بمخاطرات جديدة وسألهم ان يكونوا عونا له فى تحقيق هذا الهدف . لكنهم كرهوا ان يصاحبوه فى حروجه . لما سمعوه عن وقاحته المتشاهية حيال بانكريد أثناء وجودهما أمام أسوار طرسوس فى قيليقيا ، اعتمادا منه على كسرة أتباعه . والحق انه لم يشد أحد منهم عن الاجماع على ان مسلكه كان اذ ذاك مسلكا مشبها ، وهو اجماع استحققه عن حق جزاء جريمته الشنعاء ، وما كان لبوهيموند ورحاله ان يتركوا ما لحق بتانكريد دون عقاب .

ونم يجد بلدوين من يقبل مرافقته فى حملته هذه عبر شردمة قليلين ، كما عنفه أخوه خادم الرب - تعنيفا قاسيا على عمله هذا ، ولما أدرك بلدوين شناعة ما اقترف ، عن جرم فقد أعلن بكل مذلة انه

مسعد لأن يقدم لنا كريد النبيل الاعدار الواجب عما اقترفه من
اساءه في حقه .

ولما كان بلدوين قد أخطأ بقاء على ما أشار به غيره عليه أكبر
من ان يكون حطؤه نابعا من نفاء ذاته ، ولما كان هذا المسلك
بحريص من سواء ولبس من طبعه ، فقد سامحه الجميع واسرد
ثقتهم به . والحق انه كان رجلا موصع الاطراء من كل الوجوه كما
انه لم يؤخذ عليه قط بعدئذ سباعة نزرى به كهذه الشناعة .

وكان لبلدوين صديق من أشرف الأرض يدعى « باكراد » يعرف
عليه في بيفيه بعد فراره من حبس الامبراطور ، وظل هذا الرجل
يلتزم بلدوين على الدوام في جميع رحله . ومع انه كان محاربا شديدا
الا أنه كان شديد المكر . معمود الوفاء ، وقد دأب على الالتحاح على
بلدوين واعرائه بشي السبل على جمع العسكر ، ووعد بأن ينضم
هو اليه في حملة يسها على النواحي المتاخمة التي قال انه من اليسر
اجتلالها بقوة صغيرة ، ونزل بلدوين أخيرا على الحاح « باكراد » ، وخرج
مسترشدا به على رأس مائتي فارس ، وحشد غير قليل من المشاة
وزحف بهم ممما وجهه ناحية الشمال . وسرعان ما دخل اقليما
شديد الخصب والراء . أغلب أهلله مسيحيون صادقون في دينهم .
أما البقية من السكان ، وهم قلة كافرة ، فكانوا أصحاب القلاع ،
وكانوا يعاملون المؤمنين الصادقين كما يحلو لهم ، كما كانوا
يعزموهم من الاسراط في الخدمة الحربية .

وكان فلاحو الاقليم من المسيحيين الكارهين لأن يتسود عليهم
قوم من غير ملتهم ، لذلك لم يكذب بلدوين يدخل تلك الناحية حتى
أصلحوه الأماكن الحصينة ، وما غبرت أيام قلائل على ذلك الأمر حتى
كان بلدوين قد ملك من الناحية أغلبها ، بالغا في ذلك نهر الفرات

العظيم ، وصار اسمه وحده كافيا لبب الرعب في ذلك الافلسم
وما حوله ، وبلغ الخوف في نفوس الاعداء مه حدا غادروا معه قلاعهم
من تلقاء أنفسهم ، وهاموا على وجوههم ، على الرغم من انه لم يرسل
رجلا واحدا من رجاله لقتالهم .

وكان مجرد حضور بلدوين قد بب الشجاعة والقة في
قلوب المخلصين الذين رحبوا به ، وتمت كلمات النبي (١) : « كبف
يطرد واحد أفا ، ويهزم اثنان ربوة » .

لم يكن العامة وحدهم هم الذين نعلقوا ببلدوين ، بل حاله
ايضا امراء تلك النواحي المسيحيون وأخلصوا الية في مصادقته ،
وآزرؤه فما يفعله ، وامدوه بالجند ، وبدلوا له الطاعة الصادقة .

- ٢ -

على أنه لم تمض بضعة أيام حتى كان اسم هذا الرجل العظيم
يجرى على كل لسان ، وحتى كاتب أعماله الجليلة مسهورة في كل
مكان ، واستساع خبرها في كل الولايات المجاورة ، وراح الجميع
يسون على بطولته ، ويمتدحون احلاصه ، ويشيدون بسجاعته ، وملا
صوته الافاق ، فلم يبق أحد من أهل الرها الا وقد سمع به ، وسرعان
ما راحت المدينة ننحدث بأن قائدا باسلا من الجيش الصليبي ، قادر
على تحريرهم تماما من رق العبودية وردهم الى الحرية ، ونرتب على
ذلك أن جاءه وفادة ممن كان بيدهم أمر حراسة المدينة وكانوا من
أصحاب النفوذ فيها ، يدعونه دعوة صادقة - بالكلمه المنطوفة
والمكسوبة - أن يأبى الهم .

(١) تثنية ، ٣٢ ، ٣٠ .

وأوديسا هي إحدى مدن العراق الشهيرة أيضا باسم الرها وهي المدينة التي أرسل إليها نوبيب الكبير ولده نوبيب الساب . ليطلب من مربيه « جابيلوس » عسرة مكابيل من العصاة كان الأب قد اعاره إياها وهو طفل .

وكان أهالي الرها قد اعتنقوا المذهب المعلق بالخلوص المسيحي على يد الرسول « تاديوس » ، وذلك في أعقاب أسبوع الآلام ، والحق أنهم كانوا من كل النواحي أهلا لما ينقو مع ما بسر به ذلك الرسول العظيم وبرسالة ملخصا التي كتبها إلى ملكهم « إيجار » ، وعدا ما بطلعه في الفصل الأول من التاريخ الكسبي الذي كتبه يوسيبوس القيصري ، وقد ظل القوم ملخصين في تمسكهم بهذه العقيدة منذ إيمانهم بها لأول مرة في زمن الرسل ، ثم قدر لهم أن يفعلوا بحث بر حصوم ملهم الذين أرغموهم على دفع الضرائب والاناوات سنويا ، كما اغتصبوا منهم عبوة كل ما في أيديهم من بساتين الكروم والمزارع ، فلم يعد أحد يجزئ على العيش داخل المدينة سوى من ملأ الإيمان قلبه ، فكانت مدينة الرها - دون غيرها من جميع مدن البناحية - هي التي احتفظت بحريتها الأصيلة ولم تلونها الجاهلية . ومع ان العدو كان قد استولى منذ أمد بعيد على جميع النواحي التي حولها إلا أنها ظلت بمنأى عن الحصوص له ، ولم تأذن لأى صاحب عقيدة أخرى أن يعيش في رحابها .

ولقد كابد أهل الرها الأمرين من أولئك الذين يعيسون في المدن والقلاع المجاورة لهم ، الذين لم يكونوا يأذنون لمواطني الرها بمغادرتها أو القيام بعمل خارجها .

كانت أمور المدينة بيد حاكم من بلاد الاغريق ، أرسله ليدبر شئونها ويتولى الأمر فيها ، ومنذ أن أصبحت البلاد كلها تابعة لامبراطور القسطنطينية ، وكان هذا الوالي شيخا طاعنا في السن .

واهن القوى ، ليس له من صلبه ولد ولا بنت ، ولما كان الترك قد وصلوا الى هناك قبل انتهاء فترة حكمه فقد اضطرنهم الضرورة لابقائه حيث هو ، فظلت له الحكومة في البلد ، وربما كان ذلك راجعا اما لعجزه عن الرجوع الى بلده ، أو لأن الناس لم يرغبوه على التخلي عن السلطة ، ومن ثم كان بلا نفع ولا جدوى ، عاجزا عن حمايه رعيه من الضرر ينزل بهم ، أو دفع الشر عنهم أو تخفيف ما يلقيه من الصيق .

ولقد وفد على بلدوين - كما قلنا - مبعوثون من قبل المواطنين وبرضاء هذا الحاكم يلتمسون منه القدوم عليهم وتخفيف مصائبهم .

فلما سمع بلدوين الى الناس العامة والخاصة ، أجمع عزمه على استجابة رجائهم بعد أن شاور أصدقاءه في هذا الأمر ، فاعد العدة اذ ذاك للسير اليهم ، وخرج غير مستصحب معه سوى نمامين فارسا ، عبر بهم نهر الفرات ، ومخلعا بعية ألباعه وراءه للقيام بحراسة القلاع والمدن الواقعة على ذلك الجانب من النهر ، وللمحافظة على الاملاك التي منحها الرب له ، فلما علم الاتراك الذين يعيشون على الجانب البعيد من النهر بخبر سيره اليهم نصبوا له الكمائن في طريقه الذي كانت به احصى المدن الحصينة وعليها وال أرمى . فانحاز اليها بلدوين تجنبيا للكمائن التي رصدوها له في الطريق فلما بلغها استعبله حاكمها اسنبالا كريما وأحسن استضافته ، فاقام بها يومين لم يجرؤ خلاهما على السير فدما ، مما سرب الملل الى نفوس الترك الذين كانوا قد اعدوا له كمينا ، وضاقوا ذراعا من طول انتظارهم اياه ، فرفعوا بارقهم وظهروا فجأة في حشد كثيف دوى أمام الناحية التي هو فيها وراحوا يسوقون أمامهم قطعان الماشية من المراعى المجاورة ، ولما لم يكن المسيحيون مكافئين لخصومهم في البأس ولا في العدد فانهم لم يخاطروا بالخروج اليهم بل أقاموا في القلعة حيث هم ، حتى اذا كان اليوم الثالث رحل الترك .

حينذاك تابع سيره المتقطع الى مدينة الرها حيث اسقلمه حاكمها بالعظيم عند وصوله اليها ، وساركة الرحيب به جميع من فيها ، كما خف لاسفباله رجال الدين والناس عامة وقد ساروا أمامه مسددين الاهازيج والراسل الديينة على وقع الدفوف ودق الطبول .

- ٣ -

على أن الحاكم الذى كان السبب فى استدعاء بلدوين ، سرعان ما سرع بعصه الغيرة بنهس قلبه منه ، فراح يستعرض فيما بينه وبين نفسه ، ما أظهره الناس من الحفاوة والرحيب بهذا القائد عند وصوله ، وتمنى لو نقض ما أبرمه معه من اتفاق كان يتضمن - حين وجه الدعوة اليه - أن يناصفه طول حياته كل ما تملكه المدينة من البضائع والضرائب وجميع دخلها من الآتاوات ، ثم يؤول كل شيء . بعد ذلك الى بلدوين .

أما الآن فقد رعب الحاكم فى تقديم عرض مخالف لهذا العرض يلحصى فى ان يينذل بلدوين المساعدة للمدينة ولأهلها ضد استبداد الترك ، وأن يدفع عنها سرهم ، على أن يعوضه الحاكم ذاته مقابل ذلك تعويضا ماليا سنويا مجزيا مسرفا ، حسبما يراهى له كرحل عادل ، لكن بلدوين رفض هذا العرض وازدراه لأنه عَرَض ينزله منزله الجيدى المرتزق ، الذى يينناول أحرأ لقاء خدمانه ، لذلك أخذ يعد العدة للعودة من حسب جاء ، فلما عرف الأهالى بعزمه على الرحيل ، بادورا بالذهاب الى الحاكم وأصروا على الا يأذن بأى حال من الأحوال برحيل زعيم جبل القدر كهذا الزعيم عنهم ، فهو رجل لاغناء لهم عه لنحقق حريتهم ، وطالبوه أن يضم بلدوين اليه وفقا لسروط

الانفاق ، حتى يعم هو والمدينة كلها بالسلام الذى هو عايه
ما ينسدون .

واراء هذه المطالب المجمع عليها- من عامه الناس وخاصيم .
وازاء المحبة العميقة التى بها بلدوين فى نفوسهم شعر الحاكم بمدى
الخطر الذى يهدده ان لم يستجب لرجائهم هذا ، ومن ثم رصخ لهم
على مضض وأجابهم الى كل ما طلبوه منه ، وكان ذلك على كره منه ،
وزاد على ذلك فعند الى تحسين مسلكه السابق بأن يبنى بلدوين فى
حصرة أهل البلد ، واعلن فى احوال مهيب يلاءم مع جلال الحدب
بأنه يأذن له أن يبايعه كل شئ فى حياته فان ما كان هو الحاكم
من بعده ، فعربدت الفرحة فى قلوب الناس أجمعين لانهم كانوا يرون
أن بلدوين هو معقد آمالهم فى النجاة ، وأخذوا منذ هذه اللحظة فى
الاقدام على كل عمل يطلب الجرأة ، واطمئنانا مبهم الى حمايه سيدهم
الجديد لهم ، ولما راحوا يسترجعون ما نالهم من وصب على يد حاكمهم
فقد شرعوا يخططون للانتقام منه ، متى يسمح الزمان والمكان بذلك ،
وهذا مما انضح من مجرى الاحداث .

- ٤ -

وكانت تقع على مقربة من الرها مدينة سميساط الموغلة فى
القدم والسهرة باستحكاماتها الحصينة ، يحكمها تركى كافر اسمه
بلدوك ، وهو محارب مقدم ، ولكنه محادع لثيم ، وقد أبرل
كثيرا من المصائب بأهل الرها ، فضاغف عليهم الخراج والصرائب
التى فرضها على مزارعهم ، وأثقل كاهلهم بما كلفهم به من الأعمال .
وجرت عادته على أخذ أطفالهم رهائن لديه ، ضمانا للوفاء بهذه

الامور ، وكان هؤلاء الرهائن يرفعون سحب ظروف بالعه القسوه على العمل فى خدمه كرفيق يحملون الطين والآجر ، ومن هم فقد ركع كافة السكان عند قدمي بلودين بعيون باكية يسعطونه أن يعمل على حمايتهم من ظلم الطاغية ، وأن يعيد اليهم أبائهم الدين فى جيسه فأصعى بلدوين باهمام الى أول رجاء لسعبه ، أملا منه فى اكساب ودهم ، فدعاهم جميعا اليه ، ورودهم بالسلاح ، وخرج بطائفه منهم راحما على سميساط .

وظل بلدوين بضعه أيام يراوح المدينة ويعاديه بالهجمات المسالیه ، لكنه صادف معاومه شرسه من جانب من فيها من الترك ، به منهم فى استحكامها بالقويه ، وسرعان ما ادرك بلدوين أنه غير مدرك منها أربه ولا بالغ منها غاية ، فانقلب راجعا الى الرها ، باركا وراءه على مقربة من سميساط وفى مكان حصين ملائم — جماعه من العرسان ، أمرهم بمداومة الاغارة عليها ، وألا يذيقوا أهلها طعم الراحة .

سرعان ما تبين لمواطني الرها ما عليه بلدوين من الشطاط . وما يلفاه من النجاح فى كل ما ينهض به . وأدركوا ظلم الاجراء الذى حاف بمحرر المدينة ويمرسى دعائم السلام بها ، حين ساووه برجل لا انتفاع منه أبدا للمدينة ، وأيقنوا أن بلدوين هذا ومين بأن يملك كل شئ ، وان ينخلص مما لا ينفق وهواه ، ومن ثم استدعوا واحدا من أشراهم يدعى فسطنطين ، وكان واسع النفوذ وصاحب عدة فلاح شديدة المنعة ، وافعة على جبل قريب منهم واقترحوا باجماع منهم أن يفتكوا بحاكمهم ، ويحلوا بلدوين مكانه ، ليكون وحده صاحب الأمر والنهى ، وقد دعاهم الى ذلك ما كانوا يضمرونه لحاكمهم من كراهية هو أهل لها ، فقد قيل انه سلبهم ما عندهم من الذهب والفضه وعبر ذلك من كل غال وثمين ، وظلمهم ظلما فاحسا ، وكان

أدما حاول أحد مقاومه آثار عداوه الترك صدهم بما يصلهم به
من الرشاوى ، حتى يصبح الرجل النعيس منهم لا يحاف فحسب
قطع كرومه وافساد حقوله ومزروعاته وسلب قطعانه واعنامه ، بل
إن حماه دانها يصبح فى خطر .



ادرك مواطنو الرها الدين كانت فعال حاكمهم السريره مائه
على الدوام فى ادهانهم ان قد واسهم العرصه ليل حريقهم المنسوده
مد رمس طويل على يد هذا الصيف ، ومن ثم فانهم - وفقا للحطط
الذى تم اتفاقهم عليها - اسرعوا لحمل السلاح وهاجموا البرج الذى
ابحده حاكمهم مسعرا له هجوما عنيفا محاولين هدمه بعزم لا يسى ،
فاسند خوف الوالى على حياته بسبب عصب الأهالى وسخطهم الذى
هو أهل له والذى له ما يبرره ، فاستدعى اليه بلدوين ، وسر امامه
كل الأموال ، ونوسل اليه أن يكون واسطه له عند الناس .

وعلى الرغم من أن بلدوين سعى سعيا صادقا الى حمايه الحاكم ،
وصرف كل أدى يتزل به على أيدي المواطنين ، ورغم أنه بدل فصارى
حيده لئنبهم عما اعزموه الا أنه سرعان ما نبين له فسل محاولانه
ودهابها أدراج الرياح ، لأن غضبهم على واليهم كان يرداد عنفا وحده
سيئا بعد سىء ، وحينذاك انكأ بلدوين الى الحاكم ، ومحضه المصيحه
أن يتخذ من الاجراءات ما شاء لتأمين حياته وسلامها ، فلما أعيب
الحاكم كل السبل فى التماس علاج للأمر تعلق بحبل دلاه من احدى
النوافذ بيد أنه هلك قبل أن يبلغ الأرض ، اذ ساوشه ألف سهم
من سهام القوم الذين سحبوه الى القصر جثمانا هامدا وقطعوا رأسه ،
لكن ذلك كله لم يسف لهم غليلا .

فلما كان اليوم التالي نصبوا بلدوين حاكما عليهم رغم اعتراضاته ، وقطعوا له يمين الولاء ثم طلعوا به في موكب بهي مهيب الى قلعة المدينة ، وأعطوه كل ما اكسره واليهم السابق طوال سبب عدة من الأموال والبروات الكبيرة ، ومن ثم عاد الهدوء يعرف على المدينة .

ولما رأى « بلدوك » الذى كان كما قلنا حاكم سميساط - نجاح بلدوين نجاحا لا جدال فيه ، وأنه محصن كل الأقاليم ، فقد عرض عليه أن يبيعه مدينته بعشره آلاف قطعة ذهبية ، واد كان بلدوين يدرك أن أخذ سميساط بالقوة ليس بالأمر اليسير فحصل بحصيناها ، فقد دفع بعد مداولات طويلة - المبلغ الصخم الذى طلبه صاحبها ، وتسلم البلدة ، واسترد رهائن الرها ، مما زاد في عيده في العيون زيادة كبيرة .

ولما قدر له انجاز هذه المأثره منذ اللحظة الأولى من حكمه . فقد اكسب حب أهالى الرها العظيم ، الذين اعتبروه منذ هذه اللحظة واليا عليهم وأبا لهم أيضا ، وكانوا على أتم أهبة لبذل أرواحهم دفاعا عن كل ما فيه صالحه ومجده .

- ٦ -

كان يوجد في نفس الولاية قرب الرها مدينة يقال لها «سروح» كانت هي الأخرى عاصمة بمن ليسوا على الملّة ، وعليها نائب تركي اسمه « بلاس » قد دأب على مضايقة الرها ، ومستنها منه البلايا الضارة ، مما جعل بلدوين يستجيب لتوسلات الأهالى اليه ، فجمع جيشا لغزو سروح ، حتى اذا وافى السوم الموعد زحف عليها وحاصرها نزولا على رعية سبعة ، وضرب أولا معسكره حولها ووضع

آلانه على اكمل صورته واحسن هئته . سرخ فى مهاجمتها فى عمق
تب الخوف فى نفوس أهلها حين رأوا عرمة المطبق على تحفيق هدفه ،
فى الوقت الذى كادوا يسكون فيه فى مبلغ قوتهم الدانية فأبلاوا أن
يسلموه المدينة ان صمم لهم حياتهم وسلامهم ، فلما وافق على هذه
السروط أسلموه المكان فأقام من رجاله جماعة رابطت بالمدينة لحايتها ،
وجعل القادة فيهم لواحد من الدين ساركوا فى المفاوضات ، وفرص
على أهل سروج جريه سنوية ، ثم رجع الى الرها موحا بالفخر .
ولقد أدى احتلال الصليبيين لسروج الى حرية الاتصال بين أنطاكية
والرها ، اد كان وقوعها فى منتصف الطريق بين الرها والفرات
يعسر عقبه كآداء أمام الذين يودون الغدو والرواح بييما .

والآن وقد قدمنا هذه البساتات عن عمل بلدوين فيما بنا يعود
الى قصة الجيش [الصليبيى] الاصلى .

- ٧ -

بييما كان بلدوين مسعلا اسعالا كبيرا فى اقليم الرها فبما
وراء الفرات ، كان الجيش الرئيسى قد وصل الى مرعس ، بعد أن
اجتاز - كما قلنا - جبالا شديدة الانحدار ، وأودية منعرجه ، وكان
سكان هذه المدينة - الا القليل منهم - نصارى ، وكاتب فلعبها فى
يد الترك الذين يحكمون كنفما شاءوا فى الأهالى ، ولم يكد الترك
يعلمون أن جيشا آخذ فى الانتراب منهم حتى فروا خفة وفى ذعر
شديد ، تاركين البلد كله فى قبضة المؤمنين .

ولما بلغ الجيش الخارج فى سبيل الرب هذا المكان ، عسكر
أمام أسوار المدينة فى المراعى الخضراء ، وصدرت الأوامر الى المعسكر

ان يجلبوا العنف مع اهل البلد ، كما انعقد في هذا المكان سؤو
حافله . ثم جاء الى الصليبين رهط من نهاب أهل البلد ، يجبروهم
أن في يد الترك مدينة أخرى في ذلك الاقليم يسمى «أرباح» ، ونفع
في اقليم أكبر حصبا ويقص بالنعم الوفيره ، فابى الرأى على ان
يخرج في الحال روبرت كوت فلاندر اليها على رأس ألف فارس
عليهم ررد الحديد ، وصحبهم جماعة من الاشراف ، منهم روبرت
دى رورير ، وجوسيلون س كونون كوت موساح ، وما كادوا يبلعون
بلك الساحبه حتى سرع روبرت في اعداد برسياب الحصار ، فعادر
الترك المدينة واريدوا الى القلعه ليقنهم في منعها .

وما كاد الأرمن وغيرهم من المؤمنين الصادقين البارليين أرباح
يعلمون أن هؤلاء المحاربين - بأسلحتهم البرافه - قد جاءوا من
الجبس الذى طال انتظارهم اياه وسوفوا اليه ، حتى اسعس الامل
بالحرکه في صدورهم فهبوا الى أسلحتهم وانقلبوا على الترك الذين
احلوهما رمنا طويلا فرصوا عليهم خلاله حكمهم العاسى ، وأعملوا
فيهم القمل دون براح ، فادفين برؤوسهم فيما وراء الأسوار ، كما
فتحوا الأبواب على مصاريعها ، ودعوا في احلاص دى القوم الواقص
خارجها الى الدحول ، وسألوهما أن يصربرا مخمابهم بها ، أصف الى
ذلك أنهم أوفوا بسروط الصافه ، فوفروا لهؤلاء المحاربين وجادهم
على السواء ما يحاحونه .



وتعرف ارباح أيضا باسم « سالسيس » وهى مثل مرعش الى
أشرنا اليها من قبل فى ايها تمل احدى المدن الاسقفه التابعة لكرسى
بطركه أنطاكية التى تبعد عنها خمسة عسر ميلا .

ولقد انتشر نبأ هذا الحادث فى كل مكان فحرك ساكن أهل
أنطاكية الذين تدافعوا متحمسين لنسليح أنفسهم ، واستعدوا للفك

بالعراة الذين جعلوا من أنفسهم سادة لارواح بديهم مواطنيها ،
واد داك تم اسفاء عسره آلاف ممن تجمعوا في انطاكية للدفاع عنها ،
وجيهم سراما الى مدينة أرنج ، فلما صاروا على مقربة منها أرسلوا
أمامهم ربيثة منهم قوامها ثلاثون فارسا من حملة الأسلحة الخفيفة
وراكبي جياد الحرب الخفيفة ، أما بقية القوة فقد كسب في ناحيه
من الغابه .

وأما الطليعة التي كانت تقوم بحراسة من في الكمين ، فقد طلب
على ظهور جيادها ، بروح وغدو أمام المدينه حتى ليحسبها الرائي
أنها خرجت في طلب بعض الأسلاب والعائم ، فيغير اد داك
المسجون ، ويدفعهم الطيس الى مهاجمها دون بصر .

ولعد أدت سلاطة هذه الطليعه في عدوها ورواحها الى أن وعد
المؤمنون الذين كانوا داخل الأسوار صبرهم ، فهبوا سراما الى
سلاحهم ، واطلقوا في أثر العدو دون أن يأخذوا حذرهم ، وأوعلوا
فطلعت عليهم الكمائن التي وضعها الأعداء لهم ، وخرجوا من مخابئهم
في الحال ، ووبوا عليهم وفاموا بمحاولات يائسه لقطع طريق العوده
على الصليبيين الذين لو قدر لهم النجاح في الوصول الى المدينه
لوجدوا فيها ملجأ يفيهم من القوات الكثره التي كانت قادمة في
اعقابهم ، الا أن رجالا استطاعوا بفصل من الله أن يعسدوا عليهم
حلبهم ، مما مكهم من الارنداد بمن معهم سالمين .

حينذاك ادرك العدو أن الاسنيلاء على المدينه ليس بالامر الهين ،
ومن ثم شرع في حصارها ، وظل يواليها بالرمي على مدى يوم كامل
دون أن ينال منها شيئا ، بينما قام المسيحيون الذين بداخلها في
الدفاع المجيد عنها ، ولما جاء الأخبار بافتراب حسننا الرئيسي
أدرك العدو ما وراء اسمراره في البقاء من خطر عليه وأصاخ للنصيحة
الملي ، وعاد الى انطاكية تاركا طائفة من الجند لحراسة الجسر

الموصل بين المدينتين ، وهكذا صنع الكونف وأصغابه بنأسيم
المدينة التي وهبها الرب لهم ، وحافظوا عليها الى حين وصول الحرس
الرئيسي .

وفي خلال هذا الوقت مرض « جوسلون » الشاب الموهوب بن
كونون كونف موباج الذي تكلمت عنه آنفا مرضا عصبالا - أودى
بحياته ، فدفن في ذلك المكان بكل ما يلحق به من مظاهر الاحترام .

- ٨ -

ما كاد المرك القادمون من أنطاكية يعادرون أراج عند اسلاح
البهار ، حتى جاء الخبر بأن الجيش الصليبي قد أصبح على مسارف
المدينة ، وأنه قد نصب مخيمه على مقربة منها ، واصصاع رعاء
الجيش للصبح فارسلوا خمسة عشر ألف فارس مدججين بالسلاح
لمساعدة من في « أراج » من اخوانهم الذين جاءت الأنباء بما يعاونه
من أهوال الحصار المفروضة عليهم ، وكانت الأوامر سلخص في أنه
إذا وقع الحصار وأصبح الوصول الى المدينة أمرا ميسورا ، عاد
كونت فلاندرز وبمية الكبار الذين بصحبته الى الجيش ، بعد أن يكلوا
حراسة المكان الى حامية كافية ، كما صدرت مثل هذه التعليمات
الى نانكريد الذي كان قد رجع لتوه من قليميا ، بعد ان صار الاعليم
كله ملك يمه فعادوا ، وعاد جميع القادة الآخرين الذين كانوا قد
خرجوا الى نواح مخلقة حسبما أملت عليهم مصالحهم ، ولم يكن
ينقصهم سوى بلدوين الذي كان سلطانه فيما حول الرها يزداد
بمشيئة الرب قوة يوما بعد يوم ، وهكذا تجمعت فرق الجيش المخلقة ،
وبماسكت قواته مرة أخرى ، واذا ذلك نودى في الجميع الا ينقصل
أحد ما عن الجيش الرئيسي الا بأمر يصدر اليه .

حينئذ انقصوا حيامهم ، وأخذوا فى الزحف على أنطاكيه من أقصر الطرق الموصله اليها ، واعرضهم فى منتصف طريقهم نهر أقيم عليه جسر عرف بأنه منيع الحصين ، فرغب القوم فى إزالة كل عقبة فى هذه الساحية يمكن أن تعرقل الجيش ، فقدموا أمامهم روبرت كونت نورماندى على رأس رجاله ، وكلفوه بكشف الطريق ، فان توقع أية صعوبة أفضى بها الى الكتيبه الى حلقه ، وسرح لقادها الأمر تفصيلا ، وكان على رأس هذه الكتيبة الوجيهان افوار دى بويسيه وروجر دى بارنفيل البارعان فى استعمال السلاح ، وقد سرا أعلامهما .

ولما انفصل الكونت وأتباعه من الجيش الأصلي تقدموه حتى بلغوا الجسر المشار اليه وكان بناء حجريا شديد الضخامة ، يقوم على كل من طرفيه برج من الحصانة من نفس الحجر الصلد ، وكان فى كل برج مائة من المحاربين الأقوياء الشجعان البارعين فى الرمي بالنشاب وحسن استعمال الأقواس ، قد وكل اليهم حماية البرجين ومنع أى أحد من الاقتراب منهما عن طريق مخاضات النهر ، كما وصل من أنطاكية سعمائة فارس رابطوا على الشاطئ البعيد ، وسيطروا على المخاضات ليحولوا - تحت أى ظرف من الظروف - بين رجالنا وبين عبور هذا النهر المسمى بهر العاص ، ويطلق عليه الناس اسم النهر « الفاصى » وهو ينطلق من هذا الجسر ويزل الى البحر مرورا بأنطاكية ، ويظن البعض أنه هو نهر دمشق المعروف باسم « فرقر » ، ولكن تأكد لدينا بما لا يخفى النقض خطأ أصحاب هذا القول ، ذلك أن نهرى فرقر والبانة ينبعان من حال لبنان ، وبعد أن يشقا الاقليم الذى به مدينة دمشق ويجاوزانها - ينطلقان بسرعة ناحية الشرق ، حتى لنخيل للمرء أنهما ضاعا فى الصحراء .

أما نهر العاصى فعلى العكس من هذين النهرين يسبح من افلم

هليوبوليس ، المسمى أيضا ببعلبك ، ويجاز سيزر وأنطاكية حيث
يصب في البحر الأبيض المتوسط .



ولما بلغ كونت برمدى بعواته هذا الجسر تكاف على الحيلولة
بينه وبين عبوره حراس برجى الجسر ، والمدافعون الذين وقعوا على
الساطيء الآخر من النهر ، وترتب على ذلك قتال شديد الصراوه في
هذه الناحية بين الفريقين ، يريد من عنده أن رجالا كانوا مسبيين
في شق طريق لهم بالقوة وسط وابل هتان من السهام أمطرهم بها
العدو الذي راح يبذل أقصى طاقته لمنعهم من الوصول ، ودفعهم
بعيدا عن المحاضات .

في هذه الأثناء التي كان كل من الجانبين فيها يجهد نفسه
عاية الاجهاد من أجل عاينه كان الجيش الرئيسي يدو شيئا فشيئا ،
ذلك لأنه لما شاع أن التكونت وحرس المقدمة قد ردوا على اعمابهم
من جزاء القتال عند الجسر ، يادر العسكر [الصليبي] الى الاسراع
لمساعدة اخوانهم المحاربين ، فلما رأوا اربداد العدو راودهم الأمل
في فتح الطريق ، عسى أن يتمكن الجيش من العبور من غير تأخير .

ولما تكامل وصول جميع الكائب دف الطبول ، وبودى
بحمل السلاح ، فاستجاب الجند للنداء بكل ما بهم من نأس ،
وسيطروا على الجسر بالقوة ، وأرغموا العدو على الفرار ، أما
الصليبيون الذين لم سعفهم الظروف بوجود موضع لهم على الجسر
يحاربون منه ، فقد أنهوا أن يظلوا في أماكنهم بلا قتال ولكهم
مصوا فاكسفوا المخاضة ، وعبروا الى الجانب الآخر ، ونجحوا في
رحضة الأعداء من أماكنهم ما جعلهم لا يصادفون بعد ذلك أية
مقاومة في احتلال الضفة الاخرى من النهر ، واد تم عبور كل الجيش

بعربانه الحربيه ومركبانه وما معهم من سنى صوف الماع . نصبوا
معسكرهم فى مراغ فسيحه حصراء على بعد حمسه أو سته أميال من
المدينه ، حتى اذا كان اليوم التالى تابعوا رجعهم فى الطريق الرئيسى
الكبير الواقع بين النهر والجبال . فلما صاروا على بعد مل واحد من
اسوار المدينه نصبوا خيامهم .

- ٩ -

وأطباكيه مدينه عظيمه مجيده ، نبوا المربه الناله ان لم
يكن البانيه بعد رومه دانيا (فم اختلاف كبير تجاه هذه المسأله) ،
وهى نقف على رأس الجميع ، ولها الصداره على كل مطقة المرفى
وكانت تدعى فى الأرمه العديمه «رييلانا» وهما كان فد جىء بصدويا
ملك يهوذا مع أبناؤه فى حضرة نابخذنا نصر ملك بابل الذى أمر بقتل
الابناء أمام ابيهم ، ثم سملت عينا الأب دانه بعدئذ ، ولما ماب
الاسكندر المقدونى حلقه فى حكم جره من هذا الافليم « اسيوخس »
فاحاط المدينه بأبراج على سور سديد الارضاع ، حتى صارت
المدينه بفضل « اننيوكس » فى حال أحسن مما كانت عليه من قبل ،
وأمرو أن سسمى بأطباكية اشتقاقا من اسمه ، وانخذها عاصمه
لمملكه ، وقرر أن تكون المقر الملكى له ولخلفائه على مدى العصور ،
وكان فى هذه المدينه أبرشيه كهويه لكبير الحواريين الذى كان أول
من تبوا وظيفه الأسقف هناك ، لأن الموقر بوفيلوس أحد مواطنى
أطباكية وذوى النفوذ القوى - كان قد أقام كنيسه فى بيته ، وهو
الذى كسب له لوبا ايجيله وأعمال الرسل ، وكان هو الآخر من أهل
أطباكية كما أنه خلف بطرس الطوبانى فى نفس الكنيسه . وكان
ربيهه السابع فى ثب من بولوا أسقفيتها .

وقد عقد في هذه المدينة أول مجمع للمؤمنين الذين اصطُلع على سمينتهم بالمسيحيين ، استعافا من كلمة المسيح . ولقد رحب هذه المدينة عن طواعية وسوى بعاليم هذا الحوارى واهندب كلها. مره واحده الى العميدة المسيحية ، وكانت هى أول مدينه راحت بيسر بالاسم الذى كان كالعطر الطيب فاح سداه فعطر جميع الأرحاء ، ما قرب منها وما بعد ، ومن ثم اختير لها اسم جديد فسميت « نويبوليس » وهكذا فان المدينه التى كان يطلق عليها من قبل اسم رجل سرير كافر عادت فمحتها السيد منحة طيبه هى أهل لها ، وأصبح يعرف بأنها مدينه وموطن الذى دعاها للإيمان ، لانه كان لهذه المدينه فى أيام خطئها السالعه السيطره على كبر من الافاليم الخاصه لها . حى اذا تقدم الرمن عاشب حناه ظاهره بره ، مسعه طريق المسح ، واسبقت نفس الأساقفة .

ويقال انه كان يحب امره بطرك هذه المدينه - الحبيبه الى الله - عسرون ولاية ، كان لاربع عسره منها أسافقنها وكهنيتها ، أما السب الباقباب فلها أسافقنها المعروفون بالجاليق ، وكان احدهم يحص بأبى ، والآخر بهيريوبوليس أو بغداد ولكل منهم فساوسه . وسدرج كل هذه الولايات يحب اسم واحد هو المشرق الذى ورد فى تهرير مجمع القسطنطينية حب نقرأ فيه « فليكن لأسافقه المشرق اداره المشرق وحده ، ولكن شرف النقدمه لكنسه أنطاكه حسبما هو وارد فى قوانين مجمع بيقيه المقدس » .

نمار مدينة اطاكية بموقعها الرائع في ولاية كوليسيريا التي هي جزء من سوريه الكبرى ، وهي تمتد عبر واد فريد في بيانه وحصب تربته ومرارعه التي تسعى كلها في الواقع بالروافد والقنوات المائية ، ويقع هذا الوادي وسط جبال تنحدر ناحيه المغرب كما يمتد فراه اربعين ميلا طولا ، وأما عرصه فيسراوح بين اربعة وسه امسال حسب الناحيه التي هو بها ، وتوجد في القسم العلوى منه بحيره تكونت من تدفق المياه من الينابيع المجاوره التي تجميع كلها هنا . كما يوجد على مسيره مثل منها النهر الذي يجري عبر الوادي ثم يحاور المدينه الى البحر .

وينبثق كذلك من البحيره جدول صغير يصب في نفس النهر في انحداره قرب المدينه ، وعلى الرعم من سنده ارتفاع الجبال التي تكشف المدينه من جانبيها . الا أنه يخرج منها مجرى ماء عذب يسير معرجا ، كما أن جوابها المنحدره حتى العمه صالحه تماما للزراعه ، ويعرف الجبل الواقع في الجنوب باسم العاصي (اورسس) كاسم النهر الذي يشق المدينه . ويقول جيروم ان اطاكية تقع بين العاصي وبين الجبل الذي يحمل نفس الاسم وينحدر من هذا الجبل الذي يسير على طول البحر ثم يرتفع ارتفاعا شاهقا ويمرود بسميه خاصه به ذات دلالة معينه ، اذ يعرف عادة بجبل «بارليه» ، ويظن بعض النقاد أنه هو جبل «برناسس» المكرس لباخوس وأبولو، ويبدو ان هذه الفكرة قائمة على وجود البع المعروف ببع «دافى» القريب منه ، ويرى البعض أنه هو البع القسالى المذكور في الأساطير القديمه ، والذي كان مكرسا لآلهه الفنون والسعر والغناء ، الكره الورود في كتابات الفلاسفة ، ويقال انه يتبع من الناحية التي تعرف بمدرجات بوهيموند قرب المدينه الموجوده في سفح جبل العاصي .

غير أن هذه الفكرة بعيدة جدا عن الواقع ، اذ المؤكد ان جبل برناسس يقع في اقليم بويينا الذى هو جزء من « ساليا » وقد وضعه «أوفيد» فى القسم الأول من كتابه « ميامورفيورس » فقال بأن أرض فوكيس تفصل الحقول البويينة عن حقول أنيكا . وهى اقليم خصب عندما تجف الأرض ، ولكن حدث أن ندفقت المياه فجاء بغزارة فى ذلك الوقت البعيد ، كما يوجد هناك جبل يرتفع الى عنان السماء العالية المعروفة باسم بارناسس والى سدو سامخة كما تخترق السحاب .

ويسمى سولسوس فى الفصل الحادى والأربعين من كتابه « بولى هسور » التاريخ العام هذا الجبل بجبل كاسيوس حيث يقول « وعلى معربه من أنطاكية وفى ملاصقة سلوقيا ، يوجد جبل كاسيوس الذى يمكن أن يرى المرء من قممته قرص الشمس حتى الساعة الرابعة من الليل ، فاذا استندار المرء قليلا - حين يبدد الضوء الظلام - أمكه أن يرى على هذا الجبل الليل ويرى من الجانب الآخر النهار » .

★ ★ ★

وحى لا يقع القارىء فى حيرة من كلمة سلوقيا الغامضة فيجب احباره انه توجد مدينتان بهذا الاسم أولاهما هى عاصمه ايسوريا ، وبعده عن أنطاكية مسيره تزيد على خمسة أميال .

أما الأخرى مجاوره لها ، ولا تبعد احدهما عن الأخرى أكثر من عشرة أميال ، وهى تقع قرب منبع نهر العاصى ، وتسمى هذه المدينه الآن بمياء القديس سمعان ، أما النبع المذكور آنفا فيعرف بسع « دافن » أو النبع القسالى ، ويقال انه كان فى هذا المكان قديما معبد لابوللو كان أقوام فى عقيدتهم الخرافية يقصدونه لسؤاله فما استخلق عليهم ادراكه ، وحدث أن اسقرهما قرب

أنطاكية - فترة من الوقت - المارون جوليان بعد انفصاله من المسيح وردده عن تعاليم الدين الحق ، وكان في أثناء اعداده الحملة على الفرس يكرر من الترداد على معبد ابولو ، يفسسره فيما هو قادم عليه ، ويسير بنودوريس الى هذه الحققة في الفصل الحادى والثلاثين من كتابه « التاريخ الثلاثى » بقوله :

« لما راح جوليان يلتبس جوابا من الهيكل البييسى فى دافى حول مدى النجاح المحمل لحربه ضد الفرس اذا بالكاهن يهره لأن جمان الشهيد بابيلاس كان مدفونا على مقربة من هناك واد داك أمر حولان بعقله » .

وبرد الاشارة الى نفس الحادث - ولكن فى تفصيل أكر - فى الكتاب العاشر من التاريخ الدينى حيث جاء فيه ان جوليان قدم دليلا آخر على حماقته ورعونته ، حين راح يسرصى أبولو فى غابه دافى القريبه من البع الفستالى بضاحيه من ضواحي أنطاكيه ، فلم يستطع الحصول على رد على سؤاله فتساءل ما الذى يعنيه هذا الصمت ، فأجابه كهنة الشيطان ان قبر الشهيد بابيلاس قريب من هناك . ومن ثم فانه لا يمكن الاجابه على سؤاله .



وعلى الرغم من أن هذا النبع معروف بالنبع الفستالى . الا انه يجب الا يحتلط فى الأذهان بالنبع الفستالى الآخر الذى يسمى أيضا بنبع بيجاسوس ، أو رافد هيبوكرين وأجانب ، اذ ان هذا الآخر موجود فى بونتيا بناء على ما يقوله سولنوس الذى يكذب فقول .

« ويوجد قرب طيبة جبل هليكون وغابه كسرون وبهر اسماس ، كنا يوجد هنا أيضا ياببع اريوسا وهيبوديا وسالماس وديرسى ، وان كان أهمها حمبعا ينبوع أجانب وهيبوكرين » .

ولما كان ديموس مندع الحروف هو أول من عمر على هذه
البنابيع أنباء بجواله فى المنطقة بحا عن موضع يسفر فيه فان
حال السعراء القوى أدى الى ظهور اسطوريين يقول احدهما ان البيع
يدفن من حفر حصاه ، وأن السرب منه كان ملهمه للفنون .

ويوجد فى الشمال من أنطاكية حصبه يعرف عادة باسم « الجبل
الأسود » تكثر بها الينابيع وسقى من الرواد ، وكاب ما بره على
سكان المنطقة جمة ، ممثله فى العباب والمراعى ، ويقال ان هذه
الباحيه كانت نحر فى قديم الزمن بكير من الاديره ، بل سمر بها
فى وقتنا الحاضر أماكن طاهره كثيره ، مليئه بالمحبه وهى مساكن
أولئك الدين وهبوا أنفسهم لخدمه الرب .

ويجزى وسط هذا الوادى النهر الذى يصب فى البحر . والذى
ذكرناه آنفا ، وقد سيدت المدينه على أقرب وأعرق متحدر للجبل
ناحه الجنوب بينه وبين النهر ، كما يبدأ السور من قمة المرتفع
ويسير على طول السطح متحدرا الى النهر ، وتكتنف محيطها أرض
ساحله الاتساع تمتد من جانب الجبل والسهل .

ويوجد وراء السور أيضا قمتان ناطحات السحاب ، ورفع
قلعة أنطاكية على ذروة أعلى هاتين القمتين ، وهى بناء شديد الحصانة
يعودونه موضعاً لا يمكن افتتاحه ، ويفصل هاتين القمتين بعضهما عن
بعض هو ضيق يحذر عبورها تار جارف منصّب من الجبل ، كما
يجرى وسط المدينه هذا النهر الذى له أياد جمة على السكان ، كذلك
توجد عدة ينابيع أخرى بالمدينه أهمها بالباب السرى المعروف بباب

العديس بولس ، أما بيع دافنى الذى يبعد حوالى ثلاثة أو اربعة أميال، فقد تم حفره عن طريق اقامه مجرى فوق المناظر ونصبوا فاحمالوا حتى جعلوا الماء يندفق الى أماكن مخلعة كبره فى أبواب معهه .

ويحيط بالمدينه من أعاليها ومنحدراتها وسهلها أسوار من الحجر الأصم ، السديد الضحامة ، العظم الارهاق ، ويطل على كل هذا كبر من الأبراج التى أعدت للدفاع أحسن اعداد ، وهى على ابعاد مساويه بعضها من بعض . ويجرى النهر الى الغرب فى الناحية السفلى التى هى أحدث جزء من المدينه ، ويقرب مجراه كل الاقرب من الاسوار ومن الجبل الذى يعبر بكلمة لسور المدينه وبوابينا ويقول بعض البقات ان المدينه بنند مسافة مبلين طولا ، ويقول آخرى بل ثلاثة ، وهى بعد عن البحر مسافه اتنى عشر ميلا .

- ١١ -

كان حاكم هذه المدينه الذائع الصيب رجلا بركى الاسم يدعى ياعى سيبان ، وهو من اتباع عاهل عظم سديد الباس اسمه ملكساه هو سلطان فارس الذى أسرا البه من قبل ، وقد استنطاع الأمير [ملكساه] بقوة السلاح أن يضم الى ساطانه جميع هذه الولايات وأن يدخلها بحكمه ، ثم رأى أخيرا أن يعود الى وطنه بعد ان دانت له كل السعوب والقبائل . فعاد ووزع فواحاه بين أولاد أخيه وآساعه . اعنادا منه أنهم كلما نذكروا مآثره الحمه عليهم اسد ارباطهم به واخلاصهم له ، فكانت نيقية وما جاورها من الولايات ، من نصيب قلع ارسلان فى هذا التقسيم ، كما أسرا أنفسا .

أما دهمسقى وما يتبعها من المدن التى تدفع لها الجزية وكذلك
الاوليم الذى هو حولها ، فكانت من نصيب ابن أخ آخر له اسمه
دقاق .

وحلج ملكساه على هذين العاهلين مربية السلطة ولقيها ، ولما
كانت مملكه فليح ارسلان وافعة على حدود اليونان فقد كانت فى
نزاع دائم مع امبراطوريه القسطنطينية .

أما دقاق - فكان بسبب ماملك - فى حروب لا يحمد أوارها
مع المصريين ، والذى راح [ملك شاه] ينظر اليهم بعين الريبة الكسرة
للزبادة المطرده فى قونهم وبطشهم .

أما السابغ الآخر من اتباع السلطان واسمه آى سنمر - وهو
والد [عماد الدين] زنكى ، وجد نور الدين [محمود] فكانت حلب
السهيرة من نصيبه .

وأعدق ملكساه فيضى كرمه أيضا على باغى سيان الذى تكلم
الآن عنه ، فوصله بمثل ما وصل به هدين الرجلين ، اذ اقطعه أنطاكيه
مع اوليم صغير ، وقد حملة على هذا ما كان من احتلال خليفه مصر
كل البلاد حتى اللادقية بالسام .

ولما علم باغى سيان أن جيشا كبيرا بقيادة قادة صليبيين فى
طريقه اليه أنفذ كيرا من الرسائل - شفاها وكتابة - الى جمع
أمراء الشرق كله ، يطلب منهم مساعدته ، لاسمها خليفه بغداد
وسلطان فارس العظيم ، وهو أقوى الحكام جميعا الذين استجابوا
لطلبه فى يسر ، ولبوا نداءه على عجل ، وكان الحامل لهم على ذلك
ما برامى الى أسماعهم منذ وقت بعيد من خبر تقدمنا ، وما يحمله

هذا الزحف من خطر حسيب عليهم . ولما كان الب ارسلان يعام بحمره وكشاهد عباى بما علنه هذه الجيوش الصليبية من كره العدد والبطولة التى لا تفهر ، فقد بعث الى هدين العاهلين بنفصيل دفى عن هذه الجيوش .

وقد أرب فى هدين السلطانين الماسانه الحاره ودموعه المسكوبة ، فاستجابا له بارسال الجده اليه ، وكان الساع لأحدهما على هذه الجدة رعبه فى الكفير عن نصيره ، وأما الآخر فكانت استجابته ناجمة عن رعبه فى ضمان سلامة بلده من عزوا الصليبيين . وحماية نفسه فى الوقت ذاته من بطشهم .

وبعهد الملكاى بارسال القواب المطلوه اليه ومده بالمساعدة المنشودة ، وقد برهنت النتيجة فيما بعد على انها صدقا فيما عاهدا ، وأوفيا بما وعدا .

كان القلى الشديد من مجيء الصليبيين مسببا بباغى سياى . ومن ثم دأب على حشد العسكر من الولايات والمدن المجاورة ، واد كان يوقع الحصار بين لحظه وأخرى فانه لم يدحر وسعا فى جمع الكير من الميرة والسلاح ، وفى شجيع أهل المدن وحهم على جلب كل ما يحتاجه صنع الآلاب من الحديد والصلب وغير ذلك من المواد الأخرى انمى لا غنى عنها فى العادة فى مثل هذه الظروف ، كما ان الأهالى أنفسهم كانوا منحمسين غاية الحماسه فى الحفاظ على سلامة المدينة وأمنها ، وبذلوا كل ما فى طايفهم لجلب كل ما يعنهم ان هم حوصروا ، فلم يدعوا ناحية من نواحي الاقليم الا جابوها وبهوا كل ما حاورهم ، وعادوا محملين بالحبوب والتبيذ والزيب وشتى مستلزمات الحياة ، وساقوا أمامهم قطعان الماسية والأعنام ، حتى اصلاّت المدينة بكل ما هو ضرورى من المره ، ومن نم استطاعوا

- بعد نظرهم وجهودهم الكبيرة - أن يدعموا مركزهم أمام صراوة
الجنس الصليبي القادم عليهم .

أما البلاد التي مر بها الجنس الصليبي فقد هرب منها إلى
أنطاكية كيرون من ذوي المكانه والبأس ، فرارا من وجه فؤادنا
دون أن يدعوهم أحد لذلك ، وأما فعلوا هذا خوفا على سلاطينهم
ورأوا في تحصينات مدينة أنطاكية وقونها ما يستحيل معه
اصحاحها . ومن ثم زاد عدد سكانها زيادة عظيمة هؤلاء الوافدين ،
ويقال انه كان من بين الأهالي وجمعات المرتزقة حوالي سبعة أو
ثمانية آلاف فارس ، وأكثر من خمسة عشر ألف أو عشرين ألفا
من المساه المدحجين بالسلاح بأهبا للحرب .

- ١٢ -

حين رأى رجالنا أنهم قد صاروا قاب قوسين أو أدنى من
أنطاكية ، اجتمعوا للنساور فيما بينهم ، واقترح بعض الرعماء
- بطرا لهرب دحول النسياء - أن يؤحوا حصار المدينة حتى مداع
الربيع ويرروا هذا الأحيل بأنه سيكون من أصعب الأمور بجمع
العسكر قبل ذلك الوقت ، نظرا لتسبب الجند في الوقت الحالى
في المدن والقلاع المختلفة ، وزادوا على ذلك أنه يجب عليهم انتظار
ما اعنزمه امبراطور القسطنطينية من ارسال فرقة كبيرة من فؤاده ،
كما أنه كان في الطريق اليهم كتائب جديدة قادمة من البلاد الواقعة
فيما وراء الألب ، وأن الحكمة نصمبهم انتظار وصول هذه الجيوش
التي سوف تؤدي إلى زياده العسكر زيادة هائلة بمكهم - كما
قالوا - من تحقيق هدفهم المنشود في يسر أكثر .

أما في المعركة التي لا تبارس فيها هذه القوات الحرب فانه
يمكن تسميتها أساما بذهب كل واحد منها بمفرده دون الآخر
لفضاء النساء فما حاوره من المناطق التي هي أول تعرضا لايحوم ،
حتى اذا ما وافى الربع عاد الجيش واصم بعصه الى بعض مرة
أخرى ، ويكون رحاله قد اسردوا نساطيم . وناعبوا للقيام بالأعمال
التي لابد لهم من القيام بها ، كما أن الحول سيكون أوفر فوه بسبب
العلم وما نعمت به من الراحة أثناء فصل الشتاء .

على أن عبرهم رأوا ان هناك ما هو أجدر من ذلك . ألا وهو
الإحداق بالمدينة في الحال في حركه مفاجئه وعلى غير توقع مبدا .
وقالوا انه اذا أتيح للأهالي فترة من التقاط الأنفاس فسوف يوفر
لهم ووب أطول يصرفون فيه لدعم وسائل دفاعهم . ويجمع الكائب
الكثيره التي استدعوها لمعونتهم .

ولقد غلب في هذا الاجتماع اليام رأى الفريق الثائل بوجرب
انبادره الى حصار المدينة وأن الخطر في ارجاء الفال ، وأن القوات
التي ترسل للاستكشاف لا ينبغي ان تفصل بقصيا عن دس ،
وذلكما اهتم الآراء جميعا على الرجوع على المدينة والدخول في عمليات
الحصار في التو واللحظه .

ومن ثم فقد فوصدوا حمايتهم يوم ١٨ أكتوبر ورحلوا سطر
مدينة أنطاكية حتى صاروا أمامها ، وعلى الرغم مما قيل من أن
القوات الصليبية التي كانت تحسن استعمال السم كانت تباغ
ثلاثة آلاف شخص ليس بينهم امرأة ولا طفل . الا أنه كان من
المستحيل على الجيش أن يحيط بالمدينة احاطه كامله . ذلك لأنه
بالاضافة الى قمم الجبال التي قلنا انها تقع في منطقة الأسوار والتي
لم يذل أية محاولة لطويقها ، فان هذا الجزء من المدينة مصد من

سفع الجبل الى الهر - وهو جزء أكر انبساطا - لم يكن فى الامكان الاحداى به بحصار مسنمر .

ولقد صحب وصول الجيش الصليبيى والعمل فى اقامه المعسكر كير من الجلبة ، وكان مخبل للسامع أن نفخ الأبواى ، وصهيل الخيل ، فعقة السلاح ، وهى مخلطه بصحات الرجال ، فد بلغ عنان السماء ، ومع ذلك فقد ساد المدينة صمت مطبق خلال ذلك اليوم بطوله والأبام النالبة لوصول حبشسا ، ولم يردد فيها صوت أو سميع نامة من أى نوع ، حى لقد كان يخبل للمرء أن المدينة خلت باما من كل مدافع عنها ، رغم أنه كان يقوم على حراستها أعداد كبيرة من الحرس ، ولديها الكير من الميرة والمثونة .

- ١٣ -

كان فى هذا القسم من أنطاكه - الواقع فى السهل - خمس بوابات ، واحدة منها فى الموضع الأعلى من الناحية الشرقية - وتعرف الآن ببوابة العديس بولس ، نسبة الى أنه بوجد فى المنحدر الذى فى أعلاها دير مكرس للحوارى المسمى بهذا الاسم . كما بوجد أمامها مباشرة بوابة أخرى تعرف بالبوابة الغربية ويفصلها عنها منطقة تمتد بطول المدينة ، وهى المعروفة الآن ببوابة العديس جورج والتي هى على مقربة من موضع كنيسة هذا الشهيد .

أما من الجانب الشمالى فكانت هناك ثلاثة أبواب بطل جمعها على النهر ، وتعرف العليا منها بباب الكلب ، وبوجد أمامها مباشرة جسر يجتاز المشى ويكمل السور ، وأما الثانى فيعرف الآن بباب

الدوق وبيعدان قدر ميل عن النهر ، ويطلق على البواب اسم باب الجسر اذ يوجد هنا الجسر الذى يعلو النهر ، وذلك لأن مياه النهر تلطم الأسوار ولا تبرد عن المدينة فيما بين بوابه الدوق المسار إليها حالا الواقعة فى المصنف ، وبين آخر بوابه فى هذا الجانب .

ولما كان من المسحيل على الجيش الوصول الى هذه البوابة أو بوابه القديس جورج الا عبر النهر فلم يصرب الحصار على هدير البابين وان أحيط بالأبواب الأخر العلوية ، فقام بوهيموند ومن انضموا الى معسكره منذ البداية بمحاصرة أعلى هذه البوابات .

وكان حوله - وان كان أسفل منه - عسكر روبرت دوق نورماندى . وروبرت كوت فلاندرز ، وسبعين كوت بلوا ، وهيخ العظيم ، وقد اسنم هؤلاء القادة بمن معهم من جماعاتهم النورماندية والفرنجية والبريطانية فى حصار الناحية الممتدة من معسكر بوهيموند الى باب الكلب الذى أحرق به ريموند كوت بولور وأسف بوى وغيرهما من النبلاء الذين ساروا تحت قيادتهم مع حشد كبير من الجاسكوس والبروفنساليين والبرجنديين ، وكانت جموعهم تشغل كافة المطعة حتى البوابة السابعة .

وقد أقام الدوق حودفروى معسكره فى تلك الناحية الأخيرة ، وكان معه أخوه أسباس ، وبلدوين دى هيبولت وريارد دى نول . وكونون دى موناج ، وكلهم من الكونتات والمحاربين ذوى الشهرة المدوية ، بالإضافة الى غيرهم من النبلاء الذين انخرطوا تحت راية الدوق منذ البداية ، فشنغلوا بمن معهم من عساكرهم اللوبارجسين والفريزيين والسوابيين والسكون والفرنجة والبافارين كل ما بقى من الناحية تقريبا حتى باب الجسر ، وقد وضع هذه القواب على هيئة مثل ، تمتد رؤوسه بين المدينة وبين النهر الذى يغسل

أسوارها ، وبين معسكر العواد الآخرين ، وكانت توجد في هذه
الناحية الأخرى التي أحسها حششا عن آخرها وانحذ مما حصل
عامة منها ما ريس بحميه ويحمى حموله .

★★★

كان أهل البلد يطلعون من خلال الفحات الموحدة في الأبراج
والاسوار الى المعسكر ، فأدهشهم برقى أسلحتهم الذي يخطف الأنظار
وأدهلهم نشاطهم في عماهم ساطا لا يعرف الكلل ، وطريقة اسكانهم
من معهم ، وبربيتهم خيام المعسكر ، كما امتلأت بقوسهم خوفا مما
ساهدوه من كثرة الجنود وقوتهم ، ولما راحوا بفارغون حاضرم
بما صدمهم ، والاختار الذي يهددهم حاليا بما كانوا يعملون به من
استتباب الأمن نملكهم الفزع على نساءهم وأولادهم وبيوتهم التي
درحوا فيها ، وعلى حريتهم وهي أعلى ما يملكه الانسان ، ورأوا أن
من اضطفتهم الموت أسعد حظا منهم لأنهم لم يكابدوا الحظر الشديد
الذي يكابدونه هم من وحودهم في عمرة هذه المصائب ، وهكذا باتوا
يرقبون بين يوم وآخر سقوط المدينة وهلاك أهلها ، وذلك لاعتمادهم
الحارم أن حصارا كهذا الحصار الشديد ، يصحبه مثل هذه الشدة
والرحم ، لا يمكن أن يسهر بهاية الا عن دمار المدينة وضباة
حربها .

- ١٤ -

كانت الحاجة الى حصول من في المعسكر على العلف لخيولهم
والبزة اللازمة لأنفسهم حاملة اياهم على الفيام بطلعات متعددة وراء
النهر ، وقد ذهب بهم السير في بعضها الى مسافات قاصبة ، وكانت

يرجعون بعد كل خروج سالىم عامين . بسبب استمرار بقاء الاعمالى
دخلى المدينة دون أن يجسروا على التجوال فيما حوينا ، حتى ألف
العسكر العبور عدة مرات فى اليوم الواحد رغم أنه لم يكن من
المسئطاع القيام بهذا العبور الا سباحه . وسرعان ما تجلب هذه
الحقيقة للمحصورين ، فشرعوا من جانبهم فى عبور النهر من فوق
الجسر ، ناره جهرا وناره حلسه ، مما أدى الى قتلهم فى احيان
كثيرة الى قتل عدد قليل من رجالنا . أو احيانهم بالجراح ، لأنهم
اعتادوا التجول هنا وهناك دون أن يأخذوا حذرهم ، وكانوا يحرقون
فى أفراد قليل جدا عما يحتاجونه ، وقد اسعد العدو فائده قصوى
من أن النهر كان يعف حجر عره كبرى فى طريق عودة الصليبيين ،
كما أن هذه الصعوبة دأبها هى التى كانت تمنع أهل المعسكر من
معاونة أصحابهم وهم برونهم بفعلهم فى يد العدو ، وأراد القادة
التغلب على هذا الموقف ورأوا الخير فى بناء برج من أى مادة سوف
عندهم . لأنه ان بين مثل هذا البرج نكن مساعدتهم أكثر فعالية
فى القضاء على أحابيل العدو ، كما انه يساعد العسكر على النجاح
فى العودة الى مجسمعاهم ، دون أن يكبدوا الا خسائر طفيفة ،
يضاف الى ذلك أنه يفتح طريقا آمنا ملائما للمشاة اذا ما دعاهم
داع الى الخروج لأمر عاجل ، لاسيما ما يتطلب منهم النرول الى
الساحل .



كان هناك عدد من المراكب راسيا فى النهر وعلى سطح البحيرة
التى فوقهم ، فربطوا هذه القوارب بعضها الى بعض ربطا محكما ،
ثم يسطوا عليها ألواحا سميكة ، ومواد خشبية أخرى يصلح لهذا
الغرض ، وأحكموا شدها بعضها الى بعض احكاما كبيرا بجبال
مجدولة من الصنصاف ، وبذلك وجد جسر قوى كاف بما لان يسع

فى المره الواحده عدة أسحاص يعبرونه جببا الى جب ، فكان هذا البناء الخشبى ملائما كل الملاءمة لرحالنا ، وكان منصوبا قرب معسكر الدوق فى مواجهة البوابة البى خصصت له للمراعبة ، وعلى مسافه عرب من ميل من الجسر الحجرى المتصل بالمدينه ، ولا نزال هذه البوابة التى ذكرناها حالا تسمى ببوابة الدوق لارتباطه بها . اذ كان معسكره يشغل كل الناحية الواقعه بينها وبين الجسر الحديث البناء ، ولم يكن يشاركه فى هذا الموضع مشارك .

لم يكن الخطر يهدد الصليبيين من هذا الجسر وحده أو من ناحيه البوابة المنصلة به وحسب ، بل كانت البوابة العليا التى كانت السالبة فيما وراء ذلك ، والمعروفة اليوم بباب الكلب ، بعد مصدر خطر حسم يهدد فواننا ، لأنه كان فى هذا الموضع - كما قلنا - جسر صخرى يمتد فوق مسننec ويخرج من المدينه ، وقد تكون هذا المسننec من المياه المتدفقة بلا انقطاع من المنبع الموجود عند البوابة السرفسة ، أو بوابة القديس بولس ، وكذلك من المياه الواصلة على الدوام من الروافد الأخرى ، وكثيرا ما جاء عن طريق هذا الجسر غارات جمة فى منتصف الليل ، وأخرى وحائية بالنهار ، وكلها تسنهدف معسكر كونت تولوز الموكل اليه حراسه ذلك البوابة ، وكان من عادة العدو أن تقحم البوابة ويصب وابلا من السهام نتهاوى كالطر الدفاق ، مما يؤدى الى مصرع الكثير من رجال الكونت واصابتهم بالجراح ، وكان حل اعماذ الخصم على هذا النوع من الهجوم لأنه يمكنه خير تمكين من النجاة سالما عن الجسر الى المدينه بعد اتمام غارته ، وقتله من قتل ، بينما لا يستطيع الصليبيون مطاردته الا من هذا الطريق ، ومن ثم فقد كانت الجياد والبغال البى فقدها كونت تولوز وأسقف بوى وغرهما من اندلاء المرابطين فى تلك الناحية تجاوز كثيرا ما فقده عسكر القادة الآخريين .

أدت الحسائر السى وقعت فى صفوف المحاربين الناجمة عن هذا الوضع الى استيلاء الهم المقيم على الكونب والأسقف المعظم ، ومن ثم فقد استدعيا رجالهما ، ووجهاهم للحصول على مجبات وآلات حديدية ، وتوحيد جهدهم لحطيم الجسر ، فلما كان اليوم المحدد لذلك الأمر قدم الفرسان وعليهم رردياهم ودروعهم ، وقد عطوا رؤوسهم بالمعافر ، وتجمعوا عند الجسر ، وحاولوا هدمه بكل ما فى طوقهم من قدره لكن هذا البناء الأصم كان أقوى من كل حديد ، فقاومهم واسعصى عليهم . كما راح الأهالى يعرفلون جهد العسكر اد يرموهم بالحجارة ويمطرونهم بوابل من السهام والشباب . فلما رأى الصليبيون فشل أنفسهم فى محاولتهم هذه تحولوا عنها الى أخرى مخلقة لها ، فقررروا اقامة آلة حربية فى مواجهة الجسر مع وضع حراسة مسسرة من رجال مسلحين ، لس لهم من عمل سوى صد الهجمات السى يسنها المحاصرون . وجمعوا اد داك كل ما تحتاجه هذه الحطة . كما جاءوا بالعمال ، ولم نكد نقضى غير أيام فلائل حى كان العمل قد أنجز ساما على أحسن ما يكون الانجار ، فقد نذل العمال جهدا شافا ، وواجهوا الأخطار فى حرهم الآلة الى موضعها حتى قامت أمام الجسر كالصرح المرد ، وعمد بها الى حماية الكونت وملاحظته .

فلما رأى البلديون الآله منصوبه الى الاسوار . لم يحجموا عن المخاطره فصبوا آلات رميهم اليها ، وحاولوا اضعاف آلسا النى راحوا يصبون عليها وابلا غير مقطوع من فداثهم الحجرية الضخمة ، كما شرع الذين فوق الاسوار والأبراج يعوفون ببالهم وسواها من أنواع السهام ، ويرمون بها رميا شديدا يبقون بها من هم حول الآلة لردوهم عن الجسر .

وهكذا استمر المدافعون الواقفون على الأسوار في سن عارابهم من كل ناحية . وفي صبح وابل من السهام والصخور يأخذ بعضهم بحجر البص الآخر أملا منهم في رد الصائحين إلى الورا ، ولو قليلا ، على حين اندفع غيرهم لفتح البوابة في كرة غنيمة استولوا فيها على الحرس عموه ، وسعوا طريقهم إلى الآلة يقابلون من بعضهم . وسبقوهم مسرعة في أيديهم ، ودهزحين من وكلب الهم حمايتها . ثم أسعلوا النار فيها حتى أحوها رمادا ، حينذاك أدرك رجالنا أنهم لن يقدروا على التقدم ان هم اتبعوا هذه الخطه في مواجحه المناعب التي تصادفهم عند الدرج ، ولذلك وما كاد اليوم التالي يطلع حتى كانوا قد افاموا بلب آلات ، وراحوا يصبون منها وابلا موصولا من العدائف . مؤملين من وراء ذلك أن يضعفوا على الأقل الأسوار والبوابه لمنعوا الأهالي من سن عارابهم العدوايه ، وحتى لا يجروا أحد منهم على الخروج من تلك البوابه طالما أن الآلات مستمره في عملها ، ولكن لم تكن هذه العمليات لتهدأ قليلا حتى يعاود المحصورون هجماتهم ، ويسببون كثيرا من الأذى لمن اقرب منهم من أهل المعسكر .

غير أن هذه الخطه برهت هي الأخرى على عدم جدواها ، فعمد الصليبيون إلى اتباع طريقة اقترحها عليهم واحد منهم ، ألا وهي أحد الأجار الكبيرة وجدوع الأسجار الصلحه التي يعجز المائله من الرجال عن زحزحتها الا بسق النفس وراحوا يدرجونها ناحية البناية . وقام بهذا العمل ألف فارس مدرعين تحت الجيش بأجمعه . حيث حملوا هذه الأشياء فوق الجسر ، وجعلوها كومة كبيرة أمام البناية ، فباعت إذ ذاك جميع محاولات الأهالي في دفعها بالفنسل الذريع وقضت هذه الخطط على كل هجوم فجائي يسنه العدو من هذه البوابة .

وحلب في أحد تلك الأيام أن خرب طائفة من المشاة
والفرسان من حينها ، سلع اللاماته عدا ، وجاورت الجسر الى
ما وراء النماسا للعلف ، ونفروا حربا على عادتهم في ربوع تلك
الناحية بحثا عن الأشياء الضرورية ، وكانت حاجتهم الملحة في
البحث عن الطعام يضطرهم الى سلوك هذا الطريق الذي اعادوه ،
وعادوا سالمين من عدوانهم التي حرقوا فيها يبحون عن الميرة حتى وهم
محملون بأحمال تقال مما يحاحونه ، ومن ثم اعمدوا ان الحظ سوف
يمشي في ركبهم على الدوام ، ولم يحظر على بالهم أبدا امكان وقوع
حادث لهم ، كذلك الأحداث التي بصاحب الخروج في طلب العلف
زمن الحرب ، فحاسبوا الحذر والاسباه الواجبين .

فلما رأى المواطنون هذه الجماعة أرسلوا منهم حشدا كبيرا
لمباغتها ، حتى اذا ما عبرت الجسر الصحري اطلقوا بكل ما أوتوا من
قوة سطر الصليبيين الذين كانوا يحولون هناك دون أن يأخذوا
حذرهم ، فأغاروا عليهم ، وقتلوا أكثرهم ، وأما من قدرت لهم النجاة
فقد لاذوا بأذيال الفرار .

هرب الصليبيون الى الجسر المصنوع من القوارب رحاء الوصول
الى المعسكر ، ولكن الجسر كان مزدحما بمن سبغهم اليه ، واد ذاك
حاول أكثرهم عبوره عن طريق المخاضة ، فابلعهم الموح وكان
نصيبهم الموت بعد أن كان يراودهم الأمل في النجاة ، وأما من سواهم
فقد ندافعت حشودهم الكسفة وبراحموا فسقطوا من أعلى الجسر
في البهر ، فصرعتهم الأمواج ، وقذفت بهم الى الأعماق التي فغرت
لهم فاما وأبت أن تردهم .

حين سمع الجيش خبر هذه النكبة هب آلاف من الفرسان إلى أسلحتهم وعبروا النهر ، فأعرضهم العدو وهو عائد بعد فله الصليبيين فرحا بما وقع في يده من العسائم ، فهاجمه رجالا في الحال ، وراحوا يعصون آثاره في عزم لا يلين ، حتى بلغوا بوابة المدينة ، وكان الخطب حسما . وحين رأى أهل البلد اخوانهم الموطن في هذا الخطر الماعت على الأسى وهم يروحون ما بين فسل وجريح بحركت فلوهم عطقا عليهم ففتحوا الباب ، وجمعوا عبر الجسر الحجري ، في جموع كفيه لمد يد المعونة إلى أصدقائهم ، وشنوا هجوما سديدا - لم يؤلف منهم من قبل - على فواننا التي فاومت في بداية الأمر معاومه شديدة ، لكن ما لبس أن تعلبت عليها الجموع الكبيفة ، فولوا على أدبارهم هاربين ، وجد الخصوم في اثرهم حتى بلغوا الجسر المصنوع من العوارب ، ومات في هذا القتال كبير من مشائنا بحد السيف ، وابتلعت لجة النهر العديد غيرهم ، كما اضطربت صفوف الفرسان وهم يهربون من العدو وراح بعضهم بزاحم بعضا ، فسمطوا هم أيضا في النهر ، وفد أنفلتهم الدروع والزرديات والخوذات التي عليهم ، فابلعهم اليهم هم وخبولهم ، ولم يعودوا فط للظهور .

وهكذا كابده رجالنا من الحصار أهوالا لا نقل عما كان يكابده من كانوا وراء الأسوار ، ولم يعودوا قادرين على التخفي في خروجهم إلى النواحي التي حولهم بل أصبح أمرهم مكشوفاً لأهل البلد الذين بذلوا من جانبهم كل محاولة لصددهم ، وحدث في نفس الوقت أن أخذت قوات معادية أخرى تنربص بهم في الغابات وتنرصدهم في الحقول ، وتنصب لنصيدهم الكمائن التي كبرا ما صادفت النجاح . ونرتب على ذلك أن فقد رجالنا الجرأة على الخروج من معسكرهم ، أو الذهاب بعيدا في طلب الطعام كما لم يعد المعسكر ذاته مكانا

أما لأن الجمع صاروا في فرع من ان ناعيم على عره القوه الضحمة - التي قبل أن العدو قد أحد في جمعها من نواح معدده .

هنا قد يسأل الرجل العاقل : أي الحالين كانت أحسن من غيرها ، وأياها كانت مبعث فرع « حالة الجنس المحاصر أم أولئك الذين كان المفروض فيهم أن يكونوا محاصرين ؟ » .

- ١٧ -

لو حاولت ان أذكر بالفصل الالهوال التي كانت تقع عالما كل يوم في الأماكن المختلفة بسبب هذا الحصار العنيف الطويل الأمد لكان أمرا يطول شرحه وليس موضعه في هذا الموحر البارحي الذي أحاول أن أنجزه بكل الدقة ، فلنجاوز الأحداث الخاصة وسأبم مجرى الحوادث العامة .

حينما دخل الحصار شهره السالب مع قلب الحطوط في هذه الحرب المستمرة أخذ الطعام في النافص في المعسكر وعانى الجيش الأمرين من فله المثنونة .

في البدء كانت هناك وفرة بالغه الضخامة في كل سىء تمس الحاجة اليه من طعام الانسان وعلف الجياد ، ونوهم الناس - حريا على عادة الجهال - أنهم سوف يظلون ناعمين بهذا الوضع السوى . غير متوقعين أى عناء قد يلم بهم ، ومن ثم لم يحسنوا الصرف فيما بين أيديهم من خيرات ، مما ترب عليه ان أبوا في وف وحير على ما لديهم من طعام كان المفروض فيه أن تكفيهم أناما طوالا لو أنهم ألزموا الاعتدال في استهلاكه ، لكن لم يكن هناك حد لاسراف

الجند ، ولم يلزموا القصد الذى هو سمه العقلاء ، بل كان ثم بدح
سببه فى كل ناحيه ، بعدى ضرورات عيش الإنسان الى علف الجياد
ودواب النقل ، ولم يعرفوا الوسط فى أى شئ مما نجم عنه أن أصبح
الجيش بأجمعه موشكا على الفناء ، وذلك بسبب ما رتب على اشجار
المجاعة من صاؤل عدد المحاربين ، وحيداك نودى فى الناس بعقد
مجلس عام يصممهم جميعا ، وفرروا بقسم كل الغنائم التى يقع فى
أيديهم فسمه عادله ، وأكثروا فرارهم هذا باليمن فطعوها على
أنفسهم ، وكونت لذلك عده كتاب فوام كل منها ثلاثمائة أو أربعمائه
رحل ، خرجوا معا وراحوا بدرعون الناحه بأكملها فى محاوله منهم
للحصول على الطعام بأى وسيله يقدرون عليها .

واعباد هؤلاء الباحثون عن الطعام ان يعودوا وفد فاضت أيديهم
بالأسلاب الكبيره ، والغنائم الوفيره ، والمثونه الضخمه ، وكان ذلك
فعل أن يأخذ أهل البلد أنفسهم بمهاجمه هذه الجماعات ووضع
الكماثن لها ، وأيضا ابان الوقت الذى كان فيه الاقليم الذى حولهم
لا يزال غاصا بقطعان الماشيه والأغنام وأحمال الحبوب والشراب
وغير ذلك من العلات ، وكان هذا هو السبب فيما أشربا اله من
قبل من وفرة المثونه فى المعسكر ، أما الآن فقد غاضت موارد الأراضى
المجاورة ، ونقصت غلاتها ، أضف الى ذلك أن الترك الذين كانت
شوكتهم قد ضعفت من جراء ما اسنولى عليهم من خوف أذل نفوسهم
عادوا فاستردوا بأسهم وشجاعتهم فى الدفاع عما يملكون ، وأصبح
العلافون يعودون [للمعسكر] صفر الأيدي ، وكثيرا ما كان يحدث
أن يقتل الخارجون عن بكرة أبيهم فلا يبقى منهم أحد يحدث عما
كان مصيرهم .

أخذت الذخائر تقل يوما بعد يوم ، وعمت المجاعة حتى لم
يعد من البسير الحصول بشلتين على الخبز الذى يكفى لوجبة الشخص

فى يوم واحد ، وأصبح ثمن الفره أو العجله ماركين بعد أن كانت
بباع من قبل بحمسة شلنات ، ولا تكاد الساسة شلنات تكفى لشراء
علف وجبة واحدة للحصان فى ليله واحده ، وكان الجيش قد جلب
معه أكثر من سبعين ألف حصان لم يبق منها فى المعسكر سوى
ألفين أو أقل ، أما البقية فقد هلك بربدا ، ونفعت جوعا ، أما مالا زال
منها حيا فقد أخذ عدده فى النناقص شئنا فشئنا . وأصابها الهزال
بسبب الجوع والبرد المهلك .

يضاف الى ذلك سرب الرطوبة والعفن الى الفساطيط والحم
حتى لقد هلك الكيرون ممن كانت لا يرال عندهم الأطعمة ، لأنهم
لم يعودوا قادرين على تحمل البرد الشديد ، وليس عندهم من غطاء
يدفع عنهم رمهريه ، وهطلت الأمطار الغريره فأفسدت الطعام ،
وبعثت الملابس ، ولم يعد ثمة مكان يستطيع الحجاج ان يسندوا
رؤوسهم اليه أو يكوموا حاجاتهم فيه .

وقد رتب على هذه الظروف ان تعشى الوباء فى كسائب
العسكر ، وكان وباء فائلا لم يحدوا معه مكانا يوارون فيه حفر
مواهم ، ولم يستطيعوا اقامة الشعائر الخناثرية لهم .

أما الدين كانت دلائل الصحة لا يرال بادية عليهم فقد فروا
خفة حتى لا يقعوا فريسة لهذا الطاعون المهلك ، فهرب بعضهم الى
لورد بلدوين فى الرها ، وبعضهم الآخر الى صليقيا عند حكام مدنها ،
ومضى آخرون غير هؤلاء وهؤلاء الى الواحى البى كانت قد آلت الى
حكم الصليبيين ، ونجم عن رحيل هؤلاء ، وهلاك من ضله الجوع
وأفناهم المرض ، ومن قتلوا بالسيف ان نضائل الحيس الى الحد
الذى قل معه عدد الأحناء منهم عن نصف ما كانوا عليه .

تدبر فادة الرب المخلصون ماران على الناس من الحزن ، وفكروا فيما شاهدوه من الأهوال التي ألأت بهم ، ففاضت نفوسهم حسره ، وتشيفعت أكبادهم أسي على هذا الجيش المنكوب . فاجتمعوا كدأبهم للشياور في ايجاد علاج يدفع هذه المصائب المهلكة واسعروضوا مختلف الاقتراحات ، حتى استقر الرأي بهم أخيرا على خروج أعظم قادتهم بطائفة من الجند لشن حملته على أرض العدو ، بسولون فيها على الماسية ، ويهبون ما يهدرون عليه من الطعام اللارم ، على أن نعيم النقيه البافيه من الرجال في المعسكر أساء عياب هؤلاء الرجال ، وان تبدل هذه البعنة النافيه عايه الجهد في حمايه الجيش ، وانفعوا على أن يكلوا مهمه حلب المثونة الى بوهيموند وكونت فلاندرز ، وأن يبقوا كونت بولوز وأسقف بوى لحراسة المعسكر ، وكان كونت نورماندى غائبا اذ ذاك ، كما كان جود فروى دوق اللورين ملارما للفراس لاصابه بمرض شديد ، فاستصحب الفائذان معهما طائفة كافة من الفرسان والجود المشاه بقدر ما استطاع الجيش المنهوك امدادهما به ، ودخلوا أرض العدو .

ما كاد المحصورون يعلمون برحيل بوهيموند وكونت فلاندرز ، وبغياب كونت نورماندى ، وبمرض الدوق حتى دبّت فيهم الشجاعة على غير عادتهم ، واغتنموا الفرصة لمهاجمة معسكرنا ، يعيا منهم جميعا بأن نغيب هؤلاء القادة انما هو فرصة لا يجوز أن نغلب من أيديهم ، فاستندعوا من المدينة حشدا كبيرا من شسى صنوف الناس واطنمعو كلهم عند الجسر وكان مدخله مقفوحا . فراح كل واحد منهم يزاحم الآخر ويدافعون في اجتياز النهر : البعض منهم عن طريق الجسر ، والبعض الآخر عن طريق المخاضة السعلى في محاولة

منهم لمهاجمة معسكرنا ، ولكن الكونت تصدى لهم بكيفية من
الفرسان ، فاصطرمهم الى الاربداد الى المدينة وقد قعدوا رجلين من
رجالهم .

وحدث في أثناء هذا الخروج أن حاول بعض فرسانا الاستلاء
على جواد كبا براكيه فسقط عنه ، فلما رأى الحشد العيس - الذى
لم يعد يحسن التفكير - هذا المطر خيل الوهم لهم أن الفرسان قد
فروا خوفا ، ومن ثم قعد لادوا هم أبصا بأذيال الفرار ، وزاحم
بعضهم بعضا عن كعب ، فكان في ذلك هلاكهم بأيديهم ، وسرعان
ما أدرك المواطنون أن الحجاج يولون الادبار دون أن يدفعهم أحد ،
فاندفعوا مرة أخرى فوق الحسر ، وهاحموا الثاريس بسيفهم ،
وبلاحموا واياهم ، ففروا منهم فنعقبوهم من الحسر الصحرى حتى
بلعوا حسر المراكب ، وهنا كان الخطب جسيما ، فقد اندفع رجالنا
وزاحم بعضهم بعضا حتى سدوا الطريق على أنفسهم ، فهلك منهم
خمسة عشر فارسا وعشرون من الجند المشاة ، قد هبرت بعضهم
السبوف فمانوا بجدها ، وغرق البعض الآخر في النهر ، فملأ
الفرجة الكرى قلوب الأعداء بهذا النصر فانكفأوا الى المدينة فذ
أسكرهم البصر .

- ١٩ -

فى هذه الاناء خرج بوهيموند وكونت فلاندر بموافقة الجمع
على رأس طائفة من الجند ، فى حملة لجلب الطعام ، مؤملين أن
يعودوا بوفرة ضخمة من المثونة حتى يبدوا ما نزل بالمعسكر من
الضيق ، وقد أدت غدواهم الحسنة الطالع فى أرض العدو لقليل
نكباتنا ، لأنهم اسولوا على منزل للعدو راخر تماما بكل ما هو ناعم .

وأرسل بوهيموند جماعة من الكشافه الى مختلف النواحي ،
لمقصى أخبار الساحيه ، ثم الرجوع اليه بالغنيمة ان نهيأ لها العنور
على عبيمة ، فلما رحعوا اليه أنبأه بعضهم أن عددا كبيرا من الأبراك
قد نصبوا خيامهم في تلك الضاحية ، فما كاد يسمع ذلك حتى بادى
فأرسل ضدهم كونت فلاندرز مع حرس قوى ، ثم ما لبث أن مضى
هو ذاته في أثرهم على رأس الجيش الأصيل لمساعدتهم ان كانت
ثمة حاجة الى مثل هذه المساعدة ، ولكن لما كان الكونن رجلا شجاعا
ومحاربا عظيما ، فقد استبسل في مهاجمة الأعداء ، ولم يعد الى
بوهيموند حتى كان قد أفضى من الكفار مائة ، فلدت بعينهم بأذيال
الفرار ، وبينما كان راجعا الى الجيش الكبير مجللا بالنصر ، جاءه
الكشافه الآخرون وأخبروه أن حوه من العدو نزيد عن سابقنها في
لمقصى أخبار الساحية ، ثم الرجوع اليه بالغنيمة ان نهيأ لها العنور على
العدد والبأس ننقدم من ناحية أخرى ، فبعث لصددهم طائفة مع
الكونت ، ثم مضى هو ببقية عسكره وراءه ليكون على أهبة لبعده
ان اسنلزم الأمر النجده ، وشاء رحمة الرب الى كات هدى
لفواننا - أن يتردى العدو في بعض الشعاب الصيقة فانكأ راجعا
هاربا ، اد أدرك ان لن نجدى الأفواس ولا السهام بقا في هذا
الغزال ، ولكن سيكون السيف هو العصيل في هذا الصراع وجها
لوجه ، وهو نوع من القمال ليس بالمألوف عند العدو الذى ولى حنذاك
على ادباره فارا فجد الصليبيون في تعقبه مسافة ميلين ، وأوردوا
الكثيرين من رجاله حنقهم ، ثم عاد رجالنا الى معسكرهم سالمين
عانين ، وجاءوا معهم - كرمز لانتصارهم - بالكثير من الجبال والبغال
وغيرها من الأسلاب ، ومجمل الفول أنهم عادوا بكل ضروب الغنائم
الى استولوا عليها من شتى نواحي الاقليم المحيط بهم .

ولقد بث نجاحهم الفرحة العظمى في نفوس اخوانهم الحجاج ،
وأناح لهم الفرصة للاستجمام وان كانت قصيرة يسنريحون فيها من

بعضهم ، على أن الغنم - مع هذا كله لم يكن صخمة جدا - بد
أنها كانت على أنه حال كافة لموس حموعهم ولو لصعه أيام
ولاثل ، ومن ثم فانه لم يهنا للجش أن يحصل تماما من ماعبه •

- ٢٠ -

وحاء في هذا الوقت من أرض رومانيا (١) حبر محزون ملؤه السحو
والعزع ، فسب الذعر في أفئدة الجمع وزاد من قسوة وصعهم
الباعث على البأس •

لقد كان الحبر الذي ثبتت صحته كما يل : -

كان هناك رجل شديد السطوة رفيع المكاة في فومه يدعى
رفين (وهو ابن ملك الدنمركين) ، قد جمع الى كرم الحسب حسن
الحلق ، وبهاء الطلعة ، لكنه ، كان يتحرق شوقا للقيام بنفس هذا
الحج ، فأسرع ليساعد في حصار أنطاكية على رأس ألف وحسمائه
شاب من نفس الأمة خرجوا وعليهم من السلاح أحسنه ، واذ كانت
مغادرته مملكة أبيه بعد فترة من خروج الآخرين فقد راح يسرع
الخطي ما وسعه الاسراع ، عساه يمكن هو ومن معه من الانضمام
الى الكنائب التي سبقه ، غير أنه اشغل بأمور خاصة به عاقت
خطاه وعجز عن مغالبتها ، وكان أملاه ان يغلب عليها فأخر ، فسار
وحده على رأس قواته الخاصة من غير حراسه من أى احد من القاده
الآخرين ، واقتفى أثر من سبقوه ، فبلغ القسطنطينة التي رحب

(١) لعل يقصد به حراما آسيا الصغرى •

به امبراطورها أعظم ترحيب ، ثم تابع سيره حتى بلغ بيفيه سالما ،
ثم أعذ المسير نحو الجيش فدخل أرض آسيا الصغرى فى جميع
خاصته ، وعسكر دون أن يأخذ حدره - بين مدينتي «فيليو ميلنام»
و «يرما» ، فخرج عليه قوة كبيرة من الأتراك ليلا وباعسه فحاه ،
وأحده على عره فمسله فى فسطاطه ، واسيعظ جماعته للأسف
متأخرين على جلبه العدو المقرب ، فهبوا لحمل سلاحهم ولكن كاه
الوقت قد فاب اذ هاجمهم العدو قبل ان يأخذوا أهبتهم نماما لصدده
وفك بهم جميعا وان كانوا رغم ذلك قاوموه مقاومه بطولية طويلة ،
وأحرز العدو النصر ، ولكنه نصر ملطخ بالدماء ، وبذلك لم يضح
رجال [رفين] بأرواحهم هباء •

- ٢١ -

كان الامبراطور كما قلنا من قبل عين نانكيوس نائبا عنه ،
ومرسدا للحجاج أساء رحفهم ، فطل حتى هذه اللحظة مصاحبا
للعسكر الحجاج ، أما الآن وقد رأى المصاعب المحدقة بهم فقد
ساوره الخوف - لجبن طبع عليه - ألا يستمر القادة فى حجهم •

وتوقع يوما يهلك فيه الجيش كله بسيوف الأعداء ، ومن ثم
جاء الى مجلس اجتمع فيه القادة ، واجتهد غايه الاجتهاد لبحمانه
على النخلي عن الحصار ، ونوجيه الجيش كله الى المدن والعلاع القريبة
منهم لأنهم واجدون فيها المثونة بوفرة رائدة كما انهم يستطيعون
هنا ان يسمروا فى مضايقة أهل أنطاكية لأن الامبراطور كان قد
جمع لمساعدتهم حشودا من أمم شتى بلغت آلاف لا يحصيها العد
وأعدها كى تصلهم مع مطلع الربيع ، وأضاف تاتيكيوس الى ذلك

أنه لما كان قد عزم منذ البدايه على أن يشاطرهم مساعيهم ، وأن يكون معهم فى السراء والضراء ، وفى العسر واليسر فانه يريد أن يقوم بمهمة أكبر مما عهد العيام بها ، وبسهدف الصالح العام ، فذكر لهم أن قصده هو أن يذهب لحطه الى الامبراطور لحت الجيش الامبراطورى على الاسراع ، وان يعد المثونه اللارمة من الطعام ليجملها معه من الباحية التى على هذا الجانب من المدينه فلم يعارضه أحد من قادسا ولم يرفضوا اقتراحه ، رغم أنهم كانوا يدركون مد الوهلة الأولى مكر نابيكبوس وخياسه التى حاول سترها بما زعمه لهم من دعوى بحملهم على تصديقه ذلك أنه نرك معسكره وجاسا غير صئيل من أتباعه لم يئسصحبهم معه ، والحق أنه لم يفعل ذلك الا لأنه لم يكن نعباً بما فيه سلامتهم أو ربما لانه أوعز اليهم سرا أن يرحلوا فى أثره ، وحعل بننه وبينهم موعدا يوما يلقاهم فبه عند مكان حدده لهم .

ورحل نابيكبوس مدعيا أنه عائد اليهم عن قريب ، لكنه لم يأت بعد ذلك أبدا ، فدل ذلك على لؤم نفسه ، وخبث طوييه ، وبكه لعده ، وأنه بذلك يستحق الموت الأبدى .

لعد كان رحيله سابقه مؤذيه فلم يعد القادرون على السئلل خلسه من المعسكر يعبأون بما قطعوه على أنفسهم من الإيمان ولا بكرنون بالعهود الفويه التى أخذوها على أنفسهم منذ البدايه .

وكانت المجاعة فى نفس الوقت تزداد افحاشا وبفسيا ، وعجر القاده عن ايجاد حل بات ينفذهم من هذا السر المستطير ، فنحروا من بسهم جماعة انفعوا على أن يرحر منهم كل اثنين معا مرة بعد الأخرى بقوات كبيره الى أرض العدو ، وغالبا كانوا يعودون الى قومهم منصرين ، وان لم يغموا شئنا وليس معهم شئ من الميرة التى كانت حاجتهم الها ملحة بل يعودون صغر الأيدي ، ذلك أنه كان قد نرد

بين العدو نبأ اعتباد خروج الصليبيين وشبههم الهجمات ، فبادر الأعداء
لنقل قطعانهم ومواشيهم وغيرها مما يملكون من صوف الجوان الى
الجلال التي لم يكن ثم سبلية لافتحامها ، ولم يكن الصليبيون فادريين
على التوغل في تلك النوحى البعيدة التي اعصم خصومهم بها ، وحى
لو قدر لهم أن يجحوا في الوصول اليها فانه لم يكن من الهين أن
يغنموا شيئا .

- ٢٢ -

كانت المجاعة اذ ذاك تزداد تعشيا وشدة في الجيش يوما بعد
يوم مما نجم عنها انتشار الطاعون وكثير من الأمراض الأخرى ،
ونسب أصحاب السن الكبيرة وأهل الحبرة الواسعة هذه الأحوال
الى خطايا الناس ، وان الرب استنشاط غضبا منهم ، وحق له أن
يفضب ، فصب سوط عذابه على أطفاله المارقين لذلك احنموا
فبما بينهم للساور فيما يفعلون ، وخافوا الله كانه أمامهم يروه
رؤيا العين ، وشرعوا يتحاورون فيما يجب عليهم ، فرأوا أن يبادروا
بالتكفير عن آثامهم واعلان توبتهم الصدوق ، ولارحوع عن أخطاء
الماضى ، وتجنب الوقوع فى مثلها فى المستقبل ، مؤملين من وراء
ذلك أن يفتأوا عصب الرب . واذ ذاك قام صاحب الشرع فنههم أسفف
بوى نائب الكنيسة الرسولية وسواه من كبار رجال الدين أحباب
الرب ، وأجمعوا الرأى على مطالبة الجيش كله وأمراؤه العلماسين
بصيام ثلاثة أيام عسى أن يكون تعذيبهم الجسد مؤديا الى شسده
عزائهم ، فلما فعلوا ذلك مخلصين صمموا على تطهير المعسكر من
كل عاهرة وامرأة كريهة السمعة ، وجعلوا الاعدام عقوبه للفحشاء
والفجور بنسبى أنواعه ، وصدر قرار الحرمان على المجان والسكيرين ،

ووقع تحت طائلة هذا العقاب شتى أنواع ألعاب العمار والعسم
بالأيمان الكاذبة والتطفيف في الكيل والعش في المفايس ، وكل
صروب الاحسال من سرقة العير ، وهبهم ، وسلمهم .

ولما تقرب هذه المواعد ووفى عليها بالاجماع عينوا فصاه
وكلوا اليهم مرايه هذه الآنام ، ومحوهم كل السلطة في الكشف
عن أصحابها ، وارتال العقاب بهم مما لبسوا أن وجدوا بعد قليل
جماعة شحبت هذه القوانين ، فلما قامت البينة على هؤلاء الخطاه
سهر بهم شهيرا قاسيا ، وأدانهم الفضاة ، وحكموا عليهم بأقصى
ما يقضى به القانون تنعا لنوع الجريمة التي ارتكبها الواحد منهم .
فارتدع سواهم وكفوا عن اصراف جرائم كهذه الحرائم .

وهكذا عاد الناس برضوان الله ورحمه يجنون ثمار الحياه
الطاهره وهدأ عصب الرب عليهم ، وبجلى هذا في أن أحد اللورد
حود فروي - الذي كان وحده أشبه بدعامة الجيش كله - في البعاة
واسرداد صحبه تماما ، وبعاى من وعكه الحاده التي آدته طويلا
بسبب الجرح الذي أصابه من الدب في بسبديا من صواحي
أنطاكية ، وكان شفاؤه عزاء كبير للمحاربين في محنتهم .

- ٢٣ -

ترددت في هذه الأثناء اشاعات وأخبار رن صداها قويا في
كافة أنحاء المشرق ، وجاورنه حتى بلغت ممالك الجنوب والشعوب
الأخرى الخارجة مفادها أن قوات كبيرة من الصليبيين زحف حمر
بلغت أبواب أنطاكية وأنهم كانوا يدا واحدة في حصارهم اياها

فخاف كل حاكم على بلده ، وباروا ، فاندس الجواسيس يسملون الى جيشا الوافد للوقوف على التفاصيل الدقيقة حول أسلوب هذا مزودين بالفارير عن أحوال المعسكر الصليبي الى من دسوهم علينا ، ثم يحل سواهم مكانهم لنفس العرض ، ولم يكن دون أن يتعرف عليهم أحد لأنهم كانوا ينعون عده لغات ، فرغم البعض منهم أنهم اغريق ويزعم سواهم أنهم سريان ، ويدعى غيرهم أنهم من الأرمن ، ويصطنع جميعهم في يسر وسهولة ما لهذه الأمم من خصائص في لهجتها وعاداتها وزيتها .

لذلك اجتمع القادة للنظر فيما ينبغي عليهم اتخاذه لتأمين السلامة العامة من هذه الناحية ، ولم يكن من اليسر اخراج هؤلاء الجواسيس من المعسكر لأنهم كانوا قل ان يختلفوا - الا نادرا - عن أهل هذه الأمم النى ذكرناها : لغة وعادات وتقاليده ، فرأى القادة أن يوقعوا ما يرون من عقاب على أفراد فلائذ فقط ، حتى يدفعوا تماما على الاجراءات التى يتم اتخاذها ضدهم جميعا .

كان هناك ما يدعو هؤلاء الزعماء الى النحوف من مغبة معرفه الكيريين بأخبارنا ، والى ما ينخدونه حيال هؤلاء الناس فبنسابع بما اتخدوا من يفلونه الى العدو رعبه فى الاضرار بالصليبيين ، واذا بدا للزعماء صعوبة الوصول الى ما يمنع هذه المكائد منعا بانا فقد قام بوهيموند - ذو الذهن الباقب والفكر الوفاة خطيبا فى الزعماء قائلا لهم : -

« سادتى وأخوتى : خلوا مسئولية هذا الموضوع كلها على عاتقى ، وكلوها الى فانى بعون الله واجده لها العلاج الباجع » .

فوافقوه على ما سألهم وانفض سامرهم ، وعاد كل واحد منهم الى معسكره ، وما كاد الليل يرخى سدوله على المعسكر ويستعدون

لأعداد العشاء ، حي قام بوهيموند - وهو ذاكر ما قطعه على نفسه من عهد - وأمر باحضار بعض الأسرى من الترك الى مجلسه هذا ، وأسلمهم الى الجلالد آمرا اياه بشنعهم ، ثم أوفد نارا عظيمه كما لو كان يهيب العشاء ، وأمر بغسل هذه الاجساد بم سبها على النار ، وألقى بعلمانه الى رجاله أن لو سألهم سائل عن معنى الذى يرون أجابوه بأن الأمراء فرروا من الآن فصاعدا أن نرود موائد القادة بلحوم جمیع الأعداء والحواسيس ، بعد طينها على هذه الصورة •

وانشرت فى جميع أرحاء الجيش أخبار هذه الاحراء الى اتخذها بوهيموند فى معسكره فسابق الجميع الى فسطاطه فى فى دهشه ليشاهدوا هذه الحطة الجديده ، وبملك الفرع من كان بالمعسكر من الجواسيس ، وأيقوا أن ما ظنوه أساعه صار واقعاً ، وأدركوا ما سوف يؤول اليه مصرهم فعادروا المعسكر فى لحظهم هذه ، وعادوا الى بلادهم من حيب أنوا وأجبروا سادتهم الدن كانوا قد بعوا بهم ان لس لامة [الفرنجة] مبل فى الوحسة بين الأمم بل ولا بين الحيوانات المفترسه ، فهم قوم لا يقنعون باحلال مدر عدوهم وفلاعه ، ولا يكفهم أن يعنموا سسى أنواع المباع والرمي بخصومهم فى السجون أو نعديبهم أو فليهم ، بل ان هؤلاء الصليبيين يسعون كذلك لملء بطونهم بلحم عدوهم ، ولعق شحمه •

وانتشرت هذه الشائعات وأمالها ، وتوغلب حتى أقصى بلاد المشرق ، فدب الذعر فى نفوس جميع الأمم ، يسنوى فى ذلك من قرب منها ومن بعد ، كما استولى الخوف على كل مدينة أنطاكية وارتعدت أوصالها فرقا وفزعاً من وحشية هذه الاجراء ، وهكذا أدت احراءات بوهيموند الى التخلص من شر الحواسيس الذين كانوا طاعونا ، وأصبحت خططنا مصونة قل أن يعرف العدو سئنا عنها •

بصاف الى ذلك أن خليفة مصر - وهو أقوى السلاطين المارفين بسبب كثره ما لديه من المال والرجال - كان قد أرسل رسله الى قانا ، وسلخص أسباب بعثه اياهم الى وجود عداوة متأصلة وعميقة الجذور منذ سنوات طويلة بين أهل المشرق والمصريين ، وهى عداوة ناجمة عن اختلاف معتقدايهم الدينية بعضها عن بعض ، ومناييه مذهب الواحد منهم للمذهب الآخر ، وطلب هذه الكراهية دون انقطاع حتى يوما هذا ، ومن ثم طلت هاتان المملكتان بحارب كل منهما الأخرى حربا لا هوادة فيها ، وطلب المنافسة بينهما موصولة فكاتب كل منهما نفسه الى مد حدودها على حساب الأخرى ، كما بنا ذلك بدقة فى الكتاب الأول من هذا التاريخ ، ونأرجحت السادة بينهما على مدى الأيام ، فمكون تارة لهذه وتارة لئلك ، ونكون السجدة أن ما يرداد فى روعة أهلاك واحد منهما ببعض مله من أراضي الأخرى .

أما الآن فقد كانت جميع البلاد الممتدة من مصر الى اللاديه الشام (ونقدر بمسيرة ثلاثين يوما) تحب حكم خليفة مصر ، ولكن حدث قبل ذلك أن قام سلطان فارس - كما ذكرنا آنفا - واسسولى قبل مقدم الصليبيين على أنطاكية المناخمة لحدود المملكة المصرية - كما احل البلاد الممتدة حتى مضيق البسفور ، وكان حاكم مصر ينظر بعين الريبة الى كل توسع من جانب الفرس أو الترك على السواء ومن ثم كانت فرجه بالغة حين جاءته الأخبار بضياغ نقمة من يد قلع أرسلان ، وبهزيمة جيشه فيها ، وأثلج صدره ما علمه من قيام الصليبيين بحصار أنطاكية ، وعد كل خسارة تصيب الأنراك مكسبا له ، ورأى أن المصائب التى تلم بهم نعمل على استنقرار أمه وأمن رعاياه ، وخاف أن تؤدى أهوال طول الحصار الى فنل

رجالاً ، ومن ثم بعث بسفرائه ورجال من حاشيته الى رعمائنا ، يحملون اليهم رجاءه فى أن يستمروا فى حصارهم الذى فرضوه على أنطاكية ، وعهد الى مندوبيه أن يؤكدوا للصليبيين أن مولاهم السلطان سوف يعينهم بالجند والذخيرة . كما حاول هؤلاء السعراء أيضا كسب الزعماء وحملهم على عقد معاهدة صداقة بين الطرفين .

وأطاع الرسل أمر مولاهم طاعة صادقة وركبوا البحر فوصلوا الى المعسكر الصليبي . وهم أحرص ما يكونون على أداء الجزية التى حملوها ، فنلقاهم زعماء جيشنا بما يليق بهم من الحفاوة والتبجيل ، وعقدوا معهم عدة اجتماعات ، ليسيحوا لهم العرصه لابلأغ رسالهم . وأعجب المعوثون بما رأوه من رجالنا وكسرة عددهم ووفره سلاحهم وقوة صبرهم على تحمل الشدائد . كما املأت قلوبهم حزنا من هذا الجيش ذى القوة المتين . لما أحسوه فى فراءة أنفسهم بما يمكن ان يحدث فى المستقبل مما قد يعرض له مولاهم من تجربة مريرة وهو يحاول سرا نزع قوة واحلال أخرى مكانها .

ومجمل القول أنه بعد أن تمكن الصليبيون بفضل الله القدير من فتح أنطاكية ، وردوها الى العقيدة المسيحية وحريتها الأولى أن تحررت كل البلاد الممتدة من تلك المدينة حتى حدود مصر القريبة من غزة ، وهى بلاد تقدر مساحتها بمسيرة خمسة عشر يوما ، وقد أصبحت الآن فى أيدي الشعب المؤمن .

هنا ينتهى الكتاب الرابع

الكتاب الخامس

حصار أنطاكية واحتلالها

فصول الكتاب الخامس

- ١ - أهل أنطاكية يطلبون من جيرانهم مساعدتهم
فيسنجدون لندائهم ويعسكرون حول حارم .
- ٢ - واده جيشنا يركون الرجاله وراءهم لحماية
المعسكر ويزحفون بالخالة ضد العدو
ويعودون منصرفين .
- ٣ - ألقزع الأكبر يستولى على المواطنين لسماعهم
بنكبة حلفائهم .
- ٤ - زعمائنا يشيدون حصنا لهم ، ويصل الى
الميناء سفن من جنسوة ، فيسرع الناس الى

الشاطئ فيقع بعضهم في كمين من الكمائن
فيهلكون .

٥ - خطة رائعة للدوق ثارا لهذه النكبة العادة .

٦ - العدو يعود مكلا بالصر ولكن سيوف
الصليبيين بنوشه عند مدخل المدينة ويهلك
ألفان من رجاله ويوسط الدوق فارسا كافرا .

٧ - رجالنا يقيمون منراسا على رأس الجسر
ويرسلون الى السفن [الجنوية] ما يدل على
انتصارهم .

٨ - احاطة المدينة بقلعة جديدة أقيمت في مواجهة
الباب الغربى .

٩ - العسكر الذين كانوا قد تشرّدوا هما وهما
يعودون الى الجيش ، ويرسل بلدوين الهدايا
من الرها الى كل واحد من الزعماء .

١٠ - عندما ينشر في المعسكر خبر اقتراب جيش
العدو يدعى سيفن كونت بلوا المرض ويمضى
الى الميناء معزما عدم العودة .

١١ - وصف حال أنطاكية ، ووصف الصداقه التي
قامت بين بوهيموند وبين [فيروز] أحد
مسيحيي المدينة .

١٢ - المؤامرة التي تمت على يد الرسل بين بوهيموند
وبين ذلك الرجل الوفى [فيروز] .

١٣ - بوهيموند يبدل جهودا ساهه ليتسلم وحده
المدينة حين استسلامها فيوافق الزعماء
باستثناء كوت بولور .

١٤ - الحلفاء [المسلمون] يحاصرون الرها اساء
زحفهم لنجده أنطاكية لكنهم يضطرون اذا-
مقاومة بلدوين الشديدة الى الارتداد عبر
العلوات دون ان يكذب لهم الجاح .

١٥ - المسيحيون يسعرون بالفرع الشديد بسبب
اقتراب العدو ويرسلون الكشافة للاستطلاع .

١٦ - الزعماء يجتمعون لبادل الرأي فيما بينهم
وبوهيموند يعلن السر الذي اسودعه اياه
صديقه فيروز .

١٧ - الزعماء يسألون عن المدينة لبوهيموند عن
طيب خاطر فيقوم هو بمفاوضة صديقه [فيروز]
في السر بشأن تسليمها اليه .

١٨ - الاهالي يشكون في فيروز فيعلن براءه ساحه
امام والى المدينة .

١٩ - وصف ما كان يكابده مسيحيو أنطاكية من
الارهاب في القيام بأعمال كبره يسوء بها
كاهلهم وكيف فشلت المذبحة التى دبرت
للقضاء عليهم .

٢٠ - الجنود [الصليبيون] يغادر معسكرهم
تنفيذا لخطه فيروز مع عزيمهم على العودة
ليلا .

٢١ - بوهيموند يوسل الى صديقه كى يسم ما بدأه
فيعد فيروز الى قتل أخيه لمخالفه اياه ويدخل
الصلبيين الى المدينة بواسطة سلم من الجبال .

٢٢ - المهاجمون يسولون على أحد المداحل ويفتحون
الأبواب ، ويندفع العسكر الذين شاركوا في
هذه الحطة الى داخل المدينة ، ويسم الاسلاء
على أنطاكية عنوه .

٢٣ - الأهالى يريدون الى القلعة اما ياعى سيان فيلافي
مصرعه خارج الأسوار أثناء محاوله الهرب
وهلاك الكيريين لسقوطهم من الجبل .

★★★

هنا يبدأ الكتاب الخامس حصار أنطاكية واحتلالها

- ٩ -

في نفس هذا الوقت كان أهل أنطاكية وواليتهم في اقصى حالات الدعر بسبب الظروف التي يعيشون فيها . ولم يعينهم سده صجر الحجاج من المشقة التي يحملوها . مع ما يربهم على ما يبداهم من عمل ، وعدم انصرافهم عن مسروعاتهم رغم وطأة الظروف القاسية من الجوع والبرد القارس ، بل لقد جرى العكس من ذلك اذ ظل هؤلاء الصليبيون - رغم ما عيبتهم الجمة - ما يبرين على السر قدما بعزم ثابت نحو تحقيق الهدف الذي وضعوه نصب أعينهم .

وراح المواطنون - نظرا لما هم فيه من الشدة - يبعثون بالكتب والرسائل . واحدة نلوا الاخرى الى من حاورهم من الأمراء ، يسألونهم المصادره الى بجة احوالهم . ويدلواهم على أجدى السبل لأداء هذه المساعدة ألا وهي أن يدعوا حلفاءهم يوجهون الى المدينة ويستخفون هم في كمين حتى تشبك المواطنون - كمادتهم - في قتال العدو عند الجسر ثم يركبهم منصرفين الى القتال في هذا المكان ، وحين يكون من بداخل أنطاكية مسفرقون تماما في تلك المواجهة . يخرج أهل الكماش من كمائهم ويبيعون الصليبيين الذين يكبون من عر حرس بحرسهم ، فيقعون تحت وطأة الهجوم

عليهم من الأمام والحلف في آن واحد ، فلا ينسى لأحد منهم
النجاح من الموت .

ولبى هذه الاستغاثة جيش كيف من أهل حلب وتسير
وحماه وحمص وهنبج وغيرها من المدن المجاورة ، وخرجوا
في سكون بالغ وصمت مطلق - حسب الأوامر التي صدرت اليهم -
حتى فاربوا مدينته « حارم » التي لا تبعد عن أنطاكية بأكثر من
أربعة عسر ميلا وضربوا معسكراتهم أنباء انشغالهم بالهجوم على
المدينة ، غير أن المحلصين من سكان الناحية ، والذين طالما ساعدوا
شعبها ، أحبروا القادة بأفراط هذا العسكر ، وشرحوا لهم
أوضاعه ، فلما بلغهم التدبير اجمعوا للنساور فيما يفعلون في هذا
الوضع ، فانفق الرأي منهم أخيرا على أن يغتنموا فرصة دخول الليل
فيطلق سرا كل من بالجيش من الفرسان أصحاب الجياد الصالحة
للخدمة . ويرببون صفوفهم للقبال خلف أعلام قادتهم ، على أن
يبقى الرجال في الوقت ذاته لحماية المعسكر حتى يعود رؤسائهم
الذين خرجوا امتثالا لأمر الرب .

- ٢ -

لم يكد الليل يسدل طنبه على الكون حتى غادر الزعماء المدينة
حسب الاتفاق ، فساروا على الجسر المصنوع من الفوارب ، ومعهم
سبعمائة فارس ، حتى صاروا قرب مكان يبعد ميلا من هنا ، وهو
واقع بين نهر العاص والبحيرة التي أشرت إليها في وصفى المدينة ،
فأقام الجند هنا هذه الليلة مستجيبين ، دون أن يعلم العدو بخبر
تقدمنا هذا ، ولكن رجاله عبروا النهر هم أيضا في نفس الليلة عن
طريق الحسر الأعلى .

على أنه لم نكد طلّاع نهار اليوم السالى يظهر فى الافق حتى أعد الصليسيون أسلحتهم وفسموا كائنهم سب فري جعلوا كل واحده منها تحت قيادة رئيس معين كانوا قد انعموا عليه من قبل . وأما الترك فقد اتحدوا مكانهم فى ناحية من الصحابه ، لأنهم علموا من كسافهم أن جماعتنا راحه عليهم ، وقد أرسلوا أمامهم فرفين من العسكر حرسا للجيش الرئيسى الذى كان يتبعهم .

لم يكن مع الصليبيين - كما ولنا - الا فراه سعمائه رجل ونساء الاراده الالهيه أن يقسم هؤلاء أنفسهم الى كئائب حسب ما يقضيه أصول الحرب ، فكان يحيل لرائهم أنهم آلاف مؤلعه من فواب اضافيه قد بعنهما لهم السماء .

ولما أأحد عسكر العدو فى القدم والرحف جماعه نلو حياعه ، شرع من كانوا فى الصفوف الامامه فى سس هجوم عسف على خطوطنا ، وراحوا يرمونها بوابل هنان من السهام ، ثم يردون فى الحال . فلم يعبأ حدودنا بهجومهم . بل رجعوا عليهم . وانربوا منهم كل الاقتراب ، وكروا عليهم مسرعين بسوفهم وشجاعهم ، فسعوا لأنفسهم طريقا الى عدو عقيدتهم . والسوف مسرعه فى أيديهم فاصطربت صفوفهم ودافع بعضهم بعضا ، واحلط حاملهم ببابلهم وأحبط بهم فى بعة كات البحيره فيها على أحد حاسهم . والنهر على الحاب الآخر ، وفقد الترك حريه الحرك فعحروا عن استعمال فنوبهم المألوفه من الرسق بالسهم فالارداد لكنهم نجمعوا خوفا من أن تنوشهم السوف ولم يعودوا قادرين على تحمل الضغط الذى مارسه الصليسيون عليهم . وسرعان ما أبعوا أن أملهم الوحيد فى السلامه اما نكون فى فرائهم . فانقلبوا على أعقابهم هاربين ، فجد رجالنا فى بعضهم وقد ملكهم الحماسه ، حتى بلغوا مدينه « حارم » النى كات تعد عن سباحه المعركة عشرة أميال ، واستمر القتل فى العدو أثناء إزئاده .

ولما رأى أهل البلد أن الدائرة قد دارت على عسكرهم الذي هلك معظمه بسوف الصليبيين المنتصرين ، خافوا البقاء في القلعة بعد هذه الكبة التي ألبت بأصدها منهم . فأشعلوا النار في المكان ، ولادوا فرارا .

غير أن الأرض سكان هذه المنطقة ، وغيرهم من البصاري الذين كان الكبرون منهم يهبطون تلك الناحية ، استولوا على المكان ، وأسلموه في الحال إلى فادنا قبل عودتهم إلى المعسكر . ولقد هلك في هذا اليوم قرابة ألف من رجال العدو ، فكاتب بشوه الصليبيين عظيمه بما جرى . وفرحتهم ظاهرة بما وقع من النصر المزدوج ، الذي بب فيه الشجاعة ، وحمدوا الله على ما أناهم من فضله ، ثم عادوا إلى محبتهم حاملين معهم حمسمائة رأس من قبلى العدو ، وكميات ضخمة من الأسلاب ، من بينها ألف من الجناد القويه ، كانت ذاب جدوى عظيمه لنا .

- ٣ -

ظل أهالى أبطاكيه ذلك الليل في انتظار الساعة المربعة ، وراحوا يسعجلون في لهفه سروى الفجر بطلعا لهجوم من الخارج يقوم به حلفاؤهم على بصارى المدينه ، فان نم ذلك خرجوا هم من المدينه ملصعين وباعوا الصليبيين على غفلة منهم ، وكانوا يؤملون أن يؤدى عصر المساعنة التى لم يستعد لها الصليبيون إلى دمارهم .

وجاءت الساعة الأخيرة من الليل وقد أخذت السماء تسرى بصوء دون أن يظهر أى شىء يدل على تقلم حلفائهم ، ومع ذلك

فقد ذكر كنيستهم أن بعض الرعماء الصليبيين خرجوا كما لو كانوا
 ماضين لمواجهتهم ، ومن ثم جمع المواطنون قواهم ، واندفعوا
 اندفاعا عسفا من الابواب ، وطلبوا معظم هذا اليوم في مصادمات
 سديدة مع هؤلاء الصليبيين وأحرأ أقدامهم حراسهم الذين كانوا
 في مواضع عاليه بالمدينة أن هناك جيسا آحد في الاقتراب ، ومن
 ثم اريدوا الى ما وراء الأسوار ، ورابطوا في الأبراج خلف المناريس
 في النواحي المرتفعه من البلد في انتظار الجماعات القادمة ، لأنهم
 كانوا لا يدرون ان كان هؤلاء القادمون من الأعداء أم من الحلفاء ،
 فلما دنا العسكر من المحاصرين رأوا ملابسهم الحربية وما معهم من
 الغنائم والاسلاب فعرفوا حقيقتهم . فاستد بهم القرع منهم فقد
 أدركوا أنها القوات الصليبيه عائدته بعد انتصارها على الحلفاء
 الذين كان المحاصرون يرقبون حصورهم في لهفة ، فأسلموا
 أنفسهم للنكأ ، فقد تلاشت آمالهم الحسام . وبعدم حدنا من
 المدينة ، واطلقوا الى المعسكر ، ثم أمروا بطرح رؤوس مائتين من
 الأتراك قبل ان الآلات قذفت بها الى داخل المدينة ، لكي تكون
 شاهدا على ما أحرزوا من نصر ، وليريد في مصاعفه آلام العدو
 المبرحة .

أما بقية رؤوس القنلى فقد رفعت على ساريات نصبوها أمام
 المدينة رامين من وراء ذلك أن تكون هذه المناظر المفحمة قذى في
 عيون المحصورين فتضاعف همومهم النقلة ، وعرف من روايه
 الأسرى الدقيقه أن الحلفاء الذين كانوا يزعمون الحصور
 لمساعدة أنطاكية قاربوا ثمانئة وعشرين ألف مقاتل .

وقد حرى هذا الأمر في اليوم السابع من فراير عام ١٠٩٧
 من مولد السيد المسيح .

فى هذه الأثناء صدق عزم فادننا على تشييد حصص منع .
أقاموه على راسة مسرفة على معسكر بوهيموند ، راجين من وراء.
ذلك أن يفف هذا الحصص الحديد سسدا أمام الترك لو راودتهم
بعوسهم بالاعاره على فوانا مى ساءوا ، فلما فرغ رعمائنا من
تشبيده أقاموا به حامية يفظة تمام اليفظة ، فاطمأنت جوانح العسكر
كلهم ، وأحسوا كأنهم داخل مدينة منبعة ، ذات قلعة تكفل أسوارها
لهم الحماية ، وتقهم عادية الهجوم عليهم .

كان هذا المعقل يعف شرفى القلعه التى شيدت منذ أمد قريب .
كذلك كان يوجد الى الجنوب سور يجاوره مسنفع ، على حين
كان الى الغرب والشمال النهر الذى يجرى معرحا حول أنطاكيه .

وبعد خمسة أشهر من هذا الحصار دخل مصب النهر من
ناحية البحر سبع فادمه من جموة ، محملة بالحجاج والمثونه ،
فلما أرسى حيب وصلب أقامت ، ثم بعى جماعة منها الى المعسكر .
سأل مجيء بعض الزعماء الى الحنوية لقودوهم فى أمان الى
المعسكر .

وكان العدو يعرف أن فومنا اعتادوا الخروج الى الشاطئ غير
حذرين ، كما كان يدرك ما عليه البحارة من لهفه سديدة للذهاب
الى المعسكر ، فسدد رجاله عليهم جميع الطرق والمسالك ، ونصبوا
الكمان لنصده السابلة الذين لم يحاطوا لأنفسهم ، مما أدى الى
مصرع الكثيرين منهم ، حتى لم يعد أحد يجرؤ بعدئذ على الذهاب
الى المعسكر الا أن يكون فى حراسة مشددة .

وصمم الزعماء فى هذا الوقت ذاته على اقامه حصص عند رأس
الجسر . مكان مسجد كان لخصومهم ، راجين أن يسد هذا الحصص
الطريق فى وجه العدو بعض الشيء ان أراد الوصول الى الحسر .

وحدث أن أعدادا كبيره من الصليبيين كانوا قد برلوا ناحية
الشاطيء لانجار بعض الأعمال الى كانت لهم هناك ، فلما فرعوا
منها عادوا الى مواضعهم .

وكان الاحيار قد وقع على كل من بوهيموند وكوب تولور
ومعهما لورد ايفراردى بويسيه وكوبت جاربييه دى جراى من
الزعماء لمرافقة السفارة المصرية حتى الساحل . على أن يقوموا فى
عودتهم بحراسة الحاج(١) الذين وفدوا منذ قريب . والحفاظ على من
خرجوا من معسكرنا ، فلما علم أهل أنطاكية بنزول هؤلاء السراه
من القوم الى الشاطيء بعوا ضدهم أربعة آلاف فارس مدحجين
بالأسلحة الحصفه وعهدوا اليهم بصعب الكمان ، فاذا خاطر
الصليبيون بالعودة ولم يأخذوا الاضياطاب اللازمة كر عليهم هؤلاء
الفرسان كرة ضارية .

وحدث فى اليوم الرابع أن كان الحراس عائدين مسرعين
معهم عددا كبيرا من الناس ، وكثيرا من دواب الحمل عليها شتى
أنواع الدخيره دون أن يكون معهم سلاح ، فلم يشعروا الا والعدو
يباغتهم فى بعض الشعاب الضيقة ويسدها عليهم ، وكان
كونت تولوز يسير فى المقدمة مع حرس الطليعة ، أما المؤخرة فقد
وكلت حمايتها الى لورد بوهيموند .

(١) المسود بولاء الحاج د الحوية .

وعلى الرغم من بسالة هؤلاء العاده الجديرين بكل احرام ،
الا أنهم لم يستطيعوا - كما أرادوا - السيطرة على من معهم من
جموع راح بعضا يزاحم بعضا ، كما عجزوا عن مد يد المعونة لهم
لكن ذلك لم يمنعهم من الصمود طويلا حفاظا على شرفهم وحمايه
لرفاههم ، فلما نبين لهم أحيرا عدم جدوى أى مجهود يبذلونه فى
هذا السبيل وأن هلاك أرواحهم انما يكمن فى ابطائهم تخلوا - بدافع
من حرصهم على سلامتهم - عن هذا الصراع الذى هو بين طرفين عر
مكافئين ، وانقلبوا الى المعسكر بمن اسنطاع اللحاق بهم ، واذا ذاك
نخلى الناس عن دوابهم ومناعمهم وفروا على وجوههم الى نواح
مختلفه ، فانطلق بعضهم الى الغابات ، وهرب البعض الآخر الى
السلال أما من لم يسعفهم الفرار فقد ساوسهم صفوف
العدو ، فكانت الكبة التى حلت بعواننا فى هذا الموضع حسيمة ،
وفد وصلتني معلومات شتى عن عدد من هلكوا فى هذا الحادث ،
وان قالت الأغلبية انهم كانوا قرابة ثلاثمائة من الجسسين ومن
مختلف الأعمار .

- ٥ -

فى هذه الاثناء وصل الخبر الى المعسكر بأن العوم الذين كانوا
راجعين من ناحية البحر قد وقعوا فى كمين نصبه العدو لهم ،
وأنهم قتلوا جميعا عن بكرة أبيهم فى هجمه لم يكونوا يوقعونها ،
ولم يستطع أحد ما أن يخبر عما اذا كان العاده مازلوا أحياء أم أنهم
صاروا فى عداد الهلكى .

واذا كان الدوى جود فروى رجلا جم النشاط ، سريع المبادرة
الى حمل السلاح ، فقد تفجرت نفسه عطفًا على شعب الرب ،

ونفطر قلبه رحمة بهم حتى لكأنهم أولاد صغار له ، ومن ثم استدعى الرعاء والجند وأمرهم بحمل السلاح في لحظتهم هذه ، ثم بعث المبادى يبادى في الناس الا يعيب أحد عن هذا الموقف الخطير والا استحق الموت . بل يحتم على الجميع ان يهبوا لأسلحتهم انفعاما لدماء احوانهم ، فيجمع كافة الجند وكأنهم رجل واحد ، ولم يوانوا عن عبور الجسر المصنوع من القوارب ، ثم قسمهم الدوف الى مجموعات . ورأس عليهم جمعا روبرت كوت نورماندى وكوت فلاندرز ، وهيج الكبير ، وأحاه اسباس . وحدد لكل طائفة مكانا لا يشاركها فيه غيرها ، ولا نعددها هي الى سواء ، وأمر أن تقف كل جماعة بقياده قائدها .

ثم أخذ الدوف بشرح لهم الوصع بأعمارهم رجالا مدركين لمسئوليتهم ، وأثار حبيبهم بكلماته الملهمة اد قال لهم : « لو صح ما نهل اليها من أن أعداء النصرانية - اسما وعبدا . قد أظهرهم الرب على سادتنا واحونا بسبب آثامنا ، فالراى عندي أيها الرجال الأمجاد أنه لم يبق لنا الا أن نمحو العار الكبير الذى ألحقوه بسببنا المسح ، أو نهلك مع من هلكوا . وصدقنى أن لسبب الحياه ولا السلامه أحلى مدافا من الموت او أى ألم من الآلام ان نذهب دم هؤلاء السادة هدرنا في السرى . ومحال أن يمر هذه المديحه المروعة التى جرت على شعب وهب نفسه للرب دون أن نواجه بانقمام عاجل . ويبعدو لى أن أعداء الملة سوف يبطروهم انتصارهم فلا يحتاطون لانفسهم كما حرت عاديتهم ، لذلك فابهم لن يترددوا - اعمادا منهم على بأسهم - فى أن يشفوا طريقهم بين صفوفنا أثناء عودتهم بالاسلاب والغنائم ، واعلموا أن ما نحن فيه من موقف محزن دام حرى بأن يحملنا على مزيد من الحذر . أما المكاسل فبغرى صاحبه بالاهمال .

« فان رأيتم الصواب فيما أقول فهبا بنا نسعد لهم ، وطالما
كما على حق فانتنا نطمح ان نحرر النصر بواسطة الواحد القوى الذى
نؤمن به ، ويحارب فى سبيله ، فادأ تراءى للعدو أن يعود فيقتحم
صفوفنا فلتتقابله سطبي سبوقفا ، ولتكن ذكرى ما صبه علينا من
المصائب مذكىة وما ما كان عليه آباؤنا من الشجاعة » .



ووقع خطبه [الدوى حودفروى] هذه موقع الرضا من
يعوسهم واسنصوبوها كلهم ، وبينما هم يتندارسون كلامه هذا اذا
ببوهبمونند يطالعهم عائدا من النشاط الى معسكره ، وفى ابره
الكونت لم ينب دونه الا قليلا .

ورحب الناس برعيمهم برحيا صادقا لم يستطيعوا سعه أن
يجبسوا دموعهم من الابهمار ، اذ أدركوا أنهم كانوا على وشك أن
يفقدوا هؤلاء القاده ، ولم يكذ الزعماء يعلمون بخطه الدوق حنى
واقعه على فكره وصرحوا بوحب نفعدها .



كان ياعى سبان فى هذه الأناء - رعم علمه بانصار قواه -
مشغول الخاطر ، فلق المال بشأن سلامة عودتهم ، لاسيما منذ أن
عرف أن الجند الدين تركوا المعسكر كانوا أكر عددا مما جرت
العاده به ، ومن ثم نودى فى الناس جمعا أن يخرج فى الحال من
فى المدينة من أهل الخبرة بالحرب والقادرين على حمل السلاح ،
وأن يجتمعوا عند البوابة القائمة عند الحسر لنجدة أهل البلد
العائدين ، ان دعت الضرورة الى مل هذه التجدة .

كما أن قوادبا بعوا من ناحيتهم كشافة سفقد الطريق الذى يحمل أن يسلكه العدو فى اياه ، ايماناً من هؤلاء القواد بأن الرب لابد أن يمجهم النصر .

- ٦ -

لم يوان الصليبيون لحظه فى سظيم صفوفهم ورفع أعلامهم ، وسما هم يرقبون طلائع الجسس الركى اذا برسليم قد جاءوهم مسرعين ، ينبؤونهم بأن العدو قد رابط على مقره مهم ، فعالت صرخاتهم المجونة نحب ناسنا على حمل السلاح والرحف لصدّه ، ومن ثم تقدمت الكائب ما وسعها التقدم ضارعة الى السماء أن يعبها ، وراح كل واحد منهم يشجع رفيقه ، وقام الصليبون - وفى ذهنهم شهره بطولهم - بهزون الرماح فى أيديهم ، وكروا على حصصهم كرة رحل واحد وكفوا ضغطهم عليه - كئألوف عادتهم - يعالونه بالسيف وجها لوجه ، دون أن يدعوا له فرصة يلفظ فيها أنفاسه انغاما للمصائب التى أنزلها بهم والى لا رالت عاقته بأذهانهم ، فما لب العدو أن دارمه سجاجه ، وطار قلبه سعاعا ، وأدبر موليا وجهه سطر الجسر المؤدى الى المدينة ، يسابق كل واحد من رجاله الآخر فى الهروب .

على أن دوق اللورين كان قد جابه كيرا من أمال هذه الأرماب ، وكان عسكره قد احلوا موقعا أمام الجسر يقوم بجاهه ربوة عالية بعض الشئ ، وكان الترك فى فرارهم أمام زعمائنا الموقرين أحد رجلين : اما رجل يتعسر فيسقط وهو يحاول بلوغ الجسر المماسا للمجا له هناك ، واما رجل لامحصى له من العودة الى موب مؤكده يلقاه فى ساحة المعركة التى كان قد لاذ منها فرارا .

(الحروب الصليبية ح ١) - ٣٢١

واذ كان كونت فلاندرز محاربا صديدا ، بارعا كل البراعه
فى استعمال السلاح ، فقد خرج بعسكره مصعبا أثر الأعداء فى عزم
لانهل سبانه ، ففرق صفوفهم ، وأنزل بهم من الأحوال مبل الذى
أبرلوه من قبل بعسكرنا ، ولم يكن كونت نورماندى أقل سجاعة من
آبائه ، فأبلى البلاء الحسن فى هذه الموقعة .

وكان هنا كونت تولوز المحمس لربه ، والى جانبه هيح
العظيم الفخور بما يجرى فى عروقه من دم ملكى ، والذى لم يشن
نسب أسرته العريق بأى شين ، وكذلك كونت اوسماس أحو
الدوى ، وبلدوين كونت هيولت ، وهيح كونت سب بول ،
وغيرهم من أهل المكانة - فتحملوا جميعهم على العدو حملة صدق ،
وأظهروا من أعمال البطولة ما أدهق قوة المعادين ، فدبحوهم دبح
الحراف ، وكان باغى سبان لما أرسل قواه للحرب أمر باغلاق
أبواب المدينه من خلفهم ، ليقطع عليهم كل خطة للارتداد ، ساعيا
من وراء ذلك الى مصاعفة ضراوتهم ، وحملهم على المزيد من السند
فى الصال ، معصدا أنه بذلك يسلك أحسن المسالك وأجداها ،
عر أن الخائمه حاءت على غير ما كان يرحوه ، فقد هلك رجاله
الدين لما رأوا احدا فنا بهم لم تعد لهم قدرة على صد هجومنا ،
أو الفكاك من ضغط رجالنا عليهم ، فالتمسوا خلاصهم فى الفرار الذى
لا خلاص لهم سواه ، ولكن خانهم هذا الأمل اذ كان الموت لهم
المرصاد ، فتناوشب سيوفنا الفارين منهم ، وفرفتهم شر ممزق .

وتردد فى أنحاء المعسكر فرع الأسلحه ، وقعقة السبوف
البراقه ، وصهيل الحمل ، وصراخ الرجال ، واختلط الحابل بالبابل ،
ولولا اخلاف سلاح كل فريق عن الآخر لكانت اتمه غلطة مؤدية
الى الخطر الداهم الذى يحمل فى طياته الهلاك .

ويجمع على أسوار انطاكية وبنو أراجيسا ، سماء المدينة
وبنايين وصغارهن وسبح البلد ، وكل من لمس عنده مدره على
الدفاع عن نفسه ، شاعدون - من مكائيم الذي يعرفون فيه -
المدبحة الى بحرى من بحيم ، وعلا بكأوهم وراحوا نندبون مصارع
أصحابهم ولسان حالهم يقول « ما أسعد من ترقى يوم الموت تنص
أرواحهم قبل أن يمسيهم هذه الخطوب » .

أما الأمهات اللاتي كن يفاخرن بكنه أولادهن ، فقد أصبح
موضع الرناء وصارت العافر متهن أسعد من كل داب ولد .

ولما رأى يعاقى سبان أن الدائرة قد دارت على نوعه ، وأن
البقية الباقية منهم لابد سالكه في هذه المدبحة التي يتجرى على
قرب منه ، أمر بسرعة فتح الأبواب حتى يمكن الباقون من جيسه
من دخول المدينة سالمين ، لكنهم تراحموا على الأبواب التي أزيلت
متاريسها تراحما شديدا . رتعالى ضحجتهم وصراخهم ، ذلك لأن
الفارين الذين كان الحشم بينهم حاولوا تنور الجسر ، فكانت
جموعهم ، وندافعوا فزعبن يدفع بعضهم بعضا مما أدى الى سقوط
الكثيرين منهم في النهر فترقوا في لجنه .

ولقد صال دوق الناورين أبدع صوله في هذا الشباك
فبرهن على أنه مسعر حرب وخراض غمرات ، وشاعده المساء
اذ اقترب وهو يقاتل حول الجسر ، وقد جاء بالدليل البين على
بأسه الذي ميزه عن سواه ، وكان ما قام به من العمل أدها بأعرا
خالدا ، ومأثرة زادته اجلالا في بظر الجيش كله ، اذ اندفع بما
طبع عليه من جرأه فكان يصرب الضربه الواحدة يقطع بها رؤوس
أكثر من فارس مدرع ، ثم قص بشجاعة فارسا آخر لم يمنعه
ما عليه من زرد الحديد من أن يصبه بضربة قطعه نصفين ،
فتدحرج أعلاهما على الأرض ، وأما أسفلهما فقد دمعوا به الى المدسة

محمولا على فرسه ، فبث هذا المنظر العجيب الخوف والدهشة في نفوس كل من شاهدوه ، ولم يعد خبر هذا الأمر العجيب حافيا على أحد ما ، وناقله الألسن ، فشرق وعرب .

ويعال ان خساره العدو يومذاك فاربت ألفى رجل : ولولا دخول الليل الذى حسدنا على أمجادنا وانتصارنا لانتهى حصار أنطاكيه من غير شك فى هذا الوقت ، وكانت آثار المذبحة واصحه كل الوضوح حول الجسر والنهر الذى تبدل لون مائه ، وراح يصب فى البحر سيلا جارفا من الدماء . ولقد فل ان اتى عسر من الحكام الأتراك لهم مصرعهم فى هذا القتال ، فكابوا خساره نلمدبه لا تعوض ، وأكد هذا الخبر فيما بعد تأكيداً قاطعا المواطنين المسيحيون الذين قدموا من أنطاكيه الى معسكرنا .

- V -

حين طلع النهار على الدنيا عاود القادة اجتماعهم ، ساكرين الله العذب على ما آتاهم من البصر ، ثم عقدوا - فيما بينهم - مجلسا لمنافسة الوضع فانفقوا بلا اسسقاء على تنفيذ خطتهم الأصلية بحذافيرها ، ألا وهى اقامة حصن على رأس الجسر لمنع المواطنين من مغادرة المدينة ، وليسر فى الوقت ذاته على رجالنا حركتهم ويزيد من سلامتهم اذا ما رغبوا فى النحوال هبا وهباك .

وكان فى ذلك المكان - كما قلنا سابقا - مسرح يؤدى المرك فيه شعائره الدينية ، وقد جعلوا ناحية منه موزعا لدفن موتاهم . فلما كانت الليلة السالفة ، وصدر من اليوم النالى ظلوا ينقلون

جئث موتاهم الى ذلك الموضع ، فلما تأكد رجالنا من صدق هذا الخبر ، اندفعوا اندفاعا شديدا الى ذلك المكان ، يحدوهم الأذل في العنور به على غنائم تكون مدفونة مع الموني ، فنبسوا العنور وأخرجوا الجئث ، ولم يقتصروا على أخذ ما وجدوه من الذهب والفضة والأفمسة الغالية بل امتدت أيديهم حتى الى الجب دابها فصموا بها .

ولما فشا هذا الخبر أيقن الجمع مدى ما أصاب العدر من خسائر كانت في نادي الأمر موضع شك ، لان القتال اسبى املا ، فاغبط الصليسون بهذا النبا عبطة حاوزب عبطهم بالنصر الذي أحرزوه في يومهم السابق ، ولقد وحدوا في تلك القتره املا وخمسائة جنة سوى من ابلعهم النهر في مراب كيره حاف فيها الخسارة بهم ، وسوى الذين قبروا في المدينة اضافة الى من أنفلمهم حراحتهم القائلة فصاروا معها على شفا الموب ، وأرسل الصليسون ما يقرب من ثلاثمائة رأس من رؤوس القتلى الى من كانوا موجودين بالمياء ، فنضاعف سرور رجالنا الذين كانوا قد ذهبوا الى هناك بعد معركة اليوم السالف ، وكان هذا تحذيرا نافعا للسفراء المصريين الذين كانوا لا يزالون في المناء ولم يغادروه .



كان الصليبسون الكثيرون الذين فروا من أخطار اليوم الغابر مختفين في كهوف الجبال وأعماق الغابات ، فلما سمعوا بخبر انتصارنا بادروا في الحال الى الرجوع الى المعسكر ، وهكذا شاء ارادة الرب أن يعود الى الحش كثر من الجند الذين اعقد الناس أنهم هلكوا في المعركة ، لكن ها هم الآن يعودون الى الجيش سالمين ، معافين من كل أذى بفضل الرب .

لم يكد يرجع هؤلاء الذين كانوا قد فروا الى مخلف الجهات حتى أقيم على رأس الجسر متراس من الأحجار النى حملوها من

المغابر ، وأخذ العوم يتبارون في مساعده بعضهم البعض ومعاونه كل منهم زميله في تشبيد المعقل الذى حصن بسور قوى وأحيط بخندق عميق .

ثم أخذ الزعماء بعد ذلك فى النشاور عمن يقوم بحراسة هذا المكان ، ولم يكن أى واحد منهم مستعدا لحمل مسئولية ثقيلة كونه المسئولة ، وراح كل منهم يقدم هذا العذر أو ذاك ، غير أن كونت بولوز - وهو المرضى عنه من الله - نطوع لحمل المسئولة ، ويعهد من أحل الصالح العام أن يقوم بحراسة هذا البناء الجديد ، فاستعاد ناما حب كل رجال الحملة له ، وهو حب كان قد فعهده مدة عام لوقوعه فريسة لمرض عطله عن الحركة والفتالة على مدى الصنف الماضى وطول الشتاء التالى له ، ففى الوقت الذى كان نقة النداء ابانه ينحملون مسئولية الجبش بعزيمة لا تقهر كان هو د، نهم كأنما لا يضنه من الأمر شيء ، وكانت تنقصه البشاشة ، ولم يظهر الود تحاه كائن من كان ، وتجلى هذا واضحا غاية الوضوح لكل ذى عينين، فعزوا ذلك الى أنه كان أكثر القوم مالا وأعظمهم ثروة بصورة ينوقمون معها أن تحمله على بذل الكثير من أجلهم ، ولقد أراد أن يعوض ما كان من تراخيه وعدم اكترائه فقام من نلقاء دانه وتحمل عبء هذه المهمة ، وقبل أيضا انه وضع نحت تصرف أسعف بوى وبعض النبلاء الآخرين خمسمائة مارك فضة وزنا ، تعويضا لأصحابها عن الخبل النى هلكت لهم فى هذه المعركة .

فلما عرف أتباعه أنهم عوضوا خيرا عن جيادهم التى فقدوها أظهروا من ضروب الشجاعة والتفنى فى محاربة العدو ما لم يظهروه من قبل فهددت حدة الشعور ضد الكونت ، وسماه الجبع بأبى الجيش وراعبه .

لقد سدت بوابة الجسر بالقلعة الجديدة الى افام بها الكوب
حمسمائة من الرجال الأشداء ، مما جعل مرور المواطنين من خلالها
لا يسسى الا يشق النفس وبالعرض للخطر البالغ ، لكنها من ناحيه
أخرى جعلت قومنا أكر قدره على الخروج من أجل فضاء مصالحهم
الضرورية ، أما العدو فلم يعد قادرا على مغادرة أنطاكية الا عن طريق
البوابة الغربية الواقعة بين سفح الجبل واليه ، ويظهر أن تمنع
العدو بالقدرة على الخروج من تلك البوابة لم يحرص قوائنا لكبر من
الخطر ، اذ كانت جميع خيامنا منصوبة على الحجاب الآخر من النهر ،
ومع ذلك فقد شعر الكل أن المحصورين كانوا محاصرين أكبر من
الحرية في الحوز ، لأن حاجات المدونة الضرورية كانت لا تزال تمر
بهذا الطريق ، لذلك عقد القادة الشجعان الحاليين الذكر مرة أخرى
مؤتمرا من بينهم للتداول في شأن هذه المشكلة التي رأوا مواجهتها
بإقامة بعض التخصصات في موضع ملائم على الحجاب الآخر من اليم ،
وقرروا أن يقسم بها بعض هؤلاء الزعماء ، لرصدوا العدو ان أراد
الخروج منها أو الدخول اليها فحولون بنه وبين ما يريد ، وعلى
الرغم من انعقاد اجماعهم على وجوب تسييد ذلك الحصن ، الا انه
لم يتقدم قط أحد منهم فتنطوع وتنهض بحراسه ، وترددوا كايه
تحاه هذه الصعوبة ، ولم يدروا أى سبيل يسلكونه فيها ، وطال
برددهم ، ثم استقر الراى منهم فى النهاية على اختبار تانكريد الحم
النشاط لأداء هذه المهمة ، وكان على وشك الاعتذار عنها لقله ما سده
من المال ، لولا أن نهض كوب تولوز وقدم اليه مائة مارك من الفضة
لتسديد الحصن ، ضاف الى ذلك تخصيص مبلغ مناسب قدره أربعون
ماركا شهريا يقطع من المال العام يدفع للذين سوف يعماون مع
تانكريد .

ولقد ترتب على كل ذلك أن شيد حصن ملاصق لملك البوابة
يقوم على أحد اللال ، حيب كان موضعه فى السابق أحد الأديرة ،
وعهد بحراسته الى رهط من أهل الحجى الأشداء فبقى هذا الحصن
سليما حى نهاية الحصار بفصل جهود بانكريد الناجحة .

وكان يوجد على بعد ثلاثة أميال أو أربعة تحت أبطاكيه ، وعلى
امداد نهر العاصى مكان للتعبد ، يتمتع بموقع رائع بين الجبال وس
النهر ، حب كانت قطعان الأغنام سرح هناك فى المراعى الخضراء
الغنية ، السى كان العدو قد نقل إليها معظم جناده لقله ما فى المدنه
من العلف ، فما كاد الصليسيون يسيون هذه الحقبعة حى جمعوا
فى هدوء بضع سرايا من الفرسان الذين أسرعوا الى تلك البقعة ،
وسلكوا إليها طرفا هيجوره حى لا ينكشف أمرهم ، فلما صاروا
هناك وثبوا على رهط من الفرسان القوامين بحراسة المناسبة ،
وصادوهم ، واسنولوا على ألقى حصان من الحمل الصافنات ، ناهيك
عما أخذوه من البقال وانائها ، وعادوا بكل ذلك الى المعسكر ، ولم
يكن ثم عنائهم من أى نوع أكثر أهمية من هذه الغنائم عند الصليسين
فى ذلك الحين ، لأن جميع حيادهم كانت قد هلكت تقريبا فى
المعركة ، أو نفقت من الجوع أو البرد أو غير ذلك من الكوارث .

- ٩ -

أحيط بالمدينة من كل جانب ، وعجز سكانها عن محاولة
أسوارها لمزاولة أعمالهم ، وهكذا أهدقت بهم الصعاب الجمة من كل
ناحية ، كما بدأ يهددهم أيضا مسكلات أخرى كنقص الطعام الذى

واحبهم تجاهه وأصبح سمحه يحسبهم بصورة لعب النباع السديد في
حلوب المراطيين . كما أصبح العلف نادرا بادره نالمة ، وهرب
الخول ، وعجزت عن القيام بما كانت تقوم به من فعل .

أما رجالنا فقد أصبحوا أكثر حرية في الذهاب الى سواطيء
البحر ، أو حينما ندعوهم الضرورة الملحة ، ورال الى حد يعد
ما كان يكابده الجيس كله خلال الساء من هم مقم بسبب قلة
المثوبة ، فعد ولى الساء ، وجاء الربيع الطاق ، وهذا البحر ، ولم
يعد الأسطول الراسى بالمياء يلقي مسفة فى الدخول أو الحروح دى
شاء ، عدا الى جانب أن الطرق غدت سهلة المسالك بمصل الدفء
المزايد . فاستطاع كل ذى مصلحة أن يخرج لانجاز مصلحه من
غير عسر .

كذلك رجع الى الجيس الصليسون الذين كانوا مصوا لفضاء
وقتهم فى القلاع والمدن المجاورة ، فرارا من شطف الحما وقسوبا
فى المعسكر ، وجهزوا أسلحتهم وقويت عزائمهم ، وأعدوا عدتهم
للقال .



على أنه فى هذا الوقت بالدات جاءب الأحبار الى بلدوين - أخى
الدوق - بأن الجيس فى صراع مرير ضد المجاعة ، فتفطر وابه
بالأسى الصادق ، وعزم على امدادهم بضرورات العيس من فائض
أمواله الخاصة التى أنعم الله بها عليه ، فكانت عطاياه السخية من
الذهب والفضة والامسة الحربية والحياد الصافى رعب ذلك من
كل غال وثمان بلسما داوى ظروف كل زعم ، ولم يعصر كرمه على
كبارهم فحسب ، بل تعداهم الى الكثير من عامة الناس ، مما أكسبه
ميل الجميع اليه وحبهم اياه ، وزيادة على ذلك فان سخاءه لم يقل

عن هذا بجاه مولاه وأخيه الأكبر ، فأمر بأن يحول الى جودفروى
جميع ما تملكه الخاصة الواقعة على ذلك الجانب من نهر الفرات
حول بل باشر والافليم المجاور له ، فأمره بالحبوب والسعير والزيت
والنسذ ، الى حاب خمسين ألف قطعة ذهبية وصله بها .



كان هناك عظم من عطاء الأرض شديد البأس اسمه
« نيكوسيسوس » تربطه ببلدوين وشائج المودة الصادقة ، وقد قام
من بلقاء ذاته وبدافع من تقديره لبلدوين ، بإرسال طائفة من رجاله
يحملون الى الدوق فسطاطا كبير الحجم ، بديع التصنع هديه منه
اليه ، الا أن باكراد نصب كمينا لاصطاد الحدم الموكل بالنهم حراسه
هذه الهدية ، وأمر باغتنصاب هذا الفسطاط ، وأن يحمل الى
بوهيموند ، كأنه هديه منه هو ذاته اليه ، فوصل الى سمع الدوق
بأ هذا العمل السخيف مع تفصيل شامل للحادث كما رواه خدم
نيكوسيسوس ، وحنداك خرج جودفروى مسرعا معه كويت
فلاندرز الذى نوبس بسه وبسه وشائج الصداقة الصمفة طوال
الرحلة وذهب الى بوهيموند طالبا اليه أن يرد عليه الهدية التى
كانت مرسلة اليه هو ذاته ، ولكنه اغتصبها لنفسه ، غير أن
بوهيموند ادعى أنها مهداة اليه هو ذاته من النبيل «باكراد» ، وزعم أن
من حقه السرعى الاحتفاظ لنفسه بما يطلبه منه الدوق ، فلما خيف
أخرا من وفوع شقاق فى صفوف الناس ، أو حدوث نزاع بين
القادة ، استجاب [بوهيموند] لالتماسات الزعماء ورد الى
[جودفروى] الفسطاط الذى كان مهدى اليه ، ومن ثم عادت المباه
الى مجاريها مرة أخرى بين القائدين ، على أحسن ما تكون العلاقات .

ويخل الى أنه من المستغرب جدا أن يصبر رجل كاليدوق يمتاز
بدمانة الخلق وحسن الطبع هذا الاصرار الشديد على المطالبة بشيء

نافه غير هام كهذا الشيء ، ولا أستطيع حيال ذلك الا أن أقول ما جاء
في المل « ومن ذا الذي يرضيك سجاياه كلها » وما جاء في مل
آخر « لكل جواد كبوه » ، كما ان هناك ملا غير هدين يقول « يجور
للمرء في المهمة السافرة أن يفتر لحظة » . ذلك لأنه كثيرا ما يرى
في أنفسنا انحرافا عن حادة الصّرات يقضى به قوانين الطبيعة
البشرية .

- ١٥ -

سرب في حذاء الآونة سائته عمت كل المراحى يقول أن أحد
أمراء الفرس الأقوياء استجاب لمطالب الأبطالين الخاصه - ولالاح
قومه المسنمر ، فأمر بحشد الصكر من كافة أرجاء مملكته ، وارسالهم
بعدة الى المدينة ، وقد أداع مرسوما تالبا يأمر فيه بزحف حس
ركى فوى على بلاد السام ، اصطفى لقادته جماعة خاصة من الأمراء
وكل البني هذه المهجة ، ولم سر هذه السائفة فى العالم المارحى
وحده فحسب ، ولا عرفت هناك فقط ، بل لقد تحلب بها أيضا جمع
اللاجئين من المدينة الذين فروا الى معسكرنا وأكدوا صدقها الذى
أخذ نزداد يوما بعد يوم ، حتى قيل ان هذا الجيش أصبح على أبواب
المدينة ، فاستبد الذعر بجيشنا واستولى عليه الفزع .

فى هذه الأزمة قام ستيفن كونت شارتروز ، وهو رجل نسل
واسع النفوذ ، نصبه الزعماء رئيسا لمجالسهم يستشيرونه ، وينزلونه
منزلة الوالد لرجاحة عقله التى لا تجارى ، وحسن حكمه على
الأمر ، أقول قام هذا الكونت يسأل اخوانه أن يأذنوا له - وقد تعلل
بالمرض - أن يفارقه ليذهب الى الساحل ، مستصجبا معه خدمه
وأتباعه وكل ما يملك ، وكان ما أخذه معه شيئا كثيرا للغاية ، أما

عذره الذى قدمه بين أيديهم فبخر رغبته فى الإقامة بعض الوقت فى الاسكندرية حتى يسرد صدحه ويده شاعه بعينه على العوده اليهم .

وتقع الاسكندرية على شاطئ البحر ، ولا بعد كيرا عن المناء ، وعبر المداخل الى قليعيا .

وصحب [سبتى] فى معاديه هذه أربعة آلاف رجل كانوا قد جاءوا فى معيته ، فلما بلغ الساحل مضى الى الاسكندرية فى انتظار ما تتمخض عنه الأحداث ، ورسم خطله على أن يعود الى الحس ان أحرزت فوائنا النصر الذى يسده بحجة أنه نقه باما من وعكه ، أما ان حرت الأحداث على العكس من ذلك فسوف يرجع الى مقاطعه الخاصة فى السفن النى كان قد جهزها لتكون على أهبة الاستعداد لذلك ، فانطوى هذا المسلك من جانبه على العار المقم وضاع همه الى الأبد .

ولقد أزعج فعله المشين هذا الفاده الذين خلفهم فى المعسكر ، ورأوا - وكان حقا ما رأوا - أن ما فعله ان هو الا سبة لا يمحي عارها ، ولا يذهب شئها ، وأحسوا فى الوقت ذاته بحزن تنفطر له المرائر على هذا الرجل النابه الذكر ، الذى لطخ بمسلكه هذا شرف بيه وحط من شهره ، فراحوا ينافسون - وكلهم فزع - كبح يواجهون هذا الحادث الذى لم يكن موقعا قط ، لما يحمل فى طياته من خطر يتمثل فى أن قد يقنفي خطاه سواء ممن لا زالوا معهم فى المعسكر فيجروون على القيام بمثل ما قام به ، ومن ثم انفقوا أخبارا على أمر لم يشذ عنه أحد منهم الا وهو أن يبعثوا من ينادى بمنع أى شخص كائنا من كان هذا الشخص من مغادرة المدينة ، فان ترك أحد ما المعسكر خلصة من غير اذن الزعماء ، لم تشفع له قط وظففته الرسمية ، ولا خدماته التى يكون قد أداها ، من أن يصدر ضده قرار

الحرمان ، وأن يحكم عليه بالجار الأبدي ، كما لو كان قد قتل نفسا من غير دنس ، أو أندس قدس دينا ، هذا إلى جانب إرث أفسس أنواع العقاب به ، ويرتب على هذا القرار بما تضمنه من الزجر والحوث من العقوبة أن اصبح الكل مدد ذلك الحس عن برك المعسكر ، حتى ولو لفترة وحيزة ، وأطاع كل واحد منهم القرار كما لو كان هذا الواحد دبريا يستحب للأمر طواعية ومن غير معارضة .

- ٩٩ -

اعتنقت أبطاكية - مدينة الله الحبيبة - مله المسيح زمن الحواريين ، حين بسر بها أميرهم - كما قلنا - وظلت وصية لها ماهرة بها حتى وفتنا الحاضر .

وسنما كانت أفالم السرق كله تدخل تحب حكم خلفاء محمد [صلى الله عليه وسلم] ، وتنتشر فيها عقيدتهم ، أبت هذه المدينة أن تسيطر عليها أنه أدب بعض ثمر ما يصنع هي ، وعلى الرغم من سيطر سيطره [المسلمين] كل جميع البلاد الممتدة من الخليج الفارسي حتى السفور ، ومن الهند إلى أرض الأسبان إلا أن مدنه أنطاكية هذه انفردت دون غيرها من المدن والمحافظة على إيمانها سليما غير مخمور ، وحرصت على حرسها وهي بعض وسط أم محالها لها .

غير أن ما كابدته [المدينة] من كربة الحصار على مدى أرمه طويلة فل في ساعد مواطنيها الفضلاء ، كما أرققهم هجمات العدو التي لم تعد محتملة ، فما لبثوا - قبل أربعة عشر عاما من الوقت الذي نكلم عنه الآن - أن تلاشى صمودهم ، واضطروا لتسليم بلدهم

أنطاكيه الى عدوهم ، وحدث أنه لما بليت جيوسنا أسوارها كان جل سكانها من المؤمنين الصادقين ، ولكن لم يكن لهم أى حول أو قوة فى المدينة ، وقد احترف متطلبهم التجاره ، واشبعوا بالحرى البدويه أجراء عند عيهم ، ولم يكن مسموحا لهم ولا لأهل المال الأخرى غير الترك بمزاولة الأعمال الحربية أو شغل الوظائف الهامة .

وحرى على الصليبيين احرار السلاح ، أو ممارسة أى سىء بمى بأى صلة لسنون الحرب ، لذلك ما كاد الحبر بافتراب الحجاج القادمين من الغرب يصل الى مسمع كبار رجال أنطاكية ، حتى ازدادت ريبتهم فى المؤمنين(١) عن ذى قبل ، ومنعهم - لاسيما بعد حصار المدينة - من مغادرة بيوتهم ، فكانوا لا يخرجون منها الا فى ساعات فرضوها لهم .

☆ ☆ ☆

كان بين أهل المدينة بعض أسرات معسة شريفة الأصل كريمة المحتد ، توارثت المجد القديم عن الفضلاء ، وكان من بينها أسرة بارزة بسبب أصلها العريق تدعى بسى «زردة» ، التى تعنى فى اللغة اللاسة أبناء صناع الزرديات ، ولهذا سمى بنوها بهذا الاسم ، وربما كان ذلك نسبة الى اشتغال جدتهم الأكبر بهذه الحرفة ، أو لأنهم هم أنفسهم استمروا فيها ، ومن المحتمل أن بعض رجال من هذه الأسرة كانوا لا يزالون هذه الصنعة ، ويعملون فى هذا الفن الذى ظل على مدى أحوال متعاقبة وقفا عليهم ، حتى أورنهم هذا اللقب .

(١) يعنى المؤلف بهم المسيحيين من سكان أنطاكية .

وكان هناك برج يعرفه الناس ببرج الأحيين يقع في الجانب العربي من المدينة ، ومجاورا للبوابة التي تعرف اليوم باسم سبت جورج ، وقد خصص هذا المرح لملك العائلة حتى يمكنهم مراقبة عملهم في طمانينة في هذه الحرفة التي كانت ذات أهمية قصوى لكل من المدينة واليهما .

وكان من هذه الأسرة شقيقان يدعى أكبرهما بفروز ، وهو رجل قوى النفوذ ، عظيم الجاه ، الى جانب أنه كان كبير عسيره وأسرته ، وكانت تربطه أواصر صداقة مينة العرى بوالى أنطاكية [باغى سيان المسلم] الذي أعدق عليه نعا كبيرة سرفه بيا ، وكان فروز كاتب السر فى القصر ، الى جانب تقلده غير ذلك من الوظائف السامية .

وسمع فيروز بأن « بوهيموند » أمير كبير دائع الصب ، رله صلح بارز فى كل ما هو جار فى الخارج ، ومن ثم ما كاد الحصار يبدأ حتى نجح فيروز فى كسب ود بوهيموند بواسطة الحذات المرادفة بينهما ، كما ظل فروز طوال اسمرار الحصار حريصا على هذه الصداقة ، فلا ينقصى يوم حتى يوافق بوهيموند بتمسك ما يجرى بالمدينة ، ويبحث اليه بخطط ياغى سبان ، واذ كان فيروز رجلا داهية ، فطما ، يقظ الفؤاد ، فقد حرص كل الحرص على أن يظل خير اتصاله بوهيموند سرا مكشوما بينهما ، ونجح فى ذلك غاية النجاح ، لانه كان يخاف أن يحدث الخطر الكبير به هو وأسرته من كل جانب ، ان وقف سواهما على هذا السر .

وكان بوهيموند هو الآخر شديد الكتمان لما بينه وبين هذا الرجل من صداقة فطواها فى أعماق قلبه ، ولم يعلم أحد بشئ قط عن صلة الواحد منهما بالآخر ، ولا بالرسل المستمرة بينهما ، بل لقد خفى أمر ذلك عن الجميع ، حتى عن خدمهما وأهل ستها .

اسمى التفاهم السرى بين هذين الرجلين - والذى أسرنا اليه حالا - قرابة سبعة أشهر ، زخرت بالاصال الودى بينهما بسأن الطريقة التى يمكن أن يتم بها اعادة المدينة الى المسيحيين ، وطالما ذكر بوهيموند فيروز بهذه المسألة حتى انتهى الأمر أخيرا بفيروز - كما قبل - بأن بعث اليه بالرد التالى على يد ولده الذى كان يحمل الرسائل المتبادلة بينهما :

« اعلم يا أحسن الرجال ، ويا من هو أغلى على من الحماة دانياء ، أننى قد أحببتك حبا حالصا منذ اللحظة التى ساءت فيها اراده الله أن تقوم بيننا هذه الرابطة من الصداقة المتبادلة ، ودعنى أذكرك أكسر من هذا أننى وجدت فى كلمتك صادق العزم الذى لا سوفر الا فى الرجل الصالح ، ومن ثم فإن حبك أخذ بزداد رسوحا فى فؤادى يوما بعد يوم ويعظم قدرك عندى . أما عن الأمر الذى كبر نذكرك لى به فقد أمعنت فيه النظر مليا ، وعنبت ببجحه مرارا ، وقلبت على شتى جوانبه ، فأيقنت يفينا جازما أننى اذا استطعت أن أعد بلدى الى حريته السالفة ، وطردت هذه الكلاب القذرة التى تعاني تحكمها فبنا ، وأحللت بدلا منها شعبا يعبد الله ، فإن بضيع أخرى يوم الحساب ، وسوف أنعم بصحبة القديسين الماركن الى الأبد .

« ومن ناحية أخرى ، فلو قمت أنا بهذه المهمة الشاقة الخطرة ، ولم يكسب لى النجاح فيها ، فلن يسك أحد فى أن سيكون ذلك بئانه ببتى وانهمار سمعة عشرينى الطيبة تمام الانهيار ، ولن يجرى على اللسان اسمنا أبدا ، غير أن الأمل فى النصر لا يزال يراود النفس فى القيام بهذه المخاطرة ، ومع ذلك فأننى مستعد للنهوض بهذا العمل ان وافق رفاقك على أن تؤول اليك أنت وحدك دون سواك

عده المدينة حين استسلامها بعصل جنودى القويه ، وبعون الرب
الذى ربط بيننا برباط الصداقة الوثيق ، وسأقوم بالمهمة مهما كانت
صعوبها ، وسيكون قيامى بها بسبب حنى لصغارى الذين أرجو
لهم ولك كل الخير » .

« وسأسلم اليك من غير عائق هذا البرج السديد الحصانه ،
الذى يعرف أنه فى حوزتى ، وحينذاك نستطيع أب ومن معك دخول
المدينة آمين سألين » .

« أما ان رأيت انكم جميعا مساوون فما سكم ورأيت أب
أن نقسم وإياهم المدينة حين نؤخذ على هذه الصورة فاسى لى أرج
بنعسى فى هذا المأزق الخطير ، ومن أجل خاطر قوم ليس لى هوى
فيهم » .

« وانه لينحتم عليك - من أجل الصالح العام وسلامة الجمع -
أن نبذل قصارى جهدك للحصول على هذه الموافقة من القادة المرتبطين
بك ، وكن واثقا كل الثقة أننى حالما أتسلم منك الخبر البين بأنكم
وفيم بهذا العهد ، فلن أنوأس فى فتح باب المدينة لكم لدخلوها ،
وهذه هى الغاية التى تلج على من أحلها » .

« وأزيدك علما بأنك ان لم تتحرك بأسرع ما يمكن ، فلن
تدخلوها بعد ذلك أبدا ، لان حاكم هذه المدينة تصله الرسائل ،
وتنوالى عليه الكتب كل يوم ، مشيرة الى أن الامدادات التى تجمع
من كافة أرحاء الشرق لمساعدته قد عسكرت حول نهر الفرات ، فى
قوة بلغت مائتى ألف فارس ، فاذا وحدتكم هذه الجيوش لا زلم
خارج المدينة فلن تكونوا قادرين بعد ذلك أبدا على مقاومة قوة الأهالى
وحشوش حلفائهم القادمة » .

شرح بوهيموند مد تلك اللحظة في بذل أقصى جهده لاسسكاه مساعرا كل شخص من القادة ، ومعرفة ما يدور بفكر كل منهم على حدة ، والوقوف على الخطأ المنوفا انخاذها بشأن المدينة المحاصرة حين يتم الاستيلاء عليها ، وبرع كل البراعة فى اخفاء مسروعه . الا عمن اعتقد أنهم موافقوه على رعبانه ، وكان اذا رأى الأمل صعبا فى نجاحه لدى بعض القادة أرجأ الموضوع الى وقت آخر يكون اكبر ملائمة . ومع ذلك فقد وافقه على مطالبه كل من دوف حودفروى . وكونب بورماندى ، وكونب فلاندرز ، وهبيج العظمى ، وصارحوه بنأيدهم لما يريد ، واسمصبوا سر الرجل النبيل [قروز] وأنوا على فطنته ، وكنموا عزمه فى صدورهم كمنهم لأمر لا سعى أن يعلم به أحد قط .

أما كونب بولوز فكان الوحيد الذى شذ عنهم فيما يتعلق بهذا الموضوع . وترنب على موقفه هذا ارجاء المسألة ارجاء كاد أن يدمر ما اتفق عليه ، لان صديق بوهيموند الحمم [أعنى قروز] ، كان رافضا كل الرفض أن يقوم بعمل فنه كثير من الخطر عليه من أجل خاطر الآخرين ، كما ان بوهيموند لم يكن بالشخص الذى يجهد نفسه فى عمل للصالح العام ان لم يعد عليه بالجدوى ، لكنه اسمر مع ذلك فى الحفاظ على مودته الصادقة مع قروز فحافظ على الدوام بهداياه وملاطفاته ، كما ظلت الرسائل موصولة ومتراقة سنهما ، وأخذ كل منهما يرمى ما بيده وبين صاحبه من الصداقة ونمهما .

عاد في هذه الأثناء إلى أنطاكية المبعوثون الذين كان باعى سيزان وأهل أنطاكية قد أرسلوهم إلى فارس بغية اسجداء العور ، وقد نجحوا في انجار سفاريهم ، وحققت مطالبهم ، ذلك لان أمير فارس العظيم كان قد سمع بما تلفاه أنطاكية من الأهوال وتحرك قلبه عطفا عليها ، وكان من صالحه صد محاولات الصليبيين والعمل على سل قوتهم حتى لا يتطلعوا لفتح بعض أجراء من مملكه بحد السف « ومن ثم بعث إلى بلاد الشام حشودا لا يحصيها العد من الفرس والبرك والأكراد ، بقيادة واحد من أصدقائه المقربين ، كان يستطيع أن يعتمد على شجاعته وإخلاصه وهمه كل الاعتماد ، وألقى إليه بالقيادة ، وجعل تحت امرته أمراء سنين وفودا وأمراء خمسين وصاطا آخرين دونهم مرتبة ، يطعون أمره وينفذون كل ما يقضى به ، كما روده بكتب لها قوة القانون وجهها إلى ولاية جميع الأقاليم التابعة له ، والخاضعة لسلطانه متضمنة أمره إلى كافة الناس والأمم والقبايل والشعوب على اختلاف السنتها ، أن ينبعوا - من غير تردد - ابنه المحبوب «كربوغا» الذي وكل إليه قيادة جيوشه بسبب خدماته ، وأمرهم بالامتثال لسلطان هذا الرجل ، وألزمهم بطاعته في كل ما يأمرهم به ، وأن يكونوا وفق مشيئته فلا يعارضه فيها معارض .

رأس كربوغا - بأمر مولاه - الجيوش التي ذكرناها حالا ، وزادها عددا بمن ضمه اليهم من العسكر الذين جمعهم خلال زحفه في البلاد ، فدخل العراق بمائتي ألف رجل ، وعسكر في ناحيته الرها ، حيث حافته الأخبار المختلفة وهو بها يوقوع هذه المدينة وكل الاقليم المحيط بها في قبضة أحد قادة الفرنجة الذي كان زاحفا ضده فأجمع النة اذ ذاك على مهاجمة هذه المدينة - قبل عبوره الفرات - وعزم على الاستلاء عليها قسرا .

ببد أن بلدوين كان قد علم بتقديم [ياغي سيان] فجلب أناسا
سجعا من كل النواحي الى حول [الرها] لمساعدته ، كما عسى
بتوفير كل ما يحتاجه مدينته من الطعام والسلاح ، لذلك لم يزعيجه
كثيرا تهديدات كربوغا السديده له ، حين أمر الأخير أن يبادى
المنادون بأن الجيوش موشكة أن تغير على الرها ، وأن تضرب الحصار
عليها بكل ما أوتيت من قوة ، ولكن المدينة فاومتها فى عناد . وسرعان
ما نحلى للعسا أن لى 'جسى كثيرا من هذه المحاولة ، ولن يكون مقدمه
فيها ملحوظا ، مما حمل فى النهاية جماعة من أهل الحجى على
الذهاب الى قائدهم ، وطال بينه وبينهم الجدل ، حتى انتهى به الأمر
الى نبذ هذه المحاولة وعدوها محاولة عارضة ، انصرف ياغي سنان
اثرها لمتابعة خطته الأصلية ، التى تنلخص فى عبور الفرات والاسراع
لنجدة أنطاكية ، وهو الهدف الذى جاء من أجله ، وذكر له هؤلاء
الرجال أن أخذه الرها وأسره بلدوين لن يستغرق منه أكثر من يوم
واحد ، وذلك فى طريق عودته من أنطاكية بعد رفعه الحصار عنها .



ظل كربوغا محاصرا الرها ثلاثة أسابيع (١) ، أضاع فيها
وفته سدى وبدد جهوده عبثا ، ثم بدا له أن يأمر فوانه بعد
ذلك بعبور البهر فأمرها فاجنارته فसार خلفها محاصرا الحطى فى
همة كبيرة الى هدفه الذى خرج من أجله ، وكان توقف جسس الأعداء
أمام الرها ، هو السبب فى عدم استطاعة بلدوين أن يكون حاضرا
أثناء حصار أنطاكية ، كما كان السبب فى خلاص قوما الذين كان
لابد أن يتخرج موقفهم - كما تنبأ فيروز صديق بوهمونند - لو أن
كربوغا زحف مباشرة على أنطاكية ، وأخذها قبل اسئلاء الصليبيين
عليها ولكن شامت نعمة الرب أن تقع أنطاكية قبل وصول المارفين ،
والا كان من الصعب على الصليبيين أن يقفوا فى طريق كربوغا .

(١) ذكرت الترجمة الانجليزية انها من ٤ الى ٢٥ مايو .

عمت السائعه أرجاء المعسكر في نفس الوقت بتقدم هذه
الحشود الكثيفة وأكد الكثيرون صدق هذا الخبر ، فأيقن العسكر
أن العدو قد وصل الى اطراف أنطاكية ، فاستبد الدعر بهم استبدادا
كبيرا ، واذا ذاك قام القادة فبعثوا في اتجاهات مغلقة رجالا من
دوى الخبرة لا يسك أحد أبدا في اخلاصهم وساطهم ، وطلبوا اليهم
أن يفانلوا وجهها لوجه أناسا لا يغمر ولاؤهم حتى يمكن الحكم الصحيح
عن مدى صدق ما أذيع من الأنباء ، وقد اخبر لهذه المهمة محاربون
سجعان من ذوى الرتب العالية هم « دروحو دى سرل » و « كلاربولد
دى مديل » و « جيرارد دى سيريزى » ، و « رينالد كونت بول »
وغيرهم ممن عاب عما أسماؤهم فانتسروا مع أبايعهم في بواح محلقة.
وبدلوا همهم في التقصى الدقيق فأرسلوا من صلهم وبدورهم
الكسافه الى النواحي القاصية ، فصارت بين أيديهم بهذه الطرقة
أخبار موثوق بها تؤكد بجمع العسكر [الاسلامى] من سسى النواحي
وانصمامهم بعضهم الى بعض في جيش واحد ، كأنهم الأنهار نجمع
لتصب في البحر ، فلما فرغ الزعماء من ذلك عادوا مؤكدين للعاده
الدين كانوا قد بعثوا بهم أنه لا موضع للشك في الأنباء السى بلعهم .
وبذلك أخذ كبار دادة المجلس الصلبنى حذرهم فبل سبعة أيام
من وصول كربوعا بعواته أمام أنطاكية . فأوصوا الحواسس أن
بعملوا جهدهم على بقاء هذا الخبر طى الكتمان ، فلا يسمع به أحد
من الناس ، خوفا من استنبلاء الذعر على حموع العامه السى أضهاها
الجوع . وأرهمها التشدائد التى استمرت طويلا مما قد يدفعها الى
تدبير خطة للهرب الذى كان طريقا سلكه في الواقع منذ وقت قريب
بعض الزعماء الكبار .

وحينئذ نجمع الزعماء لنبادل الرأي حول الموقف الذى أصبح يكره الحمله بأجمعها ، ويهدد بمأزق يذهب ريحها ، فسرعوا بروج مواضعه وقلوب حاسسه بدبرون الاحراء الى بجمعى علمهم اتحاذها فى مثل هذه الحال الطارئة ، فافترح بعضهم أن يجرح كل القوة المشتركة فى الحصار ، فنصدى للجموع القادمة على بعد مئس أو ثلاثة أميال من المدينة ، وهناك - بعد رفعهم أكف الصراعة الى السماء أن تدمهم بالعون - يحاولون مقابلة ذلك القائد المتغطرس ، المسفحة أوداحه بما يمس معه من الألوف المؤلمة .

على أن فريقا منهم فضلوا أن يخلعوا وراءهم فى المعسكر فسمما من الجيس ، لمنع الأهالى من التسلل والانضمام الى العسكر الوافد اليهم ، وأما ذلك القسم من الجيش الصليبيى الذى يسأو هؤلاء فوه وكان أخبر منهم بفن الحرب فعلمه - حسب الاقتراح الأول - الخروج لصد الكفار على بعد مبلين ، فان رضى الله التقدير بما فعلوا فابلوهم بعون منه .

وبينما كانوا يناقشون هذا الموضوع مناقشته دقيقه ، ويبادلون رأى فيما بينهم تبادلا حرا ، نسلل بوهيموند فى هدوء وانسجى جانبا بطائفة من كبار القادة هم : جودفروى ، وروبرت كوت فلاندرز ، وروبرت كوت نورماندى ، وريموند كوت نولوز ، حتى اذا أصبحوا وحدهم فى ناحية منعزلة ، وعلى مبعده من الآخرين خاطبهم قائلا :

« اسى أرى أنها الاحوه الأحياء العاملين فى خدمة الرب ، انكم قد انزعجتم فرعا من دنو هذا الزعم ، والذى يقال انه أصبح قريبا منكم كل القرب ، ولقد كانى لكل منكم - أثناء المؤتمر الذى انعقد

مد قليل - رأيي الذي يحالف رأي سواء ، والذي يصدر عن رعائي
الخاصه . ومع ذلك فلس نم افراح مس الموضوع من حدوده .
عسوا- حرحا حمرعا معا كما افرح بعضكم ، او افام قريبي من
الجند في المعسكر ، فالواصح أن حشودنا الكثيره مهما طال
اسمرارها ، لن يجدى فضلا ولن تؤتى ثمرتها . ذلك لأن في حرونا
جميعا معا نهاية للحصار . وفصاء على أهدافنا . اد يعود المواطنون
احرارا لس علبهم رعب ، وحسناك فد يصمون الى العدر أو
بدخلون عسكر حلقائهم الى المدنة .

» كما أنه لا محيص من حدود نفس السبيجة لو بقي قسم من
الجند في المعسكر ، ذلك لان جميع قواتنا المتحدة حتى الآن لن
نكون قادرة على كبح جماح المواطنين رغم ما هم فيه من ضيق يعب
على البأس ، ورغم أنهم لا يأملون قط في نجده نأسيهم فعيهم ،
فكيف ينسى اذن لجزء ضئيل من جيشنا أن يلزمهم بالبقاء داخل
الأسوار ان وصل حلقاؤهم ؟ ويبدو لي أنهم اذ ذاك سيعملون واحدا
من اثنين : اما أن ينصموا الى حلقائهم وحينذاك نسد شوكة فوائهم
المتحدة في الهجوم علبنا بأعداد نفوق أعدادنا . واما أن يحالوا
بطريقة أو أخرى لادخال جند الحلفاء المدية ، مع بذلهم الجهد في
برود أنطاكه بالسلاح والمبره مما يسد من ساعدها . وفي هذه
الحالة لن يكون عندما ما يؤكد لنا الغلب على المدية حتى وار
أعانا الله فهزمتنا العدو خارجها ، لذلك يبدو لي أيها الساده العظام
الموقرون أن الواجب نفرض علنا أن نسعى السعى كله للاسملاء
على أنطاكة قبل وصول هذا القائد الكبير ، فان سألهموني
وما وسيلتك الى ذلك ، وكف يمكن بطبق خطة كهذه الخطه . فاني
أقرر لكم - حتى لا أبدو وكأني أقترح عليكم مشروعا بسجل
انجازه - أنني قادر على أن أفصح لكم طريقا ، نستطيع منه أن نحقق
هدفنا المنشود نحققا سريعا وسهلا . ذلك أن لي أنطاكة صديقا

صدوقا ، عافلا كل العقل ، بعدر ما برى عين الانسان الغفل ، وأعمد
أننى فد بينت للبعض منكم منذ قليل أن تحت امرة هذا الرجل برحا
منيعا شديد الحصانة ، وأنه قد رضى عن طيب خاطر أن يسامه
لى تحت شروط خاصة ، وكنت قد التمسيت منه مرارا أن يفعل ذلك
فاسسحاب لى بعد الحاح طويل ، والتزمت له - ردا لهذا الحميل -
أن أصله بقدر كبير من المال ، وأن أصمن له ولذريته من بعده أملاكا
شاسعة ، وامميزات سسى مننا يكافىء ما قام به ، ان جرت الأمور
وفى ما بهوى

» فان رصبم أيها الساده الأعزاء أن يصبح مدييه أنطاكيه
بحب حكى - ان تم الاسبلاء عليها بجهودي الكبيرة - وفلم أن
يكون ورائه فى بيى الى الأبد ، فأنى مسعد حينذاك أن أخرج
الى حير الوجود ما اتفقت عليه أنا وصديقى (١) هذا ، أما اذا أبسم
ذلك ، فلتحاول كل واحد منكم أن يلتمس طريقا أحسن مما ذكره ،
يمكنه من الاسبلاء على المدييه بنفسه ، فان يحج فى ذلك كان
ملكا خالصا له لا يسافقه فيها أحد ولا ينازعه ملكيها منارح ،
وسوف أذعن أنا لما فيه صالحه ، كما أننى مسعد لأن أتنازل له
عن أى نصيب يكون لى فى الأمور الحالية » .

- ١٧ -

أصغى الزعماء جميعا للكلمات بوهيموند هذه بقلوب بعمرها
الفرحة ، واستجابوا لرجائه ، معترفين بجميله ، ولم يشذ عنهم
سوى كوت نولوز ، الذى أعلن فى اصرار أنه لن يسخلى عن نصحه

(١) المقصود به « ديور » .

كائن من كان ، على حين قطع الآخرون على أنفسهم العهد ان يسخروا
المدن بملحقها ليوهموند . لتكون وراثته في يده الى الأبد .
وأقسم كل رجل منهم - وقد سخط بدهاء - أن يبقى الأمر سرا
مكروما لا يحجر به احدا قط . ثم أخذوا كلهم في الوقت ذاته بلحون
على الأمير بوهيموند أن سادر لحسم هذا الموضوع بما عهد منه من
الششاط . حتى لا يؤدي الإبطاء الى حدوث خطر ما . ثم انقض
الاجتماع . فقام بوهيموند بما أثار عنه من طبع لا يعرف الإبطاء وعمر
بسحق لتسعد مشروعه . فاتصل في لحظة بصديقه فيروز بواسطه
الرسول الذي اعاد أن يكون الواسطه بينهما . واحبره أن الزعماء
سمحوا له بكل ما سألهم اياه ، وراح يلح على فيروز ، وسجله
بما بهما من الايمان الصادق ، أن يقوم في الليله التاليه مع
الله بسيفه الحطة التي انقا عليها . فابلح ذلك الحبر نفس سامعه
الوفى . وغلبت عليه نشوة السرور فوق كل ما بصور .

★★★

على أنه جرت حادثة قرب هذا الوقت سدد من عزم [فيروز]
على السير فلما في المؤامره التي دبرها ، ذلك أنه بينما كان مسعولا
أشد الاسعال بأداء ما بفرصه عليه واحسانه الكيرة التي
يفتضيها وضعه في بيت مولاة . بل وفي البلد كله ، اذا تأمر عاجل
لا ندرية يجد أثر ارساله ولده الشاب الى داره ، اد ما كان الفني
يلفها حتى طائع منطرا مشييا فاضحا ، حين ساهد أمه بين ذراعي
أحد كبار الأتراك في وضع مزر أسخطه غايه السخط . وارتعدت
منه أوصاله فرعا . وتغزب له نفسه . فانكفا سرعا الى أبيه
وأخبره بالفصحة . فحق فيروز حين الزوج المعلوم في سرفه ،
المهان في كرامته ، وقيل انه قال في مرارة ، ألم بكف هذه الكلاب
القدره أبها تعرض علينا رقاها الظالم ، وتهب أملاكنا بما ستزده منا

بوما بعد يوم حتى ستهين بالنفـالـد الأسـريـه ، و يقطع الروابط
الزوجيه ٩ ٠٠٠٠ والله لأضعى - ان، عسب - نهايه لهذا العجور .
ولأحارسهم بعون الرب الجزاء الأوفى الذى هم أهل له « .

قال فرور هذه الكلاب وقد كم حواجه على ما يحسه من
شعور بالاهانه التى لحب به ، ثم أرسل الى بوهيموند - كما جرب
العاده - ولده الذى بشاركه أسرارـه ، والذى كان هذا الانم الذى
نزل بأمه فد اسورى غضبه ، وأضرم غيظه ، وأمره أبوه - اد
عنه الى العائد بـهـمـود - أن يطلب اله أن يسعد لكل سىء
يستلزمه العمل الذى بين أيديهم اسعدادا دفقا ، وان يخبره أنه
لن يقصر فى سىء من جانبه ، بلى انه موف بما عاهده به ، وموعدهما
اللما التالية .

كما أشار عليه أن يغادر الزعماء جميعا المعسكر
ووراء كل منهم أتباعه ، وأن نكون مغادرتهم المعسكر قرب الساعة
الاسعة ، حتى لحسبهم الرائي وكانهم قاصدون الزحف على
هدوهم . فاذا قرب موعد الحراسة الليلية الأولى عادوا سرا وفى
سكون مطبق ، ونهاؤا قرب منتصف الليل للعمل حسب تعليماته ،
فاستصحب بوهيموند هذا الشاب فى السر الى القواد العالمن
ببخبر المؤامرة ، وذكر لهم كل تفاصيل ما رتب حسبما اتفق عليه
مع فيروز بمساعدة ولده ، فتملك العجب نفوسهم جميعا من خطة
الرجل وصادق اخلاصه ، وأقروا ما رسمه ، واتفقوا على تنفيذه
حسبما رتب .

عبر أنه كبيرا ما يجد حذب من الاحداث لم يكن عموفا فمعترض
مساريع لها مثل هذه الخطوره . اد ساورب الريبه - الى يعورها
اليهمان - نفوس مواطى أنطاكيه لاسبما من نفع على أكافهم
المستولية المبائرة عن آمن المدينة . واحبك الشك في نفوسهم اكبر
من اليقين بأن هناك مفاوضات تجري في الجفاء دمرى الى تسليم
أنطاكيه ، وما لبب هذا الشك أن أصبح موضوعا عاما بلوكة جمع
الألسه . مما دفع كبار المواطنين للاجتماع . وساروا الى الوالى
للتشاور معه فى حبر هذا الحالج الذى يصطرب به نفوسهم ، والذى
بدى محتملا كل الاحمال ، وتقوم الدلائل الكبره على ترجحه .

وكان بأنطاكيه - كما قلنا - رجيل كبير من المسيحيين نحوم
حولهم الريب رغم براءتهم براءة نامة من هذه المؤامرة ، وكان من
بسهم ذلك الرجل النبيل الذى نتحدث عنه الآن ، والذى رغم اعتماد
ياعى سبان على احلاصه الصادق اعتمادا كبيرا ، الا أن الرجال
الباررين الآخرين كانوا يربايون فيه أكبر من عمره ريبة لم يجعله
موضع ثقهم .

لذلك عقد اجتماع منير بشأن هذا الموضوع فى حصره ياعى
سبان ، تردد فى أثنائه اسم « فيروز » مع أسماء بصعه أفراد آخرين
كانوا مسار النشكك ، وكان هناك على ما يبدو كثير من الأسباب
التي بحمل على عدم تصديق ما ائهم به ، لأنه كان رجلا جم النشاط
وصاحب نفوذ فى المدينة يفوق نفوذ سواه من المسحيين . وأخيرا
رضح ياعى سبان لالجاح مستشاريه فأمر باحضار فيروز ، فأحصروه .
ويعمد الموجودون اثاره نفس الموضوع فى وجوده ليسمعوا ماذا يكون
قوله ، لئكونوا فادرين على أن يقرروا - بناء على ما يقوله - اذا كان
ما يثار حوله من شك حقيقة أو منيا .

ولكن فرور كان رجلا شديد الذكاء حاضر البديهة فأدرك في لحظته ان هذا الاجتماع انما عقد من أجله هو وحده ، وانه هو ذاته موضع الاتهام ، ولذلك أخذ يراوغهم في اخفاء سره ، واطهار براءته أمامهم ، ويقال انه رد على أولئك الذين اجتمعوا لقصي أمره بقوله « ان شكككم أيها الرجال المحترمون ، وأنتم كبار رجال همدو المدينة وسراتها ، لأمر يستحق أعظم النناء ، ولا يوفر مثله الا عند دوى العطف ، لأنه من الحكمة الحدس بما يمكن وقوعه ، كما ان شدة الخذر في الأمر الجليل ليست بضاره ، لذلك يجب ان انكم قد صدرتم عن وافع ليس بالبافه في أمر يتعلق بحياتكم وحريةكم ونسائكم وأبنائكم ، ومع ذلك فان فيلتهم نصحتني فان هناك طريقه عادله عاجلة تؤدي الى العلاج الساجع والشفاء الفعال لهذا البلاء الذي يهددكم ، فالخيانة الملعونة التي يبيعكم بعد نظركم على الخوف منها لا يظدر لها النجاح الا بواسطة الموكول اليهم حراسة الأبراج والأسوار والعمامين على حفظ الأبواب ، فان ظلم ظن السوء بولاء هؤلاء الناس فاعمدوا الى مداومة اسئدالهم بغيرهم ، حتى لا يطل الواحد منهم أمدا طويلا في مكان واحد ، يمكنه من أن يوثق مع العدو وسائج صداقه مدمرة ، لأنه ليس من السهل اعداد مؤامره من هذا القسل في سرعه ، بل يحتاج في الواقع الى زمن طويل ، كما أنه لا ييسى لشخص ما بمفرده أن ينجز عملا خطرا كهذا العمل الذي لا بد ان يساهم فيه معه مواطنون يسعلون مناصب رفيعة قد أفسدتهم الرشوه حتى صاروا شركاء في الجريمة ، لكن اذا عمدتم الى القيام بتغصيرات فجائية لهؤلاء الناس على غير توقع منهم لها تكونون قد قضينم على كل فرصة لمفاوضات مهلكة من هذا انفسل » ، ثم أمسك فيروز عن الكلام عندما بلغ هذا الحد من العول . وكان ملاحظانه وقعها الطيب في نفوس الذين سمعوها فاستصوبوها ، واتضح لهم انه قدم الدليل القاطع والبرهان الجلي على براءته ، وأنه قضى الى حد بعد على ما خامرهم من السك في أمره .

وكان من الممكن ان يبادروا فى لحظتهم هذه بسعيد ما أوصى به ، لولا أن النهار كان موشكا على الانصرام ، واللبل موشكك على الدخول ، مما يسحيل معه القيام - فى ساعه متأخرة كهذه الساعة - بإجراء مثل هذا التعبير الرئيسى فى حراسة المدينه ، لكن الذى استطاعوا عمله هو اصدا رهم الأوامر بشديد الحراسه . شديدا صارما لحماية البلد ، غير أنهم كانوا جميعا فى جهل بما دبره ذلك الرجل من تدابير فى الحفاء ، واذ كان على يبيه من أن الموقف سيبدل حالا ببدلا كبيرا ، فقد بذل عايه حينه فى السر فدما بمؤامرنه . وفى عحله قبل وقوع أى شىء بحول دون تنفيذه .

- ١٩ -

ما كاد حسنا يعف أمام أسوار مدينه أبطاكة ، ويعرض عليها الحصار ، حتى ساور الشك الأهالى فى الاعريق والسرمان والأرمن وغيرهم من معنقى المسيحية ، دون النظر الى الجنس الذى يتمون اليه ، ومن ثم أخرجوا منها جميع المعزة . ومن لا يملكوا المواد الضرورية لاعالة أنفسهم وأسرهم الصغيرة ، وقد فعل الأهالى ذلك حتى لا يكون هؤلاء عبئا ينقل كاهل المدسه الى لم يؤذن للبقاء فيها الا الأبرياء ، ومن اصلأت محارنهم بالثونة ووسائل العيش الكبيرة التى توفر الحياة لهم ولذويهم ، وان كان هؤلاء لم سلموا من ارغامهم على أداء خدمات كبيرة فرضت عليهم فرضا . الى جانب ما يكلفون به من أعمال جرت العاده على بكليتهم بها . وكان ذلك سيئا ثقبلا بدا معه أن المنفى الذى أخرجوا من المدينه كانوا أسعد طالعا ممن أذن لهم بالبقاء فيها ، فقد ضوعفت عليهم الغرامات النقدية التى أخذت منهم اغتصابا حتى لم يبق فى أيديهم

من المال سوى النزر اليسير الذى لم يسلم هو أيضا من استعمال السدة فى ابتزازه منهم .

ولم يكثر أولو الأمر باحتياجات هؤلاء ، اذ فرصوا عليهم العبام بارذل الأعمال واشقها فى المدينة ، فاذا أريد نشيد الآلات ، أو نقل خدوع الشجر الضحمة البهيلة ، كلفوهم بذلك فى لحظهم ، كما أجبروا البعض منهم على حمل الحجارة والأسمنت وكل مواد البناء ، وألزموا سواهم بجلب الأحجار الكبيرة التى اعتادوا دائما وضعها وراء الأسوار بالآلات وربطها بالحبال التى سد بها ، وما كان لهؤلاء الناس الا الامسال وطاعة رؤساء الفعلة الذين ام يكونوا يسمحون لهم بقسط من الراحة ، ثم بلغت هذه الشدة الفظيعة ذروتها حين عقد مضطهدوهم اجتماعا سرىا قبل سمانية أيام من الجلسة التى استدعوا اليها فيروز المشكوك فى ولائه وفرروا من هذا الاجتماع الفتك سرا - وتحت جبح الظلام - بجمع المسيحيين الذين يعيشون فى أنطاكية . على أنه كان بالمدينة زعيم عاقل قوى النفوذ ، لا يكف عن اظهار صداقته للمسيحيين فى كل الأحوال ، فسعى سعيًا حثيثًا حتى تمكن - بعد لئى ورغم معارضة الآخرين له - من أن يؤجل تنفيذ القرار العاصى بقتلهم مدة ثمانية أيام ، ولولا منحهم هذه المهلة لكان من المؤكد ارسال الجلادين لتنفيذ هذا الحكم الفظ ، ولهلك المسيحيون عن بكرة أبيهم بالسيف فى تلك الليلة ذاتها .

كان الغرض من السماح بهذه الأيام السمانية أن يثبت عندهم باليقين الجازم عما اذا كان فى الامكان رفع الحصار عن المدينة ، فان تأكد لديهم عزم رجالنا على الاستمرار فى الحصار فتكروا بالمسيحيين ذبحا ، أما ان ثبت عكس ذلك مواء بالحياة على الأهالي الذين سبقوا أن قضوا عليهم بالموت .

فلما انتهت فتره تأجل الحكم ، وحانت الليلة الأخيرة منه
صدر الأمر سرا بجمع ما فصولا به ، وكانت المدينة على وشك أن
سم في نفس الليلة التي حددها زعمائنا لتنفيذ الحطة التي رماها
بوهيموند وفيروز منذ أمد طويل . والتي سم بعون الرب . اذلك
فعى اللحظة التي شرع الصليبيون فيها في احلال المدينة لم يشعر
كبارها بالحدف من الصحة التي سمعوها ، فقد ذهب بهم الطل
الى أن ما سمعوه لا يعدو أن يكون السروع في بطق الأوامر التي
فصولا سمعدها في مواطنهم المصارى .

لذلك فانه حين سم لرحالنا الاسلاء على المدينة بلك الطريقه ،
عترفوا في دور بصارها على كبر من حصوم ملهم الذين كانوا
حاهوا مأمورين بالفتك بالمؤمنين الصادقين .

- ٢٠ -

ولما كانت الساعة التاسعة سمع صوب المادى ينادى في شتى
أرجاء المعسكر بخروج جميع كتاب العرسان في كامل عدهم وراء
فوادهم ، وألا يوانوا عن تنفيذ الأوامر التي سوف تلقى بهم . ولم
تكن العامة هي وحدها التي بجهل جهلا ناما بما دب في الخفاء ،
اذ الواقع أنه لم يكن يعرف السر سوى ثلة ضئيلة من كبار الرعاء .

ومن ثم فانه سمعا لتربيبات فيروز الحكيمه ، عاارب كتاب
العرسان بأجمعها المعسكر ، ومنست كل كتيبة منها وراء علم قائدها
وساروا حتى ليطنهم الناظر بهم أنهم ماضون لجهة بعيدة . لكن

الحقيقة هي أنهم كانوا يسطرون أن يسدل الليل سدوله على الكون
ويظلم الدنيا فيعودون الى المعسكر في صمت تام .

★★★

كان لغيرور - رجل الرب هذا - الذي أدى للمسيحيين هذه
الخدمة الجلي الجليلة - أقول كان له أح يخلف عنه كل الاخلاف ،
سواء في مساعره أو عرضه . ومن ثم لم يكن فرور يسو في اخلاص
هذا الأخ ولذلك لم يفض اليه بالسر لعدم ائتمانه عنه . بل انه
بدل عنه جهده لاحياء حططه عنه اخفاء تاما .

وحدث في الساعة التاسعة من نفس ذلك اليوم ، وقد أحدث
كنايسا في معادره المعسكر أن وقف الشهبان معا على إحدى شرفات
البرج . يطلان على المعسكر ، فشاهدا الجند يغادرونه .

وأراد الأخ الاكبر أن يسبر عور آخيه ، ويعرف ما يدور في
باله ، فحاطبه فائلا . -

« لكم أربي دا آحي لهذا السعب الذي بدين بنفس العفيدة
الى بدين بها أنا وأنت ، وكم تحزنى الميه الى سوف يلهاها
عاجلا . فها هم عسكره يغادرون مخيمانهم في نقة وسكبة ،
لا يخافون سنا كان أوصاعهم آمه ، لكنهم لو عرفوا ما نصب لهم
من السراك وما يسطرهم من الدمار السامل ، فلربما اتخذوا اجراءات
أخرى تضمن لهم السلامة » .

فأجابه أخوه : « انه لحق منك أن تحمّل نفسك هما لا مبرر له ،
فانه لا محل لعطفك عليهم ، الا لبتهم جميعا هلكوا بسوف المرك
منذ أول يوم مست أقدام الترك هذه الأرض ... اذن لما

ازدادت أحوالنا سوءاً ، وما كان من المستطاع أن تكافأ الفوائد التي
نحنها من جهودهم مع المساو التي يحملها سبهم .



لم يكن فيروز حتى هذه اللحظة قد فرر ما اذا كان يفص
بهده الى أخيه أم يكنه عنه ، غير أنه لما سمع هذه الكلمات التي
فاه بها شقبه ، فزع فرع الشخص من الطاعون ، وراح يلعه في
سره . ويدبر حطة للقضاء عليه حتى لا نقف أعماله عمة في طريق
طاعة المسيح ، وهكذا وضع فيروز سلامة المسيحيين فوق عاطفة
الأخوة .

- ٢١ -

في هذه الأثناء راح بوهيموند يذل عايه وسعه لاحتاز
مشروعه ، وبلوغ غايته التي يسعى اليها سعياً حسناً ، وكذلك خوفه
من أن يؤخرها أى تراخ من جانبه . . . أقول دفعه ذلك الى زيارة
الزعماء : فردا فردا ، راجيا منهم أن يكونوا متاهبين للعمل .

وكان يحمل في يده سلماً مجدولاً على أحسن ما تكون الصنعة
من حبال القنب ليعلقه بأعلى جدران السور ، وليثبت من أدناه
بكلايب حديدية .

وما كاد الليل يؤذن بالانصاف حتى كان جميع سكان المدينة
قد هجعوا للراحة وعطوا في سبات عمق بسبب سهرهم المستمر ،

ومواصلتهم العمل ، وحيداك بعث بوهميوند الى فيروز بواحد من
أصدقائه من خاصة حاشيته وأخلص الناس اليه ، وعهد الى هذا
المرجم أن يسنوثق من فيروز تمام الاسيياى عما اذا كان الوقت
ملائما لينعدم رفاق مولاه .

فلما وصل الرسول الى فيروز وجده يطل من كوه صغيره فى
السهل . يرقب منها ما بجرى وراءه ، فأقصى اليه فى صوب حافت
برسالة سنده ، فقال له فيروز اجلس مكانك ساكنا ، ولد
بالصمت حتى يمر من هنا كبير الحراس الذى هو فى جولانه المعناد،
وفى صحننه طائفة كبيرة من أساعه ، وفى أيديهم المشاعل المضيئة .

ذلك أن نقاليد المدينة حرب - بالاصافة الى الحرس الموجودين
فى كل برج - أن يدور كبر الحراس كل ليلة ثلاث مرات أو أربعا
بالسهل ، ويدور معه فى كل دورة نلة كبيرة من العسس يحملون
المشاعل المضيئة ، فان صادف أحدا فد عليه النوم ، أو مراخيا فى
أداء واجبه ، أنزل به القصاص الجدير به .

وسرعان ما وصل الصابط المكلف بهذه المهمة . فألقى فيروز
براقب الأمور ويؤدى واجبه بمأم الأداء ، فأثنى على نشاطه ، وانصرف
مطمئن البال هادىء الخاطر .

حينذاك رأى فيروز أن قد حلب اللحظة الملائمة للعمل ، فجاء
الى رسول بوهميوند الذى كان مواريا حتى الآن حتى لا يراه أحد
وقال له : « ها عمل بالذهاب الى مولاك واطلب اليه الحضور برحاله
المخارين على جناح السرعة » ، فانكفأ الرسول عجلان الى سنده ،
فوجده على أتم أهبة ، فاستدعى بوهميوند اليه القادة الآخرين سرا ،
فاستجابوا له سراعا ، ثم انطلق كل واحد منهم بمن ينبعه
من رحاله حسبما اتفقوا عليه ، وما انقضت لحظات قلائل حتى

كانوا جميعا واقفين اسفل البرج وفعه رجل واحد ، دون أن يسمع
أحد لقدومهم صوبا ، أو يحدوا جلمة .



فى حلال تلك العره القصيره كان فيروز قد دخل الـرج .
فوجد أحاه يغط مى نومه ، ولما كان قد نأكد لـديه حصقة مشاعره
وانها ضد المشروع الذى دبره واسعد لتنقيذه ، فقد خشى أن يقوم
شقيقه هذا بما من شأنه عرفلة بحقيقه ، بعد أن أوسك على
احراحه . ومن ثم طعنه بسيغه طعنه نافذه ، فكالت ضربة طيبة
ودبيثة فى الوقت ذاته . ثم عاد فأطل من الكوة الموحدة بالأسوار ،
فطالع بحها حللاه ، فحكا كل منهما الآخر رجبة فيها الرخاء سلامه
كل حانب ، ثم دلى فيروز حبلا حذب به السلم من أسفل السور .

لكن على الرغم مم رفع السلم وتنسيه تبببا محكما من ناحيسى
العمه والقاع الا أن الجراء لم يوات أحدا على سلقه ، ولم يوجد
من يخاطر بحياته فيسقله . بزولا على أمر رئيسه ، أو حسى
انصاعا لأمر بوهيموند نفسه الذى لم يكده يبين ذلك الاحجام منهم
حنى بادر وأقدم هو ذاته على ارتقاء السلم غير هباب ولا وجل .
فلما بلغ القمة وعلق بحدار الشرفة اسند يد فيروز من الداخل
وأمسكت باليد المعلقة بالسور ، فلما عرف فيروز فيها يد بوهيموند
نفسه ، قيل انه هتف « عشت يدا ، وسلمت » .

وأراد فيروز أن يرفع قدره فى نظر بوهيموند وفى عيون
المسيحيين الآخرين حين يعلمون بما حرى من اغياله شقيقه الذى
لن يقبل مشاركته فى عمل مقدس كهذا العمل ، فأخذ بيد
بوهيموند القائد ، وسار به داخل البرج ، وأراه جسة أخيه
الهامة غارقة فى دمها ، فما كان من بوهيموند الا أن احتضن

هذا الرجل الصادق في اخلاصه ، والنايب على عهده ، وقد فاض قلبه بالحب ، ثم عاد الى الشرفة مطلا برأسه قليلا من خلال احدى الفتحات ، ونادى برجاله في صوت هامس آمرا اياهم بالصعود ، لكنهم كانوا مترددين اد لم يجرؤ أحدهم على تلبية أمره ، لأنهم كانوا لا يزالون في شك فيما سمعوه من الشرفة ، فلما أدرك بوهيموند ذلك الأمر من أصحابه نزل اليهم عن طريق السلم ، فكان ذلك برهانا لا ريب فيه على سلامه ، وسرعان ما أخذ كل واحد منهم يزاحم رفيقه ويدافعه بغية الوصول الى السور ، حتى اذا تكامل جمعهم لم يستولوا على ذلك البرج وحده ، بل وفعت في أيديهم أيضا أبراج كثيرة غيره على كلا جانبيه ، ولقد سمعنا أنه كان من بين الذين تسلقوا السور ، كوت فلاندرز ولورد تانكريد .
اصفى عيرهما أثرهما .

- ٢٢ -

لما رأى الزعماء الآخرون وصول الرجال الأنداء الى سرفاب الأسوار في أعداد كبيرة مما أدى الى فتح أكثر من بوابة لهم ، عادوا سراعا الى المعسكر ليستعد أتباعهم لتلبية الإشارة باقحام المدينة حين يرسلها لهم رفاقهم الموحودون بها ، وأحس الذين تسلقوا الأسوار كأنما سرت فيهم حماسة علوية ، فقادهم فيروز بنفسه الى داخل المدينة ، فاستولوا على عشرة أبراج في ضواحيها ، بعد أن فنكوا بحراسها ، وقد تم ذلك كله والمدينة يلفها السكون المطبق ، فلم يسمع أحد لهم صوتا .

كان فى ناحيه السور الذى صعد منه الصليبيون باب سرى
فزلوا البه ، وحطموا قصباته ، وفصوا آفقاله ، وسحروه وأدحلوا
من خلاله العسكر المسطر فى الخارج ، وأرداد عدد المياحم خلف
الأسوار زياده صخمه ، وأندفع هؤلاء وهؤلاء جمعا الى المكان المعروف
بباب الحسر ، وأعملوا الذبح فى الحراس فى هجوم سرس عليهم .
ففتحوا هذا المدخل أيضا .

فى هذه الأناء حمل بعض أبناع يوهيموند رايه الى نل
مسرف على المدينة ، وركروها فى مكان بارز للعدو على مربع قرب
القلعة العليا .

ثم بالآلات السماء مؤدبه بطلوع الشمس . ففتح فى الأبواق
لنكون اشاره لرجالنا الدين أحدثوا ضجة صاحبة عند مدخل المدينة
ولسحملوا الجند الذين لا زالوا فى المعسكر على التحرك . فلما فهم
الزعماء معنى هذه الاشارة - النى كان ميققا عليها من قبل - هدر
الى سوفهم وأسرعوا يأخذون فرهم كلها ، وانطلقوا على عجل الى
المدينة ، واستولوا على منافذها وأبوابها .

وحينذاك تحرك العامة [اللادين] الذين ظلوا حتى هذه الساءه
على جهل بما دبر من خطط فى الخفاء ، فلما أدركوا أن المعسكر
تسبه خال قد غادره جل من كانوا فيه انطلقوا هم أيضا فى أعقاب
الآخرين وشقوا طريقهم - وقد تملكتهم الحماسة - الى داخل المدينة
الى اسسقط أهلها على الضحة العالة ، ولم يستطيعوا أن يبينوا
نادى دى بدء حقبه هذا الصاح العالى الذى لم يألوه من قبل .
لكهم طالعوا مطر العرسن العحيب وهم فى دروعهم وزرديانهم
سدافعون خلال المدينة ، كما شاهدوا آثار الدمار فى كل ركن وناحية
فى السوارع والمادين ، حينذاك أدركوا حقيقة الأمر ، ففروا من
بيوتهم وهاموا على وحوهم ، محاولين الهرب بسائهم وأبنائهم .

وإطلقوا على عر هـى قد ضل صوابهم ، فى محاولات مجنونه
للخلص من عصابات الجند المسلحين ، بحثاً عن مكان آمن يلوذون
به ، فاندفعوا وهم لا يدرون أن بمضون ووقعوا فى طريق المحاربين
الآخرين .

أما من كان يسكن المدينه من المسيحيين والسريان والأرمن
ومؤمنى الشعوب الأخرى فقد جاورت فرحهم كل فرحة لما جرى ،
وبادروا الى امتشاق السلاح وانصموا الى الجيش ، واذ كانوا على
دراية تامة بكل ركن فى المدينه فقد كانوا نعم المرشدين لغيرهم عبر
مسالك البلد المتشابكة المعوجة ، وكانوا اذا وجدوا بوابة لازالت
مغلقة ونسوا على حراسها وفنكوا بهم ، وشقوا الطريق بكسر الأقفال ،
ثم أدخلوا رفاقهم ، وخيل اليهم أن هذا السغير المدهش قد جاء
من الرب .



أما أولئك الذين كانوا يفاسون سدة نير الرق من تلك الكلاب
النجسة ، والذين كابدوا وطأة ثقل الخدمات والبعذيب دون أن
يرحمهم أحد فقد أصبحوا قادرين على أن يصبوا على أعدائهم مثل
الذى صبوه عليهم من الأهوال ويعملوا على تدميرهم .

فى هذه الأثناء تمكن جيشنا كله من دخول المدينه بعد أن
استولى على أبوابها وأبراجها وأسوارها من غير مشقة ولا كلفة ،
وأخذت رايات الزعماء ورنوكهم المعروفة للجميع بحقق من أعلى
الأماكى رمزا للنصر الذى أحرزوه . فانى ألنفت قسم مذبحه وآلام
مبرحة وعمويل نساء ، وأرباب بيوت يجرى عليهم القتل هم وأهلهم ،
وراح الصليبيون يشقون طريقهم الى البيوت ، محطمين كل الأدوات
المنزلة ، وصاروا جمع حاحات العدو بها مسنحاً لأول من
يسعه حظه أن يتسلل اليها ، وحاس المسكرون حينما شاءوا .

فاصبحوا الاماكن التي كان دحوليم اليها محرما عليهم . و طعى تلهم
حنون العبل والنهب فلم يراعوا ذكرا ولا أنى . ولم يوفروا كبرا
لسنه ثم راحوا يستفسرون من كل عابر لسوارع المدينة وماديها
أين تكون بموت سراه الأهالي وأس يسكن أثرهم . وكونوا من بسيم
المحاذع . وتعمل السيوف في الأمهات وأطفال النبلاء . ثم راحوا
يتقاسمون فيما بينهم ما بالبيوت من أثاث وذهب ووصة وثياب
غالية .

ويقال انه قتل ذبحا في هذا اليوم ما يربو على عشرة آلاف
من الأهالي . واكسظت الشوارع في كل مكان بحف القلى التي لم
تجد أحدا يوارىها ، فبقيت حب هي .

- ٢٣ -

حين رأى غامى سنان أن المدينة قد استسلمت لحصمه الذي
تملك جميع أبراجها وحصونها ، وحين شاهد الباحين من الهلاك
يريدون الى القلعة على عجل . بدأ الخوف يسرب الى نفسه من أن
ينعمه المسيحيون الى حب هو وافف . ويحدوا به هو أيضا .
فاندفع - كأنما قد أصابه مس من الحنن - نحو بوابة حلقه .
وهرب وحده من غير رفيق ، ولم يكن يعنه سوى الانقاء على
مهجنه . وببما كان يخطبها وهناك في حرج قابل ويهم على
وجهه من غير هدف واضح اذا بطافته من الأرض يصادفونه فعرفوه
في لحظتهم ، فاقربوا منه حتى لكأنهم يهمون بعطسه ، فأذن لهم
بالدنو منه وهو جزع ، فلما بينوه وحده عرفوا أنه هارب ، وأدركوا

فى ساعهم أن المدينة قد سقطت ووبوا عليه وطرحوه أرضا فى غلظة ، وأخذوا سيفه وقطعوا به رأسه وحملوها الى المدينة ، ودموها هديه الى العادة وعلى مرأى من الناس جميعا .

وجدوا أيضا بمدينة أنطاكية جماعة من الأشراف كانوا قد وفدوا اليها من أماكن قاصبة لنجدتها ولاظهار جرأهم ، فلما ببينوا سقوطها فى أيدي المسيحيين أجمعوا العزم على الازداد الى القلعة العليا دون معرفتهم بالذاحة ، واسمى بهم الذعر والخوف على أنفسهم فانطلقوا هائمين على وجوههم ، لا يذنبون بأذيال الفرار ، لكنهم وحدوا أنفسهم وقد آخذوا بهم فى مكان سدود الصبق أعجزهم النزول فيه لئلا ينحدروا الى تحتهم ، ولا يستطيعون الصعود الى أعلى لتكاثر رجالنا عليهم هناك ، وبينما هم يلمسون فى يأس أى سبيل للنجاة اذا بلائنا واحد منهم على جباههم يسقطون من أعلى الدل ومعهم رنوكهم التى تميز الواحد منهم عن الآخر ، فدقت أعناقهم ، وبهشمت عظامهم ، حتى لم يكذب يبق منهم شئ يدل عليهم .

أما الذين يسكنون المدينة وما حاورها ويلمون بدروبها وشعابها فكانوا أسعد حظا من هؤلاء ، اذ ما كادوا يعلمون بخبر سقوط أنطاكية حتى تجمعوا وانطلقوا مع الفجر الوليد هاربين الى التلال من خلال أبواب أنطاكية التى بدأت تغلق من جديد . لكن فواتنا تعقبهم ، فردت البعض منهم ، وأمسكت بهم وقيدتهم بالسلاسل ، أما من أسعفهم حسادهم بالوصول الى التلال فقد انحسروا من الاجراءات ما حفظ عليهم حياتهم ، وضمن لهم السلامة .

واذ بلغت الساعة الخامسة عادت قواتنا المطاردة ، فلما تجمع كل من كانوا قد انشروا فى المدينة أجرى استقصاء دفنى دل على أنه لم يعد بها شئ من المثوبة ، ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب لأن الحصار ظل مسمرا بغیر انقطاع ما يمر من سعة شهور متتالية .

علما أنه وجدت كميات ضخمة من الذهب والعصه الجواهر
والأواني الثمينة والسيوط والأقمشه الحريره فاستولى عليها الناس ،
وفاضب بها أبدى من كانوا حتى الآن حاسا مسئولين فاثروا فحاه
وصارت لديهم وفره من كل شىء .

على أنه لم يوجد فى كافه ارجاء المدينه أكبر من جسمائه
حصان من جياد الحرب . ولكنها كانت حمولا ضامره غزيرة نكاد
بموت جوعا .

وكان الاسيلاء على مدينة أنطاكيه فى اليوم الثالث من شهر
يونيو من سنة ١٠٩٨ من ميلاد المسيح .

هنا ينتهى الكتاب الخامس

★★★

هنا يبدأ الكتاب السادس

محاصرة الصليبيين : النصر المعجزة

فصول الكتاب السادس :

١ - وصف الجبل المشرف على المدينة والذي لا يزال
بعضه في يد العدو الذي أقام حراسا هناك ،
وارسال رسل الى الساحل الشامى وبحصن
المدينة نحصننا فويا .

٢ - مقدمة من حبتن كربوعا فوامها ثلاثمائة رجل
حظر أمام المدينة ويحرج لقالها روجردى بار
نفيل غر أنه يلقي مصرعه مدبوحا .

٣ - الأمير الكبير يتقدم الى الأمام ويصرب معدة على

المرتفعات المسرفة على الفلعه ، والتغلب على الدوق
عند الباب الشرقي وهلاك مائتين من رجالنا .

٤ - الصليبيون يحرقون خمدفا داخل المدينة يمتد
على طول سفح النل ، وهناك تنسب معركة بدور
الدائرة فيها على العدو الذي ينزل قائده من الجبل
ويحاصر القسم الأسفل من المدينة .

٥ - الصليبيون بأطاكبه يكابدون مرارة الجوع
فيسلّل بعض السبلاء خلسة ، وتوضع القيادة
العليا في يد بوهيموند .

٦ - كوب فلاندرر يصرم النار من نلقاء داته في
الحصن المواجه لباب الجسر حين يجد نفسه
عاجزا عن استخلاصه ثم يغادره ، كما أنّ القائد
العام لقوات العدو يبعث الى فارس رهطا من
أسراه الصليبيين .

٧ - اضطرار الشعب لآكل الطعام القذر - وانه كان
على مضض - أمام استنفحال المجاعة .

٨ - العدو يكاد أن يستولى خلسة على أحد الأبراج ،
لكس هنرى دس نفاومه مفاومة باسلة وينجح
بعد قتله لكثير من الأتراك - في الاستحواذ على
البرج بقوة السلاح .

٩ - العدو ينزل الى الساحل ويحرق المراكب ويقتل
الكثيرين من رجالنا على طول الطريق .

١٠ - سنيين كوت سارنر يرور امبراطور
القسطنطينية .

١١ - حديث سيفن الكاذب الى الامبراطور مما يعود
بأوخم العواقب على الصليبيين .

١٢ - الامبراطور يعود الى بلاده ثقه منه فى كلام الكوت
ثقة حملته على وقف الحملة التى كان قد أعدها
لمساعدتها .

١٣ - أنباء اسحاب الامبراطور سجع العدو على
تكيف صعطة على الصليبيين الذين يحملهم اليأس
على رفض القيام بواجبهم ، فيضرم بوهيموند النار
فى المدينة ليحملهم على الخروج من مخائهم
ويدبر الزعماء خطة للهرب ، ولكن الدوق يفسد
عليهم خططهم .

١٤ - الرؤيا التى رآها سحصى اسمه بطرس [بارلميو]
والكشف عن حرية المسيح وعودة السكينة الى
نفوس الناس من حديد .

١٥ - الزعماء يجمعون الرأى على بعث بطرس الناسك
رسولا من قبلهم الى العدو فمضى ويؤدى
السفارة بشجاعة .

١٦ - بطرس الناسك يعود الى الزعماء ويفصل لهم
الحبر عن وجهة نظر العدو المعجرفة ، فتعلن
الحرب .

١٧ - الصليبيون يعادرون أنطاكية بعد اعداد صفوفهم للقتال ويتركون كونت تولوز لحراسة المدينة .

١٨ - كربوعا يسعد المسح الصليبيين من معادرة المدينة ، ولكن رجالا يسفون لهم طريقا بالقوة .

١٩ - بينما الصليبيون يعدمون أخذت السماء تساقط عليهم الندى فنزلت السكينة عليهم جميعا .

٢٠ - كربوعا يربب عسكره للحرب ويشب القتال في الأحباء المجاوره ، كما يس فلج أرسلان الهجوم على الصليبيين الموجودين في المؤخرة ويكتف الصقظ على صفوف بلدوين فيسرع الزعماء الآخرون لسجده وبعلبون الترك الذين يضرمون النار لكويس سائر دخاني .

٢١ - فائد قوات العدو يهر ويهلك عسكره ، أما الذين فدرت لهم النجاه فيلودون بأذيال القرار .

٢٢ - بعد أن يفرع رجالا من فكهم في العدو يعودون الى المعسكر محملين بكميات وفيرة من الأسلاب .

٢٣ - الهدوء والنظام يعودان الى أنطاكية ، ويأخذ الصليبيون في نظيف الكنائس وترميمها ، ويعود رجال الدين للاشراف عليها .

هنا يبدأ
الكتاب السادس
محاصرة الصليبيين : النصر المعجزه

- ١ -

هدأت الجلبه أحياء ، واستعادت المدينه هدوءها ، وكلت سبوف
العاليين الى اربوب بالدعاء من المدايح التي لا نهايه لها . واذ ذاك
السمي الرعاء للساور فيما بينهم . ادراكا منهم أنه لإزال عماك
عمل كبير أمامهم حتى يكمل الفتح . لذلك أقاموا حراسا على الابواب
والأسوار وعزموا على ارفاء الجبل ومهاجمه القلعه ، وبعثوا المنادي
يأمر جميع القتالقي العسكريه بصعود التل المسار الته . فلما صاروا
على المرتفعات اصبح لهم صعوبه امتحام القلعه بسبب حصانها ،
وانه لا سبيل الى الاستلاء عليها الا ان احاعوها . واذ كان هذا
الأمر سطلت اناما طولته فقد أدرك الرعاء صباع كل ما سدلولته
من الجهود . وأنه لابد لهم من سلوك سبل أخرى غير هذه .

كان الجبل المتشرف على المدينه يسعه من وسطه واد عميق .
له جانبان شديدا الانحدار ، وكان انحداره المواحه للسرو أعمق
المحدريين ولكنه يبسط من اعلاه لسهى الى سهل فسح راحر
ببساتين الحب وبالمزارع . وكانت المسافه بين سقى هذا الوادى
العميق شديده الاتساع حتى لتخلل للناظر أن هناك حلى وليس
جلا واحدا مشطورا الى سطرين .

أما المنحدر المواجه للعرب فكان أعلى من الآخر ، وهو يصرب
بعمته في العلاء حتى تكاد الجوراء ، كما تقوم القلعة على أعلى نقطة
فيه ، وهي محصنة بالأسوار العوية والأبراج الضخمة .

وسيد من السرى الى العرب هو سحيقه العمق مما يستحيل
معها بصور مدى الخطر الذى يتعرض له من يحاول الوصول الى
القلعة من أحد هذين الجانبين .

كما توجد الى الغرب بل أول ارتفاعا ، ويفصل بينه وبين
القلعة واد متوسط الاسماع . وان كان أمبل الى الضيق ، وبحفه
منحدرات يسيره . ويشقه طريق واحد يخرج من القلعة وينحدر الى
المدينة . وهو طريق يميل في دانه حطوره حتى ولو لم يكن هناك من
يهاجمها . ورأى فوادنا أن الحكمة تقتضيهم الاستيلاء على هذا الل ،
حتى لا تمنح للعدو فرصة الوصول الى المدينة ان خرج من باب القلعة
لمهاجمة فواننا . ولذلك تم وضع طائفة من الرجال الشجعان في ذلك
المكان ، وزودوا بما يلزمهم من الطعام والسلاح . كما تم بناء سور
به مناريس حجرية ، تم نصب فوق هذا كله الآلات وأعدت في
وضع اسرانهجى لرد العدو على أعقابيه .



ونزل الرؤساء مرة أخرى الى المدينة للتشاور في أمور أهم مما
سبق لهم التشاور فيها ، وعقدوا العزم على الرجوع حالما يفرغون
من بحثها . وكانوا قد أزمعوا على البقاء جميعا - ما عدا الدوق - في
هذه الناحية حتى يتم الاسيلاء على القلعة .

كما اتفق اجمعهم على أن يقوم جودفروى بحراسه الباب الشرقى
والطابية الواقعة خارج المدينة ، وذلك لما عهده فيه من علو الهمة ،
وكانت هذه الطابية في أول انساها موكولة الى بوهيموند .

وحاشى الاحبار الى القاده ان كربوعا الرعم الكبير المسار
ربه سابقا سوف يصل قريبا جدا ، اد أنه دخل أرض أنطاكية وبعث
بالألوف المؤلفة من عسكره في البلاد . وكان حير ما يعمى عمله في
هذا الطرف هو ارسال أحد زعمائنا الى جهة الساحل ، لاسدعاء
الاخوه الذين ذهبوا الى هناك لحب المؤنة اللازمه التي يمكن العور
عليها هناك .

وفي حلال اليومين السابقين لوصول جيش كربوعا الكبير ،
لم يترك الصليبيون سيرا من الارض المحيطة بالبلد الا ذرعوه
وفسوه بميثنا دفيقا ، ثم عادوا بكل ما صادفهم من طعام وعلف
أيا كان مصدره ، وبذلوا جهودا مصنية لتموين المدينة ، كما أن
الاهالي والفلاحين الذين يعيشون في ريف البلاد جاءوا بكل ما استطاعوه
من طعام حين أدركوا اسسلام أنطاكية للصليبيين ، بيد أن كل
ما جرى به من شنى الواحى لم يكن شيئا مذكورا ، ان لم يكن
شيئا أبدا يكفى ما تربى على الحصار الطويل الذى اسسزف في
مدى شهوره التسعة المسالية موارد الاقليم بأجمعها ، ولم يحلف
شيئا يمكن الاعداد به لمساعدة رجالها حتى ولو بضعة أيام .

- ٢ -

فلما كان اليوم السالى للاستيلاء على أنطاكية وبما كان
الصليبيون باذلين غاية الهمه في حراسه المدينة ونزويدها بالمؤنة ،
اذا بلائمائة من فارس جيش كربوعا مدججين بالسلاح من فمه

(الحروب الصليبية ج ١) - ٣٦٩

رؤوسهم الى أخمص أقدامهم قد امطوا الجناد الصافيات واحصوا في
كمين قريب من المدينة ، وكانوا قد جاءوا طليعة لأمر عاجل هو
القبض على أى جماعه من رجالنا تكون قد عادت موضع حراسها
خارج الاسوار ثم بعد بها السير دون أن سجد الحيطه لحمايه نفسها .
وكان نلابون من هؤلاء البلائمة على حيل سريعه الركض قد أخذوا
بروحون ويحثون امام المدببه منطهرين بعدم الاكراب بأى خطر
بداهمهم ، فلما رأهم المسحون الذين وراء الاسوار يحنون بيده
الصورة نفجر رجل غضبهم عليهم ، أو لعلهم أحسوا العار الشديد
ان هم كفوا عن مهاجمهم ، واد ذاك نحرك « روجر دى بارنفل » وهو
من أساع روبر كزب نورماندى ، وكان محارباً بأسلا أبجز كبرا
من الأعمال الباهره فى هذه الحمله ، وأسرع بامطاء فرسه وخرج
من البوابه واطلق يبعى مهاجمهم ، واستصحب معه ثله قوامها
حمسه عسر رجلا من أساعه ، وعزم على أن يبحر - كدابه - عملا
من أعمال البطونه . وعدا عدوا سريعا مهاجما هؤلاء القوم بسحاعه
عظيمه ، فطاهروا بالفرار هربا منه ، وظلوا مبعين فى الراحه
حتى نلوا الموضع الذى يحفى فيه رفاقهم الذين برروا من مكهم .
وبرايدت أعدادهم بكنره ، وانضم بعضهم الى بعض فى مهاجمه
« بارنفل » ورهطه هجوما عسفا لم يجدوا ازااه بدا من الهرب . وام
يكن روجر ورجاله فى جمعهم يعادلون العدو فى جمعه وبأسه .
لذلك حاولوا الرجوع الى المدينه ، غير أنه حال بينهم وبين ما تشدونه
سرعه عدو حباد الحصم الذى رمى روجر بسهم قاتل أصاب قلبه ،
فأوقعه من على طهر حواده وأرداه قسلا ، فحزن عليه رفاقه أشد
الحزن ، لأنه كان قد أخلص النة ، فأحز أهداف الحجاج
الصلبيين .

ونجح رفاقه فى الوصول الى المدينه ، أما هو - وهو الرجل
البارز - فقد حز الأعداء رأسه على مرآى جميع من على الأسوار.

والأبراج العاجرين - واسعاه - عن اسعافه ، ورجع العدو لم يلحه أدى .

لم يكد [المهاجمون] يعودون من حيث جاءوا حتى خرج الصليبيون يدرعون الدرع السحني على روجر وببكونه ، وحملوا جثمانه الى المدينة في احتفال يليق به ، ثم أقاموا المراسم الاخيره للميت الراحل في حضرة القاده والناس أجمعين ، ووسدوه البري في احتفال رائع أقسم في ظله كسسه أمير الرسل [القديس بطرس] .

- ٣ -

ما كاد يطلع فجر اليوم التالي ، وهو الثالث بعد اسحلاص المدينة ، ثم ما كاذب الشمس بدر غربتها حتى كان اقوى الامراء الذي أسرنا اليه مرارا قد احتل القطر بأجمعه الى آخر ما يمكن أن يراه عن المثل من القسم الأعلى بالمدينه ، واسطع بجموعه العفيره - التي بربد رناده أكثر مما يذكره الأحبار - أن يعبر الحسر العلوى ، ويصرب محمه فيما بين البحيره والهـر ، وكان كل منهما يبعد عن الآخر مسافة ميل واحد ، وكانت حملته تسعل مساحه كبيرة وعسكره كبيرين جدا حتى ضاق بهم السهل الفسبح الذي يقع فيه أنطاكية ، فنصبت مخيمات أخرى غطت اللال المجاورة .

٣١٩

ولما كان اليوم الثالث من نصبه معسكره أمام أنطاكية نبين له شدة بعده عن المدينة ، فبحث الأمر مع رجاله . وسن ليم أنه يريد أن يكون على مقربة ممن يحتلون القلعة ، لسنظيم تحديده ان

٣٧١

سعت الضرورة الى الجده ، كما أنه أراد أن يدخل قواه الى أنطاكه عبر البوابة الموحده أسفل القلعه ، ومن ثم فوض معسكره ، وارضى المرعبات ، واحدق بكل الجانب الجنوبي الشرقي للمدينه ، محصلا المطقة الواصلة بين البوابين السرفيه والغربيه .

كانت هناك طائيفه أقيمت في البدايه لحماية القاعة . وهي واقعته على تل مرتفع بعض السىء قرب الباب السرفى ، وقد عهد بهذا المكان أولا الى رعايه بوهبهوند الذى شرع - بعد أن تم الاسيلاء على أنطاكه - فى نصريف الاداره العامه للمدينه ، كما عهد بالطائيفه المسار البها والبوابه الغربيه منها الى الدوق ليعوم بحراسهها . وكان الأعداء قد صربوا أحد معسكراتهم حول هذه الطائيفه ، ودأبوا من هناك على س هجماتهم الموصوله على من بداخلها ، وسرعان ما ضاق الدوق درعا بعربدهم التى استحال عليه بحملها أكثر من ذلك ، ومن ثم كر عليهم برجاله لاسعاف المدافعين عن الحصص ، الذين كانوا على وسك الاستسلام . كما راوده الأمل فى أن يتمكن من اللعب على المعسكر المصروب أمام البوابة ، لكنه بينما كان ماضيا لجده رجاله ، اذا بمعسكر من الانراك يهاجمونه ، وكانوا أشد منه بأسا وأكثر عددا ، فادرك عجزه التام عن الصمود أمامهم ، ونجح بعد لآى فى النجاه من سيوفهم ، فانقلب على عقبه مريدا الى المدينه ، ومضى الترك فى اتره يطاردونه بعزم كبير ، غير أن العوغاء من الحجاج الذين لا يعرفون النظام نكاثروا وراح بعضهم يزاحم بعضا فى هروبهم البائس ، فسند المدخل وحال كل واحد منهم بين صاحبه وبين الدحول ، مما أدى الى سقوط الكثيرين ، فوطأتهم أقدام الآخرين ، وأختب بعضهم جراهم ، وأسر سسواهم ، وقد قدر عدد القتلى منهم بمائتى فيل هلكوا عن بكره أيهم .

كان الأبراك يعدون الدوى الرعيم الأكبر للجبس الصليبي .
وقد أدخلت هزيمته الفرحة في قلوبهم حتى انهم طمعوا في القيام
بأعمال أكثر جرأة ، لذلك نزلوا الى المدينة عبر باب القلعة الأعلى ،
سالكن طرفا حاسمه معروفا لهم تمام المعرفة . وباغوا رجالا
بالهجوم عليهم ، وأدركوهم وليس عندهم حراسه . فمكوا بالكبيرين
منهم صربا بالسيوف ورميا بالسهام ، ومع ذلك فانه لما حاول
الصليبيون مطاردتهم ارتدوا سريعا الى الواحي المرتفعه ، واسولوا
على القلعة هناك ، لانه كانت لديهم طرق أكثر من تلك الطرق التي
كانت بالسل ، والسى كان رجالا قد اسولوا عليها وأحسوا
بحصيتها .

وتكرر حصول هذا الأمر ، وهلك الكثيرون من أهل المدينه من
حراء هذه المناورات المحيرة ، حتى أدب بالزعماء الى اجماعهم الأمر
على وجوب ايجاد علاج لهذا الشر المستطير ، فانفقوا برصاء نام على
قيام بوهيموند وكونت تولور بحفر خندق عميق عظيم الانساع ،
يكون عند سفح اسل بأسفل المدينه . مما لاند أن يؤدي الى الحد
من عاراب البرك المسالنه في برولهم من أعلى المدينه ، ولقد ترنّب
على حفر هذا الخندق أن نعم أهل البلد بعتره من الهدوء .

كذلك رأى الصليبيون أن يشبّدوا هناك أيضا طائيه لرداد
فعالبه هذا العمل في حماية الأهالي ، وشارك في بناء هذه الطائبة
جميع القوات مساركة صادقة مخلصه ، كأنما يهبونها من أجل
سلامتهم هم انفسهم . أما البرك - سواء من كان منهم بالقلعه في
تلك الساحية أو من كان منهم يحاصر المدينه من الخارج - فقد
اسمروا ينزلون من خلال البوابة العليا . عن طريق ممراب سرية ،

واكثروا من هجماتهم على هذا العمل الجديد بعنه تدميره . مستخدمين
من أجل ذلك سبي الوسائل المتاحة لهم .

ثم جاء يوم من الأيام خرج فيه طائفة من الترك أكبر مما
جرب العاصه به كل مرة ، وكثروا عبر المسالك المعروفة لهم ، ثم
اندفعوا نحو هذه القلعة الحديثة البناء ، وسرعوا يهاجمون من
بداخلها هجومًا عنيفا ، مما كان لابد أن يؤدي إلى وقوع من كانوا
في تلك الطائفة أسرى في أيدي الترك ، لولا أن هب لمجدهم العاده
الذين كان قد وكل اليهم الدفاع عن نواح أخرى من المدينة إلى جانب
كل منهم المبعثرين في انطاكية ، وكان هؤلاء العاده هم . بوهيموند ،
وايفرارد دي بوبس ، ووالف دي موسى ، وروالد كرينون ،
وبطرس بن حسنا ، والبريكوس ، وايغو .

ولقد كثر الدوق وكونت فلاندرز وأمير نورماندى كره صادفه على
بلك الساحية مما أدى إلى فشل محاولات العدو ، وهلاك الكبارين من
الأتراك ذبحا ، ووقوع بعضهم في الأسر ، أما البقية فقد حملها
فزعا على الهرب ، لس من الطايبه وحدها ، بل من المدينة كلها :

وانقلب هؤلاء الفارون إلى مولاهم وهم معجبون بسدة بأس
الصلبيين ، وألسهم بسد سجعهم العجيبة ، كأنما قد تمت
فيهم النبوءة القائلة : « ارجع لكى يصعب رحلك بالدم . ألس كلابك
من الأعداء تصيبهم » ، لأن الجميع - حتى من اضطهدوهم - كانوا
للسان مدح وتناء على هذا الشعب المخلص .

أقام كربوعا أربعة أيام في الجبال كما فلنا ، حتى اذا فقد كل
أمل له في النجاح ، وأدرك أيضا أن علف حوله قد نفذ أو كاد
فوض معسكره ، وبرل إلى السهل مرة أخرى بكل جسمه عابرا بهم
النهر من مخاضه عند فاة موجودة هناك ، وعهد إلى فواده بجنده

الدين ربهم على شكل دائره وجعلهم على مسافات متساوية ، ثم راح
يحاصر أنطاكية .

فلما كان البرم المالى انفصل بعض الأبرك عن بقية الجيش ،
وراحوا يحرقون زنايا للرجال ، ويرحلوا عن حيدهم ، واستند
حرأهم فى الهجوم على المدافعين المرحودين على السور حرافة اخضت الى
هلاك بعضهم ، ذلك لأن نائكريند قام بهجوم فحائى عند الباب السرى
وباغى البرك وهم على هذا الوضع الذى لم يستطيعوا معه معاودة
امطاء حناهم ، فدخل منهم سبعة ولاذ الباقون نادال الفرار ثم أمر
بقطع رؤوس ضحاياه وحملها الى المدينة عراء لأهلها وسلوى لهم .
ومسحا للحرز الممض الذى كان يقطع بساط قلوب المؤمنين لمصرح
« روجرى دى باريفلى » الذى قبل هناك .



فى هذه الأساء كان السعب الصليبي الذى قام بحصار
أنطاكية والاسيلاء عليها عبوة وبقوه السلاح قبل ذلك بوقت قصير
- قد أصبح الآن يعانى سده الحصار . وهو يعر كبر الحدود فى
حياء الانسان . وريادة على ذلك فقد أنهك الصعاب الصليبيين انباكا
لم يعد معه فى مقدورهم احتمالها ، كما كابدوا سطف العيس بسبب
المحاعة التى حاوزت كل حد ، وهكذا وقعوا من حطس السف فم.
الخارج ، والفرز فى الداخل ، ثم انه كان من الطبعى أن يسند بهم
الخوف من حسود العسكر الكيرين المحاصرين للمدينة من الخارج
هذا بالإضافة الى أن الأنراك كانوا لايرالون يحكمون قبضتهم على
القلعة ، حتى راحوا يسبون منها - كما قلنا - هجماهم الآخذ بعضها

بحجز البعض الآخر ، فلم بعد المؤمنون يعرفون معنى للراحة ، و هناك
الناس الكثيرين منهم عدوا لهم على خطاياهم ، حتى أن معظمهم
ساسوا مهمتهم والعهد الحمه التي قطعوها على أنفسهم فانفصلوا عن
رفاقهم ، وبرلوا نلسه من الأسوار مسعين بالسلاسل والحبال .
منجمعين وحدهم هربا ناحية الساحل ، وسقط بعض هؤلاء في أيدي
العدو ف ضرب عليهم الرق الدائم ، أما الذين نجحوا في الوصول الى
المحر فعد أزعمو أهل السمن الراسه هناك على قطع حبالها والابحار
في لطمهم هذه ، وصاحوا فيهم « ان هذا الأمير الكبير [يعنى كربوعا]
الدى جاء بعسكره الدين لا يحصيه العد ، فد اسولى بالقوه على
المدينه التى كانت منذ قليل في أيدينا ، ولم يسج من فكه أحد من
رجالنا ، ودبح فوادنا ، ولكن شاءت ارادة الرب أن ننجو وحدنا
دونهم ٠٠٠ فهما أسرعوا لفك الحبال والابحار قبل أن يبلغنا [كربوعا]
ويلحق بنا عند الشاطئ» ويصيبكم ما أصاب قومنا » .

ثم اعلوا سطح السفن مع من كانوا عليها ، ولادوا بأذيال
الفرار المسيي ، الذى لم يقتصر على الغوغاء وحدهم ، ولا على طغام
الناس منهم فحسب ، بل كان بين الهاربين رجال بارزون ، من دوى
المرايب الساميه ، واطهرهم « ولم دى جراند مسنيل » وهو من وجوه
أهل « أبوليا » المعروفين ، زوج أحت بوهيموند ، وأخوه « ألبريكس »
ووليم البحار ، وجى دى بروسيل ، ولا مبرت الفقير وغيرهم ممن
لا تذكر اسماءهم التى لا ينبغي أن يتصمها هذا الكتاب ، منذ أن
محيت هذه الأسماء من كتاب الحياة .

وكان هناك غير هؤلاء وهؤلاء جماعات قد أزعجها التفكير في
الأخطار الجسمة ، وعجرت عن تحمل المجاعة والمصائب . فلبجأت
الى العدو ، وكان ذلك من حنبتهم أكبر ما اركبوه من المونقات ، لأنهم
بذلك أنكروا في لؤم نعاليم المسيح وعقده ، فكان هؤلاء المردون

يعملون إلى السرك احوال الجيس الصليبي ، مما أدى إلى وصع الصليبيين في أسد المآزق حطوره ، كما أن الكيريين من طلوا مقيمين بالمدينه كانت براودهم سرا الآمال في أن يعرفوا هم أيضا ، وبوسع أسعف بوى الموفر والعائد العظيم بوهيموند هذه المحاولات من جانب هؤلاء ، ومن ثم جاءوا إلى رجال من أهل العطه الذين دلت التجربة على أحلاصهم ، والموثوق بهم ، وعهد اليهم بحفظ الأبواب ، كما عهد بحراسه الابراج إلى رعاء لم يفصروا في رعايتها بلا كلل : ليلا أو نهارا ، ومن ثم لم يعد أحد ما - بارعا كان أم مراوعا - بقادر على الهرب ، وأراد القوم أن يكون لهؤلاء الحراس - صغيرهم وكبيرهم على السواء - حق ممارسة السلطة الكاملة فجعلوهم يقطعون اليمين على أن يطيعوا أوامر بوهيموند بكل الصدق والوفاء حتى ينتهى حصار أبطاكية ، وحتى تقع المعركة التي كانوا في انتظارها ، ولما أصبح بوهيموند محاطا ، بباعه وحواسه وأصدقائه ، وكل من له ثقة تامة فيهم أحد غاية الحذر ، فلم يحظ قط - ليلا أو نهارا - بقسط من الراحة ، إذ كان يسغل وقته بالبحول في السوارع والميادين ، والفنيش على الابراج والحصون ، لتطمش نفسه ويهدأ باله من أنه ليس هناك من أحد منهاونا في مهمه ، ولسأكد من عدم وجود أى فرصة للعدو لدخول المدينه عن طريق الحناة .

وكانت هناك أربع فلاع نتطلب حراسها رعايه خاصة تلك هي الطايبة العليا التي شيدت في مواجهة القلعة العليا مباشرة ثم تلها ثالثة نفع دونها داخل المدينه ووراء الخندق الذى حفر لصد الهجمات الى نأى من بوابة المعسكر العالم .

وأما نالسا فكانت خارج الباب السرفى ، وكانت قد أقيمت لحماية المعسكر قبل احلال المدينه .

وأما رابع هذه الطوابي فضع على رأس الجسر وهي التي
تمكن الصليبيون بفضلها مد فريب من مهاجمة بوابه الجسر ، وقد
عهد في بدايه الأمر بحراسة هذا الحصن الأخير الى كوث بولوز ،
لكنه تحلى عن هذه الحراسة حين تم الاسيلاء على أنطاكية ، ودخل
المدينة مع الآخرين .

وحدث بعد الاسيلاء على أنطاكية أن قام كوث فلاندر مع
خمسمائه من الأبطال الأساس بحراسه هذه القلعة وكف من
استعداداتها الدفاعيه ، محافة الا يستطيع سعبا الروح والمجىء
عن طريق الجسر ان سقطت القلعة في يد العدو ، الأمر الذي لابد
أن يؤدى الى وصع أسد سوءا .

- ٦ -

لاحظ كروبغا أن رجالنا أصبحوا الآن أكثر حريه في القدره
على الحروح والرحوع دون عائق ، كما رأى أن الحصن العائم عند
الجسر يمثل عيبه كداء أمام خططه ، لذلك أصدر أمره - في يوم
من الأيام - الى كبية مؤلفة من ألفين من الفرسان المدرعين أن يحمل
السلح وبتشن هجومًا عنيًا على ذلك الموضع ، فأطاعوه في لحظتهم ،
وحيروا لأنفسهم مواقع حصينة حول حائط الطابية التي أسرنا إليها
حالا ، وفسموا أنفسهم جماعات راحب تتأوب فيما بينها فدف الطابية
يسبل لا ينقطع من السهام ، منذ الساعة الأولى من النهار ، حتى
الحادية عشرة منه ، ولكن الكوث ورجاله استنبسوا في صدهم ، ولم
يدحروا وسعا في الدفاع عن المكان الذي عهد الى الكوث بحمايته .

ولما فاربب الشمس العروب ، وأخذ الليل يسر علائله على الكون .
بين للمهاجرين أنهم لم يقدموا الا قليلا ، فحلوا عن هجومهم وعادوا
الى معسكرهم ، غير أن الكوب حتى أن يعاود الاعداء الكره فى اليوم
التالى بقوات أضخم من قواه التى يحب يده الآن ، فلا يعود فى
استطاعته أبدا حماية القلعه ضد حسود العدو الكبيعه . لذلك دم
فى سكون الليل وأصرم النار فى هذا الموضع وبركها برعى كل
ما به ، ثم انكأ الى المدينة من خرجوا معه سعيًا وراء هذا الامل
الصائح .

ولما أسرف الصباح رجع عسكر الأمس المهاجمون يعاودون
هجومهم مرة أخرى ، وقد اصم اليهم ألغان ، فما بلعوا هذه الناحة
حتى وجدوها خاوية على عروشها ، وقد بهدم أكرها ، فاضطروا
للمعده من حب حاءوا دون أن ينجزوا مهمهم .

وفى حلال هذه الأيام التى كانت قوات العدو فيها تهاجمها
جلسة ، حدث أن صادفوا بعض الصليبيين من القراء المدعين الذين
خرجوا دون أن يأخذوا حذرهم . فأمسكهم وساروا بهم الى اميرهم ،
هدية منهم اليه كأول عبيد أسعر عنها بجاحهم ، غير أن سلاح الأسرى
الضعيف ، وما عليهم من رب الثياب أنار اسمتزاز الأمير ، اذ لم
يكس معهم سوى أقواس حسبة ، وسبوف باليه علاها الصدا . كما
سنتر أجسامهم ملابس مرفه من حراء عملهم الدائم وبسبب قدم
هذه الثياب لأنه لم يكن لدى فقراء الحجاج ما سدرون به غير
هذه الأسمال ، ويعال انه ما كاد هذا الأمير يفرسهم حتى صاح
فائلا : « أبمل هؤلاء الناس يدب الدعر فى قلوب الأمم الأجبية ؟ وهل
يحق لقوم كهؤلاء أن يعيبروا أنفسهم أنرياء وما هم الا كافر المرتزة
يحود الناس عليهم بلعة الخنز » . ألا فاضطروا الى ما يمين أسراف
أهل السرق من سلاح . . . أما هؤلاء فان الصربه من سلاحهم ظل أن

تؤدى عصعورا أو سسقطه على الأرض ، وعلكهم أن يوعوا هؤلاء
الرجال ، وسوفوهم مكبلين بالأصفاد ومعهم أسلحتهم هذه ، وعليهم
نبايهم المهلهلة ، وبمخدوهم الى مولاي الذى أرسلنى فيعرف من مطهر
هؤلاء الأسماء أن العلبه على رجال كهؤلاء الرجال لا يسعرو من
الوقت الا قليلا ٠٠٠ ودعوه يفكر : أى صيت لمل هذا السعب
النفس فى نفاخره بما يفتح !! واطلبوا اليه أن ينام فرير العين
ويلقى بالسبعة على أنا وحدى ، لأنه لن يمضى وف فصير حى
لا يكون نم وجود لهذه الكلاب القذرة ، ولن يحسب لهم حساس
بعد ذلك بين الأمم » .

وأمرهم بهذه الكلمات أن يسلموهم الى رجال عنتهم لهم ، كى
يسوفوهم الى الساظان عارس ، وأن يفصوا اليه بما فاله هو الآن ،
ذلك لأنه كان على نعه نامه من قدره فى يسر على فهر رجال هؤلاء
الرحل وان لم يحرب بأسهم بعد ، غير عالم بأن هذه الكلمات التى ظن
أنه يحط بها من هذا السعب عند مولاه ، وأنها تجلب له المجد ،
سوف تكون فى النهاية سببا لتكبته ، ولأنه حين تحيق به الهزيمة
الكراء ، ويفوص فى حماً القوصى على يد هذا السعب الحفير ، فان
العار الذى يلحق به اذ ذاك سوف يكون أشنع عار ، ذلك لان القاعدة
العامة هى ان الهزيمة تكون أيسر احتمالا ان لقيها المعلوم من رجال
سجعان أفوياء ، أما اذا أحرز النصر عليه فوم لا اعتداد بهم ، ولا سطوة
لهم فان شار الهزيمة يكون أبلغ ، وعارها أفدح عليه .

أصبحت المدينة الآن محاصره من كل جانب ، وقد نعام وضع الصليبيين سوءاً لأنهم أصبحوا عاجزين عن مآرجها لقضاء مآلهم من أعمال حآرجها ، كما سدت المسآلك أمامهم فى دحولها . مما نرب عليه عدم فدرتهم على جلب الطعام إليها ، فعص الجوع بآبه أكرهم . وآحدث المنوء فى السآفص وانعدم توفر مصآلب الحياه الضرورية مما حمل الجوعى على سلوك سبل محجلة لسد هذا الفص ، ولم يعد بم مجال لآختيار نوع الطعام حى عند أكر القوم نأفا فى أمورهم ، ولم يعودوا يآبهون بنطافه اللحم الذى يجدونه أو قذاره ، ولا كيف جىء به ، سواء آكان مسنرى أم مسروفا ، ذلك لأن المعده الحآويه نصرخ عآليا فى طلب أى نوع من الطعام يسد جوعها .

كذلك فارق النبلاء وفآرهم ، ولم يردد الأحرار فى فرض أنفسهم على مآئد من لا يعرفونهم ، من غير دعوة تكون قد وجهت إليهم ، ونآهفوا على الصدقة وجود غيرهم بها عليهم ، ولا يكفون عن الآلآح فى اسجداثها من ايدى غربآء لا يعرفونهم ، وكان هذا الفعل أمرا مفوضا عندهم من قبل .

كما تخلت العقائل عما كن عليه من الحسمة التى كن قد طبعن عليها ، أما العذارى فم عدس يآبهن بالجل الذى كان سمة لهن ، ونسبن أنوثتهن ، وطلعن بوجوه عليها غبرة ، وأصواب حرية تحرك أفسى القلوب ، ورحن يللمسن الطعام أى وجدنه لا يسمعن خوف من أن يراهن أحد .

لكن كان هآك آخرون لم تستطع المجاعة حملهم على التحلى عن وفآرهم ، فآكفؤوا بوجوه حآمدة الى جهآ قآصبة ، يمشهم الآسى ،

لأنهم كانوا يؤثرون الموت على الميى بين الناس يسألونهم لعمه نعبهم
أودهم .

أما الرجال الذين كانوا من قبل أسداء العزم ، أصحاء البنية ،
دوى ، بأس سديد ، والذين لم يكن أحد يجهل قدرهم فقد بدوا وكأنهم
أنصاف موبى ، يوكأون فى ضعف على عصيهم ، ويجرون أنفسهم
فى السوارع والمبادين جرا ، وعلى الرغم من أنهم لم يصرحوا بكلمه
الا ان وجوههم المكتئبه كانت تعصح عن أنهم يلتمسون احسانا وجود
به عليهم العابرون .

كما أن الاطعال الباكين ، والرصح على أنداء أمهاتهم كنت تراهم
فى كل مكان وفى معرق الطرق ، يلتمسون اللعمه سند رفقهم ورقم
من جاءوا بهم الى هذه الدنيا ، لكن يعجزهم الحصول على القدر اليسير
من الطعام لأنفسهم ولا يقول لأمهاتهم .

وفى خضم هذا الزحام الكبير فل أن وجد أحد عنده من
الطعام ما يمكن أن يكفه هو وحده ، اذ نضب فى الواقع جميع
الموارد ، فلم يعد أحد الا وهو يسجدى الآخرين ، وادا شاء الصدقه
أن يكون هناك فرد كان قد بلغ من السراء مبلغا كبيرا وبقي عنده
من هذا المال الحاصى شىء ، فما كان لهذا المال أن ينفعه فتيلا ،
اد لم يعد يكفه لسراء ضرورات الحياة التى لم تعد متوفرة .

- كما أن الأشخاص الذين كانوا معدودين أسحى الناس يدا
وأكرمهم ضباقة . أصبحوا الآن يلتمسون الأماكن النائمه التى فل
أن يفساها أحد فلتقطن منها ما يقبضون به أودهم ، ويكالبون فى
نهم على الطعام - أيا كان هذا الطعام - الذى استطاعوا الحصول
عليه من مصادر مختلفه ، ثم بأبون أن يكون لهم فيه شريك .
... أثرى من الضرورى أن أقول ، أكر من هذا ؟

لقد أصبح لحم الجمال والحمل والبغال وغيرها من الحيوانات
الديبا وكأنها اسبى ما يكون ان وجدها ، وانه لمى المؤسى ان يقول
ابهم كانوا يبتسون الأرض ويخرجون منها حاف الحيوانات المحنوه
أو التي ماتت بالطاعون ويقبلون على النهامها .

هكذا كانت أنواع الاطعمة التي راخوا يدرءون نيا عن أنفسهم
عائلة الجوع المذص وبطلون حناهم المعسه قدر طافهم .

لم نضب سده الكرهه الرهبه - واعى بها المجاعه - العامه
وصغار الناس وحدهم فحسب ، بل جاورنهم أهوالها فمسب كمار
الرعماء الذين عدوها حطبا لا يُمكهم احماله ، اد كانوا أكر من
سواهم اعاله للكثيرين من الناس ، ولا يستطيعون أن يكفوا رفدهم
عمى جاءهم يلنمسه منهم .

وان ابناء هذه الحفبه من الرمن لا نرال محفوره فى ادهان
السيوخ والكهول وبحاج الى مؤلف خاص يروى ما جرى لكل واحد
من هؤلاء الرعماء ، ويضمم أخبار العمة والصعاب التي عمل فيها
هؤلاء العادة الانبياء من أجل خاطر المسيح ، على أنه يمكن القول
ان رجالا كهؤلاء الرجال العظام وجيسا كبيرا كهذا الجيس ، انما
يحملو ذلك كله صابرين غير منمريين .

- ٨ -

كان من جراء ما أيداه كربوعا وسبعيه من حماسه فويه أن
أصبحت أنطاكية محاطة من كل نواحيها بصورة لم يستطع الصليبيون
المحصرون داخل أسوارها مقادريها ، كما أعجرت من كان جارجيا

عن دخولها والوصول اليهم ، أصف الى ذلك ان الانسباكات
الموصولة - داخلها وخارجها - قد أنهكت قوى الصليبيين انها كما فاق
كل احتمال ، هذا الى جانب أن المصائب الجمة التي نزلت بشعبنا ،
وما أبلى به من ساء المجاعة قد عملت كلها على قل عزيمته ، فأظهر
النراخي في حراسته .

اما الذين لم يعد يسغل بالهم سوى البحر عن كسره الحبر
يمسكون بها رمعهم فقد كانوا أكررهاونا بالنسبة للأمر الأخرى ،
مما سج عنه بجاح العدو في دخول المدينة في أحد الأيام ، وذلك
بسبب عدم توفر الحراسة لبرج كان مجاورا للبرج الذي اصحم منه
الصليبيون المدينة .

وكان بعض الأتراك قد طمعوا في املاك هذا البرج ، معتمين
سكون الليل ، فعلقوا السلالم الى الأسوار ، وفكروا في النزل بعدئذ
الى المدينة كما فعلنا من قبل ، فلما بسط الليل طنبه ، وسكت كل
ثأمة في الكون ، أقدم ما يقرب من ثلاثين رجلا وسلعوا السلم واعلوا
السور ، مستهدفين الاستيلاء على البرج الذي وجدوه خالبا من كل
مدافع عنه ، وبينما كانوا منهمكين في عملهم هذا اذا برئيس العسس
يصل الى المكان الذي كانوا يعملون به ، وكان هذا الرجل يقوم اد
ذاك بها اعتاده من المرور حول السور ، فاكشف المؤامرة ، فأخذ
يصيح محذرا من بالأبراج المجاورة ويعلن اليهم أن العدو قد استولى
بالحديعة على البرج ، فأيقظ صاحبه جميع الحراس في تلك الناحية
من المدينة ، وكان بينهم الشجاع المرموق « هنرى ديش » فاسرع لتوه
الى تلك الجهة مع فارسين آخرين ، هما « فرانكو » و « زيجمار » ،
وكانا من ذوى قرباه ومن أهل البلدة المسماة « مالين » الواقعة على نهر
« الموز » ، وخاف ثلاثتهم أن تكون الرشوة قد استغوت البعض
فاستسلموا للخيانة وغدروا بالمدينة .

كذلك هم لمساعدته جماعات من الابراج المجاوره ، فباحم بهم
العدو في عصف كدأبه السط ، فأبدى الترك مقاومه سيده . لكن
عزى دس ما لب الا فاسلا حتى نتج في طردهم من المرح ، وصل
مهم أربعة أنفس ، أما البقية - وكانوا سنه وعشرين رجلا - فقد
القي بهم من الاسوار ، فسقطوا على أم راسيم ، فدمت عظامهم
وساروا أسلاء مرفه .

وكان هؤلاء الرجال النازون الذين صعدوا البرج قد عرموا
عنى ادخال بقيه رفاقهم .

ولقد نكب الرعيم البطل [هري ديس] في عدا الصدام ، شد
مديه « ريجمار » الذى احرقه السيوف فهلك ، كما اصعب
، فرائكو « بجرح قابل حملوه معه الى داره وهو يكاد يلفظ أنفاسه .

- ٩ -

زايدي الحاجة للطعام يوما بعد يوم ، ورايدب معها مصايده
المحصورين ، كما صاعف المجاعة آلام الصليبيين . فصحروا من هذه
الاهور العسره زلغوال النى نزل بهم كل يوم ، فداحلهم الناس
حتى لم يعودوا حريصين على حياتهم وسلامهم ، فاسلوا من المديه
لا يعلم بهم أحد ، ولم يكرنوا بما كان يكتنفهم من آلف الاحطار ،
فراحوا يسفون طريقهم وسط صغوف العدو كي يتسر لهم الوصول
الى السساطى حيث كانت نرسو هناك بعض السفن النوباسه
واللابسيه ، وكانوا ينفون من وراء ذلك شراء الطعام وجلبه الى المديه
عبر أن الطمع فى النجاه من هذه الاخطار الجسيمه حمل بعضهم على

(الحروب الصليبيه ح ١) - ٣٨٥

الرحيل ، عافدين العرم على الا يرجعوا أبدا ، ولم يوقفوا أن قد
ربما يحس موف من حلفوهم وراءهم ، أو أن تناح لهم فرصة
النجاة من سيوف العدو .

في هذه الامساء بكسف للترك أن بعضا من رجالنا يخرجون
جلسه تحت جح الظلام الى البحر ، ويتجولون هنا وهناك فرب
المدية سعياء وراء الطعام ، فبعوا في الحال بعضا من رجالهم العارفين
بدروب تلك الواحي وسعابها ليصبوا الكمائن لهؤلاء الناس
ويصلوهم كما فعلوا اخوه لهم من قبل ، فحالف البجاج الترك في
كثير من هذه المحاولات مخالفة حراهم أخيرا على ارسال ألين من
فرسانهم المختارين ، وكلفوهم بامساك البحارة والبجار وحرى
السفن ، مؤملين من وراء ذلك استئصال هذا النوع من البجاره
وإدراك يحال بين الصليبيين وبين كل أنواع الموثه ويعقدون كل
امل في السلامة .

وصح ما بوقعه الترك ، اد نعد فرسانهم الاوامر الصادرة البهم
سعبدا دفعا ، فأضرموا النار في بعض السفن ، وأمسكوا طائفة من
ملاحها الذين خرجوا من عبر حراسة ، فمكتوا بالحاب الأكبر منهم .
مما حمل الباقين على الهروب .

ولما ذاع خبر الكب، وساخ ببؤها وبجاوز هذه الساحة الى
ما وراءها بلبل حواطر النجار الدين كانوا يحصرون الى هنا في
رحلات بجاربة من فرص ورووس وغيرهما من الجزر ، كذلك من
سلوقة وابسوريا وبامفيلية ، وسواها من الأقطار البحرية ، وتملكهم
الفزع من هذه الأحوال السائدة حتى انهم خافوا أن يعودوا الى هنا
أو بجلوا سلعهم . ولم يجرؤوا على الاقتراب من تلك الناحية .
ونرنب على ذلك أن الم السلل الكامل بالمتاجرة وتوقف الاستيضاع ،
وتدهور موقف الصليبيين تدهورا أخطر مما كان عليه من ذى قبل .

وعلى الرغم من صآله كمبه السلع الى آضرها الجار صآله لا تكفى
ابدا لسد احساجاب الناس العديدين ، الا أن بقاء الاتصال البحرى
موصولا أعطى بصصا من الانقاذ للصليبيين .



ولقد صادف العدو فى طريق عودته من ناحية البحر طائفة
من المؤمنين عرضهم جميعا على السيف الا سردمة قليل غاية الفلح
تمكنوا من السيل عبر الغابات ، والأدغال ولجأوا الى الكهوف
فاستخفوا بها .

ولقد ادى حر هذه الطامة الكبرى والمصيبة الفاتحة الى حر
فوما حرنا لا يفل عما أرسله بهم المجاعة الفاسدة ، ويجدد همهم اد
طرق سمعهم خبر النكبة التى حلب برفافهم وما يتعرض له أصحابهم
كل يوم من هلاك . فنسرب لعوسهم الناس حتى من الحناء ذابها
ولم يعودوا يتسمون بالحرص عليها ، وفل احياطهم على أنفسهم ،
وبصاء لب طاعهم لزعمائهم .



فى هذه الأثناء وصل الى الإسكندرونة « ولم دى حراند ميريل »
ومن فروا معه ، ووجدوا بها ستيفن كونت شاربرر وبلوا الذى كان
العادة وكل الناس يرحون عودته بين يوم وآخر ، لكنه كان مقبلا
هناك منذرعا بالمرض ، فأحبره ذلك الرهط بكل ما حرى بأنطاكية ،
وحملهم الرعبة فى الا يطهروا أنهم فارفوا رفاههم جبا سب ناه
عر ذى موضوع ، فانهم راحوا يبالغون فى وصف الأحوال والسماء ،

'مُسَيرين هناك ، والحق أن الموقف كان قد بلغ من السوء حدا يفوق الوصف ، غير أنهم بالعوا أسد المبالغة فأظهروه بصورة أسد اسودادا وسمامه وزادوا في ذكر الطروف السيئة السائده . ولم يكن «سفن» في حاحه الى سماع مزيد من مثل هذا الكلام حتى يصاحف جبهه ، لانه لم بهجر صحابه ولم يفر عنهم الا لنعس هذه الأسباب ، وان ادعى المرض .

وبعد ان فلبوا الأمر فيما بينهم على سبي وحوهه ركبوا السفن التي كانت في الميناء معهده لهم ، وطلوا مبحرين حتى أرسوا احيرا بعد رحله استعرفت بصعه أيام عند احدى المدن الساحليه ، حب راحوا بمقصون أين يكون الامبراطور وما ينوي أن يفعله ، وبلغوا عددا من الاجر عن ذلك الأمر - يحلف بعضهم عن بعض في المسمون المصمون والصدق مفادها أنه سد الرجال الى أنطاكيه على رأس طائفه كبيره من العسكر اللاتين والاعريق لمد يد المعونه الى الصليبيين وفاء منه بانقاه معهم ، وأنه الآن معسكر بمن معه في « فلو مبنيوم » .

وكان قد انصم الى الامبراطور ما يهرب من أربعين ألف من اللاتين ، زياده عن الحبوس التي جمعها من سبي السعوب وكان رأيهم أن يخلعهم وراءه في بلادهم مع الكتائب التي عنده ، وما كان بركه اباهم الا لفهرهم المدفع أو لعسى المرض فيهم ، أو لعير هذا أو ذاك من الأسباب القويه ، اما الآن فقد زال عنهم ما يسكونه من وصب ، واشتد عزائهم بحضور الامبراطور وحشوده الكسفه ، واسردوا بهم في الزحف ، وأصبحوا يلهفون قلبا وروحا على الانصمام الى رفاههم الحجاج .

حين علم كونت ستيفن والذين في صحبته بأن الامبراطور مرابط في تلك الناحية في انتظار امدادات أخرى كثيره ، وأنه يقوم

بجعل استعدادات اصفاه للزحف ، أقول انه حين علم بذلك بادرك
فسلك أفصر الطرق المؤدية الى الجيش الامبراطورى ، فلما وصل
الى هناك فوبل بأعظم آيات الرجيب المروجه بالدهسة البالعه .
وكان الامبراطور قد عهد اواصر الصداقه مد بداية الحمئة مع اسيفس
حين جاء مع بقيه الرعماء الآخرين ، ولما راح الامبراطور يستفسر
منه استفسارا دفيعا عن احوال العادة الآخرين وسلامهم وأوصاعهم ،
وعما دعاه لتركهم وراءه ، أجابه ستيفس بقوله :

- ١١ -

« أيها الامبراطور الذى يسير الطفر فى ركابه أنى سار .
ان رعاياك المحلصين الدين أدت لهم بالمرور عبر امبراطوريك مد
أمد قصير ، وتسلمهم بفيض جودك ، قد اسولوا - أول ما اسولوا -
على بيعه ، ثم وصلوا بعد مسيرة ناجحة الى مدينة أنطاكية فحاصروها
سبعة أسهر سويا ، حصارا لم يرفعوه عنها حتى أحدها عنوة بتوفيق
من الرب ، ولم يعرف عليهم سوى فلعنها الى كان اقحامها صربا من
المحال . فاستعصت عليهم بسبب وقوعها على جبل شاهق . وبفصل
أبراجها المشرفة على المدينة التى تبدو وكأنها وكر العقاب ، وكان الطن
عند شعبها أن قد انتهى الحصار ، وانهم بخلصوا من كل خطر بعد
استسلام المدينة ، بيد أنه ظهر أنهم قد نردوا الآن فى خطر أبلع
هولا من سابقه . وأنهم وقعوا لى صعوبة يعوق كل صعوبة واحدها
من قبل » .

« ذلك انه لم يكد تنقضى غير ثلاثة أيام بعد احتلال المدينة حتى
جاء قائد فارسي شديد المراس اسمه « كربتوتا » على رأس حشود من

السرق يجاوز عندها كل مديير ، فاحدق بالمدينه من كل جانب ، ولم يدع مدخلا من مداخلها أو مخرجا من مخرجها الا سده . وحاف المحن بالفادة والعامه على السواء بصورة أيأسهم من كل شئ حتى من حنانهم .

« وفل أن يمكن العقل من تصور ما عليه هذا الجبس المحاصر من كره هائله في العدد ، وموحر العول ان عامه عسكرهم غطوا كل ما حول المدينه ، وانسروا كأسراب الجراد ، حتى ضاقت الأرض بما رحبت فلم تسع كل خيامهم .

« أما رحالنا فكأن أمرهم على النقص من ذلك ، اد أحدوا بسافصون سافصا مفرعا بسبب الجوع الذي نزل بهم ، ومن جراه البرد والحر اللذين فاسوهما ، وبسبب ما ابتلوا به من قتل وموت ، حتى أن كل ما نبقى بعد ذلك من الجبس في أنطاكية لم يبعد كافا للدفاع عنها .

« أضف الى هذا أن المعوية التي كانت تجلبها لهم السفن من مملكتكم والمراكب العاديه من الجرر والمدن الساحليه قد انقطع ورودها نهائيا - كما تعلمون - بسبب العسكر الذين أرسلهم العدو ، فلم يدعوا سبرا من الأرض بين أنطاكيه والبحر الا احتلوه ، كما دمروا الاسطول ندميرا يكاد أن يكون تاما ، وحكموا السيف في البحاره والجار مما حال بالفعل بين شعبنا وبين كل أمل في شراء الطعام .

« ولقد جاء الخبر بأن الطعام الموجود الآن في أنطاكية لا يكفي الناس الا يوما واحدا فقط ، ومما يضاعف مناعبهم خلو المدينه من مكان أمين يلجأون اليه لكنرة سسل الترك الى المدينه عبر القلعه الى سرف عليها ، فبفسون هجمابهم على قلب البلد ، ويهاجمون المسيحيين في الشوارع والميادين ، وهكذا فان ما يقاسيه رجالنا خلف الأسوار لا يقل هولا عما يكابدونه من غارات يواليهم بها العدو من الخارج .

« لذلك فانسى ومن معى الآن من الفاده وسراه القوم - قد
ايضا تمام البقى أن ما يقوم به احواسنا انما هو جهد صانع ، وطالما
سدينا النيم سدد الامر وسدينا الصبح الاحوى للعمل على ما فيه
سلامتهم ، وأن لا يسببوا بأمر يستحيل بحقيقه ، لاسيما وقد تحلب
عهم العناية الرباه ، فلما وجدنا أننا عاجزون عن ربحهم عن
هدوهم رحنا بلمس الوسيلة لما فيه نحاسنا حتى لا يؤدى بنا الطيس
الى الغاء أنفسنا بأيدينا الى الهلكه ، ففعل ملما فعلوا .

« والآن فلعل حلاتكم برون - اسم ومن حولكم من السلاء
المجدين - أن الخير كل الخير فى الرجوع عما كنتم قد اعرضتموه من
الزحف الى أبطاكنه ، حتى لا يحق نفس الاخطار من يعودون من حب جنه
عسكركم المطهر ... وان العقل ليشأندكم ان يعودوا من حب جنه
دون أن يلحجم فوانكم بالقوات الكسفة الى بعث بها السرى . وذلك
أمر أجدى عليكم من الاندفاع من غير رويه لتجريب قوتكم مع هذه
الاعداد الضخمة من العسكر الأشداء مادامت السحة غير مؤكدة
تماما .

« وان هؤلاء الرجال البارزين الموحودين الآن بحضرتكم قد نالهم
نفس هذا الصيب ، ويستطيعون أن يؤكدوا لكم صدق ما أقول .
كما يعرف ذلك أيضا « تاتكبوس » الألعى الحضيف الذى أرسلته
حلالكم معا ، لأنه رأى بعض رأسه مدى ضعف رجالنا . فسار
على هدى العقل فانسحب من العمل معهم ، وانه لقادر أن يحل الموقف
أمام جلالنكم » .

وكان عى حنى الامراطور أح للورد بوهموند من أبه -
أسمه «جيدو » ، فلما سمع ما قاله « سنفى كوت سارنرز » حنى
حونه ، واستخبط فى الكاء حربا على مصر أخيه ورفاقه ، ورغب

فى نادى الامر أن يعارض روايه الكوب ، ورمه بالجبن لهوره في
الاستحباب من صفوف هؤلاء الرعماء الأحلاء ، ولكن أحدهم واسمه
ولم دى حراند بمرل - وكان سرييف المولد لا الحلق - وهو صهير
بوهيموند يمكن من اسكات « جندو » .

- ١٢ -

بعد أن سمع الامبراطور هذه الكلمات . اسندعى اليه جميع
نبلائه للساور فيما اذا كنّ يجب عليه الرحف الى أنطاكية ، او
النوف والرجوع الى مملكه ، وبعد أن فلبوا الأمر على سبي وجوهه
انتهوا الى أن الحكمة يعنى العوده بالجيش سالما ، بدلا من اثاره
ممالك السرى كله والتعرض لقلبات الحرب .

لقد ولى الامبراطور كل النعم بكلمات سبعين ، فاعتقد أن
كل شيء سيجرى كما قال اعتقادا جعل الخوف يملك قلبه من كربوعا
الذى زعموا أنه دمر قواتنا ، فخسى الكسيسوس من صام كربوعا
بمهاجمة الامبراطورية بما يحب يده من الجيوش الكنفه التى أكدت
الأخبار أنه بهودها فى زحفه ، واذا ذاك يصع من يد الامبراطور مره
ثانيه نقتة وجميع سببا التى اسرديها جهود القادة الصليبين
السيطة ، ورأى - نجتنا منه لهذا الخطر - أن بأمر بحرى
ونهب جميع الأراسى الواقعه على طول خط ارناداه ، سواء
ما كان منها على يمينه أو على يساره ، بدءا من قونه وانتهاء بنيقية ،
وكان طمع أن تعف هذه الأراسى بعد تخريبها - وقد هجرها أهلها

يرضيت موارد العس فنيا - عائثا في طريق الأعداء ان حملتهم
الظروف على التفكير في بوجه فوائهم ضد مملكته .



ولقد أدى مسلك سيمس هذا الى حرمان الصليبيين من
المساعدة التي كانوا في مسس الحاجة اليها والى كان
الامراطور بأهبط لامدادهم بها وفاء بعهده معهم .

وإذا سمع المرء تمعا دقيقا في كلمة الكويت هذه وفي حفاظها
الجوهرية ، تبين له أنها عمل لا يمكن عفرانه أبدا ، وأنه صادر عن
برعة سريره ياباها السرف .

عر أن رعاية الله القادر - ولا قادر سواه - والحكم ولا حكم
غيره - فصب الا أن بجى أحسن التماس من أكبر الأمور سرا ،
وأفصت الى ما فيه مجد شعب الله وقاده ، وواء بحق أولئك الذين
يحملوا حمارة العبط ، وبركوا ساءهم وأطفالهم . كى يحاربوا
كحجاج للسيد ، رجاء أن يكلل جهودهم بالمجد الدائم مما كان لابد
أن يحرموا منه حرة! ما ناما لو كان الامبراطور ح'صرا ، اد أن وحوده
هو وحده حيداك في هذا الموضع كان لابد أن يؤدى - بلا مساحة -
الى أن يصدر أمره برفع الحصار بناء على سلطانه الأعلى وقوانه
الصخمة ، ويكون له السرف كل السرف له وحده دون غيره .

على أنه يجب على المرء أن يؤمن أن السبد نفسه هو الذى حاء
بهذا السرف ، وحاد به على من أخلصوا البية في العمل وأدوه بأمانة
وصمدوا تحت الظروف القاسية التى لا يحصنها العد . حتى يجنوا
ثمار نعمهم . ونعتقد لهم راية النصر .

انطلق الألسن في هذه الأثناء سائعه عمت أرجاء المدينة ،
نفول برحوع الامبراطور الى بلاده ، فصاعف هذا السبأ من فطاعة
الأهوال التي يعاينها الصليبيون ، وملأ قلوبهم بأسا ونقررت
بعوسهم استمئزازا من مجرد ذكرهم كونت سبتيعن ، ووصموه
بالفجور الأبدى ، كما راحوا يلعبون ولسم دى حراند منزل
وكانه من ساركوا تى هذه الحانة الملعونة ، وراحوا يينهلون الى
الرب أن يزح في النار الأبدية مع يهوذا الخائن كل من انسحبوا من
هذه الأهوال الطامة ، والذين حددوا سبع الرب محرموه من
المساعدة الكبرى التي كان الله قد أعدها لهم .



ولما علم كربوغا وكنار حواده - عن طريق جواسيسهم - أن
الامبراطور راحف عليهم اسند اضطرابهم ، وعظم كربهم ، وحق
لهم أن يعزعوا من قواته المؤلفة من زهرة المحاربين في امبراطوريه .
فلما حاءهم هؤلاء الجواسيس أنفسهم مرة ثانبسة بخبر تراجع
الاغريق عن زحفهم ، أخذت كربوغا العزة بالاثم فازداد عتوا وبعسا
وحمل اليه أنه قد ضمن النصر وحاره ، فبالغ في الضسبيق على
رحالها ممالعه سرسه ، واسند في الاحداق بهم مما ترتب عليه أن
اكتسب العاسه كل المؤمنين الموجودين داخل المدينة ، وخاب كل
أمل لهم في الجاة . كما فقدوا الرجاء في أن يصلهم أى نجدة من
أى جهة كانت ، ولف البأس المطلق الناس أجمعين ، وراح الشعور به
برداد يوما بعد يوم .

وألقت المسئولية العامة لكل الجس على عائق بوهيموند .
الذى سب له - وهو تدور حول المدينة - أنه يسحيل عليه باللبن

او السند - ان يحمل ولو فردا واحدا من الناس على الجروح من حب يخبىء ، ولم يعد يوحد ثم رحل واحد يقوم بالحراسه أو بقال العدو داخل البلد أو حرره ، على الرغم من أن الجمع كانوا يصجون من الأهوال الى أنزلها بينهم الأعداء .

ثم جاء يوم عاد فيه المادون والعمال منهوكى القوى من محاولاتهم هذه العسلة في استدعاء الناس ، فلما ساهد بوهيموند ذلك المنظر أيقن الا حنوى من بدل محاولات جديده لارعامهم على الجروح من مخابئهم ، ومن ثم أمر معاونه بأضرام النار فى أماكن معدده من المدينه ، عسى أن تحف المران هؤلاء الذين علط فلوبيهم ورفض الامسال للارادة الربانية ، فحملتهم على البروز الى العراء ، ويجب ماوربه هذه وآت أكائها ، فبعد أن كان عاجزا عجزا تاما قبل هذه اللحظه عن أن يجمع الرجال للقيام بواجبات الخدمه العامه ، اذا بهم يقبلون رراوات بقلوب ماؤها الحماس السديد يدافعون لأدائها .

ويقال ايضا ان الناس من الحياه دفع بعضا من رجوه الرجال الى عهد اجماع خاص ، فرروا فيه أن يعموا هذه الليلة بالذات للفرار خلسه الى الساطي ، ناركين وراءهم السعب وحيس الحجاج نأكمله ، عر أن حر يدبرهم هذا بلغ سمع الدوى وأسقف بوى الموفر فاستدعبا اليهما هؤلاء المذنبين وأسرفا فى نأنيهم الأنس المر ، وذكرهم أن وصمه العمار الأبدية سسطبعهم هم ودرارهم بميسمها ، ان هم خرجوا على ما يفرسه عليهم سرفهم وكريم أصولهم ، أو اذا انسحبوا من هذا الحشد الكبير من المؤمن بالمسيح .



فى وسط هذه الصائقة كان هناك نقص بئن فى الطعام بين شعب الله سبب أهوال المحاعه المهلكة ، وما يمارسه العدو من

الضغوط ، سواء من الداخل أو الخارج ، حتى لم يعد ثم علاج لما هم فيه ولا أمل لهم فى بجدة تأبىهم من أية ناحية ، وعمد البلوى صغيرهم وكبيرهم على السواء ، وعجز كل واحد عن مساعدة الآخر .

وكانوا اذا نذكروا نساءهم وفكروا فى صغارهم الذين خلفوهم فى بلادهم ، وأملأهم الساسعة التى ورنوها عن أسلافهم ، وكيف هجروها حيا فى المسيح ، أسلموهم أنفسهم للتشكوى من عدم مجازاة الرب إياهم . لأنه لم ينظر بعين الشفقة الى المتساقى الذى يحملوها ، ولا الى صدق اخلاصهم ، بل ابلاهم بدلا من ذلك بالبلا كما لو كانوا شعبا عرييا عنه فأسلمهم الى أبدى الأعداء .

- ١٤ -

بينما كان سعب الرب يقاسى النلاء على هذه الصورة ، اذا بالسند يعطف عليهم ويسمع الى أسهم ويرسل السلوى من كرسى السماوى ، فيقال ان قسيسا اسمه [بارتليميو] من المقاطعة المعروفة باسم « بروفس » جاء الى أسقف بوى وكوت نالوز زاعما لهما أن الحواري المارك أندروز كان قد طهر له فى الميام ثلاث أو أربع مرات مسالبة وأمره أن يبادر ما وسعه البدار الى اخبار القادة أن الحربة التى طعن بها سيدنا عيسى المسيح فى جنبه مدفونة فى كنيسة أمر الحواريين ، وعليهم أن ينسطوا كل النشاط فى النفس عنها فى البقعة التى بنىها له الحواري بعلامات مميزة .

ومن ثم مضى بطرس الى خادمى الرب هذين المحبوبين ، وفصل

لِهما الأمر الذي أقسم أنه حَمَلَهُ . وبين أن الرسول [أندور] ارعحه على ذلك مهددا انه يكدر من المناعب . بد أنه رفض أكثر من مره اداء هذه الرسالة ، لأنه لا يريد عن ان يكون رجلا فقرا جاهلا ، غير أنه لم يستطع في النهاية أن يجيب نقيض أمر الرسول العاقل أكثر من هذا . حتى ولو تعرضت حياته للخطر .

وبوسلوا بالسريه الناء في نقل هذا الخبر الى القاده الآخرين ، الذين جئء أمامهم ببطرس [بارنلميو] لسمعوا منه حقيقه الأمر وصوره فصدقوا روايته ، ثم اجتمعوا في المكان الذي سماه لهم في ارباض الكنسه المسار السبب آتفا . رحفروا الأرض صاك الى عمى معين . فوجدوا الحريه كما قال بطرس [بارنلميو] تماما .

ولما سمع الناس هذا النبأ اندفعوا الى الكنسه كأنهم رجل واحد . لأنهم شعروا ان السماء أرسلت لهم العزاء . وانثالت الهدانا والمخ مجحدا لاكشاف هذه النعمه العاله . وطرحوا عنهم ما كان بهم من الفزع ، ونفسوا الصعداء ، وأحسوا أن قد عاودهم ناسهم من حديد لسعد الاوامر المباركه ، وكان هناك البعض الذين ادعوا أنهم رأوا رؤيا العين اسباح الملائكه والرسل الطوبانيين ، وكان ادعاؤهم هذا تعريرا لقوة ايمانهم بحام بطرس فارفعت نفسه الناس القابطه الحائره ارتفاعا عجبنا .

وحينذاك استجاب جمع الزعماء لافراح الرجال الموقرين الذين يخسون الرب وحددوا ايمانهم ، وقطعوا على أنفسهم العهد بأن يخلص كل منهم النية للآخر ، ويعاهدوا - لئى تداركهم رحمة الرب مما هم فيه الآن من وضع حرج . ومحبهم البصر الذى يرحونه وطهرا على عدوهم .. ألا يفارق بعضهم بعضا . حتى يستعدوا بعون الله المدينه المقدسه والقبر المقدس ، ويرودهما للايمان المسيحى وحرتهما القديمة .

ظل الناس يفتشون هذه الظروف غير المحتملة ستة وعشرين يوما مساليه اطمأن بعد ما فلو بهم بعد طول وجيب ، وراحوا يسمرون عن سوا عدهم في شجاعة لم تكن لدبهم من قبل ، وأحسوا بالراحة بعد طول عذاب ، وكأنها أمل جاءهم من السماء ، واتفق الجميع صغرتهم وكبيرهم على أن لا بد لكل هذه المساو من نهايه ، وأنه لا بد لهم من يوم قريب جدا يقابلون فيه الحضم وبسططعون صد أعدائهم الذين يعدون كثيرا يعوهم الكبيرة ، فتنحدر يومذاك المدرسه الى وهبها الله لهم ، ومن ثم راوا الحر في الصام بمحاوله حوص الحرب مره اخرى ، بدلا من أن يتركوا أنفسهم نهب الصياع يوما بعد يوم ، وهم في عمره المدعة التي استمرت طويلا وأنه أجدى عليهم أن يحاولوا الصال بدلا من أن يتركوا أنفسهم للناس ينوء عليهم بكل كلكه الذي لا نهايه له فيمصهم ارهاقا .

كانت هذه هي آحاسيس الجميع الدين لم يعد ثم معر أمامهم من الخروح من المدينه لمعائلة العدو ، ولم تعصر هذه الرعبه على البلاء وحدهم ، بل كانت تلهب في نفوس العامة أيضا البهابة حملهم على اتيهم فادبهم بالراخي ، وكرهوا كل نريب من جانبهم .

ورأى القادة أن حماسه الناس اما هي أمر علوى ، فاحتمعوا للنساور ، واتفق احماعهم على أن يرسلوا وفاده الى الفائد العام لعسكر العدو بصرح عليه الأخذ بواحد من اثنين :

١ . اما أن يرحل وينترك المدينه للصليبين لتكون ملكا لهم الى الأبد . ، وهي المدينه التي عابد الآن البهم باراده الرب ، واما أن يسعد للعسل ، ويكون السبب هو الحكم بين الفريقين .

واحسر لهذه البعة الرجل الطاهر الذليل ، الذي ورد الكنيز

عه في الصفحات السابعة ، وأعني به بطرس الماسك ، وأسركوا معه رفيقه العادل القطن « هيرلويين » (١) الذي كان ملما ببعض الآلام باللعنة الفارسية وممكنا من لسان البارثيين ، وعيّد الغوم ، إلى هذين الرجلين بسلبهم العدو الإفراج الذي ذكرناه . على أنهم اصافوا إلى ذلك شرطاً آخر هو أنه إذا آثر الأمير الحرب فله أن يحسار : أما المباراة الفردية مع أحد الرعاء الصليبين ، أو أن يخرج عدد معين من رجاله ضد عدد مساو لهم من رجالنا ، فينارر بعضهم بعضاً . واما أن يلنقى الحسان وحيا لوحه في معركة عامه .

ويهادن الطرفان هدنه امان لارسال الوفاءه ، فانطلق الرجلان اللذان أسرنا اليهما إلى معسكر الأمير [كربوغا] مع الحرس الذي حصص مهمما ، فوحدا كربوغا محاطا بكبار رجاله وبوانه .

وعلى الرغم من ان بطرس الماسك كان رجلا فمنا الا انه كان يسمح بروح عالية ، فأدى المهمة التي وكلت اليه في صدق وحماسه ، واستطاع سنوكة الرصن وبما طبع علمه من حراه لا عرف الخوف ، أن يقرب من البساط الفارسي دون أن يبدى أى حضوع ، وسلم الانذار قائلا :

« لقد أرسلني مجمع الرعاء المقدس أحباب الله الموحودين في أبطاكة ، يتهون إلى سموكم أن تكف عن مصايغهم . ويرفع الحصار عن المدينة التي أعادتها الرحمة الالهية إلى أيديهم . والي طبرشا

(١) يستفاد من هذا أن « هيرلويين » هذا كان يعرف الله- سابي العربي والفارسي إلى جانب لغة ذلك العصر وهي اللاتينية ، وربما كان هناك مثله كـيرون اصطفيهم الصليبيون ممن يعرفون لغات هذه البلاد الشرقية وإن كان عددهم قليلا . أو كانوا معدودين دون الصليبيين مكانة لأنهم لم يكونوا محاربين ولكن أزعجهم الأوصاع أن يكونوا في صفوف المقاتلين . انظر الرحمة الانجليزية ، ص ٢٨٢ . حاشية رقم ٨ والمراجع الواردة بها .

من الوسنة بطرس أمير الحواريين العاقل المكمل لايماننا ، والذي
اهتدب أنطاكنه بهديه الى دين المسيح ، وصار حقا لنا بفضل
فوه معجراته وكلماته الكريمة المطوية على الصبح والإرساد ، ثم
فادر لب ان يغصب مما عدوانا وظلما ، فاعادها البنا السند القوي
ذو البأس السديد .

» وعلى ذلك فان العادة الصليبية بعرضون عليك بما ينفع
واحساسهم العميق بالمسئولية الموروثة من آباءنا خدام المسيح
المخلصين ان نحار واحدا من هذه افراحات تصعها آماهك ، وهي
أن نرفع الحصار ونسحب ونكف عن مضاهة الصليبيين ، فان لم
نعمل أندركناك بحرب بعد ثلاثة أيام تكون الحكم فيها للسيف بسكم
ونبذ ، ورباده على ذلك فان أردت نحب الصدام بتعديم عذر
مقبول فانهم يحرونك بين عدة أمور نخار منها واحدا ، وهي اما أن
نلعي بنفسك وحها لوحه مع واحد من فوادنا في مبارزه لا يكون
فيها سواكما ، فان نلعب فيها عليه ملكت كل شيء ، وان هزمك
رحلت ونركنا آمنين ، وأما الاصرار الباني فهو أن يحرح بضعة
من فرسانك يعالون بضعة من فرساننا بماناوبهم عددا نحب نفس
السروط والا يعال الجيسان نأجمعهما من الجانبين في معركة تقرر
المصير » .



لكن الأمير [كربوغا] اذدرى هذه العروض المقدمة اليه .
وبل انه قال : « ما أظن يا بطرسى العزير أن وصع رعمائك الذين
أرسلوك الى يسمح لهم بافتراح اختيارات يعرضونها علىّ ، أو أن
يعرضوا علىّ اخسارا معيننا حسب أهوائهم ، ذلك لأن بسالما
أحبرهم على أن يكونوا في حال لا يملكون معها حرية الاختيار ، بل

نعرض عليهم اما أن يغادروا البلاد ، واما أن نخلوا عن رعبانهم بما
يتفق وهوأى أنا •

« فاذهب الآن الى هؤلاء الغداه الأعباء الذين أوفدوك ، - وقد
عم عليهم الآن الوضع الذى هم فيه - وقل لهم انى سوف أستبقى
عندى منهم كل من هم فى رهره السباب من الحسين لكونوا فى
خدمة مولاي [السلطان] ، أما من سواهم فسوف أجعلهم بهب
السيوف كأوراق السحر المسدوظه حتى لا يبقى منهم من يذكر
بهم ، ولولا أنى آرتب أن أتركهم يلافون الموت بالجوع العاسى بدلا
من قتلهم بالسيف لدككت الأسوار عليهم منذ زمن بعيد
ولاسولب على المدينه عيوه ، فيجئون بمره مسلكتهم بحث صرنا
السبب المسقم » •

- ١٦ -

بعد أن عرف بطرس غفلة الأمير كربوغا الذى أرساوه الله ،
وأدرك مدى سلوكه المنعطرس الساحم عن اعداده بما لديه من ثروات
لا يمانلها أية ثروات أخرى ، وكف عربه كسره حده ، أقول بعد أن
عرف بطرس ذلك كله اسأذه فى الانصراف وعاد الى جماعه ،
فلما بلغ المدينه أراد أن يقص الى الرعاء الذين بعوه بالرد الذى
حملة اليهم ، وكانت الجموع كلها من الكفار والسعب نلهمون على
سماع فتوى الرد وسبجه السفاره •

وعزم بطرس [الناسك] على أن يقدم فى حصره الناس جميعا
بفريرا مفصلا بكل ما حرى خلال اجتماعه بكربوغا ، وعن مسلكت
هذا الأمير المنعطرس ، كما قرر أن يسر الى تهديدانه وكبريائه

(الحروب الصليبية ١-٤٠١)

وعروره ، لكن جودفروى العظيم حاف أثر ذلك على العامه ان هم
أثثوا بجميع تفاصيل الموضوع ، ذلك أن العامة وفد أنهكتها السدائد
المستمرة ، وضعضع بسببها براكم الأحوال عليها ، وقد يسبب بها
الفرع السديد فتتكب على وجهها خوفا ، لذلك قام [جودفروى]
فأطفا حماسه بطرس ومعه من الاسنرسال وسرد كل ما عنده ،
وجذبه بعيدا عن الناس الذين براحموا عليه لسماع ما يقول ،
واقترح عليه ألا يفصل كل ماحدث ، بل عليه أن يقتصر على موجز
رد كربوغا ألا وهو تصميم العدو على القتال ، وأنه يسفى على
الصليسين أن صرفوا كل اهنماهم للاسعداد للحرب .

ومن ثم لم يعرف الناس مما حكاه بطرس الا أن العدو يطلب
الصال ، فاحباح الجميع صعرهم وكبرهم رغبة عارمة ولهفة ملحة
للحرب ، واعبطوا أسد العبطة اذ بلغوا هذا الخبر ، وكانت عله
فرحنهم هى ثقتهم بالنصر ، حنى كان يخيل للناظر اليهم أنهم
سبوا نماما ما كانوا فيه من الصراع ضد الأحوال التى كانوا
بكابدونها ، وأفصح وحوهم جمعا على انفاق كلمتهم بأن يكونوا
فلما واحدا وفكرا واحدا ، فبودى فهم أن المعركة واقعة غدا ،
فعدوا بحواج قد ملأها الفرحة حنى لعد انقصى اللسل دون أن
بعض لهم عنى . سبوا للمعركة ، وجهازوا أسلحتهم ، وأعدوا
حيادهم ، وراحوا ينظفون صديراتهم الحديدية ومغافرهم ، وهأوا
دروعهم ، وشحنوا سيوفهم ، ومن ثم لم يكن عندهم وقت للنوم
أو الركون الى الراحة ، ونادى المبادى بن الجميع أن يخرج كل ذى
سلاح وقادر على القتال عند نباسير الفجر وقبل شروق الشمس
وينصم الى كتبته ويفف خلف راية فائده المعين له ، فلما بزغ فجر
البوم النالى أقام القسس ورجال الدين الخدمة الدينية فى كل
الكنائس ، وقدموا الفرائين ، ثم دعوا الناس الى الاعتراف بنفس
ملؤها التواضع والمذلة كالعادة وحضوهم على التوبة وتحصين أنفسهم

صد رذائل الدنيا بنناول الغربان الذى هو دم المسح ولحمه ، ولما عفروا لهم خطاياهم وبعضوها الى نفوسهم وفأصب القلوب بمريد من الحب الصادق ، مضى العوم الى القتال وهم أكثر ثقة من قبل كلاميذ وابباع القائل (١) : « أنا أعطيكم أن نجبوا بعضكم بعضا ، كما أحبيكم أنا نجبوا انهم أيضا بعضكم بعضا . بهذا يعرف الجميع أنكم بلامدى ان كان لكم حب بعض لبعض » .

بعد أن تلقى جميع الكنائس الخدمة الدينية ، وغمر الهدوء القلوب ، انهالت عليهم السمة من السماء انبثالا عجيبا .

كما ان أولئك الذين كانوا بالأمس واليوم الذى قبله مطروحين كان قد فارضهم الحياه . وقد بلغ الضعف منهم مبلغا عجزوا معه عن أى شئ حى عن تحريك حقونهم أو رؤوسهم ، وباخت عليهم القافة بكلكتها ، وأمصهم الجوع . حتى راحوا بلمسون الأماكن الخفية عن عابثين بمكانهم التى كانوا عليها من قبل ، أقول انهم برزوا فى هذه اللحظة من بلاء أنفسهم للعنان ، وتخلصوا من كل خوف وامشقوا أسلحتهم فى بطوالة كما لو كانت الفوه دب فى أوصالهم من حديد واستردوا اقدامهم الذى اعتادوه وراحوا يستعدون للحرب وكلهم أمل فى النصر ، وقل أن وجد فى هذا الحشد الكثيف شخص أيا كان عمره أو ظروفه لم يهين نفسه للاضطلاع لكل عمل مجيد ، وحملوا كلهم سلاحهم ، وتنأ الجمع بانتصار الصليبيين .

وراح الفسس بطوفون بين صفوف العسكر ، وحيث يتجمع الناس ، وعليهم ثيابهم الكهنوتية حاملين الصلبان وصور القديسين فى أيديهم ، واعدى القوم بغفران الذنوب ومحو جميع آثام الخطاة ان هم استسلوا فى القتال فى المعركة كحماة للعقدة المسيحية التى

(١) يوحنا ، ١٣ . ٣٥ .

ورثوها عن آبائهم ، كما قام الأساقفة نارحاء النصح لأمراء الجيوش
وفواده أفرادا وجماعات ، وحثوهم على النضال ما أسععتهم البلاغة
التي أعدتها عليهم السماء ، ومحووا الدس تركائهم . واسودعوهم
فى رعايه الله ، وكن فى مقدمة هؤلاء الأساقفة حادم المسيح الطوباني
أسعف بوى الذى دأب على اسداء النصح والمداومة على الصوم وملازمة
الصلاة ، وبر الجمع كرما فى احراج الصدقات ، وكن مسعدا على
الدوام للصحية بعسه من أحل حاطر السند .

- ١٧ -

جمع الجمع كأنهم رجل واحد أمام باب الجسر وذلك ساعه
اسراى صباح الثامن والعشرين من يونه ، بعد أن اسهلوا الى السماء
أن نمدهم بالعون ، وأعدوا صفوفهم للمعركة بعد أن سموا للقيام
بطام السر وأسلوبه ، وذلك قبل مفاديرهم المدينة ، وبولى هبح
العظيم - أخو ملك فرنسا - أمر العلق الأول كهائد له وحامل
لراينه ، وجعلوا معه أنسلم دى ريمونب الجدير بالبناء على كل
ما يفعل ، وأشركوا معه أشرافا آخرين نعجز عن ذكر أسمائهم
وعدهم .

وعهدوا بالفريق الثانى الى روبرت الملقب بالمرريانى كوت
فلاندر ، ومعه من ضمهم معسكره من البدايه ، أما روبرت دوى
بورماندى فقد وكلوا اليه قيادة العسكر الثالث ، وكان معه ابن أخه
الفاضل سمفن كوت أو مال وغره ممن كانوا فى بطانه من النبلاء .

أما المبجل أدميرال أسقف نوي ، ذو الذكر الغالي ، فقد تاد
المجموعة الرابعة التي كانت تشمل على خاصة أتباعه وأتباع كونت
بولوز ، وكان [أديمار] يحمل حربة السبع المسح .

وأما رينارد كونت بول فقد كلفوه بأن يعود العينيين الرابع
والخامس ، وكان معه أخوه بطرس دي سنيناي ، وكونت جارسية
دي حراي ، وهري دس ، وريولد فون أمررباخ ، ولتر دومندارد

وأمر الزعماء أن يكون على الصلق السادس رينبالد كرت
أورانج ، ولدنح دي موسون ، ولامبرت بن كوبون دي موباج .

أما جودفروي دوق اللورين ذلك الأمر العظيم المبجل ، وأخوه
الموفر لورد اسباس ، فكانا على الكسه السابعة ، التي رتبها وفق
السطم الحربي .

وأما القسم الثامن [من الجنس] فكان بقيادة ناكريد
الفارس المعلم في نمل حلقه وبراعته في استعمال السلاح .

وأما القسم التاسع فكان فيه هيج كونت سب بول ، وابنه
ايجراند ، وبوماس دي لافر ، وبلدوني دي بورج ، وروبرت بن
جيرادر ، ورينو دي بوفيه ، وجالو دي شومونت .

وأما الفيلق العاشر فقد عهدوا به إلى روبرو كونت بيرش .
وايجرارد دي بويسيه ، ودروجو دي مونسى ورالت ابن جودفروي
وكونون روتو .

وقاد الفيلق الحادي عشر كل من ايزورد كونت ديبى ،
وريموند ببلية ، وجاسنون دي بزييه وجيرارد دي روسيلون
ووليم دي مونبليه ووليم أمانجو .

أما الفيلق النابى عشر وهو أكبر الفالق جميعا فبؤلف مؤخره
الجيش ، وقد عهدوا به الى لورد بوهيموند رعيما وقائدا ، ووكلا
اليه أمر هذه المؤخره كى يساعد القواب الأماميه فى اللحظا
الحرجه ، كما عهدوا اليه أن يرعى من فد يشسد عليهم صنتط
العدو .

واشدت وطأة المرض يكويت بولوز فى هذا الوقت ، فخلعوه
وراهم لحماية المدينة ، اذ لازالت ولعبها فى قبضة الترك الذين
خيف على المدينة منهم أن يظبوها بلا مدافع بسبب غياب الزعماء ،
فيحاولون الاعارة عليها ، ومباغنة من بها من الشيوخ العجرة
والساء وغيرهم من أهلها الذين ليس هناك من أحد بحمبهم .

ولقد أقام الصليبيون على النل المواجه للقلعة سورا فويا من
الأسمنت والحجر ، الى جانب اسحكامات اضافيه نصبت عليها
بعض آلات الرمى ، كما تركوا بها مائنين من الشجعان الأشاوس
المدججين بالسلاح للحفاظ عليها .

- ١٨ -

حب ربس فواسا نفسها على هذه الصورة وهأوا صفوفهم
للقتال ، قرر الزعماء بانفاق الآراء أن يسر أمام الجيش بأجمعه
وينقدمه كل من هيچ العظيم [أخو ملك فرنسا] . وكونب فلاندرز ،
ودوى بورماندى . أما البقية فعلمهم مراعاة الترتيب المفق عليه ،
وجاءت المشاة أولا ومن بعدهم مباشره الخباله كحراس لهم ،
وأعلن نداء عام يحذر تحذيرا قاطعا أى شخص من النجرؤ
على مد ناظرية الى الغنائم والاسلاب ، بل يكون الاهتمام منصبا
على كل ما فيه تحطيم الأعداء ، حتى اذا ما نم النصر للصليبيين ،

ودارت الدائرة على العدو ، امكنهم العودة بنفس راحته لجمع الغنيمة .

توقع كربوعا منذ اللحظة الأولى - لا سيما بعد رياره بطرس [الناسك] له - أن لا يد من فيام الصليبيين بسن عاره فحانه على معسكره ، ومن ثم فانه ابعث مع الأنراك الموجودين في القلعة أنه اذا لاحظ أحدهم جماعة الصليبيين وهم يسعدون للحروح من أية ساعة من ساعات يومهم فعلى اهل البلد المبادرة بمواعاه معسكره بإشارة اتفق عليها من قبل .

شرع رجالنا منذ أول ساعة من النهار في تنظيم صفوفهم ، فلما لاحظ أنراك القلعة بحركابهم بادروا فأعطوا الاساره لمى في معسكرهم ، فعزم كربوعا على التقدم والجيلولة دون ما يريده ، وأرسل في الحال نحو ألفى فارس ليصرف نظر فواتنا الموجوده عند الجسر ويمسعا من مغادره المدينة ، ثم رجّل هؤلاء الرجال ونزلوا عن ظهور جيادهم ليكون هجومهم اشد عنفا ، ولكى يجدوا مجالا أوسع لاستعمال أقواسهم ، فأمكنهم الاسيلاء على الطريق البعيد من الجسر ، وأما الصليبيون فعد ربوا صفوفهم ، وورعوا رجالهم وفق قواعد علم القتال ، ثم قاموا بعد ذلك بفتح النواة ، وزحف فبالههم واحدا بعد اخر ، وكاتب لا نزال مرابطه في مواضعنا على نفس المسافات النى بفصل بين بعضها والبعض الآخر .

وبينما كانت كئائب العدو التى قدمت لمنع حماعنا من الهجوم تجهدهم نفسها اشد الاجهاد لبلوع هذه القساية . عمد صبح العظم الذى يبولى - كما قلنا - قيادة العيلق الأول بإرسال كوكبه من المشاة ورماة الأقواس ، فشنت هجوما عنيفا على البرك الذين حاولوا المقاومة فى بداية الأمر ، لكنهم ما لبوا أن عجزوا أخيرا عن صد فواسا ، واضطروا الى الفرار على غير نظام ، فاصفى صبح أثرهم فى

عنف لم يستطيعوا معه الوصول الى جسادهم وامتطائها الا بعد
لاى وجهد ، وبسبب كانوا لاثنين بأدبال الهرب اسبيل في
مهاجمتهم أسبيل دى ريموب الذائع الصيت الذى كان واقفا في
الصف الأول ، وقدم الدليل الناصح على شجاعته ، واندفع
غير عابئ سلامته حتى صار في وسطهم وقد كسوه من كل
ناحية ولكنه صمد مردبا بعضهم وطعنا بسيفه فابو البعض
الآخر ، وأبدى في العنك بهم كثيرا من البسالة الى دلب على قدره
واسنلعت اليه الأنظار ، وحدث اليه اعجاب جمع المحاربين ،
فحف لجسده هبح العظم ، وروبر كوب فلاندر ، وروبر
كوب بوماندي ، واندوين كوب هسول ، واساس أحو الدوق ،
وقد املا نفوسهم اعجابا بطولته فضموا قواهم بعضها الى
بعض ، وكروا على العدو كره اسماصلوا بها سافة من لزال هناك
من عسكره ، ثم نابعوا اصفاء أثره الى محييه وكندوا الماربين حساره
بعجر اللسان عن وضعها .

- ١٩ -

سما كات قوانا بغادر المدينة جرى أمر يستحق السجل ،
ذلك أنه في اللحظة التي أخذوا فيها ينهاون للعمل ، وقد صاروا
بعسكرهم خارج الباب ، اذا ببعض من رجال العدو الذين دبوا
أمر منهم من الخروج يحرون صرعى ، ويلوذ غدهم بالفرار ،
وحدث في هذه اللحظة بالذات أن أخذ حبسات الندى اللذيذ
تنساقط على الجيش الصليبي ، وكان رذاذا خفيفا لكنه أنعش
رجالنا كل الانعاش ، ونزل عليهم يرذا وسلاما ، حتى لكأن السند
ذاته هو الذى بمنحهم بركاته وعطفه .

وما كان هذا الندى العاوى المعطر نصيب أحدا الا وندب
المرحة في نديه ، ونسسى روحه ، وسبرد فوه بمام الاسترداد ،
حتى لكأنه لم يشك قط مشقه ولم يابى صعوبه طوال رحاة الحج .
ولم يقنصر ذلك على الرجال وحدهم ، بل ان الجناد دانبا عادت -
بقوه الله - الى ما كانت عليه من النشاط . على الرغم من انبا
طلب لبضعة أيام سألعه لهذا الحدث لا يجد علقا بها ،
ولم يكن لها من طعام سوى وري الأسجار ولحائها ، أما اليوم فقد
حاوزت سرعتها وصبرها سرعه خيل العدو مع أن علف حاده كان
من السعر والنس .

أدى هذا الأمر الى أن باب الأمل في النصر فويا ، وعب هذا
الندى في حدودنا قوة احتمال طاغية فكأنه هو المراد بقول المائل (١)

« اللهم عند حروك ٠٠٠ الأرض اربعى ، السمارا ٠٠٠
فطرت ٠٠٠ مطرا عريرا أنضج يا الله ٠٠٠ مرايك وضو دعى أنت
أصلحه »

والواقع أن حدودنا لم نخامرهم أدنى سك في أن الذى نالهم
انما هو رحمة الروح القدس قد برلت عليهم .

★★★

ولما أصبح جمع الكائب خارج المدييه صمم الرعاء على
نشر العسكر حنى الجبال التى بعد عن أنطاكية فراه ميلين ،
واحتلال السهل بأكمله مخافة أن يحول العدو - بأعداده الضخمة -
حلسه - او عنوة - بين فواصا وبين المدييه ، فيكون فى ذلك الخطر
علنا ، كما أنه يستطيع بهذه الطريقة - كما هى عادته - الاحداث

(١) مراير ، ٦٨ ، ٩ - ١٠ .

رجالنا من كل جانب - فمقطع حط الرحبة على المتسللين الى المدية . واخذ الرباطيون يقدمون سبطا حتى لا يحاط صغوفهم بعضها ببعض ، او يخلط نظامها . وقد ساءت الارادة الالهية أن الصليبيين الذين كان يخيّل لرائيهم - وهم وراء الأسوار - أنهم دون خصمهم عددا ، أو بقول أدق أنهم لا شيء مطلقا بالنسبة اليه - قد صاروا وهم خارجها يوارونه عددا ان لم يكونوا أكثر منه جمعا ، وهكذا فان « الواحد الذى بارك الأرغفة الخمسة فراد في بقاياها زيادة جمة بعد أن أكل الجميع حتى سبغوا قد جاء بمعجزه ليست دون هذه المعجزه حين راد عدد هؤلاء الناس ، الذين وهبوا أنفسهم للعمل الصالح فى نظره ، وكان ذلك منه مجندا لاسمه » .

وكان القسيس واللاويون الذين وهبوا أنفسهم للرب يسبرون فى ركب من خرجوا للقتال متسربلين بمسوحهم البيضاء ، ورافعين بأيديهم الصليب المجند ، كما ظل بالمدينة طائفة من الكهنة وكانوا كأمالهم مدبرين بمسوحهم الكهنوتية ، واعلوا الاسوار ورفعوا أيديهم الى السماء لا يكلون عن الابتهال الى السيد بدموعهم وصلواتهم أن يخلص شعبه الوفى ولا يأذن لمنكريه أن يرثوه .

- ٢٠ -

فهم كربوغا من الاشارة التى ظهرت على الملعه ومن مطالعته الهاربين المهزومين من أنطاكية عند زحف رجالنا ان الصليبيين أخذوا فى التقدم ، فدعا الى اجتماع عاجل حضره كبار الرجال فى السن وقواد عسكريه ، للنشاور فى الوضع الذى كان ينظر اليه بازدراء ، ولكنه أصبح يشكل أمرا خطيرا حمكه على أن يحوف

من هؤلاء العوم النافهين ، الذين سحر مد فليل جدا من معدائهم
وعدهم الضئيل ، ومن ثم سرع في رسيب فوانه ، ونظم صفوفه
استعدادا للعال ونرولا على نصيحه مسساريه . واحده بجره
الأنطاكين بعين الاعتبار واستطاع بكبير من انظاره نظم فوانه
ورسيب صفوفها للعال ، وأقام حدا فاصلا باررا بين العنالى الى
يألف منها حرس مقدمه وبين السائرين خلفهم . وكان من بين
نظمائه الصارمه ما يلي .

هو أنه أرسل ناحيه الساحل كيبه امنازت بكفاءه رجالها
وسجاعتهم ، وقد فعل ذلك قبل أن يشغل الصليبيون كل السهل
الواصل بين المدينة والجبال ، ويقال ان هذه الكتيبة كانت بقيادة
قلج أرسلان أمير نيقية المشهور الذى تردد ذكره كثيرا فيما سبق ،
وكان الهدف من هذه المناورة هو أنه اذا دارت الدائره على سعب
الرب ، واضطروا للهروب ، وجدوا أنفسهم وقد سدت سبل السجاء
من خلفهم وقدامهم ، سواء كانوا يريدون الفرار الى البحر أو الى
المدينة ، وبذلك يقعون بين القوات الى طاردهم . وبين الذين
يحاولون منهم من التقدم فنطحهم رعى القنالى بين سقمها .

ثم أقام كربوغا بقية عسكره على اليمين وعلى الشمال ، واصعا
كل جماعة تحت قيادة قائدها الخاص . ونادى في عسكره أنهم
ان أرادوا كسب عطفه عليهم ، فعليهم أن يذكروا ما عرفوا به
على الدوام من الشجاعة الفائقة ، وأن يحاربوا خصومهم حربا
لا هوادة فيها ، و لا يلقوا بالا الى مجهودات قوم لا يدرون ما الحرب ،
ولا يزيدون عن أنهم رعاى أنهكتهم المجاعة ، وأعوذهم السلاح ، وفل
فى يدهم المال .

★★★

ولما احلب فواصا كل السهل احبالا أموا معه أن يحدو بهم أى حطر أمروا بدق الطبول ايذانا بالزحف ، وسرع العسكر فى النقدم شيئا فشيئا نحو صفوف العدو ، بنقدمهم حاملو الرباب ، حتى اذا صاروا فرببين من المارقين قريبا أعجز الأخيرين عن رميهم بالسهم ، اندفعت الى الامام فى آن واحد صفوفنا اللثانة الأولى ، وقابل رجالها العدو بالسوف والرماح فى الأحياء القريبة .
أما مشاننا وهم رماة الأقواس والمجسج ، فقد سفوا كئائب الفرسان ، وراح الجمع ينافس بعضهم بعضا ، وسفوا من الهجوم أعنفه .

ثم جاء الفرسان فى أعقاب المشاة ، بادلين أقصى الجهد لحماية الطليعة ، وبينما كانت الصفوف الأولى ببذل فصارى جهدها فى القتال ، هب لمعاونتهم من كانوا وراءهم مسيسلين فى الهجوم ، فأناروا الطليعة للقيام بأعمال أكثر شجاعة وأعظم جرأه ، وهجمت جميع القواب الصلبة باستثناء المؤخرة – التى بقيادة بوهيموند – على العدو وحاربته فى بطولة ، وأسحر الفصل فى كير من الرك ، ودبت الفوضى فى صفوف الباقين فركفوا الى الفرار ، وصى الدوى ووحدته فضاء مبرما على أقرب وحدات العدو اليه ، غر أنه جلب فى هذه اللحظة أن عاد فلج أرسلان بعيلقه الذى كان – كما فلنا من قبل – قد فاده مبعها ناحية الشاطيء وكر به كره عصفه من الخلف على كتيبة بوهيموند ، وراح برشقها بوابل من السهم الذى راحت تتساقط مدارا حصى غطتهم جميعا ، ثم نحف قواب قلع أرسلان الأقواس جابيا وبعجنت كئيكابها المألوفة ، وهاجم بوهيموند بالهراوات والسيوف وكانت الكرة عليه أضرى ما تكون ، حتى لم نعد صفوفه قادرة على بحمل صغط هذا الهجوم الشررس ، فدب الاضطراب فى صفوف كئيبته على الرغم من صموده للعدو ،

هو وبله صئيله من رفاهه ، كما أبدى من البسالة العائقه ما هو
ممين به كعائده ، على أنه فى هذه اللحظة الحرجة استجاب الدوق
جودفروى لما نودى عليه ، وأسرع بعوائه لمساعدة بوهيموند ، وكان
ممن جاء مع الدوق من الرجال تنكريده القائده المقدام ، وربى على
مجبى هؤلاء الرجال خير كبير ، سمل فى نوارن فوائهم مع فوات
العدو الذى نلاشى بأسه مما شجع الصليبيين على ملاحقه ، غير
عائين أن يصابوا فنجرحون أو يملون ، فلما رأى الحصم أن
فوه لبست معادله لفوائنا ، وأدرك أنه لن يستطيع بحمل بأس
حصومه أكثر من هذا عمد عسكره الى حيل أخرى ، وكان منها
رجوعهم الى مألوف عادتهم ، فأصرموا النار فى الروع ، فأنجحت
لوجود كميات وفيره من الحسائش الجافه وأكوام العش التى
سرعان ما أمسكت بها البيران ، وساعدت على انساع مدى الحريق ،
وعلى الرغم من أن اللهيب كان بسيطاً الا أنه أسفر عن دحان كيف
حائق ، فحالت هذه القمامة بين جيشنا وبين مطارده العدو بشده ،
ذلك لأن ما أماره أقدام كثير من الرجال والجسود من العير
والتراب ، أزاغت أبصارهم وكادت أن تعميها ، حتى لم تكدر ترى
سببنا ، فاعننم العدو وحود هذا الدخان ، وانخذ منه سبارا استخدمه
بمهارة فى تحقيق غرضه ، فهاجم فوائنا وفك بطائفة من مشاننا ،
غير أن سرعه عدو جباد العرسان ساعدتهم على تجنب أخطار الدخان
الكثيف ، فكروا عائدين الى ساحة المعركة ، وجاءهم الغوث من
السما ، فاسمروا فى القتال حتى نجحوا آخر الأمر بفضل تجدد
نشاطهم ، فى ارغام العدو المارق على الهروب أمام سبوفهم الظاممة
للانعام ، ولم يكفوا عن مطارده ، حتى حملوه - وفد اضطرت
صفوفه أشده الاضطراب - على الارتداد الى حيب يوجد اخوانهم .

كان على معربه من ساحه المعركة واد صغير ، اذا حل الشناء غمره السيل المتدفق من فمة الجبل العالية ، وقد نمك فوانا من طرد العدو الى ما وراء هذا المجرى المائي ، ولم ينوان رجاله عن بذل أقصى جهدهم فى سبب أقدامهم فوق نل يعلو هذا السهل فليلا ، وراحوا ينفخون فى الأبواق ، ويدقون الطبول فى محاولة منهم لاستدعاء عساكرهم المشتتة هنا وهناك ، ولكن زعماءنا انطلقوا بنعقبونهم دون أن يوقفوا ولو لحظة واحدة ، وسرعان ما أدركوهم ، وبينما كانت المعركة الكبرى دائرة اد أببل من المؤخرة الدوى جودمروى وبوهيموند وتانكريد وغيرهم من أشراف الرجال ، وقاتلوا كنائب قلعج أرسلان واسنأصلوا سَأفتهم بمعونه الرب .

فى هذه الأناء نمكنت الطليعة المؤلفه من هيج الكبير ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى مع الكثيرين ممن يستحقون الذكر الأبدى ، من حمل العسكر المعادى لهم على الهرب ، فاجتاز هؤلاء المحاربون الوادى ، وأزاحوا العدو عنوة من على الجبل ، وأرغموه مرة أخرى على الفرار ، وقد صربت الفوضى أجزائها عليه ، ولم يعد قادرا على احتمال الضغط الذى مارسته القوات الصليبية عليه .

ظل كربوغا منذ بدء القتال بعيدا عن ساحة المعركة مرابطا على تل معين ، وكانت الرسل موصولة العدو والروح حاملة له أخبار المعركة ، وبينما كان يترقب فى لهفة نتيجة هذا الصراع العام ، اذا به يطالع - فجأة - اختلال نظام قواته وتفرقها ، وفرار عسكره على وجوههم فى شنى النواحي على غير هدى ، وتفرقهم أيدي سبأ ، فغمره الحزن الممضى حين أدرك مدى النكبة التى حلت بهم فنصححه

أبعاه بالعمل بكل الوسائل على ما فيه سلامه ، فغادر المعسكر على عجل لائذا بأذيال الفرار غير عابئٍ مطلقا برجاله ، ولا مسطرا احدا منهم ، وأحد يتبدل على الدوام الجياد على طول الطريق لستيل هروبه ، حتى بلغ نهر الفرات ، فعبره وهو في حال من الفزع الشديد ، فلما بلغ شاطئه الآخر لم يصدق أنه بلغه سالما .

حين ساهدت فواب العدو تخلي فائدها عنها وحرمايتها من مساعدته اياها ، زاليتها شجاعته وبلاش عزمها ، فاسولى رجالها على كل ما عسروا عليه من الحبل ، وحدوا حذو كبيرهم فأمعوا في الهروب حتى لا يكونوا طعما لسيوف مطاردتهم .

ولم يكف رجالها عن مطاردتهم الا لحوقهم من أن سق جباذهم بحهم من طول المطاردة ، بيد أن ناكريد وشرمة صئلين معه قصوهم مسافة ثلاثة أو أربعة أميال ، حتى حابت ساعة الغروب فرجعوا بعد أن أوقعوا الفزع الأكبر في قلوبهم .

ابتلت القوة الالهية نفوس هؤلاء الفارين بالحواف ، حتى انهم لم يستطيعوا الصمود لهجمات المعدين عليهم ولا صدها . اذ يخالون العشرة من رجالنا آلافا مؤلفه ، كما أنهم لم يجدوا أحدا يهديهم ويأخذ بيدهم أثناء هروبهم أماما ، وتوضح هذه الحقيقة أنه ظهر صدف المل القائل (١) .

« ليس حكمة ولا فطنة ولا مشورة نجاه الرب » .

وظهر جليا في هذه التجربة ذانها أن قوما أهل مربة تكاد المجاعة تقضى عليهم يصبحون ذوى بأس شديد ، فادري بمعونه الرب على هزيمة مل هذا الجيش الكبير من المحاربين الأقوياء وأن

(١) أمثال ، ٢١ . ٢٠ .

ينحقق لهم فى معركة واحده فوق كل ما كانوا يأملون ، اذ يتمكنون
من دحر جميع قوة المسرف الذى لا يعرف الرب . .

- ٢٢ -

حين فرح رجالها من المعركة ومحتهم السماء النصر ، انفلتوا
الى مخيمات العدو ووجدوها راحه بكل ما هو ضرورى وما لا غنى
لهم عنه ، وعسروا على أحمال كبيره من الأمعه الشرقيه القالبه التى
بلغت من الصحابه فدرا كان من المستحيل معه عدها وتقديرها ،
وهى غنائم من الذهب والفضة والجواهر والحريير والملابس الغاليه،
الى جانب الأدوات المرلبة الرائعه الصبغة ، النفيسه الماده ،
كما وجدت هناك أعداد ضخمة من الجياد وفطعان الماشيه وأسراب
الأغنام ، بالإضافة الى مفادير هائله من الأطعمة والجبوب ،
وكان ما عنموه شيئاً عظيم الوفرة ، حتى لقد نجح من كانوا حتى
الآن مملئين أشد الاملاء ماذا يأخذون وماذا يتركون ، واستولوا
على خيام العدو ومساطيطه التى كانوا فى حاجة ملحة اليها ،
لأن ما كان لديهم منها من قبل قد قدم العهد به ورت ، وأبلاه
هطول المطر الغزير عليه ، مما جعله فى الواقع غير صالح
للاستعمال .

ثم عادوا الى أبطاكية وفد فاضت أيديهم بالغنائم الجمة ،
فكان مما عادوا به ، مما خلفه الأتراك وراءهم حين فرارهم الاماء
والأطفال ، كما استولوا على مخيم القائد العام ، وهو قطعة من
الابداق فى الصبغة فد سيج أغلبه من أحسن أنواع الحريير المتعدد
الألوان ، وكان هذا القسطنطين مؤلفاً من حجرات تمتد الى جهات

بعيدة ، ويفضلها بعضها عن بعض الشوارع ، وفيل ان هذه الحيمة كانت تسبح لآلعين من الرجال لايراحم الواحد منهم فيها الآخر ولا يصايحه .

رجع الصليبيون الى المدينة محملين بكل ما أصابوه من الغنائم والأسلاب ، وعدوا يومهم هذا يوم فرحة عامرة بسبب النصر الذي أحرروه ، وعادوا ساكرين من جاذب يده عليهم بالغلبة الى وائهم بعد طول انتظار ، وبعدما فاسوه من الكوارث ، وما نزل بهم من المصائب العديدة .

أما الترك الذين لازال العلة في أيديهم فمد أدركوا الآن أن فد حاف الهزيمة بحلقائهم ، ودارت عليهم الدائرة ، ففقدوا كل أمل كان براودهم في بجد نائهم من أى مصدر ، وحينذاك أسلموا القلعة لقادسا الدين خفف أعلامهم على ساهق أبراجها ، غير أن الترك استرطوا عليهم أن بادنوا لهم بالخروج سالمين ، لايعرض لهم أحد بسوء فى أنفسهم ، ولا فى أولادهم ، ولا فيما ملكت أيديهم .

ومن ثم تم نصر الصليبيين ، واستحوذوا على القلعة برحمة الرب الكبره الساملة ، وأصبح من كانوا بالأمس الدابر فى شدة الاملاى والحوغ : أغنياء كل الغنى اليوم بما ملكته أيديهم من كل طبب .

لقد مرت عليهم أيام عجاف صار فيها أصلب الحجاج عودا من أصحاب الأسماء الرنانة وذوى الصبب الذائع - ولا نذكر العامة أقول مرت أيام صار فيها هؤلاء وقد ضاقت بهم الحياة ضيقا اضطروا معه الى الاسنجداء ومد أيديهم بالسؤال ، وحسبنا أن نذكر منهم كونت هارتمان - أحد نبلاء المملكة التيوتونية - فقد صحا ذات يوم ليجد نفسه فى فقر مدفع ، وأصبح هذا النبيل

العظيم يرى الملة الكبرى أن يصدى عليه الدوى كل يوم بحبر
يجود به عليه من مائدته .

وشابهه أبصا « هنرى دينس » ، وكان رجلا فاضلا مرموقا ،
اذ كاد - من غير مبالغة - أن يهلك جوعا ، لو لم يسنضعه الدوى
على مائدته .

وفى أثناء هذا الحصار كابد الدوى دانه مشقة كبيرة قبل
المعركة لعدم وجود حيل لديه ، لكنه استطاع بعد لآى ومشقه ،
وبعد ان فدم ما فدم من الماساب جمه الى كوت بونور ، أن
يحصل منه على حواد واحد يمضى به الى المعركة ، وكان جود فروى
وسواه من الزعماء الآخرين قد أنفقوا هم أيضا كل ما كانوا قد
حاءوا به من المال ، اذ بذلوه فى أعمال البر والرحمة ، لاسيما
ما كان منها متعلقا بالنفقة العامة .

وهكذا شهدت ساحة المعركة - يوم نشبت المعركة - رجالا
أبطالا دوى حسب يصون البها منشاء ليس عندهم ظهر يركبونه ،
وبعضهم يمطى الحمر وأمالها من دواب العرل ، ذلك لأنهم كانوا قد
أفناوا كل ما معهم من المال ، وأصبحوا اليوم مملقين ليس لديهم
خبل .

غير أن الله كلاًهم برحمته قبل غروب شمس ذلك اليوم ،
فأنزل الهزيمة بالاعداء ، وأعدى على أساعه المحتاجين من النروة
فوق الذى يشنهون وفوى ما بصورون ، ومن الواضح ان هذا كان
تكرارا لقصة السامرة القديمة حين بلغ ثمن بيع المكال من الدقيق
الطحين والسعبر قطعة واحدة من النقود (١) ، ولكن لم يمس المساء

(١) هذه اشارة الى ما جاء فى النوراء من حر نوه الشئح بالرحص فى
السامرة ، اذ ورد فى الملوك الثانى ١٧/٧ « وقال الشئح اسمعوا كلام الرب ،
هكذا قال الرب فى مثل هذا الوقت . عدا يكون كيلة الدقيق شاقل ، وكيلسا
الشعير بشاقل فى باب السامرة » .

على من لم يكن عنده غير ما يمسك رمقه الا وقد يوفر له منه ما راد
عن حاجته وما يكفى أن يقيم أود الكربين معه .

ولقد وقعت هذه الواقعة في اليوم الثامن والعشرين من شهر
يونيو ١٠٩٨ من ميلاد المسيح .

- ٢٣ -

لم يكن القادة يعودون من ساحه القتال ويسبب شيء من
السلام والنظام حتى انصرفت همه الجميع للعناية بالكنايس ، وكان
أشد العوم احساسا بالمسئولية تجاه هذا الأهتمام [أديمار دي موصل]
أسقف بوى المعظم ، باعتباره راعي الجينس ، وعاونه بقيه من في
الجنس من القسس معاونه صادقة مخلصه ، كما أقبل الناس يمدون
بد المساعدة عن طب حاطر ، وبهذا عادت الكنيسة الرئيسة المهداه
الى أمير الحواريين وبقيه كنائس أنطاكية الى مكانها التي كانت
عليها في الاصل ، وأقام فيها المساوسة الذين وهبوا أنفسهم على
الدوام للقيام بالخدمات الدينية .

كان الترك قد دنسوا الأماكن الطاهرة وأخرجوا منها من كان
بها من أهل التقوى ، واستخدموا الكنائس اسجداً سائتاً .
فحولوا بعض هذه الأماكن المقدسه الى اسطبلاب للخيل ولغيرها
من دواب البفل ، وممارسوا في غيرها أعمالاً دسه ، وطمسوا صور
القدسين المجلين التي كانت على جدران هذه المواضع ، تراوا
الرموز التي كانت تقوم مقام الكتب والقراءة لعباد الرب المستضعفين .
وكان ما طمسوه أشياء نبعث القوى في نفوس البسطاء ، فصبّ

الترك عصبهم على هذه الانبياء كما لو كانت أحياء يسمعون ، فراحوا يساهون عبودهم ، ويخدعون أنوفها ، ويطمسون هذه الصور بالطين. ويلويونها بالعادورات ، وبهدهون المدايح ، ويدسسون هبكل الرب بفصلهم المسكرة ، فابعد الاجماع حسنهك على أن يعود رجال الدين في لحظتهم لممارسته الأعمال التي كانت صايله بهم من قبل في الكنائس ، وأن يجمع المال ليصنوا به المحاربين في سبيل الرب ، وأن يؤحد ما عموما من ذهب العثو وفصنه ويصبغون من ذلك السمونات والصلبان وكؤوس القرايين ، ويرسم عليها صور مسيحه من الكتاب المقدس ، ويستخدم في كل ما هو ضروري ولازم للخدمة في الكنسه ، كما قدموا الأقمسه الحريرية لصنع الملابس الكهونه وأعطيه المدايح .

وأعد البطرك «يوحنا» الصادق الإيمان الى أبرسه ، وكان قد كابد من العذاب على أيدي الترك منذ مسمدم الصليبيين ما يعجز اللسان عن وصفه .

أما المدن المجاوره التي كانت تمنع بوجود كنائس كدراثيه بها فقد نصبوا أساقفة يرعونها ، كما وجدوا - من ناحية أخرى - أنه ليس من اللائق اختيار أو رسم بطرك لاسنى في الوف الذي كان ٤٠٠ ساعل هذا المكان الموفر لا يزال على قيد الحياه ، وذلك تحاشيا من وجود انبئ يشغلان نفس الكرسي في وقت واحد ، مما يعتبر مخالفة صريحه لقوانين الآباء المقدسين وفراراهم النظمه . على أنه قبل انقضاء عامين غادر البطرك يوحنا بمحض اراده أنطاكية ، ومضى الى القسطنطينيه ، وذلك ادراكا منه أنه لن يكون قادرا - كيوناني - على أن يحكم بفعلنه على اللانين ؛ فلما غادرها اجمع رجال الدين والشعب واخباروا بطركا آخر لهم هو برنارد أسقف « أرناح » من أهل فالنسيا وهو الذي صاحب أسقف بوى في هذه الحملة كاشين له .

ثم امنل الجميع للعهد الذى قطعوه على أنفسهم فى البدايه
الا وهو أن تكون السلطه والحكم فى أنطاكيه لبوهيموند ، ففعلوا
ما ايقعوا عليه ، ولم يتشد عنهم سوى كوت بولور ، الذى اجمعط
بالبوابه الملاصقه للجسر وبجميع الأبراج المتصله بها ، وأقام فيها
حاميه من رجاله تتولى أمر حراستها •

على أنه بعد معادرة الكونت لأنطاكية عمد بوهيموند الى طرد
حمد [ريموند] من هناك ، وأحل حاميه من رجاله محلهم لحراسها ،
واسمولى على المكان كما سرى خبر ذلك فمما بعد •

ولقد خلع حاصه رجال بوهيموند عليه لقباً معظمها ألا وهو
« الأمير » ، الذى أصبح مد هذه اللحظه لقباً لصاحب أنطاكيه
لا يشاركه فيه أحد غيره •



هنا ينتهى الكتاب السادس

● ● بهذا ينتهى الجزء الأول من الترجمة العربيه لكتاب
الأعمال التلى تم انجازها فيما وراء البحار أو تاريخ الحروب
الصليبيه تأليف وليم الصورى ، ويليه الجزء الثانى متضمنا الكتاب
السابع حتى الثانى عشر •

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم
٩	مقدمه المرجم
٢٧	مؤلفات وليم الصوري
٣٣	تاريخه الكبير
٤٥	كلمة سر
٥٧	التمهيد
	الكتاب الأول : المسححة هب لاسخلاص بب القدس .
	وبطرس الماسك يبدأ في الرحف مع جماعات
٥٧	أخرى
	الكتاب الثاني : جهوش الحملة الصليبية الأولى تزحف الى
١٣٩	القسطنطينية
	الكتاب الثالث : الاسلاء على نيقبه والزحف عبر آسيا
١٩٣	الصغرى
	الكتاب الرابع : اجتياح الصليبيين شمال الشام وتروعوم
٢٤٩	في حصار أنطاكية
٣٠٧	الكتاب الخامس : حصار أنطاكية واحلالها
٣٦٣	الكتاب السادس : محاصرة الصليبيين . النصر المعجزة .
٤٢٣	

● صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان
- ٢ - علي ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله
- ٣ - توره يولبو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - النوارب الفكرية في مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال
- ٥ - عاراب أوربا على النسواطىء المصرية في العصور الوسطى
عليه عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج ١
لمعى الطيعى
- ٧ - صلاح الدين الأيوبى
د. عبد المنعم ماجد
د. محمد أنيس
- ٨ - رؤيه الجرمى لأزمة الحياه الفكرية
د. علي بركات
- ٩ - صفحات مطويه من تاريخ الرعيم مصطفى كامل
- ١٠ - نوفق دباب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

- ١١ - مائه شخصه مصره وشخصية
شكري القاضي
 ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير
د. نبيل راجب
 ١٣ - اكدوبه الاستعمار المصري للسودان
د. عبد العظيم رمضان
 ١٤ - مصر في عصر الولاة
د. سميه اسماعيل كاسف
 ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي
د. علي حسن الحريوطي
 ١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعي في مصر
د. حلمي احمد شلبي
 ١٧ - القضاء السري في مصر في العصر العثماني
د. مهدي نصر فرحات
 ١٨ - الماوري في مجمع الباشرة الماوكه
د. علي السعيد محمود
 ١٩ - مصر المندحة وفصة بوحيد القطر
د. احمد محمود صابون
 ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فيمي
د. محمد أنس
 ٢١ - البصوف في مصر ابان العصر العثماني ح ١
توفيق الطويل
 ٢٢ - بطراب في تاريخ مصر
جمال بدوي

- ٢٣ - النصوص في مصر ابان العصر العثماني ج٢
توفيق الطويل
- ٢٤ - الصحافة الوفدية
د . نجوى كامل
- ٢٥ - المجمع الاسلامى
ترجمه : د . عبد الرحيم مصطفى
- ٢٦ - تاريخ الفكر الربوى فى مصر الحديثه
د . سعيد اسماعيل على
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج ١
ترجمة : محمد فريد ابو حديد
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج ٢
ترجمة : محمد فريد ابو حديد
- ٢٩ - مصر فى عصر الاحسيدين
د . سيده اسماعيل كاشف
- ٣ - الموطعون فى مصر
د . حلمى احمد شلبى
- ٣١ - خمسون شخصه وشخصه
شكرى القاضى
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٢
لمى الطيعى
- ٣٣ - مصر وقضايا الحروب الافريقيه
د . خالد الكومى
- ٣٤ - تاريخ العلامات المصريه العربيه
د . يونان لبيب رزق

- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى
- ٣٦ - المجمع الاسلامى والعرب ح ٢
ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣٧ - النسخ على يوسف
تأليف : د. سليمان صالح
- ٣٨ - وصول من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى فى
العصر العثمانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميل عبيد
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة
د. عبد المنعم الدسوقي الجهمي
- ٤١ - محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غبريال
- ٤٣ - رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز
- ٤٤ - الأوقاف والحجبة الاقتصادية فى مصر فى العصر
العثمانى
د. محمد عفيفى

هذا الكتاب ، تاريخ الحروب الصليبية ، عمل علمي
كبير لويليم الصوري الذي يعرفه طلاب الدراسات
التاريخية كأحد اعظم المصادر في تاريخ هذه الحروب ،
وهو يعالج الفترة التي امتدت من عام ١٠٩٤ - ١٩٨٤
والفترة التي تليها اى على مدى قرن ونصف من الزمان
والتي اخذت تندلق فيها الهجرات الشعبية المسلحة
المنسربة بمسوح الدين والصليب ، وهي التي عرفت
باسم الحملات الصليبية .

وهذه الترجمة سوف تصدر في اربعة مجلدات - هذا
اولها - اثبت فيها الأستاذ الدكتور حسن حبشى مكانته
العلمية وتفرد بلادر عظيم من الدقة التي ترسم للجيل
الجديد من المؤرخين الطريق للوصول إلى الاستاذية
بمعناها الصحيح .

Bibliotheca Alexandrina



0212002

٣٧٥ قرشاً